

## مقدمة

قلت ببصرى فى عشرات الأسئلة المعروضة على\* ثم قلت لصاحبى\* : إننى فى كتبى الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات ، وأحببنى أجبت عنها إجابة شافية .. !

قال : لا تستطيع أن تحيل الناس على ما كتبت فى أسئلة محددة توجه إليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة فى الموضوع المطلوب منك ، حتى يرجع السائل وقد أضاء الحق ليه وقلبه !! وترثت قليلاً ثم قلت لنفسى : إن هذا العلم خزان ، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه ! وما يدرينى ؟ لعل الله يؤتىنى الرشيد ويلهمنى الصواب ، فأكشف ظلمة ، أو أمحو حيرة ، أو أطفئ فتنة ، أو أثبت حقاً يعصف من حوله الباطل ... وقررت أن أجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل .

ولما شرعت أكتب ، وجدت أنى قلما أكرر نفسى ، ففى هذا الكتاب حقائق جديدة ، أو أداء - أخضر وأيسر ، أو ترتيب لأدلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، أو مزاجية بين التراث القديم والعقل الحديث .

فإننا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر إن شاء الله مع هذه الفوائد الجملة اللاحقة .

إن اللوم يتجه إلينا - نحن دعاة الإسلام - لأننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يفتح أهله ، والشبهات التى جدت مع مدنيته !

وبعضنا قد يحيا متخلفاً عن عصره ألف سنة . يخاصم فرقاً بادت ، ويتناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوها عنها جداً ولا هزلاً .. والإسلام لا يخدم بهذا الأسلوب .

وحين نظرت فى الأسئلة المطروحة على أدركت أنها وضعت بحكمة وسيقت إلى هدف ، وأن الإجابة الأحسن عنها تغنى الشفافة الإسلامية ، وتجلو غباراً كثيراً

• الأستاذ خالد محمد خالد •

10:

WWW.AL-MOSTAFA.COM

عن حقائق الرسالة الخالدة . إن الإسلام دين عظيم حقاً ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا إلى مستواه ، إلا ما عصم الله . . . وكان لذلك أثره في مسيرة الدعوة ، وإيضاح معالمها . . . ومصائبنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمي دؤوب مخلص شجاع ، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله الملهذه ، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم ، طريق العقل المفتوح والمنطق السليم والجدال الحسن .

وإنها لفجیعة أن يسبق إلهاء أعرج ، وتأخر هدى مستقيم لا شيء إلا لأن حملة هذا الهدى كسالى ، ومفطرون !  
أعترف بأنى لولا عون الله ما كنت لأخط حرفاً ، فقد حاصرته مناعب كثيرة ، وأملى أن أكون قد وفقت ، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه .

محمد الفزائى

## ١. ما الإسلام؟ ولماذا سمي كذلك؟

الإسلام الخضوع لله ، وتسليم النفس والأمر إليه سبحانه أى إقامة العلاقة بين الإنسان وربه على مبدأ «السمع والطاعة»!

قد شعر امرؤ بأنه لا سلطان لأحد في الأرض والسماء عليه ، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما . . . وقد يقبل هذا الشعور في تحديد العلاقة بين إنسان وإنسان مثله ، أما بين الإنسان وربه الذى خلقه بقدرته ، ورياه بنعمته ، ورسم له طريقاً مستقيماً وأمره أن يسير عليه . . . فلا مكان لهذا التمرد والشموخ .

إذ الواجب أن يجعل الإنسان نفسه تابعاً لمراد الله ، أو الشخص الذى يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها . . . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١) .

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق؟ بين موجود سيقتضى على ظهر الأرض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر ، ثم يرجع بعد ذلك إلى من أوجده؟ أن تكون علاقة تجاهل أم معرفة؟ أن تكون علاقة فرد أم خضوع؟

إنه طبيعى جداً أن يعرف الإنسان هذا الرب الكبير ، وأن يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هديه ، وهذا هو معنى الإسلام وهو المعنى الذى قرره المرسلون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٢) .

والمرء إذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه ، وانقياده المطلق لتوجيهه سبحانه . . . يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه ، الهائف بحجده ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

ويخطن من يقطن الإسلام عنواناً خاصاً بالدين الذى جاء به «محمد» منذ خمسة عشر قرناً ، إن الإسلام عنوان لجميع الرسالات التى هدت الناس من بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا .

(٣) آل عمران : ٨٣ .

(٢) آل عمران : ١٩٠ .

(١) لقمان : ٢٢ .

صحيح أن حقيقة الإسلام بلغت تمامها ، وأخذت صورتها الأخيرة في رسالة محمد ﷺ ، بيد أن هذا العنوان أطلقه القرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء .

إن إسرائيل - وهو لقب التشريف ليعقوب - ليس إلا نبيا دعا إلى الإسلام وثبت به ومات عليه وأوصى به أولاده ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١) .

والواقع أن الدولة التي تسمى اليوم بإسرائيل هي اسم بلا معنى ، وعلم على وهم كبير ، لأن إسلامها لله صفر أو قريب من الصفر .

وكان عيسى يعلم أتباعه الانقياد لله وصدق عيوديته ، وتامل في هذه الآية ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وِرْثُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٢) .

ويشمل وصف الإسلام جميع الأنبياء الذين نفذوا الأحكام السماوية بدءاً من عهد التوراة إلى اليوم . قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّابِّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾ (٣) .

ولا يصح الإسلام إلا باكتمال حقيقتين مهمتين أولاهما حسن معرفة الله ، وتصور الألوهية بأبعادها كلها ، فلا يعد مسلماً من أشرك بالله شيئاً ، أو نسب لله ولداً ، أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالة في الكون الذي يعيش فيه . لا بد من العلم الصحيح بالله . . . ويحیی من بعد ذلك الانقياد له وتفيقه أوامره . وفي القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله ، والثناء عليه ، وإحصاء لأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وإبراز لمعاليه العظيمة الإلهية لا مثيل له في كتاب قدم أو حديث سماوى أو أرضى .

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشهود الإلهي على كل شيء ، والهيمنة المطلقة ، ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (١) .

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شيء ودبر كل أمر ، وملك السمع والأبصار ، وقلب الليل والنهار ، وأرسل الرياح لواقع ، وفرج الكرب ، وأخرج الحيارى من الظلمات إلى النور ، وفى القرآن الكريم إنكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابناً ، أو يجعل له عبيداً سيهاً ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عُدَّكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ لَا يَفْلَحُونَ (٣) .

ويعد إثبات هذه الحقيقة في صحة المعرفة بالله تحيى الحقيقة الأخرى . . . وأساسها الانقياد التام لله ، والأصطياع بطاعته .

ولا يجتمع إسلام لله وتجرده عليه ، أو خضوع له ورفض لامره!!

فهل معنى ذلك أن المسلم لا يتورط في معصية؟ الحق أن المسلم إذا عرض له عصيان كان ذلك طارئاً غير محسوب ، أو عملاً انزلق إليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشربه ، ومن ثم فهو يتخلص منه أسفاً وندماً وخجلاً . !!

وطبيعة النفس ، وظروف البيئة قد توقع المرء في سبيل ما ، كالذى يقود سيارته أياً إلى بيته فتغفو عينه إغفاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره .

إن نور العقل قد ينكشف ، وطاقة العزيمة قد تنفذ ، وعندئذ يقتصر المرء مالا يليق ، ولا يخرج المرء بذلك عن الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٤) ولذلك رفض النبى ﷺ استنزال اللعنة على شارب خمر أو هزن الإدمان إرادته ومنوّهته . إن هذا الشارب يمثل نوعاً من العصيان أو حالة من الاضطراب غير ما يقع في مجتمع آخر يزرع العنب وبعد المعاصر ، ويفتح الحانات وينظم توزيع الإثم ، ويفرض ضرائب على المشاجرة به . .

الفارق بعيد بين مستنبح لا يرى لله حقاً ، ولا يحس في عمله جرماً ومعتل خارت قواه فسقط ، الأول مجرم والأخر مريض تلتصق له العافية ، ويحب بين أهل الإسلام .

وقد استطاع نبي الإسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تهض للصلاة له من طلوع الفجر إلى غسق الليل ، وتردد على المساجد في رثابة ودقة يمكن أن تضبط عليها الساعات .

كما أن هذه الأمة التزمت في شئونها المدنية والعسكرية والثقافية والسياسية أن ترضى ربها ، وأن توجه وفق مراده ، بحرص وإخلاص .

قدوتها الأولى والأخيرة إنسان مجرد للحق وأصاح من أقاصي فؤاده إلى أمر الله له ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسِيتُ وَنَسِيتُ وَنَسِيتُ وَمَا عَلَّمَنِي اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٦) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (١) 》 .

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) ... إن خضوع الإنسانية لبارئها الأعلى صدف وشرف ، وهذا هو الإسلام .



## ٢. لماذا كان الإسلام خاتم الأديان ؟

الإسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بدأت الخليقة ، وتكونت للبشر مجتمعات ، ونستطيع القول إن القرآن حوى جملة التعاليم التي بلغها الأنبياء الكبار - أعني أولى العزم وحملة الرسالات المهمة - فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن في ترسيخ العقائد وتأديب الأمم . أما الشرائع الجزئية فإن التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة .

والإسلام الذي بلغه محمد وأخذ الناس به هو الصورة الأخيرة للوحي الأعلى ، وهو كذلك الصورة العامة التي تستغرق الأجناس كلها وتتناول الأجيال التي تسكن الأرض حتى قيام الساعة . . النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أي محدودة الزمان والمكان ، أما النبوة العامة الخالدة - فهي نبوة محمد وحده لا يشركه في ذلك نبي من السابقين .

وعلة ذلك أن الإسلام بعد ما زود الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحي الإلهي وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ، ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة . . فانتهاه عصر الوحي هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرحن ذلك بتفصيل في كتابنا «فقه السيرة» .

إن نبي القرآن عليه الصلاة والسلام أرسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق ، وساق تفصيصاً حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة ، وهذه أسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصور ، ولا يمكن اختراق أسوارها .

أما ما وراء ذلك من شئون - وما أكثره - فموكول إلى العقل الإنساني يحويه ويثبت . . في ميدان العلوم والأنشطة الأرضية وشئون الحياة المدنية والأطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين . وفي كل المجالات التي تتحدد فيها المبادئ وتحرر الوسائل ، يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق .

فالتشورى مثلاً مبدأ ديني لمنع الاستبداد السياسي ، ومنع عبادة الفرد ، وتمكين الأمة من فرض رقابتها على ما يعنها . .

والعقل له أن يضع من الدساتير ما يحقق هذه الغاية .



والعدل مبدأ ديني لمنع الافتيات والتظالم، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشئ من المحاكم ما يحقق هذه الغاية إداريا واجتماعيا واقتصاديا .

والجهاد مبدأ ديني لحماية الإيمان وكبح الفتنة، ووسائل الجهاد في البر والبحر والجو لا حصر لها، والإبداع العقلي في هذه الميادين لا حدود له ... بل إن شرائع العقوبات الرومية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلي، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفقار من الفخف ... إلخ .

وقد تنشأ أحوال يمتنع على العقل أن يعالجها ويقترب آثارها، لأنها لم تعهد من قبل في عهود الأنبياء، لا أقول مثل غزو القضاء وحرب الأقمار الصناعية، بل في النشاط الإنساني العادي على ظهر الأرض، فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف في تاريخ الحياة البشرية من قبل، وما يتم هذا العلاج إلا بالعقل البليغ، مع استصحاب هذا العقل لروح الإيمان وتقوى الله .

إن الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر، لكن هذا الإرسال سيكون عيشا إذا كان عمل النبي المرتقب قطرة من البحر الذي سبقه أو ترسما خطاه أو تكرارا لما قتله ... ومن ثم اكتنفت الأقدار بكتاب محمد وحكمته في قيادة الإنسانية إلى آخر الدهر . ولو أن ورثة الإسلام من أمراء وعلماء أدوا واجبهام بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال :

لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

فإن هذا التساؤل تولد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الإسلامية العامة، وبخاصة في العصور الأخيرة .

من المقطوع به أن الأمة الإسلامية فقدت القدرة على قيادة نفسها بسبب فسادهما الثقافي والسياسي فكيف تقود العالم؟ أو كيف تقدم نموذجاً لصلاحية الإسلام الأبدية لقيادة العالم؟ .

إن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم إلى وراء وأن توضع قيود على حراكه الفكري والحضاري ولو كان الإسلام مسلكا رجعيا، أو توقفوا حضاريا لرفضه دينا يرقى باتباعه بل دين يرقى بالعالمين .

لكن فقهاء الإسلام الحقيقيين قالوا: حيث تكون العدالة والرحمة فثم شرع الله! حيث تكون الفضيلة والحرية والصلحة فثم شرع الله !

وماذا يشد الناس إلى آخر الدهر غير هاتيك الغايات؟ إن اختلاف الليل والنهار لن يقلب حقائق الأشياء .. فإذا كانت الوحدةانية صفة الله فإن هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما اطردت مواعيد الزمان .

وإذا كانت تبعية الإنسان لربه حقا لا معدى عنه، فإن تقدم الحضارة لن يعنى أبدا أن الإنسان استغنى عن الله والصلاة له والضرعة إليه .

وقل مثل ذلك في ميدان الأخلاق، والعلاقات الإنسانية كلها .

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عنوان ومراسم وأوامم مقدسة قيل لهم: كلا، الدين ارتباط بالله، وإحسان للعمل، ولئن يضام أحد أخلص لله قلبه، وأصلح له عمله، واستقام على الطريق ..! وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٥١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٥٢﴾ .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله؟ رب العالمين يقول للناس في القارات المعمورة من أرضه، اتجهوا إليّ مخلصين، واحسنوا كل عمل تكلفون به، تظفروا بالأمن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والآخرة ..

ماذا بعد هذا الكلام؟ وماذا يقوله نبي آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام؟

على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الأصل ارتباط الشجرة بجذعها، ولا يقبل الإهمال لهذه الشرائع الفرعية!

غير أننا نلفت النظر إلى أمرين مهمين: الأول أن تفكير المسلمين لأن أمام بدع وخرافات أدخلت على دين الله وهو منها بري، وبرزت هذه الأهواء للدخيلة في أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق، ومن مصلحة الإسلام لكي يبقى أن ينقى من هذا الغش ...! الثاني أن الترتيب المفروض بين شعب الإيمان سرت فيه القوض، فتحولت أركان إلى نوافل، ونوافل إلى أركان .

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أمورا عقلية لها منطقتها الخاصة، وتبعته أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التي اعتنقت الإسلام .

والمعروف أن الحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، فلا حكم حيث لا خطاب .

إن الإسلام كان ولا يزال الدين الذي ارتضاه الله لعباده إلى اللقاء الأخير . ومصلحة الإنسانية في استمساكها بهذه العروة الوثقى .

## ٣. هل يستطيع الإنسان السوى الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟

لو كان التدين غباوة لأثرت العيش بلا دين ، ولو كان حرجا على النفس أو قولا للدينة ، أو سطوة عنصرية لأثرت العيش بلا دين! لكن الدين ليس كذلك ، بل هو متخاصمة لكل ذلك . إن الملاحدة خلطوا خطأ قبيحا بين الحق الذى نزل من عند الله ، وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين .

ومن عرض باطلا ما على أنه دين فهو كاذب ، والكفر بما عرضه واجب . والناس فى عصرنا هذا فرقاء متباينون ، منهم من ينكر الألوهية ويتصور العالم لا رب له . ومنهم من يعترف اعترافا غامضاً بالألوهية ، وبحسب الأديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة . ومنهم من يعتقد اليهودية أو النصرانية ، ولا يرغب عنهما أبداً ، ومنهم اللوثى للعلق ومنهم المسلم الذى رضى بالله ربنا وبالإسلام ديننا ويحمد نبيا ورسولا .

وفى للمسلمين غوغاء يحيون وقت ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهوى وهوى . وفيهم دعاة إلى الحق الذى نفعه السلف الكبار ، ثم استوحش قليلا وكثيرا مع مسيرة التاريخ ، ثم أمسى غريبا فى هذه الأيام .

ومشكلة الدعاة للمسلمين تحي من الصورة التى يظهر بها الإسلام فى العالم الإسلامى ، وتجعل المرء السوى فى بلاد أخرى ينفر منه .

فلو أن رجلا يعيش فى بلاد حرة ، يناقش فيها الحكومة دوما رعية ، ويعترض رئيس الدولة ويعارضه دوما قلق ، مثلما كان يفعل المسلمون قديما مع أبى بكر وعمر ، لو أن هذا الإنسان قيل له : اعتنق عقيدة التوحيد فهى حق ، ولكن إذا قلت للحاكم : لا ، وميت فى السجن! أو ضرب عتلك!!

اتحسب هذا الإنسان يسلم؟ كلا وماذا يغريه بالدخول فى دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة ودفن ثلاثين ألفا تحت أنقاضها ، وبقي بعد ذلك مهيبا مصونا توجل وسائل الإعلام القريبة والبعيدة من تناوله .

إن هذا الإنسان يكفر ويكفر ، ولا يرضى بالدخول فى هذه الدائرة المزعجة ... ومن المشول عن محتته؟ ساسة جبابرة لا دين لهم اشتغلوا فتانين عن الإسلام بأسلوبهم فى الحكم .

وهناك مشغلون بالعلم الدينى يقدمون الإسلام على أنه حيس وتجهيل للمرأة ، ويجهلون فى تقرير أحكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهمل الحقوق ، محقور للثروة مغموض العقل يستغرب وجوده فى ميادين العلم والعبادة والجهاد ، بل يستنكر عليه أن يقود سيارة .

لا جرم أن النساء فى شرق العالم وغيره تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة فى تجنبه .!! ويأزرهن فى ذلك ألوف الرجال الشرفاء .

إن فتنة الناس عن الإسلام بهذه الطريقة هى شىء محزن حقا ، وكثيرا ما أذكر قصة البدوى الذى قالوا : إنه عرض ناقته فى السوق ب درهم واشترط أن يباع مقودها معها بعشرة آلاف .. فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا المقود للمعون .

أجل وما أسهل اعتناق الإسلام لولا هؤلاء المحمولون عليه اللاصقون به .

نسأل بعدئذ : هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه يمكن أن يكون سويا ورشيدا؟ ونجيب : إن مثل هذا المخلوق مصاب يقينا فى بصيرته وسيرته ، وإنكاره لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم .

وقد تكون له موهبة علمية ، لكن ذلك لا يرفع خسيسته ، وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أفسى أسرار عمله للروس ، إنه عد من كبار المجرمين لأنه خان وطنه وقومه .

وما الوش؟ قطعة من الأرض . وما القوم؟ قبيل من الناس . فكيف بمن خان رب الأرض والنساء ورب البشر كلهم؟ ألا يعد مجرما؟

إن عظمة موهبة ما لا تنفى الإصابة بعقل مهلكة ، فقد يكون المرء حاد البصر جدا ، ولكنه مصاب بسلطان يوشك أن يخترع عمره ويورده المهالك ، فما غناء بصره القوم مع عته الجسيمة؟

والشخص الذى يرفض معرفة الله ولتقيد بدينه مهما نبغ فى أمر ما ، فهو معتل الضمير ، نافع التفكير ، مخوف السلوك على الأقربين والأبعدين ، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان .

وعبادته لهواه يجعله مشغولاً على نفسه ومن اقترّب منه ، وقد يعاقبه الله في العاجلة فيجعل ذكاه شديداً ، فيبحث عن حقه بظلمة ويحفر قبره بيده .

وقد وصف الله سبحانه عبيد أهوائهم الكافرين للاستفشاء به ، والاستمداد منه فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٦) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَقْلٌ سَبِيلًا (١) .

ولقد رأيت في أرجاء البلاد العربية أناساً ينتمون إلى «العلمانية» ويستبعدون بعنف كل أثار للإسلام في ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه .

وتفرست في وجوه هؤلاء ، وأعمالهم ، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية . فيهم مسلمون - كما يقال - يكرهون ما أنزل الله . وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تناصم الإسلام لكي يكثرُوا السواد ويشبعوا الأحقاد ، وينظاهرون - مع ذلك - بالحياد!!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد ، لأنه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بني إسرائيل تسلبوا عقيدة مهاجمة ، وسياسة جعلت الدين مفتعصاً للأرض والعرض ، فكيف يقبل الدين مهاجماً وتترصص سياسته وتحترم سلطته ؟ ويرفض الدين مدافعاً ويعتبر إشراكه في التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة .

الآن الدين هنا هو الإسلام ، ولأن الدين هناك هو اليهودية!!

لا سياسة في الدين إذا كان إسلاماً يدافع ، وتقام الدول من الهباء إذا كان الدين صهيونية تسطو وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة ونقد؟؟

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد ، وكراهية هذا الإنسان العظيم والتحامل عليه ، إننا نضحك من إنسان يرى أن الأرض كوكب مثلك أو مربع ، أو أن موسى عليه السلام ولد في الولايات المتحدة . فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا وإلهاً ومحمداً قاطع طريق؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الإسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف؟ إذا لم يكن هذا الشخص مغفلاً ، فهو جاهل بلا رب ،

والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد ، قد يكون الجاهل عذراً يسقط المسؤولية الأخلاقية عند مخالفة القانون ، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها . . إن هناك يهوداً يصدقون أن الله صارع أباهم إسرائيل وكاد ينهزم أمامه . ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للجنة الخطيئة التي اقترفتها آدم ، وإذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداءً له بآه هو الآخر باللجنة الأبدية!

فليعتقد من شاء ما شاء ، ولا يتناول فوق مكانته ، ولا يتعرض بالتكذيب للإنسان الذي جاء ينقى رسالات السماء بما أهانها ، والذي جاء في كتابه هذا التفرغ لكل شارد : ﴿ أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٢٧) أَلَا تَرَوْا وَازْدَرَأْتُمْ الْآخَرِينَ (٢٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٢٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ بَرَى (٣٠) ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءُ الْآوْفَى (٣١) ؟

إن جرس هذه الآيات للموجزة يتبع دقات رهيبية الرنين تشير الحذر ، وتوقظ الانتباه! أو هي ومضات منقطعة تلغ السائر في الدرب المشابه كيف يعرف هدفه ولا يثنيه عنه .

إن الجاهل بالإسلام نقص سائناً ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه ، وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته ، وبشارته ونذارته ، لم تُرْطَبْ قلبه لحظة خشوع ، ولم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين . . .؟؟

## ٤. كيف بُني الإسلام على خمس؟ وما هي؟ ولماذا خمس بالذات؟

شَرَحْنَا أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْعَتَاوَنُ الْمَعْرُوفُ لِلْمَدِينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ خَاتَمُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْأَوَّلَى بَلَّغُوا صَوْرًا مَحْدُودَةً لِهَذَا الْإِسْلَامِ تَنَاسُبَ مَدَارِكِ الْأَمِّ الْأَوَّلَى وَقُدْرَاتِهَا فَالْمَدِينِ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدٌ ، يُشَبِّهُ إِنْسَانًا فِي فَتْرَاتِ الصَّبَا وَالْيَفَاعَةِ ... ثُمَّ اكْتَمَلَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَبَلَغَ أَشُدَّهُ ، اكْتَمَلَ مَبْنَىٌّ وَمَعْنَىٌّ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَمَا بَلَّغَهَا النَّبِيُّ الْآخِرُ ، وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ كَمَا بَلَّغَهَا فِي فَجْرِ الْخَلْقَةِ مَرْسُلُونَ مَحْلُوبُونَ مَحْلُودُونَ ...

وَبَنَاءُ الرِّسَالَةِ عَلَى خَمْسٍ يَحْتَاجُ إِلَى إِضْحَاحٍ فَإِنَّ شُعْبَ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمَ الْإِنْقِيَادِ إِلَى اللَّهِ تَقَارِبُ السَّبْعِينَ عَنَصَرًا .

وَهَذِهِ الْعَنَاصِرُ السَّبْعُونَ مَبْنِيَّةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَهِيَ تَتَنَاوَلُ الْفَرْدَ وَالْمَجْتَمَعَ وَالْدَوْلَةَ ، وَتَشْتَوِعُ قَضَايَا حَقِيقَةِ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَقِصَادِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ كَثِيرَةً

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يَقُلِ الرَّسُولُ ﷺ : الْإِسْلَامُ مَوْظُفٌ مِنْ خَمْسٍ أَوْ يَتَكُونُ مِنْ خَمْسٍ ، وَإِنَّمَا قَالَ : «بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ» .

فَهُوَ يُشَبِّهُ الْخِيْمَةَ الَّتِي يَقِيمُهَا الْجَوَالَةُ فِي رِحَالَتِهِمْ ، وَالْخِيْمَةُ تَقُومُ عَلَى عُمُودٍ أَسَاسِيٍّ فِي وَسْطِهَا ، وَأَرْبَعَةٌ أَعْمَدَةُ تَدْمُجُ جَوَانِبَهَا وَتَثْبِتُ قِمَامَهَا!

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ جِسْمَ الْإِنْسَانِ يَتَكُونُ مِنْ أَعْضَاءٍ وَعِصْلَاتٍ وَأَرْطَةِ وَأَعْصَابٍ وَعِظَامٍ وَحَوَاسٍ ... إلخ . وَمَعَ ذَلِكَ فَهَنَّاكَ عِدَّةَ أَجْزَاءٍ رَئِيسِيَّةٍ هِيَ دَعَائِمُ هَذَا الْكَيَانِ الدَّقِيقِ أَحْصَاها عِلْمُ الْأَحْيَاءِ ، فِي: (١) أَجْزَاءِ الْعَصَبِي (٢) أَجْزَاءِ الدَّوْرِيِّ (٣) أَجْزَاءِ الْهَضْمِيِّ (٤) أَجْزَاءِ التَّنَفُّسِيِّ (٥) أَجْزَاءِ التَّنَاسُلِيِّ وَالتَّنْوِيهِ بِهِذِهِ الْأَجْزَاءِ وَوُظَائِفُهَا لَا يَلْقَى بَقِيَّةً مَا يَتَكُونُ الْجَسَدَ الْإِنْسَانِي مِنْهُ ...

وَالْخَمْسُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ هِيَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ ... إلخ .

هَذِهِ دَعَائِمُ الْبِنَاءِ وَدَعَائِمُ الْبَيْتِ غَيْرُ حُدْرَانِهِ وَسُقْفِهِ وَأَبْوَابِهِ وَنَوَافِذِهِ وَمُرَافِقُهُ ... إلخ .

وَشَهَادَةُ التَّوْحِيدِ تَرْجُمَةُ عَنِ الْإِيمَانِ الْقَائِمِ فِي الْقَلْبِ ، وَالْإِيمَانُ مَعْرُوفَةٌ بَلَّغَتْ حَدَّ الْيَقِينِ أَوْ تَصْدِيقٍ جَازِمٍ لَا يَحْتَمِلُ الرِّيبَةَ ، وَإِنْقِيَادٌ لِلَّهِ لَا يَقْبَلُ ذَرَّةً مِنْ تَمَرُّدٍ .  
عِنْدَمَا يَشْهَدُ الْمَرْءُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَقَدْ عَالَمَ النَّاسَ رَبَّ النَّاسِ بِأَنَّهُ ارْتَضَى هَذَا الدِّينَ ، وَلَزِمَ مَنَاجِيهَهُ ، وَتَبَعَ قَائِلَهُ ...

وَلَا تَقْبَلُ هَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنْ قَائِلِهَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا رَصِيدٌ قَائِمٌ فِي الْقَلْبِ ، مَهِيمٌ عَلَى بَاطِنِ النَّفْسِ ، وَيَعْنِي هَذَا أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ ذَا ضَمِيرٍ يَرْضَى الدُّنْيَا ، وَيَأْبَى مُوَاقِعَتَهَا ، وَيَحْتَرِبُ رَبَّهُ وَيَتَّقِي عَقُوبَتَهُ ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاجْزَوْهُ﴾ (١) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢) ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ فَإِنِّي أَفَرِّهُونَ﴾ (٣) ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤) .

كَمَا يَعْنِي هَذَا أَنْ يَظَاهِرَ الْمَرْءَ دِينَهُ وَأَتَابِعَهُ وَإِنْ أَشَدَّ سَاعِدَ الْخَصْمِ ، وَامْتَدَّ أَذَاهُمْ وَعَظُمَ بَأْسُهُمْ ، وَتَلَكَّ حَقِيقَةُ اتِّتَوَكَّلِ الْمَعْتَمِدِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الْكَبِيرِ ، إِنَّهُ يَنْفَعِي الْعَزِيمَةَ الْحَاطِرَةَ وَالْإِرَادَةَ النَّسِجَةَ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥) ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٦) .

وَالْإِيمَانُ مَصْدَرٌ وَلَوْ لَا إِخْوَانُ الْعَقِيدَةِ وَسَخَطُ عَلَى خَصْمِ الْحَقِّ ، فَالْمُؤْمِنُونَ يَحِبُّونَ لِلَّهِ وَيُغْنِصُونَ لَهُ ، وَلَا يَكُونُونَ أَذْنَابًا أَبَدًا وَلَا أَشْيَاعًا لِأَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْإِلْحَادِ : ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ﴾ (٧) إِنْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ رَمَزَ لِعَالَمِ نَفْسِيَّةٍ بِالْعَلَاةِ الْآثَرِ فِي تَوْجِيهِ الْمَجْتَمَعِ كُلِّهِ ..  
وَيَجِبُ بَعْدَ الشَّهَادَةِ إِقَامُ الصَّلَاةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ أَغْدَرُ مِنْ إِنْسَانٍ يَسْمَعُ وَيَرَى بِقُدْرَةِ اللَّهِ ، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مِنْ خَيْرِ اللَّهِ وَمَعَ ذَلِكَ يَضِنُّ عَلَى رَبِّهِ بِسَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا .

إِنَّمَا نَتَّقُ الْكَثِيرَ مِنْ أَوْقَاتِنَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ ، وَنَسْتَكْثِرُ لَحِظَاتِ نَفَقِ خِلَالِهَا أَمَامَ اللَّهِ مُتَعَبِدِينَ .. وَالْمَدِينَةُ الْخَدِيعَةُ مَسْئُولَةٌ عَنِ السَّعَارِ الْمَادِيِّ الَّذِي أَذْهَلَ النَّاسَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نِدَاءَ غَرَائِزِهِمْ ، إِنَّ الْمَرْءَ يَنْطَلِقُ وَرَاءَ رَزَقِهِ انْتِظَاقَ الْوَحْشِيِّ فِي الْبِيرَةِ لِأَيِّدِهَا حَتَّى يَنْظُرَ بِغَيْرِ سَيْتَةٍ ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَلْتَمِسُهَا هُوَ وَأَسْرَتُهُ ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ لِمِثْلِهَا فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ .

(١) الْبَقَرَةُ : ٢٥٥ . (٢) آل عمران : ٢٨ . (٣) النحل : ٥١ . (٤) آل عمران : ١٧٥ .  
(٥) الْمَائِدَةُ : ٢٣ . (٦) آل عمران : ١٦٠ . (٧) التوبة : ٢٤ .

وهكذا دواليك حتى ينتهي عمره وهو يلهث وراء مأربه وحده لا يعرف له رباً ولا يؤدى له حقاً ما أنفه هذه الحياة ، وما أسوأ عقاباً ..

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصفى إلى داعي الله يهتف بصوت جهير الله أكبر الله أكبر ، فيلسى التناء ، ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدي ربه قائماً خاشعاً .

والصلاة في الحياة الإسلامية ليست عملاً فردياً يهتم به صاحبه وحسب ، بل هي سمة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم إلى التلاقي في محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر إلى العشاء .

ومن هنا جاء التعبير بإقام الصلاة لا أداء الصلاة ، إذ المقصود إتيانها في جماعة ، والتشديد لها ، والخشوع فيها ، وإعلاء شعارها . إعظاماً له ، وإبرازاً لحقه تبارك اسمه .

ونرجو الكلام في الزكاة والصيام والحج إلى مكان آخر ، ونحدث الآن عن الأركان الخمسة جملة لما كانت خمسة .

تري لو كانت أربعة أو ستة أكان السؤال ينتفي ؟ لا . والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه ، مثل لماذا كان اسم فلان زيداً ولم يكن عمراً ، إنه سؤال يتسلل إلى ما لا نهاية فلا معنى له .. ومع ذلك فهناك إجابة مقنعة في هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبد الله دراز تنور على هذه العبادات خاصة هي شارات الإسلام ومعلله التي تميزه عن غيره ، وأن غيرها قد يقوم به يهود أو نصارى أو ماديون ، كمنكأرم الأخلاق مثلاً!! وقد تكون هنالك عبادات إسلامية محضة لكنها دون هذه الأركان في الدلالة والقيمة .

ونقل ما قاله الرجل الذي رحمه الله . فيعد أن تحدث عن الإيمان وأنه عصب الحياة في الدين ومصدر الطاقة الكامنة في أعماله كلها تسال عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لماذا ذكرت دون شعب الإسلام الأخرى؟ فقال : لأنها أعظم المظاهر وأوضح التعاون على الإيمان بهذا الدين من حيث هو دين سماوى . لما فيها من الاستسلام لأمر الله مجرد أنه أمره دون قصد إلى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة ، أما ما عداها من الأعمال فليست لها هذه المنزلة في الدلالة على الانتماء إلى الإسلام .

تلك أن الفروع الدينية منها ما هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالإخلاص والتوكل والرضا ، ومحبة الخير للغير وسائر ما يبحث عنه علم الأخلاق ، وهذا القسم لا يصلح شعاراً ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلاً عن أن يكون أساساً لشتى العبادات والمعاملات ..

أما الأعمال الظاهرة في الشريعة فأنواع ، منها ما يرجع إلى المصالح التي تقتضيها

القطرة ، كوسائل الحفاظ على الشخص أو النزع من النقاظة والستر وطلب الرزق وإبتغاء النسل من طريق شريف ، وكالجهاد دفاعاً عن النفس أو العرض أو الحق كيف كان .

ومنها ما يرجع إلى المصالح التي تتركها العقول وتهدى إليها التجارب كقوانين المعاملات وأداب الاجتماع من الصدق والوفاء بالعهود والإقسط في الحكم ، وبذل العون للمحتاجين والدعوة إلى الخير والضرب على أيدي المفسدين ..

وهذان النوعان لا يبعد الاستمسك بهما طلياً على إسلام صاحبهما ، فقد يستمسك بهما من هو على دين باطل ومن لا دين له أصلاً ، استجابة منه لدواعي الفطرة والعقل دون نظر إلى توجيه سماوى ..

بقي قسم العبادات وأعنى بها الأمور التعبيرية التي لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لا تهذى إليها الغرائز ولا العقول ، كالصلاة اغدودة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها ، وكالزكاة المخذوة بأنواعها وأنصبتها ومقاديرها ومواقبتها ، وكالصيام المخذود بزمانه وكيفية وكالحج ، والأضاحى ، والكفارات ونظام التوارث ، والعقوبات المقدرة المعروفة بالحدود ، ونحو ذلك من الأمور التي لاحظ للاجتهاد في وضعها ولا في تعديلها وتغييرها مهما تغيرت الأحوال والعصور .

فهذه الأمور جدية بأن تسمى رموزاً دينية ، وشعائر إسلامية ، لأنها لا يتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول ، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهل دين آخر بصورتها المرسومة في الإسلام .

لكن منها ما ليس بواجب قطعى علينا كالأضاحيا ، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شيء من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات ..

على أن الحدود ونظام الموارث . وإن كانتا تعبدان - إلا أنها من الأمور الموضوعية لإقامة مصالح الدنيا بالقصد الأول ، وقد تأخذ بهما من ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول .. فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساساً لشعائر الدين سوى الأركان الأربعة المذكورة في الحديث . مع الشهادات - لأنها لشعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده ، واجبة رجواً عتيماً ، مقصودة للشارع قصداً أولاً ، موضوعة لإقامة مصالح الدين أولاً وبالذات ، ومصالح الدنيا ثانياً وبالعرض!

فلذلك كانت لها الصدارة على سائر الفروع ، حتى نظمت مع الأصل الذي هو مبدأ الإسلام - يعنى الشهادات - في سلك واحد وصارت القواعد خمساً ..

وهذا لكلام العلامة الشيخ دراز من خير ما قيل في شرح بناء الإسلام على خمس .

## ٥. ما مكان التصوف في الإسلام؟

إذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائبة لرجال يتبعون طرقاً شتى ، وتنظم في المناسبات الدينية مواكب لها بغم منكراً ، تستخدم السلطات الغاشمة ، وتحبس البدع والخرافات ، وقلماً ارتفعت لها راية في ميدان جهاد ..

والحق أن هؤلاء الغوغاة لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلاً ولا كثيراً .

التصوف - سواء كانت الكلمة عربية أو مترجمة - يعنى حقائق أخرى جديدة بالدرس والتحصيل . والتراث الصوفي يتضمن أحياناً قضايا في ذروة الشرف والثناء ، كما يتضمن أحياناً أخرى سطحات لا وزن لها ، بل ينبغي اطراحها والنأي عنها .

وأول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفي الذي نُقِلَ عن الهند واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدة الوجود ، ومشيئاً وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحي الصحيح كما أن هناك تصوفاً ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية ، وأعلن حرباً على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها ، أو استدلال للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكبح فيها ، وكون أجيالاً من القاعدين والمشيخين في ميادين الحياة شقى بهم الإسلام دهرًا ، ولم ينجحوا لا في كسب الدنيا ولا في كسب الآخرة .

إننا نرفض هذا اللون من التصوف ، ونؤكد أن الإسلام يستنكره ، وأن من ابتداعات الفطرة والعلم والارتقاء الإنساني تعترضه ..

ولكن هناك تصوفاً نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ، وبما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله ؛ وأخس الدقيق بوجوده وشهوده ، وجعل أصحابه يعدون بمشاعرهم الباطنة ، وإن كانت أحوالهم نكدية فيما يرى الناس ، حتى يقول قائلهم : حبسى خلوة ، ونفسي سياحة ، وقتلى شهادة !!

هذا التصوف يحوّل المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تؤدى برضا واستحلاء ، لا يتعب وماعانة ، والمعاصي تترك باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصوبحياتها وفرش له طريق الغواية بالأزهار : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١)

وانتقال العلم من تصور ذهني جاف إلى شعور قلبي رقيق عطاء إلهي جليل القدر ، وقد أشار - إليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (٢) فضلاً من الله ونعمة والله عليهم حكيم (٣) . كما أشار إليه النبي ﷺ في قوله : « ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً » ويقول علماء النفس : إن للشعور ثلاثة مظاهر هى : الإدراك والوجدان والنزوع .

ونقول نحن : من أراد الله به خيراً جعل إدراكه يقوم على الصدق ، وجعل وجدانه يقوم على العمق ، وجعل نزوعه يقوم على الشوق ..

إننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة ومن ثم يكون نزوعهم حاراً متقدماً .

وتدبر الآيات في وصف موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٤) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتَرَىٰ وَيَعْبُدُوكَ وَإِنِّي لأَشْجُوكَ (٥) .

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روى من أن النبي ﷺ كان يعرض ثوبه ليوياكير نظراً ، ويقول : « هذا مطر حديث عهد بربيه » .

أفكنسك ترى جماهير المتدينين ؟ أو هل يرتفع علماء الدين إلى هذا المستوى ؟ في قراءته وتجاربهم رأيت أناساً على خط حسن من علوم الشريعة وأحكام الفقه - بيد أن قلوبهم خاوية من الإحساس اللطيف ، والرغبة في التماسي ، والحب

(١) طه : ٨٤ .

(٢) الحجرات : ٧ ، ٨ .

(٣) يوسف : ٢٢ .

للآخرين .. كما رأيت أناساً فى مشاعرهم لطف ، وفى مسالكهم إثارة لكن يشينهم قصور علمى وفقه قليل فى شرائع الإسلام .

كلا الصنفين مسمى ومقصود! والواقع أن العالم الذى لا قلب له كالشاعر الذى لا وعى له ، بلاد على الإسلام وعائق عن الانتفاع به ..

فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وأدب ، ونظر صائب ، وبصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ، ومتصفون صفر الأيدى من قوانين الشريعة وضوابطها!

والراستخون فى العلم سالون من هذه الآفات ، ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالي وابن الجوزي والرازي وغيرهم يرى رجالاً على درجة رفيعة من جيشان للشاعر والاستبصار العقلى .

واسمع للإمام للدقق ابن القيم وهو يحدد النفوس إلى الدار الآخرة ، ويقول لكل سائر عنى الدرب :

فهي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى ، وفيها الخقيم

أو إلى أبى حامد الغزالي الذى أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون ، واستبان عثراته وكشف ما اعوج منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلى فهو يتحدث عن استدلاله لذكر الله حتى إذا سكبت لسانه ظل الفؤاد على حالته بلهج ويردد ولا ينقطع له صدى!!

وعندى أن تفاوت هؤلاء ، الأعلام فى آرائهم يرجع إلى تفاوت العمل التى عالجوها ، وتشخيص الأسباب التى أدت إليها ، تلك إلى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف فى الأدواق والأفاق .

والقدر المقبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون فى المبادئ الآتية :

أولاً : فى دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواطن العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ويلاحظ أن النفس الإنسانية شديدة المكر واسعة الحيلة ، وأنها قد تحقق ما تعوى عن طريق ظاهرها الطاعة ، وباطنها إشباع الهوى ..

ثانياً : التمرس بمقام الإحسان ، وطول البقاء فى نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولا يتم ذلك بشأنك ذهنى فى خلوة بعيدة ، وإنما يتم مع الشغل فى البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة .. إلخ .

ثالثاً : تتبع آيات الله فى الأنفس والأفاق ، ومداينة الحاضر والمضى ، ومحاولة الارتقاء إلى مستوى الكتاب الكريم والسيرة الشريفة ، فإن الأبواب كلها موصدة أمام من حرم التأنى بمحمد ﷺ ، فهو إمام الأتقياء وسيد المرين ..

وفى هذا المجال أذكر أنتى أفدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندري ، وقد شرحت جملة من حكمه فى كتابي «الجانب العاطفى من الإسلام» .

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب «الرافعى» بأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم فإنى - مع إعباري للرافعى وأدبه - أرى أن كلمة سعد أصدق ما تكون فى حكم ابن عطاء الله رحمه الله . وأعرف أن أناساً سيقولون إننى خلطت بين تعاليم الإسلام وشمالل الأتقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرى .

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف على أسماء لا على مسميات ، ويكون سهلاً ، والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادى ، وتشرب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض .

وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، ويطمئن إلى دار الخلود!

## ٦. ما موقف أهل الكتاب في الإسلام؟

إذا تحدثت - أنا المسلم المخرج في هذا العصر - عن أهل الكتاب ، شعرت بظلم ذوى القربى ومقدار حزنه في النفوس . وشعرت بالدهشة للضغائن التي أكتها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته ، وما كان ينبغي بثة أن يقابل الإسلام بكل هذه البغضاء ، ولا أن يلقى نبيه كل هذا التكبر . . . بدأ الحديث عن أهل الكتاب مقروناً بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم ، وانتظار عونهم في مواجهة عبدة الأصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فإذا كذب الوثنيون التوحيد ، وخاصموا صاحبه فإن اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك !

وشرحنا لهذا الموقف الرتب يقول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٣١) .

وعندما يوغل المشركون في عنادهم يعتز المسلمون بأن نقرا من أهل الكتاب أيدهم ، وصدق ما لديهم ، ودخل في دينهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٢) الذين اتبناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون (٣٣) وإذا ينطق عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنما كنا من قبله مسلمين (٣٤) .

وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الإسلام ، وعاملوا على نبيه ودعوته ، ومجهموا لما تلقاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم؟

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣٥) .

لكن جمهور أهل الكتاب - خصوصاً اليهود - رفضوا الاعتراف بالنبي الجديد ، ونافسوا المشركين في إطفاء نوره ، وإقتلاع جذوره ، ووضع العوائق في طريقه حتى ينفض الناس عنه .

(١) الرعد : ٤٢ .

(٢) النقص : ٥١ - ٥٢ .

(٣) النعكبوت : ٤٦ .

كان من الممكن بقياس العقل والمصلحة - ترك الإسلام يعرض نفسه على الناس ، وهو لا يملك سلاحاً إلا الإقناع المجرد ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (٣٦) ومن لم يشأ فليدعنا وشأننا وتدعه وشأنه .

وتدبر هذا التوجيه الإلهي ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يُؤْتِيهِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (٣٧) فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ (٣٨) .

فليرفض الإسلام من كرهه ، فلن نحاول إكراهه على شيء . إن النسي مبلغ وحسب . . . لكن أهل الكتاب وقفوا في جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون للدين الجديد ، ويرفضون مهادنته ولا يأذنون له بالمرور . . .

فلذا انشرح بالإسلام صدر ضاقت لذلك صدورهم وغنوا لصاحبه أن يرتد إيمانه الجديد إلى جاهليته القديمة ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوِ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِنْ عَذَابِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَاصْطَفُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . . . ﴾ (٣٩) .

والغريب أن أهل الكتاب بعد خمسة عشر قرناً من مطلع الرسالة الحاتمة لا يزالون كما هم ، لم ينجسوا إلى رشدهم . نهتد الفلسفات المادية وجودهم ، ويحزف الإخاد الأحمر على حضارتهم ، ويدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام للمقبل ، يتجاهلون كل شيء إلا ضرورة القضاء على الإسلام وإبادة أمته . . .

سمعت واحداً من أهل الكتاب يقول : من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء ، تزوج تسعاً منهن ، من الصعب تصديق أنه نبى . . . . . !

قلت : ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى ببناته وهو مخمور . . . !

ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بإحدى قريباته خطافاً أو اختصافاً .

ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امرأة مجاهد في سبيل الله ، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى ينفرد بها . . . !

(٣٦) البقرة : ١٠٩ .

(٣٧) الشورى : ٤٧ - ٤٨ .

(٣٨) المزمل : ١٦ .



هؤلاء في موارثك الدينية أنبياء عظام .. أما محمد الذي تزوج بعض الأراذل وعادهم على ترك الدنيا وزينتها ، وطلب منهم أن يقض الليل معه متجهجات ، وما تزوج واحدة إلا لسبب اجتماعي ، وعرض عليهن جميعا مفارقتها إن رغبن في المتاع العاجل ، محمد بعد هذا كله ليس جديرا بالثبوت ، إن الزناة في منطق المميان أولى بها منه !!!

وتوجد الآن عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الأمة الإسلامية ، وتنتزف الناصر للإتيان على رسالة محمد ، وتشويه سمعته ، وإطلاق الإشاعات الكاذبة حوله ..

على أن هنا أناسا من أهل الكتاب أوتوا سعة في العلم ، ونزاهة في الحكم ورغبة إلى الله ، آمنوا بموسى وعيسى ومحمد جميعا ، ورفضوا أن يبهتوا عباد الله الصالحين ، ويناصبوهم العدا . وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى منوهاً بسيرتهم وعدلتهم ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْعُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَنَزَّلَتْ لِيَلْزَمَ أُولَئِكَ لَمْ يَجْعَلْهُمُ اللَّهُ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا قُلْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) كما قال تعالى : ﴿ لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

ويمتاز هؤلاء ببحثهم عن الحق ، وعشقهم للحق وإزرائهم للظنون السائدة مهما غلب سلطانها ، وقد التقيت بالكتور «موريس بكاي» في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر وسمعتة يتحدث بإعجاب واحترام شديد عن أسلوب القرآن في تناوله للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عصم من الأخطاء التي تورطت فيها كتب مقدسة أخرى .

وقد سأله أحد الناس : لِمَ لم يعلن إسلامه؟ فأجاب : قلما أسير إلا متوضعا ! . وقد أسلم بعض المستشرقين عن غالبا قيود التقاليد ، ونلاحظ أنه إذا أسلم عشرة

آلاف نصراني فلن يسلم إلا يهودى واحداً إن النصراني أرق قلوبا ولكن عريكة ﴿ ... ذَلِكَ بَأَن مِنْهُمْ قَسِيصٌ وَرَهْبَانٌ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأفكتنا مع الشاكدين (٤) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ... ﴿ (٥)

وهناك أهل الكتاب عطلوا إلى الأمام خطوة واحدة ، فقالوا : إن محمداً رسول حقاً ولكن إلى العرب وحدهم !

وقد ظهر هذا الفرق قديماً وحديثاً ، لأنه تأمل في سيرة النبي وحب العميق لله وتفانيه في نصرته وحرارته في دعوته ، واستعداده للقائه بأمداد لا تنقطع من العبادات والجهاد ، فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فماذا يصنع؟ قال : إنه رسول للعرب حتماً ! .

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومتنا نقول : إن هذا الموقف لا يكفي ولا يشفى ، فمحمد يحمل أشقى السماء إلى أهل الأرض أجمعين ، والتشكر لعموم الرسالة قريب من إنكار أصلها ..

والواقع أن المظالم للقرآن الكريم يجتذبه هذا الحساس الجارف في الحديث عن الله ووجدانيته وأسمائه الحسنى ، والحاج محمد - باسم الله - على الخلق كلهم أن يعودوا إلى ربهم الأحد ﴿ فَعَبَّرُوا إِلَى اللَّهِ إِلَهِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٦) ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿ (٧) أرايت؟ إنه نذير مبين وحسب! من يرفض هذا الإخلاص الرائع؟؟

وهناك أهل كتاب يحسبون في نطاق ما ورثوا ما يعرفون عن محمد شيئاً ، أو يعرفون تراثاً من رجال الدين التائهين أو بعض السادة المذتورين .

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دين في أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسناده ، ترى متى ينهضون؟ وحساب هؤلاء إلى ربهم والذي أراه أنهم مكلفون - في غياب الروح عنهم - بمقدار ما أوتوا من ذكاء وقدرته على نقد الميرونات الرديشة واتخاذ موقف ما منها .

ولا أظن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين! والذين جند الاستعمار العالمي نفرا منهم ارتكبوا المذابح واقتروا الماسي ونحاروا الجوار...!

على أن الإسلام وضع شرائع في معاملة أهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها في الفصل القادم عند الحديث عن الرسائل السابقة...

وهناك حديث يعطى معناه للوهلة الأولى حكما لم يقل به الفقهاء، ومن ثم فإن قبوله مطلقاً أو رفضه مطلقاً لا يجوز! والواجب استبانة معناه الحقيقي كما قرره الراسخون في العلم!

والحديث من رواية البخارى: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها... مصدر الخطأ في فهم «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان إلى أن كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم! وهذا غلط بإجماع العلماء فإنهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى...!!

لماذا؟ لأن للمهتدين من هؤلاء إذا ضربت الحرب بيننا وبينهم، ونسوا منطق الإيمان والحلال والحرام في تصديدهم لنا، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين، بل إذا كسر الله شوكتهم، بقوا على أديانهم، وجردناهم من أسلحة العدوان، وتولينا نحن الدفاع عنهم إذا حاجهم أحد، وطغيهم - والخالفه هذه - أن يسهوا في ثقافات الحرب.

وهذه ما أبانته سورة التوبة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>. فليست الغاية من القتال إذن أن يقولوا: لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث!!

فإذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور - فهل يتناول الوثنيين كلهم؟! والجواب لا! ففي حديث آخر صحيح لحقاق للمجموس بأهل الكتاب: «وسع سنة أهل الكتاب، الحق أن الحديث في مشركي العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة، ولم يحترموا معاملة مبرمة ولا موقفاً مأخوذاً، وقد منع

هؤلاء أربعة أشهر يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليهم، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية في أوائلها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أُولَئِكَ فَأَتِمُوا إِلَى عَهْدِهِمْ إِلَى مَذْتَبِمْ﴾<sup>(١)</sup>.

أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخره فمق فلا يلومون إلا أنفسهم.

وقد يتساءل البعض: لماذا جاءت كلمة لئاس عامة في الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس» والجواب أن (ال) كما يقول علماء اللغة للعهد، تأمل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فكلمة الناس الأولى: تعنى بعض المنافقين، والثانية: تعنى بعض الكفار. وهذا هو العهد في أذهان المخالطين وتأمل قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾<sup>(٣)</sup> إن الناس هنا ليسوا جميعاً، إنهم العرب وحسب!

رأيت قريباً من الناس يتخذه الظاهر القريب في هذا الحديث فيتوهم أن الوصول يشن حرباً شاملة على البشر، ولا يزال يجرهم حتى ينطقوا بالشهادتين.

وهذا فهم - كما أسلفنا - لم يقل به فقيه، ولا يستقيم مع مرويات أخرى في غاية الصحة والوضوح، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون «الإمبراطوريات» الاستعمارية التي أظلم بها وجه الحياة قروناً عدة.

ورأيت أناساً آخرين يسارعون إلى تكذيب الحديث، دون وعى ويتخذون منه ذريعة إلى مهاجمة شتى الأحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق، وقد رأيت لأولئك القاصرين أنها في كتاب الله لا يد من تفنيدها وإهالة التراب عليها.



٧. هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب

وجود العالم لم يبدأ ببعثة محمد، ولا بولادة عيسى، إن قوافل البشرية تنساب في دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة.

ووب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون ، لقد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (٢٣) إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ (١) ومن قبل موسى بأجيال اختار إبراهيم وإسماعيل بقول لقومه : ﴿ ... اعْبُدُوا وَاتَّقُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤) إنما تعبدون من دون الله آوتاناً وتخلقون إنا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رقاً فأتبعوا عبد الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ (١)

ومن قبل إيزهيم بعث نوحًا الذي مكث قرابة عشرة قرون يلح على قومه أن يعرفوا ربهم ويوحّدوه ويستقروا ويأمنوا: ﴿مَا كُنْ لَكُمْ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤) ألم ترأى كيف خلق الله سبع سموات طباقًا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا؟ (١٥)

إن المعاني التي ردها هؤلاء النبيون خالدة ، والحقائق التي شدوا الجماهير إليها يجب أن يبقى صداها ما بقيت الأرض والسماء .

والنبي الخاتم أكد أنه لا يبقى على فراخ، وإنما على دعائم مهدها السابقون، وأنه يذكر الأم كلها بالأصول التي جعلها أو تجاهلتها: الله الواحد، اليوم الآخر، الطاعة المطلقة لرب الأرض والسماء، التزام صراط المستقيم، الاحتكام إليه فيما شزع، التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العدالة وعقوب الخبيث... إلخ.

(١) طه: ١٣، ١٤. (٢) النجوى: ١٦، ١٧. (٣) نوح: ١٣، ١٦.

وفي هذا يقول الله للمسلمين: ﴿لَقَدْ نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْقُرْآنَ وَمَا لَهُمُ الْبُيُوتَ إِذْ يَنسَوْنَ أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَذَكَرْنَاهُمْ نَوْمَ الْغُلَامِ الَّذِي دَعَا رَجُلَيْنِ فَتَذَكَّرْتُمَا وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لَّكُم مَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

ونحن المسلمين نجزم بأن كل رشد آتاه الله وسله الأولين فقد أتى القرآن به ، ثم أرى عليه بعد ذلك ما فتقر إليه الأجيال اللاحقة مما يسد كل ثغرة ، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين .

إنتى أنا المسلم أشعر بولائى لموسى وعيسى ومن قبلهما من أنبياء الله ، ومحبتى  
لأولئك المصطفين الأخيار نبعت من أن محمداً عرفنى بهم ، وأعلن أخوته لهم  
وجهاده معهم فى طريق مشترك !

وفي السورة الأولى - بعد فاتحة الكتاب - تذكر أصول التوفى كما بينها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٢) والذين يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ فَتْكَ ۚ ﴿٣﴾

ومع هذا التلاقي بين الدين الإسلامي والأديان الأولى ، فإن تاريخ الحيلة مع أتباع الأديان محزن موجه ، قال اليهود : ليست النصارى على شيء وبإلههم النصارى الحكم نفسه ، ثم قال الأتنيان محًا : ليس المسلمون على شيء!! وقال الماديون جميعًا : ليست الأديان السماوية الثلاثة إلا خرافة ، وليس أتباعها على شيء !

ويظهر أن النفس الإنسانية تشدها إلى شهواتها خيوط قوية ، وقد يكره المرء أن يظهر عيب غرائزه فماذا يصنع؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق له ما يشتهي! فإذا هو يتمنى إلى أحد الأديان ظاهراً ودينه الباطن عبادة نفسه، ويلبغ هواه، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله!!

وعندما نطالع مسيرة الإنسانية من قديم تفجؤنا هذه المأساة ، ولتدبر قوله





ما أحقر الدنيا يوم تنال بهذا الثمن ، وما أحرأها بهذا الوصف الحكيم ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَبِيبًا طَرْدُوهُ الرِّيحَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (١)

لكن للحياة الدنيا جانباً آخر لا يد من بحثه ودراسته ، إننا نوجد فيها وتقضى فيها أملاً لا تدرى مبدئه ولا منتهاه ، والذي أوجدنا أخبرنا أننا لن نترك سدى ، وأنه لم يخلقنا عبثاً !!

إننا أمام عمل جاد وامتحان خطير . !. وإن علاقتنا بالأشياء والأشخاص محكومة بقوانين دقيقة ، وإننا خلقنا للبقاء لا للفناء ، وإن اليوم ينز وغداً حصاد .

وإن المكان المهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه أن تعلن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) الذي خلق الموت والحياة لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ﴾ (٣) وإذا كانت الدنيا قطرة لا وراءها فمن الحماية محاولة الخلود فيها ، أو حصر الاهتمام في مآزبها وحسب !

إن ما يستصحب منها للغد المرتقب هو الحق ، والذي يعيش عبد بطنه دابة ، وقيمته ما يخرج منه ! والذي يسيبه جنون المال والجاه ، ويقلقل كل شيء لإنبات ذاته رجل تائه !

كان أبو العلي للتنبى يرى أن العظمة هي مجد السلطة ونيل الحكم .

وترك في الدنيا دويماً كأنها تسد أول سمع المرء أضلة العشر !!

كان يرى نفسه قمة يجب أن تتوج بالأبهة والسناء ، ومالم يتج لأحدًا ليس القائل :

وكل ما خلق الله وما لم يخلق محترق في همتي كشجرة في مفرق !!

وإن بين غرور هذا الإنسان الناهل وبين قول ابن عطاء الله السكندري في حكمه .. من مدحك فإنا مدح موأبه الله عندك ، فالفضل لمن متحك لا لمن مدحك ..

كذلك يستكين المؤمن لله ، ويعرف نعمته ، ويقر بعبوديته ، ويهد لنفسه عند عودته !

إن أغلب الناس بهم من تزق أبى الطيب ، وشروهم في الحياة يرجع إلى ذلك ، وما أحوج الناس إلى فهم قوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمُنِ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ ﴾ (٤) ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرميهم يمشرون ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَسُوا أَسْفُوفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) الحياة الصحيحة في الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها ، إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى وبذل ويخزي كلاً إن له حقوقه للصونة لا في الضرورات فقط ولكن في المتاع والزينة ! لكن على شرط أن يعرف النعم ويشكره .

بيد أن أكثر الناس يلبيه التهام ما يطلب من رؤية مرسله كالحَيوان الذي يتبع حامل البرسيم أو الفول ، فإذا نفذ ما بيده من طعام انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذي يشده إليه . !. لماذا يكون بعض الناس كهذه الأنعام ؟ لماذا تنسى من يطعم ويكسو . ولا نذكره إلا إذا - احتجنا ؟

إن الله أنبت الحدائق لتبهجنا ، وملكتنا الأنعام تغدو وتروح إلى الحقول وقال لنا : ﴿ لَكُمْ فِيهَا حِمْلًا حِينَ تَرْمِيهِمْ وَحِينَ نَتَسَوِّحُونَ ﴾ (٦) ، ورضع السماء بالدرارى اللامعات ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَةً لِّلْمُطَّارِينَ ﴾ (٧) !

ورفض مسالك أهل القنوت الذين يحبون الحياة الحشنة فوق أرض تغور بالبركة والعطاء وقال : ﴿ مِنْ حَرَمِ زِينَةِ اللَّهِ أَنِّي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٨) ؟ المعقول - بعد هذا الرزق لليسوط - أن تنتفع بهذا الفضل الأعلى وتقدر صاحبه حق قدره . !. والحية الصحيحة في نظر الإسلام أن تعرف ربك من خلال أفاقها . إن المهندس الماهر يضع بصماته على الآلة المحكمة التي يبدعها ، ورب العالمين - وله مثل الأعلى - أظهر صفاته العلى في خلقه هذا العالم الرائع .

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الأرض فرصة لا تكرر لمعرفة الله ، وإنشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه ، وأنا لا أتفلس حين أصف إلهي بعظمة الله ، ولا أذهب بعيداً ! إنني أملك صدى بالهوام ثم أقول : سبحانه من غلف كوكبنا بهذا الجو الذي تنتفس فيه ألوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور إن هذا الهواء سواء هب ريحاً عاصفة أم نسيماً على لا شيء عجب الخلق !

وهذا الماء الذي يلف أرضنا؟ إن العلماء قالوا: إنه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول أمها الشمس، ومع جريهاا الحثيث ما سقطت منه قطرة في الفضاء، وكان المفروض أن ينسكب في كل ناحية! من يحسكه في بحاره وأنهاره؟ ويحتليه ليبقى في قراره؟ إنه الله .

إن الملوك الربح الذي نسكن جانباً شتياً منه يشير إلى ربه ويسبح بحمده ، وعلينا أبناء الحياة الدنيا أن نتجلبب مع هذه الحقائق حتى إذا غادرناها إلى ما بعدنا كنا أهلاً لجوار كرم !

أما إذا عشنا ناكل ونلهو وحسب فالصبر كالح . وقد نبهنا إلى هذه الحقيقة الصارمة ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (١) ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ (٢) .

وحق على أهل الإيمان أن يتمكّنوا في الدنيا . ويقدرُوا عليها بسعة العلم وقوة العمل لأن الله لم يخلق عباده كي يعيشوا على هامش الحياة ، أو يضطرب في أيديهم زمامها وهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) . ولهذا التمكن ثمرتان : الأولى حسن ارتفاق الأرض ، واستغلال خيراتها في رفاهة الإنسان ومتاعه إلى حين .

والثمرة الثانية : تطوع ما في الأرض من قوى لدعم الحق ، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تمشي وفق ما شرع الله ، وهذا ما تنصح به الآية الكريمة : ﴿ وَأَتَذَكَّرُ أَلْعَدِيدُ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (٤) .

إن الجهلة بالحياة ليسوا أناساً صالحين! وكيف يكون صالحاً من لم يقرأ عظمة الله في صحاف كونه؟ وكيف يكون صالحاً من ملكه الله الأرض وقال له والأمثال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا... ﴾ (٥) نعيش ملكاً للأرض تافها فوق ثراها وملكته هي بدل أن نملكها؟ وكيف يكون صالحاً من سمح للإلحاد أن يسبقه في كل ميدان ويهزمه في كل نزاع؟

(١) الزمر: ١٩

(٢) الب: ٣٩

(٣) الزمر: ١٩

(٤) البقرة: ٢٩

(٥) الحديد: ٢٥

## ٩. ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟

إنكار الدار الآخرة ليس بدعة هذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الأبناء ويتهمم بالجنون لأنهم يؤكدون أن الموتى سوف يعيشون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون! كان أولئك المكذبون يقولون للأمم التي تسمع وعيد الرسل ﴿ هِيَ هَاتِ هِيَ هَاتِ لَا تَوَعْدُونَ ﴾ (١) إن هي إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿ (٢)

لكن عصرنا امتاز بأنه زعم للزعات المادية أصلاً علمياً ، وأشاع بأن الدين بعيد عن المنطق العقلي!! ومن ثم شاع الإلحاد ، وعاش الكثيرون لدينامهم ، وقلنا تذكر الآخرة في مؤتمر جاد أو ينظر إليها على أنها حقيقة مقروءة ، والذي أراه أن الإيمان بالآخرة فرع الإيمان بالله عزوجل ، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على إيجاد العالم بعد إفنائه ، وإقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقي فيه كل امرئ جزاءه ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُخَذَّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ وَدُوعٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣) . إن الفلاح يستتبع أن يزرع الأرض مرة ثانية بعدما حصدها ، والمهندس يستطيع إعادة بيت تهدم ، فما الذي يعجز خالق هذا العالم على إنشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أجله الذي حدده له؟!

﴿ وَقَالُوا إِنَّا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا نَبْعُثُونُ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٤) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿ (٦) ﴾ !!

لو كان هذا الكلام من خالق الكون -وعداً منجرباً ، ما تأخرت في تصديقه! فكيف وأنا أرى في كل لحظة من دنيا الناس خلقاً جديداً يبرز فيه الإبداع الأعلى

(١) الإسراء: ٤٤-٤١

(٢) آل عمران: ٣٠

(٣) طه: ٣٦

أجلى ما يكون؟ في كل ساعة من ليل أو نهار تذفل الأرحام بعشرات ومئات من الأجنة السوية الخلق، الدوارة الأجهزة، للتجاوبة مع عناصر البيئة التي ترتقيها، فهي تسمع وترى وتعي وتغضى في طريقها قدما إلى استكمال وجودها المقدور... هل صنع الأيوان شيئا في هذا التخلق الجاهر؟ أعنى من صنع الحيوان المتوى وأودع فيه خصائص الوراثة المادية والأدبية؟ ومن صنع برفضة الأم ومد إليها صفات الآباء والجداد؟ ﴿فَأَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٤٨) أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٤٩)﴾

إن إنشاء الحياة في عالم الإنسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا تستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا؟ إن ذلك سر تفرع القرآن للذاهلين عندما يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٥٠)﴾

إن انتشار الجهالة لا يعطيها وجهاء، وإذا كان منكرو البعث كثيرين، فليسوا إلا قطمنا من الغافلين أو للمستغفلين !!

وعلى كل عاقل أن يستمع إلى هذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٥١) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرَيْبِهِ (٥٢) فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٥٣) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا (٥٤) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (٥٥) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (٥٦) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (٥٧)﴾

إن العدالة لا تتحقق في هذه الدنيا، فهناك سفلة تبوءوا القمم، وعابرة توسدوا التراب، وقتلى أزهق المجرمون وأرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون.

إن اثنين وسبعين ألفا من عرب فلسطين ومسلمى لبنان قتلوا في الحرب الأخيرة، فلنفرض أن الله أدال للعرب وارثت لهم الكورة بعد سنين طويلة أو قصيرة، سيكون الجزائريون قد ماتوا، وقد يعفى عن أبنائهم أو أحقادهم - كما فعل صلاح الدين - وقد يقتص من لم يقتفر جرما !!

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف، ولها ضحايا يضعون في حركتها الدائبة بقول الشاعر:

وقالوا ايعم الماء في النهر بعد ما  
ذوى نيت جنبه وجفت مشارعه  
فقلت إلى أن يرجع النهر جاريا  
ويغيب جنباه تموت ضفادعه!  
(١) الرواية: ٥٨، ٥٩. (٢) الرواية: ٦٢. (٣) الإنشاق: ٦١ - ٦٢.

من أجل ذلك كانت الآخرة حافلة بالانقلابات المثيرة، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة رب مالك هنا يكون مولوكا هناك، سيهبط ناس من الأوج إلى القاع، ويرتفع آخرون من القاع إلى الأوج ﴿وَإِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَنُصِيبَنَّهَا كَذِئْبَةً (٢) خَافِضَةً رَّافِعَةً (٣)﴾.

إن الآخرة حق لأنها تصحيح لأوضاع، ورد لاعتبار، وتحقيق لعدل اختبره الله الناس بتأخيره إلى حين - هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولابد من مراعاته، ولذلك جاء في الحديث القدسي، في إجابة دعوة المظلوم «وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين» وجاء في انتصار المؤمنين على الكافرين ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَنْصِرْهُمْ فَنُصْرَةٌ بِمُصْرُونَ (١٧٥) أَفَعِدَّائِهِمْ يُسْتَجَلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِلِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَقَوْلُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨)﴾.

لقد تكرر هذا الحين وانتظامه مرتين في سياق متقارب، لأن الله لا يعمل بعجلتنا، ولأن سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود، ولكن وزن النرة من الخير أو الشر لا يضيع أو ينسى... وحديث الإسلام من القيامة والحساب تساؤل مرحلتين: الأولى مرحلة المعامل الذي ينزل بهذا العالم، والانهيار الفلكي الذي يحو نظامه ويطفي نجمه! وقد جاء في السنة: «من سره أن يرى القيامة رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢)﴾﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (٣)﴾

وإذا الكواكب انتثرت (٤)﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (٥) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَّتْ (٦)﴾.

ويظهر أن الهول الذي يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الأفئدة بالفرع والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى...

ومجيء الساعة يكون بفتة، والناس ماضون في أعمالهم العادية، الأكمل يرفع لقمته إلى قمه، والبنّاء يشد البيت الذي بينه، والتاجر يناول البائع السلعة التي يطلبها، وهذا وذلك في جدالهم - حول شئونهم، ومستغرقون فيما يعينهم يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَظْهِرُونَ تَوْصِيَةً إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجُونَ (٥٠)﴾.

(١) الرواية: ٣٠١. (٢) الصفات: ١٧٤، ١٧٥. (٣) التكميل: ٢٠١. (٤) الأنظار: ٣٠١. (٥) الإنشاق: ٢٠١. (٦) يس: ٤٨، ٥٠.



أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحساب الذى يشمل الأولين والآخرين ، ويحشد أبناء آدم منذ بدؤوا حتى انتهوا ، وستعرض أعمالهم منذ عقلا حتى ماتوا!!  
 قيل لعل بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم فى يوم؟ قال :  
 كما يوزنهم على كثرتهم .

والذى نحسبه نحن أن الزمان سوف يتعلم كما يتعلم الوزن عند رواد الفضاء ، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟ وأن رب العالمين سيجعل الخلق فى حال من الإحساس العام بكل ما أسلفوه فى الدنيا ، وكان أشرطة مسجلة تحر بأذهانهم ملأى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه!

ثم يستعد كل إنسان للانطلاق إلى مصيره العدل ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (١٠٧) وما يؤخره إلا لأجل مُدَوِّد ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَمُسَيِّدٌ ﴾ (١٠٨).

والجزء مَادَى وروحانى معاً ، إنه للإنسان الذى عيّد بجسمه وعقله ، أو فجر بجسمه وعقله! ولا يستطيع أى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته فى وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز ، وليس هناك بته ما يدعو لهذا التعسف فى التفسير . والنظر إلى مادية الإنسان بأنها معصرة ، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تائر بفلسفات خيالية لا وزن لها .

نعم إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى ، معها الرضوان الأعلى والاستفراق فى شهود أسجاء الألوهية ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٠٩) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿ ١١٠ ﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿ ١١١ ﴾ جعلنا الله من هؤلاء المكرمين .

## ١٠. ما البرزخ؟ وما دلائله فى الإسلام...؟

المعروف عند جمهور المؤمنين أن الإنسان مخلوق من عنصرين متباينين . جسمه من هذه الأرض خلق ونما ، وروحه من نفثة من الله سبحانه وتعالى ، فهو ليس حيوانا وليس ملاكا ، وفى كيانه تتجاور المتناقضات ، من غرائز مادية ، وسجحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها ونفذى على نتائجها ، يرجع هذا الجسد ليليلى ، ويفنى منه ما شاء الله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١١٢).

أما الروح فله مستقر آخر ، لاندري بدقة مكانه ، لاندري كذلك ما علاقته بالجسد الذى كان فيه ، هل انقطع صلت به انقطاعاً تاماً؟ هل - عند البعث - يعود إليه هو أم يعود إلى جسد شبيه به؟ هذه أسئلة لانتبت فى الإجابة عنها إتما الذى نيت فيه أن الشخصية الإنسانية لا تفنى بالموت! وإنها رحلت من عالم إلى عالم آخر ، وإنها بقيت كاملة الجس تامة الوعى ، وإنها إذا فقدت الأذن والعين فلم تفقد السمع والبصر ، بل قد تكون أسمع وأبصر مما كانت على ظهر الأرض ... إتنا قد تكون مهرة فى المنطق المادى ، أما المنطق الروحى فعملنا محدود بل صفر ... !!! وقد أخبرنا الله أن الشهداء الذين قتلوا فى معارك الجهاد ومزعت أجسادهم ، موتى فى طرنا نحن فقط لأنهم غابوا عنا ، أما فى حقيقة الأمر فهم أحياء . وقد أسند إليهم خمس صفات تستحق التأمل .

هم أوة أحياء لا هلكن! وثانياً فى جوار كرم لأنهم عند رب العالمين ، وثالثاً فى منزل خصب حافل بالخير يدر عليهم الأرزاق ، ورابعاً هم فرحون بما نالوا ، مخمورون بالطعام الأعلى ، وخامساً مطمئنون على أقاربهم وأصدقائهم الذين يخلطونهم فى الدنيا ، إنهم على حق وإلى خير ، وقربها سوف يجتمع الشمل ويلحق أحياء الأرض بأحياء السماء!



فَرَعُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١﴾ وتراه كذلك في كبراء فريش الذين أدركتهم مناياهم وهم يقاتلون النبي ﷺ في معركة بدر قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ إِلَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١﴾

وقد رميت جثث المشركين البغاة في بئر، ووقف النبي بعد دفنهم يقول بصوت جهر: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ وهو يناديهم بأسمائهم! فقال له أصحابه: أتناذى قومًا جيفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون! إنا لا نشعر بما يلقاهوا حلون عنا، بل لا نشعر بشيء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب!

ولن نتأخر نفس أبداً عن أخذ طريقها إلى البرزخ وملاقاة الجزاء المعد لها، مهما كان حب الأقربين والأصدقاء والأيتام! وتذكر قوله تعالى يصف حالة المحتضر وعجزه من حوله: ﴿قُلُوا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٦﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٧﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٨٨﴾ قُلُوا لَا كُتْمَ غَيْرِ مَدِينٍ ﴿٨٩﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٠﴾

لا أريد تفسير الآيات، ولا ذكر من عجزنا عن إبطاره وهو أقرب إلى الميت منا نحن المتصفين به الحائزين عليه! اللهم إن البشر كلهم أصفار أمام سلطان الموت، وأمام ما يقترن للموت به من مبادئ الحساب.

إن الموت فضح الحياة، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمي وبصم! وذعولنا عن الجزاء المرتقب أدهى وأمر! ذلك، وقد ورد في الآثار أن الموتى لا يرجعون إلينا، بل ذلك سبق القول من الله، وبذلك أجيب شهاد أحد.

ومن ثم فالزعم بأن الأرواح تستحضر في مجالس خاصة وتقص ما تلقى على الحضور يكاد يكون رجساً بالغيب وقد تنبعت بعض ما نسب إلى هذه الأرواح الحاضرة من كلام فوجده تخليطاً وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر!!

(١) غافر: ٤٦.

(٢) الأنفال: ٥٠، ٥١.

(٣) الواقعة: ٨٣، ٨٧.

## ١١. ما طبيعة الجزاء الأخرى؟ وهل هو روحى أم مادي؟

هل خلق الإنسان من روح وجد شيء يعاب؟

كذلك يرى بعض الناس! بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالتهم وينكرون حديثهم عن الله، مقترحين أن يكون الرسول ملكاً! وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لو أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً! ﴿١﴾

وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكولون، استنكروا عليهم الزواج، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير، وعليه إذا أراد الكمال أن يكتسبها.

وقد رد القرآن هذه الزاعم، وبين جل شأنه أن للصطفين الأخيار من عباده كانوا رجالاً ناضجى الغرائز ﴿٢﴾ ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية ﴿٣﴾.

ومع ذلك فإن بقايا من متعلق الجاهلية القديمة لاتزال عاقلة بأذهان الكثيرين من يحسبون السمو البشري لا يتم إلا بإعلان حرب مجنونة على البدن توهي قواه وتلدخ غرائزه.

بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية، وإنبنى عليه، إن التقوى في هذه الحياة تعنى الرهبانية وأن السمو في الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك فلا بد أن يكون التعصم للموعد روحانيًا محضًا وكذلك العذاب المرصود للأشقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة، فإنه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج، وأسس تكليفه وأجزئته الدينية على اعتبار الإنسان كائنًا متميزًا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية في شخصيته، بها جميعا يسمو أو يهبط وبها جميعا يثاب أو يعاقب.

أو كما يقول الأستاذ العقاد: فليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنساني إلى ما دون طبيعته، ولكن بما يؤمن به أن ارتضاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه أخرية والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى نعمة

(١) الفرقان: ٧.

(٢) الرعد: ٢٨.

الخلقية ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه الأمانة هي التي رفعت مقاماً فوق الملائكة ، أو هبطت به إلى زمرة الشياطين .

ليس الهبوط أن يشتبه الإنسان طعاماً أو امرأة . إنما الهبوط أن يأكل المرء من سمحت ، أو يتصل بمن لا تحل له .

فإذا طعم من حلال ، أو اتصل بأثنى لتكون زوجة يسكن إليها ، ويتم بها ويتمد وجوده معها فلا شيء في ذلك أبداً .

لقد أخطأ كثير من للتسبين إلى الدين في احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامي لا يحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها ، وأن النعيم أو الجحيم معنويان ، وحسب!!

وقد سرى هذا الخطأ - كلا أو جزءاً - إلى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتنقوه ، وحسبوه دلالة ارتقاء ، وتجرد ، فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خطلاً سيئاً في موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة في الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة ، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلباً لجنته ، أو تدع عصيانه خوفاً من ناره حتى توهم الناس أن الأمل في الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين!!

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير إسلامي ، إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو ثقافته عندما تنحتم إلى العقل والنقل على سواء .

ولنبداً بالنقل ... يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء ، فيذكر لنا أن رجلاً مؤمناً بحث عن صاحب له كان ظاهر الإخاد والفسق ، فوجدته قد استقر في سواء الجحيم! فحمد الله إن لم يتأثر به : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ (٥٦) وتولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بمبينين (٥٨) ألا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفرد العظيم (٦٠) خل هذا فيعملم العالمون (٦١) .

(١) الصافات: ٥٦ - ٦١ .

التجاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العاملون ، فكيف يجيء أحد من الناس ، رجلاً أو امرأة ليقول : بل هو أمل تافه؟

ويقول الله جل جلاله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ (٦٨) وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ (٦٩) كِتَابٌ مَرْكُومٌ (٧٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٧١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٧٢) عَلَى الْأَوَّلِكِ يَنْظُرُونَ (٧٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٧٤) يُسْقُونَ مِنْ رَاحٍ مَخْمُومٍ (٧٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٦١) .

في الرحيق المختوم يصفاه قوم تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، في هذا الجزاء الجزيل ينبغي أن يتنافس المتنافسون! فكيف يجيء إنسان رجلاً كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلباً لشيء من ذلك .

إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى ، أو العقاب السرمدي .

إن الجنة دار للنوعين من اللع أحدهما مادي والآخر معنوي ، فاللادى تكريم للإنسان يفيض من التحلى الإلهي يشعره بالوضوان ويرفعه بالرؤية .

ويدهي أن المتاع الثاني أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦١) .

ولكن هل هناك فواصل - في هذا الكيان البشري - بين الإحساسين أو أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية بذوق الخير والشر جميعاً؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة فلم الطعن فيها؟

ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاه ذلك ، ولا حرمناها من أجل هذه النسبة! ولا يأبى الكرامة إلا لقيم ، فكيف - وهي إلى جانب ما وصفناه - تلبية حاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة تلك البدن الذى يضيره الحرمان ، ويضنيه الش والذل ، حاجة تلك البدن الذى يكره الجوع والعطش والعري والهوان .

(٢) التوبة: ٧٢ .

(٣) الطغى: ١٨ - ٢٦ .





[illegible][illegible][illegible][illegible]

١٠  
١١  
١٢  
١٣  
١٤  
١٥  
١٦  
١٧  
١٨  
١٩  
٢٠

[illegible]

إن معاملتي لسانق السيارة غير معاملتي للسيارة نفسها ، الفارق واضح بين القائد والمقاد والراكب والركوب!! والمساواة بينهما في التكليف حمق .

وذكر لي آخر قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضَلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وقال : أليست هذه الآية نصا في سبق الهداية الإلهية والإضلال الإلهي؟ قلت له : أنت واهم تدبر ختام الآية الكريمة تجد مفتاح المعنى الذي غاب عنك ﴿ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إن الرجس الذي خلق صلورهم نشأ عن عدم إيمانهم ، فلما رفضوا الإيمان وغصت به خلوفهم جوزوا بهذا الضيق والحرج ، أما الذين رضوا بالحق واستراحوا إليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر .

ذلك ، والاختيار بين التهجين يصحب المرء في كل يوم ، بل في كل لحظة وهذا هو السر في أننا نطلب من الله الهدى في صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة بالليل والنهار . إن ظروفنا هائلة تحيط بنا لاتعرف إرادتنا ولا قدراتنا ما تصنع بإزائها ، وما أشبه الإنسان بزورق هش الصنع ، يعم في بحر لجى يغشاه موج من فوقه سحب هنا يتشبث الإنسان بالتوفيق الإلهي ويسأل ربه النجاة .

ومن العقل أن نميز بين الأقدار التي تحيط بنا وتتحكم فينا ، والأعمال التي طولبنا بها ونسأل غنا عنها!

وأرى أن إنكار الاختيار البشري فلول من وظائف العبودية ، وإتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة . ما الذي نحاوله بهذا المسلك؟ يقول الله سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢) ثم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مَحْضِلَةٍ ﴾ (٣) ثم يقول عن الجزاء الأخير ﴿ هُنَالِكَ تِلْوَ كُلِّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٤) فإين الظلم أو الجبر في هذا الصنيع؟

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) يونس : ٣٦ . (٣) يونس : ٣٧ . (٤) يونس : ٣٨ .

## ١٣. ما دور المسجد في الإسلام؟

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذُنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ ... ﴾ (١) أحيانا أتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران إنما هو الساحات الطهور التي تنصصت للركع السجود ، فبعد أن كانت أرضا عادية يقشاهما أي إنسان أضحت أرضاً لا يدخلها إلا متوضع ، وبعد أن كانت لأى غرض عادى أضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس ، ومهاداً للمعراج الروحي الذى ينقل البشر من ماربهم القريبة إلى مناجاة الله وتسيحه وتجيدها

ليس هذا ارتفاع معنويا للأرض تشبها؟ أحسنت ذلك وأنا أطلع ما جاء في السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة فقال : يا أبا أمامة ، مالي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال : هموم لزممتني وديون يارسول الله! فقال له : ألا أعلمك كلمات! إذا قلتهم أذهب الله عنك همك ، وقضى دينك؟ قال : قلت : بلى يارسول الله .

قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.... فقلت ذلك فأذهب الله عني غمى وقضى ديني .

هذا رجل أخرجته الأيام ، وبدل أن يذهب إلى بيت واحد من الأغنياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ما قبل :

يسقط الطير حيث ينتشر الخد يسقط الغنى حيث ينتشر الكرماء !

ذهب إلى بيت الله يبرج جده ، وينظر ندما فلم يخب سعيه ، ولم يطل همه ... لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفسه وحياته ...

وإذا كان الرسول قد استغفر وجود الرجل في المسجد في غير وقت صلاة فإنه عزم على المسلمين كافة أن يثوبوا إلى المسجد وقت الصلاة وقال : « إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد . بسبع وعشرين درجة . »

(١) نور : ٣٦ .



وذلك أنه إذا توسّأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لم يخطئ خطوة إلا رفعت له بهادر جرة، وحطت عنه خطيئته، فإذا صلى لم تنزل إلا ثلاثة تصلى عليه ما دام في صلاته، تقول «اللهم صل عليه اللهم ارحمه»، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة..

والواجب أن يتوعد صلة المؤمن بالمسجد، وأن يكثر التردد عليه صباحاً ومساءً، بل ينبغي أن يتعلق به قلبه وأن يزجده له حبه.

قال عبد الله بن مسعود: لقد رأيت ما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض! إن كان المريض يلتمس بين الرجلين حتى يأتي الصلاة! وقال:

إن رسول الله علمنا سنن الهدى، وإن سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه، قال عبد الله: وما منكم من أحد إلا أنه مسجد في بيته، ولو صليتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم..

وجمهور الفقهاء يرى الجماعة في المسجد سنة مؤكدة، ولا ريب أن التجمع نزعة أصيلة جادة في تعاليم الإسلام، وأن الجماعة من شعائره العظمى.

والإسلام يحارب بذلك المتدين للنهزم فار من الحياة العاجز عن مواجهتها، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون أنفسهم أذكى وأتقى، وأن مخالطة الناس تنقصهم! فهم يؤثرون العزلة ويتهمون الغير، ويفطون كبرا في صدورهم ما هم بالفيه. ولعل أولئك الذين عناهم ابن عباس لما سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة؟ فقال: هذا من أهل النار!!!

إن رسالة المسجد في الإسلام حشد المؤمنين في صعيد واحد، ليتعارفوا ويتحابوا، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا ما بينهم من شئون!

وهذا التلاقي المشهود ليس حشر أجساد، إنما هو اندماج الفرد في المجتمع على أساس من الحب وطلب مرضاة الله، وعلى كل مسلم أن يرتفع إلى هذا المستوى، وأن يقتل توازغ الأنانية إذا حديثه بالعزلة لأمر ما فقد جاء في الحديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن أى لا يحقد أو يخون: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم محيط من ورائهم» أى إن بركة الله على الجماعة تشمل الكل وإن كان بينهم من هو دونهم كما جاء في حديث آخر: «يد الله مع الجماعة ومن شذّذ في النار».

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف، وتعميد المسلمين عليه، والغريب أن امتنا أبعد الأمم عن احترام نظام الصف والخضوع له... مع ما ورد في تنظيم الصفوف بالمساجد من تأكيد وتشديد.

وتأمل في هذا الحديث عن أبى مسعود: «كان رسول الله يسبح مناكبنا في الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم وأولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم».

وفي رواية: «أقسموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل وليتوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات الشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطعه قطعه الله!!

لقد قرأت في حرب فارس أن صفاً من المجاهدين كان يعبر نهراً، فسقط كوز أحد المجاهدين فترتب الصف كله حتى عثر الجندي على ما سقط منه!! إنهم يتحركون بروح الجماعة، ولا يتصرفون كأنهم عقد انفرطت حباته!

وكم يشعر المسلم بالأسى وهو يرى أمته في زحام الحياة تتحرك بروح القطيع، لا يهتم للمرء إلا بنفسه ومصالحته! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات في مناسك الحج، لأن نظام الصف، والإحساس بالغير مفقود عندنا، فالمسجد لا يؤدي رسالته!!

ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافي للأمة، وذلك عن طريقين: الأول تدبر ما ينال من القرآن في الصلوات الجهرية وخطب الجمعة، والقرآن كتاب يتحدث في العقائد والعبادات والأخلاق وقوانين الشؤون الخلية والدولية ويصف الكون ويرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء.

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف، إذ أن سلبقتهم اللغوية مكنتهم من الاستعداد المباشر من آيات الله، ولحق أن الذين أنصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغوا شأواً لا يضارع من السمو الفكري والشرى، فليس عجا أن ينطلقوا مشاعل هدى في أرجاء الأرض وينقلوها من الظلمات إلى النور.

أما الطريق الثانى لتشقيف الأمة فهو الدروس التى انضمت في ساحات المساجد، تتناول جميع العلوم بل إن الشعر كان يلقي في المسجد، وكان الصحابة يستمعون إلى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية!

ومعروف أن للدارس الفقهاء الكبرى كانت في المساجد وأن الأئمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها، والفقهاء الإسلامى يحتوى على كل ما يهم البشرية من المهد إلى الحد.

ولما كنت مدبراً للمساجد وضعت لأيام الأسبوع الستة غير الجمعة ستة دروس في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والأخلاق ، أما يوم الجمعة فحسبه الخطية ، وأعدت لذلك كراسات تحضير تراجع بعناية ...

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقوم على إنشاء مستوطنات ، أساسها ثلاثة رجال : إمام مسجد ، ومهندس زراعة ، وضابط جيش ، وتركزت اختيار الأماكن للمتخصصين ...

وكان رأيي أن ينشر المساجد في المدن والقرى على أسس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان ...

إن المسجد كان القلعة الروحية التي يتطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو ، وقد قاوم الجامع الأزهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخیلهم ، وقاوم الإنجليز أوائل هذا القرن ، وكان يستقبل الأحرار من أقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار ، ويؤازرون إخوانهم المسلمين ... وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد - أيام الحروب الصليبية - فقضت شعرها ، وأرسلت الضفائر إلى الإمام مقترحة أن تكون قيد جواد لأحد المجاهدين عما جعل المسجد بضع بالحماس ، وأغرى الرجال بالتفاني ...

هل انهزمت أوروبا في حملاتها الأولى إلا بهذه المشاعر ، وهل تراجع الاستعمار الجديد إلا بالروح نفسها؟



## ١٤. لماذا كانت الصلوات خمساً في اليوم؟

### وما هو شكل الصلاة المقبولة؟

كما يحتاج الجسم الناشط إلى وجبات غنية قله بالحرارة ، وتجدد ما يلي من خلاياه ، وتحفظ عليه عافيته ، تحتاج النفس الإنسانية إلى وجبات أخرى تعينها علي التحليق ، وتمنعها من الإسفاف ، وتستقذها من أمواج الفتنة والذهول ، وشنى الأهواء والأفناء !

إن الإنسان - بجوارب من طبعه - يحب أن يذكر نفسه وينسى ربه ، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضع الآخرين ، يحب أن يأخذ ولا يعطى ، وإذا أخذ فالشكر ثقل عليه ، وإن شكر فكلمات خفيفة ... ثم لا حق بعد لأحد!!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهراً من هذه الدنيا ، وتربية على جميع الفضائل التي تصبح بها إنسانيتهم ، وتكمل بها عبوديتهم ، وتتم بها رسالتهم في هذه الحياة ، وهل خلقوا إلا لعبادته سبحانه؟

وكون الصلوات عدداً معيناً ككون السعرات الحرارية التي يفتقر إليها الجسم عدداً معيناً! لا تتحقق الثمرات المطلوبة إلا بهذا المقدار ، ويقع الخلل المادى والأدبى بمقدار هنا وهناك!

ونتظر إلى حقيقة الصلاة التي شرعها الله للناس ، يقول الفقهاء عن هذه الصلاة : إنها أقوال وأفعال مبدوءة بتكبير الله تبارك اسمه ، ومختومة بالسلام على عباد الله جميعاً ...

قالوا : أما الأفعال فقد استوعبت صور التحية التي كان يتقدم بها الناس إلى رؤسائهم وعظمائهم بعد تحريدها من المقاصد الرديئة! الوقوف الخاضع! القعود المؤدب! الركوع والسجود اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام .!

فأعمال الصلاة أن تقوم لله قانتين ، وأن تركع وتسجد له معظمين ، وأن تقعد مخبتين قائلين له : إن هذه التحيات التي أدناها ، وكل عمل صالح تقوم به في حياتنا هو لك وحده فاربنا الكبير!!

أليس ربنا أهمل هذه التحيات اللطيفة تقدمها له - سبحانه - صباحاً ومساءً ؟

بلى ! وهو أهل التقوى وأهل المغفرة .. لذلك يقول الله لكل مسلم : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتُمُ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وربما أحس المرء بكلفة في أداء هذا الواجب واستشغل تكراره ألم نقل الإنسان قليل الشكر ؟ لا بأس عود نفسك ﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

وتكتنف أفعال الصلاة أو تتخللها أقوال كثيرة ، والمطلوب أن يكون المصلي حاضر الوعى حين يتكلم ، فإذا بدأ صلاته قائلاً : الله أكبر ، فمعنى ذلك أنه في موقف جدير يجمعه مع الله فلينتهأ !

ويسمى الغفهاء هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام ، كان الإنسان حرم على نفسه الاشتغال بشيء آخر لأنه شرع في مناجاة الله ، والالتفات إليه وحده ..

والأقوال التي يرددتها المصلي كثيرة ، لعل أهمها تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة ليس اختصاراً في الحفظ ! فإن كلماتها تمثل لقاء حيا بين الله وعبد ، العبد يتكلم والسيد يجيب !

في الحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل .. »

فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله عز وجل : حمدني عبدي !

وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أنشئ على عبدي ..

وإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال : معجدي عبدي ..

وإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدى ما سأل ..

(١) هود : ١١٤ . (٢) هود : ١١٥ .

وإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : هذا العبد ، ولعبدى ما سأل أى أعطيني ما طلب ..

وتكرار هذه المعاني حق ، فإن نعم الله مترافدة توجب تكرار الشكر ، وذكر الله بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ثناء صادق و مدح مستحب ، والشعور بيوم الدينونة وملكوته القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا ..

وتعهد المصلى أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده هو رب التوحيد . فإذا وفى المصلى بعهده ، وسأل ربه من رفده منحه ما يطلب ، وأفضل ما يطلب الإنسان هدى يقبى الانحراف ، ورضا يقبى الطرد ، ونعمة تقرب بها عينه ، وسدادا يقبى الحيرة ... ! الظفر بذلك سعادة الدنيا والأخرى . .

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفسه . وفى هذه الزيادة معرفة أكثر بالوحي الأعلى ، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها ..

ثم يركع المصلى مسجداً ربه العظيم ، فكم من سكان الأرض يشرك به أو يجحد وجوده ، أو يجهل ما ينبغي له من نعوت الكمال ، أما المسلم فهو يخالف أولئك جميعاً وينزه ربه عما لا يليق به من نقائص . وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صعد إلى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلاً : سمع الله لمن حمده .. أى استجاب الله لمن أنشئ عليه وحمده .

وكان رسول الله ﷺ يرفع من ركوعه أحياناً ويقول : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما من شيء ، بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد . وكلنا لك عبد . لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجند منك الجند .. ! »

ومعنى الجملة الأخيرة أن المرء لا يستغنى عنه الله ما نال فى الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة ، فليس فى ذلك دليل على الرضوان إلا على « الله يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » (١) .

ثم يهوى المصلى ساجداً يسبح اسم ربه الأعلى ، ومع كل ركوع سجوداً ! والإنسان يكون فى أزكى الأحوال وأشرفها عندما يضع جبهته على الأرض بين يدى ربه ، فليدع بما شاء .

(١) الفرق : ٦٦

وكان النبي أحياناً يقول في سجوده : «سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» أو «سبحان ذي المنكوت والجبروت والعظمة، وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءاً أو ختاماً ..

وفي القعود الأول أو الأخير يذكر المرء لربه أن كل ما سبق من أفعال وأقوال تحيات لوجهه الكريم، فهو يقول : التحيات لله، والصلوات الطيبات، ثم يلقى السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم ورى وأرشد، وكان هذا السلام إشارة إلى أنه الأسوة الحسنة، في إقام الصلاة، وسائر الشرائع التي جاء بها؛ ثم يرسل سلاماً آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين ..!

ما أحلى هذه الكلمات كلها، وما أشرف الصلاة التي يكلف المسلم بأدائها .. والمهم أمران : أحدهما عقل والأخر قلب؛ أما العقل فيجب أن يعلم ما يقول، ويعرف ما يتأجر به فقد جاء في السنة أن المرء لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها؛ أما أن يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها، ثم يفت تائهاً لا يدري ما يتكلم به فهذا هبوط وضيع ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (١).

أما القلب فإن الصلاة توثر الحشوع والأدب والخشية، وهي معراج روحي يرقى بصاحبه إلى الملأ الأعلى، إنها - إن أقيمت كما شرع الله - توبة كاملة تمحو الخطايا محواً، وتظهر النفس قال عليه الصلاة والسلام : «أرأيت لو أن باباً أحدكم نهراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون أبقى ذلك من درنه شيئاً» قالوا: لا يبقى ذلك من درنه، فذاه شيئاً؛ قال: «فذلك مثل الصوات الخمس يصحو الله بها الخطايا».

والأساس أنها تعصم من الخطايا، وتحول دون مفاقعتها كما قال تعالى : ﴿إِنْ الصَّلَاةَ تَتَنَّىٰ غَيْرَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٢).

بيد أن البشر ضعاف وقد تهى لإرادتهم أمام إغراء ما، ويزلهم الشيطان فهل يباسون من تسام ومتاب وعود إلى الله؟ كلا، فليفرغوا إلى الصلاة فهي تنقى أرواحهم وتشد عزائمهم إلى الصراط المستقيم، المسلم لا يذهب إلى كاهن يأخذ بيده، فليس الكاهن خيراً منه، ولو فرضنا أنه خير فما ينفع إلا نفسه ولا مفرغ إلا إلى الله ...

(٢) التكوير ١٥ .

(١) النساء: ٤٣.

## ١٥. ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به..؟

نظرت إلى بعض الأشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها، وجعل أوراقها داكنة، فلم تثر انتباهها وخلفتها دون توقف .. وشاء الله أن تطر السماء بعد قليل، وكان مطراً غزيراً، ومررت بالأشجار نفسها فكان منظرها عجباً كانت خضرتها تزهو، والأوراق تحت أشعة الشمس تلمع؛ فقلت : ما أحسن النظافة، أبرزت الحلقة الطبيعية في جمالها الأصيل، وبعثت النفوس على الإعجاب ..

كذلك جسم الإنسان، إن النظافة تجلوه وتزكّيه، والجسم الإنساني أحوح من غيره إلى التطهير الدائم، لأن متاعه لا نجى، من الغبار وحده، وإنما نجى من إفرازات الجلد والأعضاء ونفايات الأجهزة التي لا تهدأ حركتها، ولم أر نظاماً للتنقية والتطرية أدق من التشريع الإسلامي في احتلام الجسم وإزالة القذى عنه، واستئصال ما يشينه واستيقاظ ما يزينه ...

والوضوء من شائع الإسلام المطردة في الحياة الإسلامية، وهو من الوضاعة أي الحسن الباهر، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة أنه تخلية ونجاسة، والنظافة قد تعنى إزالة الأوساخ وحسب!

كلمة النسل في اللغة لا تعنى إسالة الماء فقط، يقال : غسلت السماء الأرض إذا كان المطر بالغ الشدة، وإذا فرض الإسلام غسل أعضاء معينة فهو يريد تليقها بما يطهرها ولا يترك أثرًا منفراً فوقها ..

وقد أوجب الإسلام الوضوء كما فرض جملة من الأفعال التي تشتمل الجسد كله؛ وتستطيع جعل الوضوء رمزاً لفلسفة الإسلام في تكميم الجسم الإنساني وعاززها إذ إن هناك عقائد تعلن حرباً على هذا الجسم، وتزى الارتقاء في إهماله وإنحافه والجور عليه، وذلك في زعمها ترقية الروح ..

والواقع أن الإنسان معنى وبنى وقلب وقلب، وعزل المادة عن الروح صعب .

والمفروض أن يكون المعنى الشريف في مبنى نظيف ، وأن يكون القلب الطيب في إهاب نقيس . ١

روى مسلم عن عمر بن عيسى رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : كيف الوضوء؟ قال : «أما الوضوء فبأنك إذا توضأت فغسلت كفيك ، فأنقيتھما ، وغسلت وجهك ، ويديك إلى المرفقين ، ومسحت رأسك ، وغسلت رجليك إلى الكعبين ، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك»!

قال أبو أمامة : يا عمر بن عيسى ، انظر ما تقول؟ أكل هذا يعطى في مجلس واحد؟

قال عمر : أما والله لقد كثرت سنن ، وفتنا أجلي ، وما بين من فقر فأكذب على رسول الله ﷺ ، ولقد سمعت أذناني ووعاه قلب من رسول الله .

والواقع أن الجزء المذكور ليس على مجرد الوضوء ، فإن الوضوء وسيلة إلى الصلاة ، وهذا وذلك مظهران لإيمان حسن ، وسماحة إلى رضوان الله ، فثواب الوارد منظور فيه إلى جملة هذه الخصال المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من أحاديث كثيرة ..

والوضوء وحده لا يصلح إذا كان الجسم بحاجة إلى تطهير تام ، كما في حالة الجنب والخاص والفنساء ، وقد أمر الإسلام بتتابع ما يلوث البدن حتى لا يبقى أي أثر لنجس ، وكانوا قديماً يستعينون ببعض الأعشاب والألياف لإدراك النظافة المطلوبة ، وفي عصرنا توصل العلماء إلى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض!

إن المعلم كالتطبيب ، كلاهما يريد الكمال للإنسان ، والطبيب في كشفه وعلاجه يتناول الجسم كله لا يستثنى منه شيئاً ، وكذلك فعل الإسلام وهو ينقي البدن ويجمله ، أنه لم يتخرج من ذكر شيء مهم وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : «الغطرة خمس: الختان ، والاستعداد ، وإزالة الشعر حول الموضع الحساسة ، وفص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونشف الإبط» .

أي إن من المحافظة على الغطرة السليمة - وهي جوهر الدين - أن يتعمد المرء بدنه بهذه الآداب ..

ومن أطل شعر رأسه وجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره ، ففي الحديث : «من كان له شعر فيكرهه»!!

ولابد من غسل الفم وتعهد الأسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا ، إن الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر أذى لأصحابه ، وقد أسقط الإسلام

صلاة الجماعة عن الأبخرا! كما ندب لمن أكل ثوماً أو بصلاً أو فجلاً أن يبتعد عن المجلس العامة ، وتعاليم الإسلام في استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التي تنظف الفم ، وقد تغنى مكان السواك ..

والغريب أن الإسلام لم يكف بالطهارات التي قررها ، بل ضم إلى ذلك التزين الذي يصلح الهيئة ، ويجلب الاحترام ، وقد روى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : «وأما امرأة من وراء ستر ، بيدها كتاب إلى رسول الله ﷺ فقبض يده ؛ وقال : ما أدري ، أيد رجل أم يد امرأة؟ فقالت : يد امرأة ؛ فقال لو كنت امرأة لغيرت أظفاره ، يعني بالحناء - أي لظهرت حمرة الخضاب على الأظفار!!

وعن عائشة أيضاً أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ، يعني ، قال : لا أبايك حتى تغيري كفيك كأنهما كفاسبع . أي وحش !

والتجمل شيء غير التبرج ، التبرج إهانة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الإنم! أما التجمل فهو إبراز الجمال الطبيعي في إطاره المعادي المعتدل ، وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة ، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر ، وليس معنى نهى المرأة عن التبرج أن تكون دمية المظهر أو كربة الرائحة ، كلا فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام ، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ . ١

قلنا : إن الوضوء من الوضوء ، أي الحسن والملاحة والإشراق والحياة الإسلامية الأولى كانت آية في النظافة والارتقاء ، فلما ساء معنى التدن وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وأن إهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الآخر! والحق أن الشكل الفوضوي دليل موضوع مشوش وأن من أهمل حق بدنه لا يؤمن على كثير من الحقوق ..

أما نستحي - وقد أضاف الله الزينة إلى نفسه - أن نتأى عنها؟ ألم يجز في الكتاب العزيز : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الزَّيْنِ ﴾ (١) ؟! إن الله يريد وضاعتاً فلم تريد نحن الدمامة والرائحة؟!

إن الوضوء رمز إسلامي لكل أسباب النظافة والزينة ، على أن يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيف ، وأدب رائق جميل ، فيكمل الإنسان جوهرًا ومظهرًا وحقيقة وصورة

والوضوء ليس شرطاً لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه في أوقاته كلها جنباً أو طاهراً ، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم - فيما أرى - ويستطيع الحائض ذلك . وللمؤمن لا ينحس أبداً والجنابة عارض لبذنه يمكن التخلص منه على عجل . .

أما الصلوات المكتوبة كلها ، فيستحيل الدخول فيها دون طهر ، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر ، أما الحدث الأكبر فلا بد من الغسل . .

وإنما اشترط ذلك حتى لا يتجاوز المؤمن في شؤون النظافة ، ويتركها لأي عنبر ينويه ، فما أسرع الناس إلى الترخص فيما لم يلزموا به حتماً ، وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام الخمسة ، فإن النظافة تعد من الأركان لأنها تمهيد لامتناع منه للصلاة ، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم ولطف إذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدي الله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾ (١) .

والنظافة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الفنى أو الفقر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعلم أية وسيلة تجعله نظيفاً وسيماً ، وكم من فقير نظيف ، وغنى مجوج . . . !

## ١٦. ما حكمة الحج، ولماذا كان الطواف حول الكعبة

### وهي بناء من حجر؟

سمعت أحد الدعاة يقول : إن الله كلّفنا بما تعقل فأعطانا ، فأراد أن يبلوننا بأفعال الحج ليبرى : أنظيحه فيما لا تعقل أم تعصيه؟ قلت له : هذا كلام ردى ، وأفعال الحج ترتبط بحكم لا ينكرها العقل ، وقد شرحتها في موضع آخر ولا بأس من إعادتها هنا .

إن الأمم تغالى بكثير من ذكرياتها ، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد ربط النصرارى بقبر المسيح وطريق الآلام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى ، وأسسوا عليه حقوقاً ما أنزل الله بها من سلطاناً فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم المقدسة ، ارتباطاً - يبدو - عندنا بدرس - أقرب إلى الرشد ، وأبعد عن الوهم؟ . .

الكعبة هي البيت الحرام الذى بنى لتقام فيه وعنده الصلوات لله وحده ، وقد قيل لإبراهيم وهو يؤسسه ﴿ لَا تَشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (١) .

وهذا المسجد الحرام - أعنى الكعبة - هو أول مسجد بنى فى الدنيا لتوحيد الله ، ونبذ الشركاء ، وتمحيص العبادة لرب العالمين .

أليست لهذه الأولوية حقوق؟ بلى . وظليحة هذه الحقوق ألا يشاد مسجد فى العالم إلا اتجه إليه وشاركه غايته فى التوحيد الخالص! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذى أصبح قبلته حياً وميتاً !

هذه المعانى هي التى ذكرها القرآن الكريم فى أثناء الحديث عن هذه الكعبة :

(١) الحج : ٦٦ .



## ١٧. ماهي دار الحرب، وماهي دار الإسلام؟

يقصد بدار الإسلام جميع الأراضي التي يعمرها المؤمنون برسالة محمد ﷺ ، العاملون بكتابه وسنته ، المنفذون لشرائعه ، والمنصمون تحت لوائه . ويقصد بدار الحرب جميع الأراضي التي يقاتلها الكافرون بهذه الرسالة ، المحاصرون لها ، المعترضون لدعوتها ..

قد تتسع هذه الدار لتشمل كل الأوطان التي غزانا منها الصليبيون القدامى ، أي أوروبا كلها تقريباً! وقد تتسع لتشمل كل الأقطار التي أغار منها التتار علينا ، فوصلوا من الصين إلى فلسطين! ، وقد تضم كتابيين ، ووثنيين ، وملاحداً وقد سميت هذه البقاع وأهلها دار حرب من باب المعاملة بالمثل - كما يتبين ذلك قريباً - فإن أرض الإسلام لم تكن لها حرمة عند أعدائه فلم تصان أرض أولئك الأعداء ..؟

على أتى أشعر بالألم لهذه الجفوة القاسية وأسى لإنسانية انقسمت على هذا النحو الدامي ، وتاريخ ملئ بالإحز والحروب لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين ، ولا عهود تؤمن الأتباع من هنا ومن هناك ، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهارة تشتمل الأحقاد ، وتورثها للأحفاد ، وليس بين الفريقين إلا ما يقوله الشاعر :

الله يعلم أننا لا نحبكم ولا نؤمكموا لا تعبوننا  
كل له نية في بغض صاحبه بنعمة الله تغلبكم وتقلبونا!!

من المسئول عن ذلك؟ قبل أن أذكر ماعندي أذكر مقالته أقطاب القانون الدولي عند الأوروبيين ، وهي أقوال نقلتها عن كتاب «المنتمعات الدولية الإقليمية» المقرر في معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول لعزية .

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يوماً في ميدان الدعوة الإسلامية هو الدكتور محمد حافظ غام وزير التعليم العالي الأسبق ..

كتب تحت عنوان «المعائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها»

وبعد أمد جاء الملك وفجر بثر زمزم ، وحامت الطير حول الماء الدافق ، وأحس الناس ما جد فأتوا على المكان يعمرونه

إن ثقة هاجر في الله أثمرت الخير ، ولم يخذلها الله بعدما أوت إليه ..

والتوكل على الله - مع ضعف الأسباب أو انعدامها - زاد يحتاج إليه المجاهدون ، والمضطهدون ، يعتمدون عليه في اليوم الكالح كي يسلمهم إلى غد رابع .

وقد خسر المسلمون معارك كثيرة ، كانوا جديرين بكسبها لو استدلوا إلى الله ، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هتوا في أرضهم!

هل يعي ذلك الساعون بين الصفا والروقة وهل عرفوا عقى التوكل عندما يمثلون الدور الذي قامت به أم إسماعيل وهي تتحرك جيفة وذهاباً بين الروتين؟

قال التاريخ : واعترض الشيطان إبراهيم لما ترك أسرته بالوادي المقفر ، يقول له : كيف تنفذ أمراً فيه هلاك أهلك ، لأن الله أمرك؟! فقلعه إبراهيم بحصيات النقطها من التراب ، فكانت تلك سنة رمى الجمار فيما بعد !

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم وحاضرهم . ويكفي أنها تجمعهم من أطراف الأرض شعباً غيراً لا تفريق بين ملك وسوقة ، ولا بين جنس وجنس ، ليفقوا في ساحة عرفة في مظاهرة هائلة ، الهتاف فيها لله وحده ، والرجاء في ذاته والتكبير لاسمه ، والفراسة بين يديه ، فقر العبودية ظاهراً وغنى الربوبية باهراً ومن قبل الشروق إلى مابعد الغروب لا ذكر إلا لله ولا طلب إلا منه سبحانه ..

إن الحج من الناحية الروحية إذكاء مشاعر ، وتجديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التي تكفل مصلحة للمسلمين العليا . ولكي تترك ذلك تدرس كيف حج للمسلمين في السنة الثامنة والسنة العاشرة للهجرة .

في السنة الثامنة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ، ومعاملتهم بالشدّة بعدما فشل اللطف معهم ..

وفي السنة العاشرة وضمت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التي ألقاها الرسول ﷺ في حجة الوداع ..

فهل يسمع للمسلمين شيئاً ذا بال عندما يحجون في هذه الأيام؟



فقال: «منذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقرها هذا القانون»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية فـ «جروسويس» أبو القانون الدولي قال بوجود عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية! ومع أنه يرى القانون الطبيعي مجبراً لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحي إلا أنه نادى بتكثف الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة.

و«جينتليس» هاجم وفرانسوا الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانوني - الخليفة العثماني - سنة ١٥٣٥ م مع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية.

ونظك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاوناً بين ملك مسيحي وبين غير المؤمنين!

أقول: وهو تعاون - في نظر رجل القانون الدولي - لا يجوز بل يجب أن يبقى التناكر والتعادي بين الفريقين، وأن تهماً الفرص لسفك المزيد من الدماء! ثم نعلق؟  
﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَنَا عَمَّا أَرْجَمُوا وَلَا تَسْأَلُونَنَا عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦).

يقول المؤلف: بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم في أوروبا، على أساس تكثيف العلاقات المسيحية ضد العثمانيين - أي ضد المسلمين - وظهرت عدة مشروعات من هذا النوع.

ويستطرد المؤلف: بعد شرح هذه للمشروعات - فيقول: إن الدولة الأوربية في تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد الحرب! ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضي المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر!!

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤلفة بترجمتها العلمية والأجنبية وقد أتبعتها كلها في كتابي «كفاح دين» (٢) صبا: ٢٥، ٣٦.

ثم يقول المؤلف: ونخلص عما تقدم إلى أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولي.

هكذا كانت النظرة إلينا حتى بدايات العصر الحديث! والواقع أن رجال الحرب والسياسة والقانون، كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون إلينا ببغضاء عميقة، وقد ورنوا عن آبائهم كفرة! رسالة محمد رغبة جامحة في تشويهها والقضاء عليها!

محمد مدح لا صلة له بالنبوة وأتباعه مخدوعون لا يقبل منهم إيمان، وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادي أو أدبي ينبغي أن يراعى! إنهم خارجون على القانون فمن اغتالهم أو اجتاحتهم لم يرتكب إثماً!

ماذا يفعل المسلمون إذا رأوا هذا الخيف، وهم موقنون بأن الله واحد، وأن رسله كلهم - ومعهم محمد - حق؟

إذا اعتبرت أرضهم دار حرب اعتبروا أرض غيرهم دار سلام؟ هذي بلاهة!!  
كان عباد الأصنام يشتمون من عقيدة التوحيد ويرفضون سماع شيء عنها:

﴿وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ الْفَرَّانِ وَخَذَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَثْبَارِهِمْ نَفَرًا﴾ (١)  
ليكن ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيُونَ مِمَّا قَبْلُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

لا، لن ندعك تدعو ولن ندع الآخرين يتبعونك، والسيف هو الحاكم! ويصور القرآن الموقف في هذه العسرة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (٣).

فلذا تجاوزنا الوثنيين إلى أهل الكتاب وجدنا الضغائن أشد، والأنبياء أحد.. إنهم لا يطيعون سماع كلمة عن الإسلام ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ (٤).

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن تسلب عن ديننا وتتبعه!  
إننا نقوم أعرف موسى وعيسى، وأرضي لثرائفهما الصحيح، وأسرع إلى مرضاة الله الذي أرسلهما، وأرسل بعدهما محمداً..

(١) الإسراء: ٤٦  
(٢) يوسف: ٢١  
(٣) البقرة: ١٧٧  
(٤) البقرة: ١٣٥.



ثم قال : ﴿ وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ الفتنة تحويل المسلم عن دينه فقرأ كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَسْلَمُوا ﴿ ويكون الدين لله ﴾ وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالباً . .

ذاك ما جاء في الكتاب الكريم ، أما ما جاء في السنة فقد صرح أن النبي ﷺ مر في بعض غزواته على امرأة مقتولة - فكانه كره ذلك - وقال : « ما كانت هذه تقاتل » فعلمنا أن العلة في تحريم قتلها أنها لم تكن تقاتل .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصي بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال ، روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يوصي الجيش الذاهب إلى المعركة : « انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً ، ولا صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموأ غنمكم وأصلحوأ ، وأحسنوا إلى الله يحب المحسنين » .

وقد ادعت طائفة أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا رأى ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس في القرآن ما ينقض - الآيات التي ذكرناها - بل فيه ما يوافقها فمن أين يجيء النسخ ؟ الصحيح أنها محكمة وأن من ليس معداً نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ الفتاة ، والزماني والمكافيف والجنانين ، فإن هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ ، وهذا قول جمهور العلماء .

ونغضى نحن في مناقشة الغائبين بشئ من التفصيل يزيد الحق وضوحاً . .  
من أعجب ما قرأت أن قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم وَلَا تَحْلُوا ﴾ منسوخ بالآية التالية مباشرة ﴿ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ ۖ ۱۱﴾

وهذا ضرب من اللغو كان يجوز إثباته ، لأن القاتل قطع جملة من ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ ﴾ وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ في دماغ عاقل ، ولذلك تتجاوز هذا الرأي . .

الدليل الذي يعتمد عليه الغائبون بالنسخ ما يسمى بآية السيف يعنون مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْشَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ ۱۲﴾

وفي هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذي عينين فإن كلمة المشركين هنا فسرت في الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حداً لا يطاق ، وأنهم جماعة من الفتناء القادرين تعرفهم عندما تقرأ الآية التي استثبتت من تصان دماؤهم من المشركين ، وهي قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً ۖ ۱۳﴾

يعنى أن المشركين المطاردين هم قوم نقصوا حقوقنا وظاهروا أعداءنا ، واحترقوا عهدونا .

ولكى نرداد بهم معرفة نقرأ وصفهم في الآيات الآتية : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأُقْرَابِهِمْ وَأَتَابِي قُلُوبَهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ۱۴﴾ اشعروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يفعلون ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۖ ۱۵﴾

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم في صلب سورة براءة ، وأعطوا أربعة أشهر مهلة ليرى ما يصنعون بأنفسهم ! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ﴾ .

إن القول بالنسخ لا قتال إلا للمعتدين لا مسأخ له أبداً ، ولا يدل على فقه في القرآن الكريم .

قال لى بعض الأخوة : على رسلك ، إن الإطار الذى تريد وضع الجهاد الإسلامى داخله قد محته آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذى يخاصم الضلال حيث كان ، ويريد غسل الأرض منه ، فلا داعى لهذه القيود التى تذكر . ۱۱

قلت : أين هذه الآيات ؟ لم تقرأ قوله تعالى يغزى طلاب الآخرة بالجهاد : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ۖ ۱۶﴾ إن هذه الآية تحت على حوض الحروب انتصر للمؤ فيها أو انهزم ومادام يريد إعلاء كلمة الله فله أجره !

قلت : لعلك لو قرأت الآية التي تليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدواناً بل ردّاً للعدوان وكسراً للطغيان!

أليس يقول الله سبحانه في حقهم لغرض هذه الحرب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَعْمَلُنَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (١).

إن هذا القتال من أشرف مآثر على سطح الأرض بالنسبة إلى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بأنه قتال لم يرتبط بقيد معين؟

فصمت قليلاً ثم قال : خذ آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْتَمْتَهُمْ فَنُشِئُوا النَّاقِ... ﴾ (٢).

قلت : هذه آية تصف مايجب عند التحام الرجال في المعركة ، ولا تتحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فإن أول السورة التي ذكرت فيها الآية يحدد من هو العدو الذي نعاريه!

أول هذه السورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْأَعْمَالُ ﴾ (٣) والصد عن سبيل الله يعنى تعويق الدعوة عن المضي في مسارها ، وإيذاء المؤمنين الذين تنشر صدورهم بها ، وهذا عدوان حقيقى !!

قال : خذ آية أخرى والآيات كثيرة : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) قلت : هذه الآية بين عشرات من الآيات التي نزلت في غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كي يقاتلوا الروم ، ويحللوا من طغيان النصرانية شمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض

(١) النساء : ٧٥ .

(٢) محمد : ٩ .

(٣) محمد : ٩ .

(٤) التوبة : ٤١ .

من أسلم في مدينة «معان» ونشروا الرعب في بقاع واسعة كان عملاً لهم يحكمونها ..

وقد حاول المسلمون أن يوقفوا هذا التحدى ، وأرسلوا جيشاً إلى «مؤنة» هزمه الرومان ، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به ، ولم يجد المسلمون بكاً من الانسحاب ، فعادوا إلى المدينة وقلوبهم كبيرة .

وازداد الطين بلة ، فإن تيار الدعوة ركذ تحت تأثير السطوة الرومانية المخدورة ولم ير النبی مناصاً من إعداد أكبر جيش في تاريخ الدعوة لينازل الإمبراطورية العجوز ويلزمها حدودها! إن الحرب كانت واجباً حتمًا ، ولم تكن غارة عمية ، وسوف يزيد الأمر وضوحاً فيما بعد .





يقول ابن تيمية في رسالته عن القاتل: كانت سيرته **بشيرة** أن كل من هادن من الكفار لا يقاتله، وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بذلك، بل هو متواتر في سيرته، فلم يبدأ أحداً من الكفار بقتال... ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب - ولكنه لم يفعل - .

(١) الحج: ٣٩، ٤٠.

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والإسلام ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتْ سَمَاطَاتُ صَوَامِعَ وَبُيُوعَ صَلَواتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَتَبْسُرَ اللَّهُ مِنْ بَصَرِهِ﴾ (١)!!

## ٢٠. هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة على الدخول في الإسلام؟

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل في سبيل الله ، وبعد مسيئاً إذا تخلف عنها ..

الموطن الأول منع الفتنة ، فقد يتعرض المسلمون في بعض البلاد لصنوف من الترويع والأذى تنزل بهم حتى يرتثروا عن دينهم ، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا المذهب ، بل يجب كسر شوكة المعتدين وإسقاط سلطتهم حتى تستقر حرية الضمير . ويؤمن من شاء دون خوف أو قال تعالى ﴿ وَقَاتِلْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتِهَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢٣) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاهُمْ نَعَمْ الْمَوْتَى وَنَعَمْ النَّصِيرُ ﴾ (٢٤).

الموطن الثاني تأمين الدعوة ، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضاً عادياً لا تقتصر به رغبة أو رهبة ، أي رشوة أو تخويف ، فإذا عطلت إزاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعائهم جاز لهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق ، أي جاز لهم أن يكسروا السجاس الحديدي الذي تحتسى وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة .

الموطن الثالث عند الحفاظ على الدم والمال والعرض ، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق الخلقين أو الدوليين عليه أن يناضل لتبقى له ، ولا يحل له أن يقبل الدنية في دينه أو دنياه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٢٥) وَجَزَاءُ سَيْفَةٍ سَيِّفَةٍ مِّثْلُهَا ﴾ (٢٦).

ويمكن أن يضاف إلى هذا الوطن جهاد الحرمين الذين يحيون في الميدان العالمي على القرصنة والفرقة العنصرية وإيقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا ..

(١) الأنفال : ٣٩ ، ٤٠ . (٢) الشورى : ٣٩ ، ٤٠ .

أما القتال لنصرة جنسية أو لأطماع شخصية ، أو لفرض الإسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض ، قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (١) . وقد وردت في القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ ، والتعليم المجرد ، وترك الناس أحراراً بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها!!

وقد كان الرسول ﷺ شديد الإلحاح على الناس ليفهموا ما جاء به ، ويهجروا عبادة الأصنام وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتناق الحق وترك الباطل فقال الله له : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

والواقع أن الإكراه على الحق لا وجود له في الرسالات السماوية كلها ، وتدبر ما جاء في القرآن الكريم على لسان نوح : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرَاءُ فَرِحْتُمْ بِهَا كَارِهُونَ ﴾ (٣) .

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبي ﷺ في نشر الإسلام ، فكشف أنه ليس حاكماً عسكرياً يفرض على الناس ما عنده أو موفداً من السماء لإرغام مستمعيه على قبول ما يقول . ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾ (٤) لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُطِيطٍ ﴾ (٥) .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدٍ ﴾ (٦) . ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظَ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (٧) .

نعم بعد بيان شاف لحقائق الإيمان بالله واليوم الآخر يقال للمستمعين : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَهَهُ مَا بَآءٌ ﴾ (٨) .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُحَاثَرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيطٍ ﴾ (٩) .

(١) الفرق : ٢٥٦ . (٢) يونس : ٩٩ . (٣) هود : ٢٨ . (٤) القصص : ٢٦ ، ٢٧ . (٥) ق : ٥٥ . (٦) الشورى : ٤٨ . (٧) النبا : ٣٩ . (٨) الأنعام : ١٠٤ .





## ٢١. هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة؟

### وما واجب المسلمين اليوم تجاهها؟

ما من أيام الجهاد فيها أحب إلى الله من هذه الأيام التحسات التي يذوق فيها المسلمون هزات في كل ميدان، ويفقدون فيها الأرض والعرض والدنيا والآخرة!!  
غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما ألف الناس، إنه جهاد الكلمة، وجهاد البحث والدرس، وجهاد المال والقانون... وأخيراً الجهاد بالنفس حتى لا نفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والأدبية..

كان العدوان على أرض الإسلام قديماً يتم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد!

أما في العصر الحديث فجمرة القتل تتم بمسلى به كاتم للصوت، ووسط كلمات معسولة تخفي وراءها الحقد الدفين..

إن الاستعمار العالي لم ينس يوماً كراهيته العميقة للإسلام، ورغبته الهائلة في

وأذا

وقبل أن أشرح خطته الجديدة أشير إلى خطة قديمة مستغربة:

إن الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لأسباب اقتصادية مجردة!! بل كان لأسباب دينية أهمها القضاء على الإسلام!! وأترك الكلام للمؤرخ العالمي «هربرت فيشر» ولا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة في الحصول على التوابل والذهب إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية، ففي الفاتيكان كانت المشروعات التبشيرية تتناول العالم بأسره، وكانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها تنفض إلى تنصير الوثنيين فحسب، ولكنها أيضاً ستفضي إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق!! كان المعروف أن غماشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أن بالهند دولة مسيحية يحكمها أهل يلقب بالخان الأكبر وكان يناهب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير في أن

تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة تنشأ على المسلمين، تلك هي خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس - بابا روما - منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤ م في مرسوم بابوي إلى ملك البرتغال، وفي هذا الجو المقعم بالأمال الكبار أقنع كولومبس ليكشف الطريق إلى الهند غرباً<sup>(١)</sup>.  
نقول وليبدأ تنفيذ المخطط الاستعماري كما رسمه البابا نقولا الخامس..

لكن القدر لم يقد كولومبس إلى الهند كما كان يتصور، لقد قاده إلى أمريكا! وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة، إلى أن استولت أوروبا على الشرق الإسلامي وغير الإسلامي في القرن الرابع عشر للهجرة، وشرع الحقد القديم يتنفس، أنه يتنفس هذه المرة بنخيت هائل، ويعمل بهاء وأناة داخل حجرات ناعمة، تاركاً خصومه يتبحرون في العراء!

وإذا احتاج الأمر إلى البطش أحمد أنفاس الجماهير في صمت كنك أو بأقل الضجيج!!

وقد شرحنا في موضع آخر من كتبنا الأسلوب الذي اتخذ للقضاء على الإسلام أمته ودولته ولا بأس من الإشارة إليه هنا:

١ - بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص أطرافها وجهت إليها ضربة قاتلة في أعقاب الحرب العالمية الأولى طوت رايبتها، وقضت على الوجود الرسمي للإسلام في الميدان الدولي.

والخلافة بين المسلمين تمثل - كما قلنا - أروة روحية وثقافية مهيبة، وترمز إلى ولاء المسلمين لدينتهم، واستمساكهم بوحدتهم الكبرى وأخوتهم العامة.

وفي الوقت الذي محا الاستعمار فيه هذه القيادة التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الأديان الأخرى..!

٢ - أكثر الاستعمار من صناعة دول لها صيغة تربيته، وليس لها كيان طبيعي، ولما كان الدين الأول في إفريقيا هو الإسلام فقد أعاد رسم القارة النكوبة جغرافياً وسياسياً فأنشأ أكثر من خمسين دولة إرعى في تكوين كل واحدة ضم كثره

(١) من كتاب «أممرون التاريخ الأوربي الحديث» ترجمة لسائفة التاريخ بجامعة عين شمس وقد لفتني إلى هذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلي الأمين العام لجمع البحوث الإسلامية.

إسلامية إلى قلة خلقها التبشير، وجعل الحكم في هذه القلة! وأسبغ عليها رعايته وتأييده، وترك الجمهور للمسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض . ١ .

٣ - عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة، واجتهد أن يحيا وفق مذاهب علمانية أو شيوعية وأوعز إلى ساستها ألا يجعلوا الإسلام دين الدولة، وأن يحذروا هذا النص من الدستور .

٤ - في الأقطار التي يعز فيها ذلك، يكون تهيئة النزعة الإسلامية بإقصائها عن ميادين التعليم والتشريع، وخلق إعلام مانع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتندوخ الجماهير .

٥ - فسخ الطريق أمام الحركات الدينية المخرفة، وتركها تنشط لجمع الأجيال الشائكة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون الجله عون عظيم - من حيث لا يشعرون - للاستعمار العالی، وطريق مختصر للإزراء على الدين وأهله .

٦ - إلغاء التعليم الأصلي إن أمكن، وتصبيب رؤساء تافهين على معاهدته التقليدية بدورون حول أنفسهم ولا يغنون عن الإسلام شيئاً، ويلحق بذلك إلحاق هزائم منكورة باللغة العربية في كل ميدان .

٧ - إبقاء التخلف الحضاري والصناعي والثقافي وجعل المسلمين أما مستهلكة لا منتجة، بحيث إذا حدثت صحوة إسلامية - رغم كل حيلة - لم تجد وراءها ما يمدّها بالقوة أو يهيئ لها التقدم والنجاح .

من أجل ذلك قلنا: إن الجهاد الإسلامي حق، لكن الوسائل الصحيحة ليست في العنف والتركز والحماس الطفولي، بل في خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبي حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم في أغلب الجبهات!!

إن الجهاد أصحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة في وجه غارات دائية لحوج تريد اقتلاع الإسلام عن جذوره، وترفض كل الرضخ أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه .

وقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضاري الحديث قد محا أحقاد الماضي، وبسر للناس جميعاً أن يتعارفوا لا أن يتناكروا، فلما وقعت مذابح لبنان الأخيرة رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط! ورأيت جثث الأطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشهد بأن القوم يقتلون في هؤلاء الأطفال امتداد الإسلام للغد القريب أو البعيد! إنها هي مذبة بيت المقدس أواخر القرن الرابع الهجري!

ومن المفيد أن يعرف من يجهل أن مذابح صابرا وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة، وأن مذابح سبقتها بين الفلسطينيين ولبنانيين تمت في صمت كتيب، وخرس من شاهداها من الصحبيين الأجانب لأنهم وجدوا أنفسهم فرادى مروعين . وقد أحصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين ألفاً منذ الهجوم الذي أغضت عنه للمنظمات الدولية واكتفت في استنكاره ببيان شاحب خافت . . .

إن من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا، وإنها لسفالة أن يطلب منا طالب أن نرتد عن إيماننا وأن نترك لغربنا بلادنا . . .

لماذا يباح لليهودى أن ينتمى إلى توراته، وأن يتهدى بنصوصها على تحديد الأرض التي يريدتها من كياننا ولا يباح للمسلم أن ينتمى إلى قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء؟ لماذا يكون الإيمان - من خلال تعليم القرآن - وجمعية عقوة، ويكون الإلحاد من خلال تعليم الماركسية تقدماً محترماً؟

لماذا يكون مسجون يهودى في روسيا جرمية يضطرب لها الضمير العالمى ويكون قتل الألوف المؤلفة منا شيئاً عادياً؟

إن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يتطهر الإسلام بحق الحياة لنفسه وأتباعه دون ضغائن وعواقي، ولستأ نوجب الجهاد لاضطهاد أقلية أو قسر الغير على عقيدة يأبأها . ١ .

بيد أن حق الحياة للإسلام وأمته مطلب منكرور بغيض لدى الكثيرين، والاستعمار العالی يشعبه كلها يتهدى في فراغ، وسط أم استهلكها اتباع الشهوات وحجب الدنيا وكراهية الموت! وتوجد حرب دامية الآن بين مسلمى أفغانستان والاتحاد السوفيتي، وأعرف من المجاهدين رجالاً يقارمون ببسالة ما يراد بهم، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من الميكلات الكيماوية، والآلات الجهنمية في البر والجو؟ إننا ندفع ضريبة تخلفنا العام والجهاد المشر يتنبى أن يتجه إلى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجوبة .

وبذلك نتجح في صد الطغاة ودحر العدوان . . .

## ٢٢. ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطاً؟

قالوا من قدم : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسواء اطرّد هذا القول أم لم يطرّد فإن الحقيقة تضيق بين الإفراط والتفريط ، والناس يعانون كثيراً من الغلو الشديد والإهمال البارد .

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوي للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى ، وأن المسيحيين يرون التقوى في الرهبانية والزهد واحتقار المال ، حتى قيل في كتبهم : لأن يلج الجمل في سم الخياط أقرب من أن يدخل الغنى ملكوت السموات!! .

وجاء الإسلام فرفض المسلمين ، وعدّ المال وسيلة لما بعده وقال النبي ﷺ : إن هذا المال خضر خلوًا ونعم صاحب المسلم هو من أعطى منه اليتيم والسكين وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيد يوم القيامة..

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين في تعامل اليهود ، كان التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب ، وكان مرضاة الله لا تتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوبكة ، فجاء عيسى عليه السلام بتحدث عن القرب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله .

وقالوا : إنه ترك امرأة أقتلته متهمه بالإثم ، وقال لليهود : من كان منكم بلا خطيئة فليقدم ليرجمها .!

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس وبسر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عند أقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذي المجتمع بالإصرار عليه!!

أي إنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم لمصيبة التادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق! يقول علي بن أبي طالب : الفقيه كل الفقيه من لم يفتن الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكروا

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجرمة الزنى ، ولكنه كما روى الإمام مالك عنه يقول : لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعاफी ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافى ..

والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرهما من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم؟ فقال : تركنا محمد في أدناه ، وطرفه في الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعنى طرفاً شتى . وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت بهم إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهت به إلى الجنة ، ثم درأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١)

والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع ، وغالبًا ما يزين عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح لذلك يقول الله تعالى لتبنيه : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٢) .

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينًا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهى بالجود والتعبد . يقول الشيخ محمد عبدالله دراز : وكأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين ، وباليأس إلى طرف التفريط والتقصير ، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذي لا يميل إلى أحد الجانبين . ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التي أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التي أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم ... إلخ ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين .

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا جميعًا ، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضنى ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله ﷺ :

«إن لكل شيء شرة. حماساً ونشاطاً. ولكل شرة فترة. برودا وعجزاً. فإن صاحبها سدّد وقارب فأر جوده. وإن أخير إليه بالأصابع فلا تمدّوه» .

وفى شئون الدنيا يكره الإسلام التهذيب والتقتير ، ويحب الإنفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (١)

فى مجال العلم الدينى رأيت ناساً متبحرين فى المنقول والمعقول بهم فقه واسع ، ومعقولات كثيرة ، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضاء ، وتولت إليه امرأة متهمه بالزنى ، فما زال يستدرجها ويكر بها حتى اعترفت له ، وحكم بوجوبها ؛ لأنها متزوجة !!

قلت : هذا منهج يهودى ، فإن رسول الله ﷺ كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن قوله .. وتحاول عليه لينصرف أمناً .. أما هذا القاضى فإنه احتال على اللئيب ليقتله ليس هذا أسلوب الإسلام ، والعلّة أن جانباً آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فى معتلا ، ولو ألف «علم القلوب» وذاق الجانب العاطفى من الإسلام لستر وغفر يسره الله ويغفر له !!

وإعزّن أن هناك انفصلاً فى علومنا الدينية بين الفقه والتصوف ، مما جعل المتصوفين يجنحون أحياناً إلى الجنون ، وجعل الفقهاء أحياناً يتولون القانون العاتى الأصم ..

والوسطية فضيلة تبرز فى توجهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، وفى العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد !

البيت هو المحضن الذى تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئه على تعليم الدين وتقاليد ، وليس البيت سجن كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ، وليس ملتقى عابراً للأيام والأولاد كما تألف ذلك أوروبا حيث الأمر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ، فهو تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع ، وقد تشارك الجيش فى بعض الخدمات الطبية ، وقد تقاتل إلى اقتضى الأمر الدفاع ، وينبغى أن تكون خبيرة بشئون أمته الدينية والمدنية .

(١) الفرقان : ٦٧

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه ... فى الوقت الذى أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافاً شائناً فى النويان خارج البيت ، وضد رسالتها الأولى .

لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنين ممّا .

وفى الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية ، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والضعين ..

وبذلك ضمن إنتاجاً غزيراً لأن الحوافز قائمة ، وحفظ الجماعة من التفكك لأن التواصل بالرحمة لم يدع فترة إلا سلحها ، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة ...

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبينهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها ، فإن الله سائلهم عن الهدايات التى بلغتهم : هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس ؟

وما من أمة إلا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (١) ؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعليم الجليّة ، وسيدلى بهذه الشهادة أمام الله ، كما أن المسلمين سيؤلّون : هل علموا كما تعلموا ؟ إن الأم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد !

وهم شهداء على الأم لأنهم حملة الرسالة العامة ، ومبلغو «الوسطية» التى شرحتها أنفاً وكما كان محمد أستاذاً لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض !!

ذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٢) .

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت فى البلاغ والتعليم ! بل فرطت فى العمل والتأسى ببنيتها ، بل لقد أصبحت اليوم ذليلاً لأحزاب الميعة والميسرة فى الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم .

(١) النساء : ٤١ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

## ٢٢. كيف يبني الإسلام الأمة المسلمة؟

ألف الناس في عصرنا أن يكون وراء الإنسان الأول لوطنه وقومه حسناً : ما الوطن؟ قطعة من الأرض تربطنا بها حقوق وذكريات لكن من صاحب هذه الأرض ومالكها؟ ﴿قُلْ لِي الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> ومن خلق الأقوام الذين يحيون فوقها وشد أسرهم ودير أمرهم؟ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾<sup>(٢)</sup>.

ألا تكون العلاقات أوثق وأسبق بهذا الإله الخالق المالك؟

إن الإسلام حين يبني الأمة يجعل الإيمان العميق هو الدعامة الأولى في هذا البناء ، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الأولى للإنسان الراشد السوي .

إن عواطف من الروبانية الغامرة هي التي تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه ، وهي عواطف تتنامى كلما سمع الأذان للصلاة الخمس ، وكلما حجزه إيمانه عن رغبة مجنونة أو دفعه إلى عطاء سخى ، أو وقفه ليشد أزراً ضعيف ، أو أغراه بالصياح في وجه منكر ... !!

إن الروبانية التي صنعها الدين أنفس معدناً وأرجى ثواباً من المواطنة التي صنعها الناس ، ومع ذلك فالمسلم أول المدافعين عن الوطن ، وأول المحامين عن المشيرة ، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل إنسان كريم ؛ لأنه يأبى الضيم ويرد العدوان . ويديه أنه يكون ذلكم الإيمان هو الروح السارى في كيان الأمة كلها ، والمنظم للكبار والصغار والأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء ..

وبعد أن يرسى الإسلام أسس هذا البقعة يفرض مبدأ الأخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

والأخوة ليست لفظاً أجوف ، إنها رحم دينية موصولة تعطي ثماراً أشهى وأزكى مما تعطي الديمقراطية والاشتراكية في الميدانين السياسي والاقتصادي ، إنها خلق فردي ونظام اجتماعي ، وقد اعتمدت الدولة الإسلامية منذ نشأتها الأولى على

(١) المجبرات : ١٠ .

(٢) يونس : ٦٦ .

(٣) المؤمنون : ٨٤ .

هذه الأخوة في مواجهة ظروف الحرب والسلام والإقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الأعباء والواجبات ... .  
ومن ينبوع الأخوة ينبع رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحاب ..

أسس التناصر أن السلم لا يدع أخاه أبداً مخرج لو يذل ، ويضى لشأنه تاركاً إياه يواجه وحده ما يقع له .. كلا ، يجب أن يلزمه ويثبته ويلصق عنه ، يحلّسه معه لو دونه .. والواقع أن أشجع الشجعان لا يستقنى عن عنصر مادي يسمعه في الشدائد ، إن المرء قد يغضب إذا أهين ، وقد يستعد للقتال إذا قطع عليه الطريق ؛ ولكنه يغضب ويستعد ويهجم على المعتدي إذا كان معه سلاحه ، والمؤمن سلاح لأخيه ، وعضد له في الشدائد ، والمؤمن بين إخوانه يتحرك بقواهم كلها ، لا بقوته وحده ، وهذا الشعور الجماعي من معالم الجماعة المسلمة ..

قال عليه الصلاة والسلام : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسله ..» وفي رواية : «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه ، إن أحكم مرة أخيه!!» وقال : «من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة» .

على أن لهذه النصرة الواجبة صوراً مختلفة تقتضى التبصر والروية ، فليس الأمر عصبية عمياء ، كلا ، اللهم إحقاق الحق وإبطال الباطل فعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ؛ قيل : انصره إذا كان مظلوماً ، فكيف انصره ظالماً؟ قال : تعجزه عن الظلم فإن ذلك نصره» .

والاستعمار العالمي يجتهد في قتل مبدأ التناصر ، وفك تضافر الأمة ، وقد أعاناه على ذلك الاستبداد الداخلي ، أو قل : إن الاستعمار سخر الحكم الفردي لإشاعة الفتن والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشعوب الإسلامية تفقد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر ، فأصبح أحد لا يلوى على أحد !!

ولكى نحيا لابد من إحياء مبدأ التناصر بين المسلمين جميعاً ..

أما المبدأ الثانى من آثار الأخوة الإسلامية فقيامه التحاب لوجه الله ، وجعل الانتماء إليه عاطفة شريفة تملو كل الصداقة وترجع كل قرابة ولذلك جاء في الحديث القدسي : «يقول الله عز وجل يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» .

والواقع أن الحب في الله يهون مشاق الحياة كما يهون الحناء مراحل الطريق ومتاع العمل ، وعندما يستوحش المرء من الناس ، بل من نفسه ، تحيى هذه العاطفة المباركة فتؤنس البعيد ، وتغنى قوة على مواصلة العمل لله والجهد في سبيله .

وتقديراً لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه في الحديث القدسي : « وجبت محبتي للمتحابين في ، وللمتجالسين في ، وللمتزاورين في ، وللمتتاذلين في ، يعنى من يتفقون أموالهم بسخاء إجابة لهذه العاطفة حين تفرض الثقة » .

وليس حب المؤمنين لإخوانه نافذة ينطوع بها إذا أراد ، كلا ، إنها أثر اليقين الناضج . ولا يسوغ أن يكون المؤمن ميت الإحساس يتحرك لما يعنيه ويرد لما يعنى غيره ، إن هذا الانحصار الشخصي دهم للجماعة وإضاعة للأمة ، وللمؤمن الحق يجب غيره كما يجب نفسه ، في هذا يقول النبي ﷺ : « والذي نفس بيده لا تدخول الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » .

وتحية الإسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء في انتحلال المرء عن عزلته واهتمامه بإخوته ، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم !

ومن الطائفة قول رسول الله ﷺ : « إذا أحببنا أحداكم أخاه فليخبره بأنه يعبه » ، وقوله : « إذا أخى الرجل الرجل فليسله عن اسمه واسم أبيه ومن هو ؟ فبها وصل للمودة » !

وفي كل مجتمع بشرى أغنياء وفقراء ، حتى المجتمع الشيوعي فيه من يصبرون كرها على طعام واحد ، ومن يطاف عليهم بالصحاف المتنوعة ، إن العلاقة بين هؤلاء وأولئك جذيرة بالتأمل ...

أيكون ذلك التفاوت مبعث حقد ؟

عند المؤمنين بالدينيا وحدها لا ريب أنه يخلف في النفوس آثارا سبيسة أما المشغولون بأخرتهم - إلى جانب دنياهم - فهم لا يابهون لذلك كثيرا مادام عند كل امرئ ما يكفيه ويغنيه بل لقد وجدنا التنافس انبه إلى ناحية أخرى ، فقد شكوا الفقراء إلى رسول الله أنهم متخلفون عن الأغنياء في مجال الإحسان! قد تجهمهم الصلاة والصيام ، ويتساوون في الأجر ، لكن الأغنياء يعشقون ويتصدقون ويجاهدون مآلهم ويمكنهم التفوق الاقتصادي من أعمال صالحة كثيرة ...

أرايتم فيم فكر فيه القوم ؟ أنهم لم يشكوا هيلة في الدنيا ولا غنا تزل بهم ، إنهم يفكرون في الآخرة ، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع رباني ...

جاء في السنة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال : « وما ذلك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ إلا من صنع مثل صنعكم » ! قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : « تسبحون وتكبرون وتصدون ثلاثا وثلاثين مرة دبرة كل صلاة » ! قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، يعنون أنه بقى لهم تفوقهم - فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » !

إن همه للمؤمنين تشدد الرغوان الأعلى ومنازل الآخرة ، وهذا الصبغة الربانية صانت الأمة الإسلامية في ميدانين مهمين :

الأول : في تلقى العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للأخريين ابتغاء وجه الله .

والثاني : في الجهاد المتفاني لرد أعداء الإسلام ، واستنقاذ دولته قائمة مع إلحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها ..

إن النجاح في هذين الميدانين استبقى أصول الإسلام ومعاله وغطى عيوباً كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم ، وشبهوات الحكام .

وأمر آخر يظهر في ثبات البناء الإسلامي على تراخي الأزمنة ، إن الإسلام عدل العمل للحياة عبادة ، وعدل المال قيام الحياة وسياجها وكان الصحابة يقسمون أيامهم ، فيجعلون بعضها للبقاء مع النبي ﷺ يعملون ويفتقدون ، والبعض الآخر للضرب في الأرض يكدحون ويكسبون ، فإذا غابوا عهدوا إلى إخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجد من وحى وستة ، ليعرفوا بعد عودتهم ما هالك ، ثم يردون الصنيع لإخوانهم إذا غابوا ...

ومن ثم لم يقع قط أن كان المسلمون في الشئون المدنية أخف كفة ، أو أسوأ حظا ، والدين لا يتم تحصينه إلا بدنيا قائمة ، وسناد مدني متين ... !!

## ٢٤. كيف بينى الإسلام المسلم القوي في مواجهة متغيرات العصر...؟

لا أظن الإنسان المعاصر يختلف عن الإنسان القديم الذى خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون! ولا أظن إنسان هذا العصر مكلّفًا بوظيفة أخرى غير الوظيفة التى كلف بها الإنس والجن من فجر التاريخ، والتى أوضحها القرآن فى هذه الكلمات الوجيزة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

إنه هو الإنسان السوى القوام، الخصب المواهب، المفضل على مخلوقات أخرى تملا البر والبحر، الذى حمل وحده أمانة التكليف، وقدر على الترفع والإسفاف والتقى والفجور..!

نعم، هناك أمور جديدة فى هذا العصر، فقد تقدم العلم، واكتشف كثيرا من أسرار الكون وقواه، وارتقت الصناعة، واخترعت الآلات وأجهزة رفعت للمعيشة، وسرت للإنسان فى خطاها ما كان يعجز عن تحصيله فى سنوات.. كما افتن الإنسان فى صناعة الآلات الفتك والدمار الشامل حتى لامت الحروب تؤذن بانتهاه العمران البشرى.. وزدهرت العلوم الإنسانية وطمحت أن تقود العالم أجمع فى شتونه الأدبية والاقتصادية والسياسية... إلخ.

ماذا يصنع الإنسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله..؟ إننى لحيرتى الحسنة بالإسلام لا أشعر بقلق ما على إيماني أو منهجي فى الحياة، لكننى أشعر بأن الإسلام هو الدين الأواحد لمواجهة هذا العصر! ليس عصر العلم؟ بلى، وكذلك ديني العلم الذى أماب بالناس أن يبحثوا كل شئ. ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ (٢).

إن العلم مؤمن لا ملحد، وهو يدعو إلى الإيمان لا إلى المروق! وما كفر العلم - فى

(١) الذريات: ٥٦.

(٢) الأعراف: ١٨٥.

الاعم الأغلب - إلا بما يجب الكفر به من كهانات وغرافات ومتناقضات! وأنا أؤيده فى ذلك كله..!

إننى أرى بلادة الكفر ضربًا من الحيوانية! أو هى اقتراب منه! أليس يقول ربى: ﴿إِنْ شَرُّ الدُّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الْعَمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣).

وقد تابعت استطلاع الآراء بين جماعات علمية فى أوربا وأمريكا فرأيت الكثرة الكبرى تؤمن بالله، ووجدت قلة متوقفة حائرة، ووجدت ندرة نافذة زائغة القلب لا عقيدة لها.. فالزعم بأن جمهور العلماء لا دين لهم كذب، أو شائعة تنشر لغرض خيسير!!

إن روحى تشقى المعرفة كما يشقى الجسم وجبة شهية، ومن محبة العلم يجرى هذا الدعاء ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٤)، وعلى المسلم إذا أحب مرضاة ربه أن يزداد تضلما فى العلم، واستكشافا لآفاته.

وما يسمى بالعلم للمادى - أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله - أرجع موضوعًا وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديمًا وحديثًا، ولم تكسب الإنسانية منها إلا الحيرة والجلد، والغرور.

أما التقدم الصناعى الذى نعم الإنسان وأراحه فهو خير كثير! وتعمة جديدة بالشكر الجزيل، ألم تر أن الله تبارك اسمه كى يرغب آدم فى الطاعة، أسكنه الجنة وقال له: ﴿إِنْ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (٥) وأنت لا تنظم فيها ولا تفصح! ﴿أى لا تتكلف الكدح فى وهج الشمس، فتتصبب عرقا ويحول لولك وراء لقمة العيش.

من قال: إن الإنسان يحب الوصب والنصب وركوب المشقات؟ إذا كان هناك ما يفتنى عنها!

والله الآن ينقل من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، وهو جالس فى كرسى وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب، تشق العاترة به الجو فثنا هو بعد ساعات بين أحبه!

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) طه: ١١٨، ١١٩.

ماذا كان يفعل أجدادنا عندما يفترون أقلامهم ، وتغير ملامحهم ويتعرضون  
للعنف في هذه الأسفار الممتدة؟

الحق أن هذا النتاج ليس لنا ما ينقصه إلا شكر الله على ما هدى وأسدى!  
وعلى المسلم أن يجيد هذه الصناعات الحديثة ، وأن يلف استخدامهما  
واستصلاحهما ، وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا  
يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَعْمِيلٍ وَجِبَانٍ كَالْجِرَابِ وَتَدْوِرُ رَأْسِيَّاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ  
شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١)

نعم إن المهارة في تلك الصناعات المدنية مهدد لا بد منه لإجادة الصناعات  
المعقدة التي تحتاج إليها حروب البر والبحر والجو .

إنني أكره الحروب ، ولا أحنى لقاء العدو ، ولكن ماذا أصنع إذا اجتاحت الطفلة  
دينى وبلىدى ، وأرادوا إثبات باطلهم ومحو حقى؟ ماذا أصنع إذا كان هناك من  
يعرق الثمار حتى لا يرخس سعرها ولا يرى أن يطعمهم الجياع؟

ماذا أصنع إذا وجد من ملأ من خير الله فمه ، فإذا حدثته من الله رد يده في  
فمى لأخرس عن الكلام .؟

لا حل إلا القتال ، ولا يقدر على القتال من يعجز عن صنع أدواته ، إن المهارة  
هنا دين ، والصبر جهادا وكما يقول شوقي :

الحرب في حق لسديك شريعة ومن السموم النافعات دواء:

من ناحية أخرى يجب التوبة بشأؤ الجيد الذى يلفته الحضارة في التنظيمات  
السياسية والاقتصادية والإدارية التي تحرك الجماهير ، وتوجهها إلى أهداف مرسومة ...  
إن من وراء هذا النجاح تقدماً عظيماً في دراسة العلوم الإنسانية كلها ، حتى  
كادت هذه العلوم تكون «الشرعية» التي تلتزمها أوروبا في أحوالها الخاصة والعامة ..

وهذه العلوم ليست إلا فروع الفلسفة القديمة بعد إدخال المنهج العلمى عليها ،  
أو بتعبير أصح على بعضها ؛ لأن هناك نظرات في علوم الشريعة والاجتماع  
والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية ..

(١) سبأ : ١٢ .

وأرى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقاتها في  
مبادئ الحياة ..

إن ضوابط الشورى هناك لمحت في محق الحكم الفردى . وإعلاء سلطات  
الامة ، لم لا نستفيد من ذلك؟

وحماية المال العام .. من الساسة المهرة في اختلاسها ، أو الموظفين المحبين  
للسحت . بلغت متهى الثقة ، لماذا لا نقفل القوم في تلك الوسائل الناجعة . ؟

لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الإنسانية وما نشأ  
عنها .. لأنه يقصر نظره على ما بها من أخطاء ، ولاه يرى أن هذه العلوم  
تتحدث في النفس الإنسانية والمجتمع البشرى ، وقد قال الدين كلمته في هذه  
النواحي كلها ...

ومعاذ الله أن نهمل كلمة الدين في قضية نفسية أو اجتماعية! إننا نقبس من  
جهود البشر ما يحقق الأهداف التي يتفق عليها العقل والنقل ، وإذا سبقتنا غيرنا  
إلى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به .!

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لأنه خيلة فارسية ، أو حيلة لم يالها العرب؟  
كلا ، والحضارة الحديثة - رغم مقابحها الكثيرة - تجاوزت مع العقل والفضيلة في  
ساحات علمية ودمتورية واسعة ، من حقى أن أتترك شرها وأقبل خيرها .

وبما يلفتنى إلى هذا أن الدين أصيب بتحدثين عنه يجهلون جوهره ، ويكتثرون  
للمظهر المصق به ، وليس غالباً منه .

سمعت رجلاً يقول بفخر إنه أقتع أحد الأمريكيين باعتراف الإسلام ، وإن  
الداخل في ديننا بلغ من تقواه أنه اقتنع بليس الجلابيب الأبيض!!

قلت له في أسى وسخرية : هل اقتنع بليس العقال؟ قال : ما تعنى؟ قلت :  
ما دخل اللابس في ديننا ، ولماذا لا تترك الرجل يرتدى زيه القديم ، ويعرف الناس  
من سمته وسيرته وشرف فكره وخلفه أنه مسلم؟

إن الإسلام لا يؤخذ من فقهاء البلبو ، ولا من عسكر الترك ولا من دراويش  
التصوف!





... (107) ...

... (108) ...

... (109) ...

... (110) ...

... (111) ...

... (112) ...

... (113) ...

... (114) ...

... (115) ...

... (116) ...

... (117) ...

... (114) ...

... (115) ...

... (116) ...

... (117) ...

... (118) ...

... (119) ...

... (120) ...

... (121) ...

... (122) ...

... (123) ...

... (124) ...

نريد حكاماً لا يعبدون أنفسهم! يبرهون من جنون العظمة وشهوة السلطة ، ويعرفون أن كل رئيس يجيء يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه ، فكه عدله أو أوبقه جوره كما جاء في الحديث الشريف .

إن حكام المسلمين من زمان قريب آذوا الله ورسوله ، واستهلكوا شعوبهم حتى فنيت أو كانت خصال الإباء والأففة ، لطول إذلالهم لمن أمر الله وأمرزهم لمن آذن الله !!

إن الإسلام وحده هو صانع هذه العناصر التي لا تتم لنا حياة إلا بها ، والأمير كما قال الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) .

ربما استطاعت أم أخرى أن تعيش قصيراً أو طويلاً وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء لكن أمتنا تحول مزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لا يدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإسلام ، وستلعب جميع المحاولات الأخرى سدى ، لامحالة .

ثم مَنْ مِنْ أهل الليل والنَّحْل ترك دينه؟ لقد أقبل اليهود في صوكب نظله صحائف التوراة والتلمود ، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود ، ورأى الناس بين القطبين الشمالي والجنوبي هذا الولاء الديني العاصف فما أنكروا له صيحة ، مع أنها صيحات جزائرين ، وديست مدننا وقرانا فما رثى لنا أحد !!

فهل كل ولاء مقبول إلا الولاء للإسلام؟ وهل كل حل حسن إلا الحل الإسلامي؟

لقد أن الأوان ليختفى إلى الأبد أولئك الساسة العرب الذين يكرهون الإسلام ، ويطلبون من أمتهم أن تدير ظهرها لكتاب الله وسنة رسوله ، الواقع أنهم ثرثروا أكثر مما يطاق ، وطال بقاؤهم أكثر مما ينبغي . .

على أن الحل الإسلامي المنشود يخشى عليه من التزوير في أيام اعتقلت فيها الحقائق ، وتجراً المفتون الكذبة على التزوير ، وتصوير الإسلام ديناً لا يحترم الشورى مثلاً ، أو لا يعترض استقلال النفوذ ، أولاً بكتراث لخصم الجماهير . .

إن الحل الإسلامي ، لا يحتاج إلى عبقرية في تصوره وتصويره ، لأنه سهل المأخذ

من مصادر الإسلام المعصومة ، الواقع أن العوائق دون تحكيم الإسلام خلقية لا علمية ، وأن الحل الإسلامي يعرفه أهل الذكر ، ولكن إبعادهم مقصود مرسوم . . .

إن «المراكسة» في الصين وروسيا ، شكوا من تحكّم الفرد ، ومع أن نظمهم بطبيعتها استبدادية ، فقد قرروا أن تلور شئونهم في وسط جماعي . يتم فيه تبادل الآراء والبحث عن الصواب . . وأسرة الدول الأوروبية تأبى أن ينتسب إليها إلا الحكام «الديمقراطيون» .

ليس هناك إلا العالم العربي والإسلامي الذي يعيش وحده في ضباب من الدعاوى والتزهات ، إنه وحده دون أنظار الأرض كلها هو الذي يقول فيه حاكم : أنا صانع القرار . . وهو وحده الذي يسمع فيه أن الحاكم لا يُسأل عما يفعل !!

إن الإسلام غريب في هذا الجلو الأسن الكريه ، والحل الإسلامي لا يؤخذ من أفواه الجهال والكذبة .



## ٢٦. ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل

### والنفس والمال؟..

ألف الناس أن تكون العبادات أقرب إلى شئون الغيب عنها إلى دائرة المنطق ، لكنى أرى غير هذا ، فأنا أنادى إلى الصلاة لا بديقات طيل ولا بزمارات إنفار ، وإنما صوت يشدنى من عقلى . . .

وعندما أنصرف من صلاتى لا أجزى إلا بما عقلت منها!

والدين الذى اعتنقته قام على معجزة عقلية ، تعرفنى أن الله واحد فى الأرض والسماء لأنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١).

وفى القرآن مشلت الآيات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة لاستدلاله ، ويعد عن الأوهام والظنون!

وقد أحصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الآليات ، وترى أنهم هم الناس حقاً وهل الإنسان إلا عقله؟ ما أصدق قول المتنبى :

نُؤَلِّمُ الْعُقُولَ لَكِنَّ أَفْنَى حَيْفِمْ  
أَفْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

ومن أجل ذلك يرى الإسلام ضرورة صفل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة إشراقه بأنواع العلوم والتجارب ، إن الأعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق مايفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم .

والحق أن الأمم تتقدم أو تتأخر بمقدار أصيبتها من العلم وقدرتها على تحويله إلى حضارة مشرمة . . والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرؤها فى الصحف . أما التخلف العقلى فستارة تسدل على الجواهر والعيون فلا تكشف سرا

(١) الأنبياء : ٢٢ .

ولا تدعم حقاً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمَ لَكُمْ قُلُوبٌ يَفْقَهُونَ بِهَا أَوْ أَدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١).

إن الأمم المتخلفة عقلياً كالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون فى وصاية الكبار حتى ينضجوا! وربما كرهت الأمم المتخلفة هذه المنزلة المهينة! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعاً أو كرها . .

وقد رأيت عابدين فى أفكارهم - لا فى قلماتهم - قصر فشعرت بخيبة الأمل ، لأن هؤلاء العابدين كانوا بلاء على دينهم ، وربما ضرره من حيث أرادوا نفعه ، لأنهم كالدبة التى قتلت صاحبها . . !

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة للتعبئة ، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس ، وعافية البدن ، ويحفظ بالزهد المسكرات والمخدرات والمفترات التى تنال من وعى المرء وكرامته ، ويحفظ قبل ذلك ويعدده باستفهام الرشد واستمداد النور منه سبحانه!!

وقد وردت فى ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها . .

ونتقل من صون العقل إلى صون النفس . إن احترام الإنسانية كلها يبدو فى

احترام فرد واحد قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾ (٢).

وجاء الإسلام فجعل النفس الإنسانية أقنس من الكعبة

المشرفة ومن الأشهر الحرم قال عليه الصلاة والسلام : «...إلا وإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمه يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال اللهم فاشهد . ثلاثاً . ويلكم . لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...»

ونظر عبدالله بن عمر إلى الكعبة وقال : ما أطيبك وأطيب ريعك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك ، حرمة دمه وماله وعرضه . . !

ومقتضى الإيمان ألا يكون المؤمن مصدر إفزاز أو ترويع لغيره ، ومن جوامع الكلم

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) المائدة : ٣٢ .

لرسول الله ﷺ «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» بمعنى كما تربط الأغلال يدي الرجل فلا يقدر على عمل شيء، يقيد الإيمان يدي المؤمن فلا يعتدي على نفسه، المؤمن أشرف من أن يفتك بأحد. ١.

وفي الحديث كذلك «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا، لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتروا في دم مؤمن لبيعهم الله في النار».

ويرى الإسلام من المحافظة على الحياة أن يعتنى المرء بصحته، ويستكمل أسباب عافيته، ويهتم بحواشيه وأعضائه وسائر بدنه، فإن البدن القدير على أداء الواجبات النافعة يشقى الأعباء من أجل النعم. ١.

وقد كان من أدعية النبي ﷺ: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعلنا الوارث منا» أي استبقها مادامت الأرواح في الأجساد حتى إذا متنا خلفناها في أبداننا فورثنا، يدل أن نزها ونحن على ظهر الدنيا..

ومن المحافظة على الحياة توقي الأمراض، وتناول الأدوية وقد رفض عمر السفر إلى أرض موبوءة بالطاعون! قيل له: نفر من قدر الله؟ قال: أفر من قدر الله إلى قدر الله!

وقد أصاب أمير المؤمنين السنة، وأخذ كلمته أحد العارفين فولد منها هذه الحكمة «الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله».

إن الله يهد للإنسان السبيل، وعليه بعدد أن يقدم له لأن يحجم، وهذا معنى قول الله في ذى القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤) فَاتَّبِعْ سَبَبًا (٨٥).

إن النفس شيء عال، وقد كرمها الإسلام فلم يهينها، وصانها فلم يضعها حتى تؤدي في الحياة رسالتها.

ويجنى بعد النفس المال، وهو قوام الحياة الشخصية والعامة، فما من أحد يستغنى عن المال لطعمه ويلبس ويقوت عياله، ويصون مروهته، وما من أمة تستغنى عن المال لتحتمي كيائها وتدير مصالحها، وتستبقى ذاتها.

(١) لكتب: ٨٥-٨٤.

ولذلك أمرنا بتأجيله وتنميتها، وهبتها عن جعله بين أيدي السفهاء، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الإفاضة منه قال تعالى ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (١).

ونظرا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الإسلام من صاحبه أن يرد عنه عنوان الغاصبين! ولو بذل دونه دمه!! روى النسائي عن مخارق بن سليم الشيباني أحد الصحابة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يأتيني ليأخذ مالي؟ قال: ذكره بالله! قال: فإن لم يذكرني؟ قال: فاستعن عليه بمن حوله من المسلمين! قال: فإن لم يكن حوله أحد من المسلمين؟ قال: فاستعن عليه بسلطان! قال: فإن نأى السلطان عني؟ قال: فقاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك، تحميه.

وقد روى مسلم في صحيحه حديثا يؤكد هذا المعنى، ويحكم بالشهادة لمن قتل دون ماله!!

وإنما ذكرنا ذلك ليحرف للمسلمون قيمة المال، وضرورة حفظه والذود عنه! ترى أيوصي الشارع بهذه الاستماتة في شيء تافه؟ كلا.. إنه لولا خطورة المال في الحياة الخاصة والعامة ما فرض القتال دونه.

ومعنى إيجاد المال وتحصينه إيجاد منابعه وتفجيرها، وهل منابع المال إلا الضرب في الأرض، واستغلال ظاهرها، واستخراج باطنها، واستشارة البر والبحر ليجودا بخيرات الله المودعة فيهما؟

وأحق أن المال سلاح رهيب، والسلاح ليجمل أو يعاب لذاته! ولكن يحمى في يد الشجاع للمنازع عن حقوقه، ويمن في يد الظالم المعتدى على غيره! إنه وسيلة إلى اجتهاد أو إلى النار، بطريقة استخدامه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٢) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٣) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (٤) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٥) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (٧) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (٨) !!

(١) لكتب: ٥. (٢) الليل: ١١٠-١٠٩.

وقد نظر بعض الجهال إلى المال في أيدي الأشرار ، وكرهوه لأنهم يستعينون به على الفجور والفساد ، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة في هجاء المال ، وحسن التخلي عنه حتى وهم العوام أن المال شرف في كل يد ، وأن البعد عنه غنمة . !!

ومعنى البعد عنه البعد عن مصادر كسبه ، وأسباب اقتنائه ، وشاع هذا الفكر الخوغائي بين الجماهير ، فإذا للسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الأرض ، ولا إجادة صناعة من صناعات السلام أو الحربا

وإذا هم يحسنون الصعلكة تقوى ، والافتقار في الدنيا هو الاغتناء في الآخرة ، وسجلوا في بعض كتب السنة والتصوف أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر!!

ونشأ عن هذه الجهالات السائدة في مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الإسلامي لأن مواهبه الدينية والمادية تبدلت وفسدت ، حتى الأقطار التي رزقت سعة في ثرونها تيسر لها ذلك من جهد الأجانب في تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها . !!

إن العقل الإسلامي تحيط به غشاوات سمكية ، ولا بد من تمزيق هذه الغشاوات إن أردنا الحياة ، ولا بد من مطاردة الخوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الشفافة الدينية ، وهم لا يصلحون لادنيا ولا لدين .



## ٢٧. ما دور الإسلام في ترشيد الضمير الإنساني...؟

نظرة الإسلام الأولى إلى القلب الإنساني - أو الضمير كما يقول علماء الأخلاق - فإن سلامة هذا القلب من العلل ، وثبات وجهته إلى الخير ، تعني الكثير من توفيق الله ورضوانه ، قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى هاهنا. التقوى هاهنا. ويشير إلى صدره... .

نعم فالصدر للنشرح بالحق ، المستقر على التوج يؤمن على الدقيق والجليل ، ويضع طابعه الطهور على كل شيء وتحفه بركات الله ، لأن صلته به قائمة دائمة . . ونحب أن نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليماً أو كيف يكون الضمير نقياً . .

المراء في طفولته ويقافته قد يحب الظهور ، ويسره سماع الثناء عليه ، وقد يبذل جهوداً شاقة في هذه السبيل . . إن الرياء ليس مستغرباً على الطبيعة البشرية ، فلإرضاء الناس هدف حقيقي في المراحل الأولى من العمر ، ثم يكبر المرء وتسمو نظراته ويتجه إلى الله ، إن المرأى لا يرى إلا الناس ، فهو يعمل لهم ، أما المخلص فهو يرى رب الناس ولذلك يعمل له .

ويتعهد الدين هذا التسامح ، فهو يوصي بتمحيض العمل لله ، لأن الإنسان إذا اشرك الناس مع الله في طلب الرضا رفض الله عمله!

إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده ، ومن ثم ترى المؤمن حقا يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس لم لم يروه ، وسواء أثنى عليه رؤساؤه أم ضاقوا به ، إنه يحسن الصنيع على أية حال وفي أى وضع .

والإنسان بطبيعته يحب أن يكافأ على عمله مادياً أو أدبياً ، وربما ترك العمل إذا لم يجد له جزاء عاجلاً ، وقد يتراخي فيه أو لا يكثر من إجادته إذا كان الجزاء قليلاً أو مؤجلاً . . لكنه إذا صدق يقينه أحسن أداء واجبه! وأخبر ثوابه عند ربه ، وعد مايقضه في اليوم الآخر أضمن وأبقى . !

عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال للأصار : انكم ستجدون اثره بعدى ! قالوا : فما تأمرنا قال : ادوا الذي عليكم ، وسلوا الله الذي لكم !!

الواجب يؤدى على وجهه الكامل ، وحسابي على الله والأمر له . !!

إن الانبعاث إلى العطاء يجب أن يكون بدوافع ذاتية ، غايتها استرضاء الله وإن جحد الخلق ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨) وما لأحد عنده من نعمة تجزي (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) وتسوف يرضى (٢١) .

قال المؤرخون : لاحظ صلاح الدين وهو يقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين في معسكرات الأعداء مختلفة وراءه الدمار والقلق ! وبينما هو يقرب جهة العدو لاحظ أن النار بدأت تشتعل ، ورمى الفاعل - بعد ما بدأ الحريق - يتحيز إلى جند المسلمين ، فأمر فجأة به ، فلما مثل بين يديه قال له : ما اسمك؟ قال الرجل : يعلمه الله قال له صلاح الدين مطمئنا : إني أريد مكافأتك! قال الرجل : لو أردت المال ما جئت هنا ، وانصرف لشأنه!!

هذا جندى باسل حضر الرغى ليقاتل في سبيل ربه ، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله إليه ، فلما استدعاه السلطان كره أن ينال على جراحاته ثمنا . . . حسب ما عند الله!!

والحق أن انتصار المسلمين ، وفتح بيت المقدس ، وكسر حدة الغارة الحاقدة ، وجمع فلول الأمة للمزقة كان من ورائه عدد من ذوى الضمائر الموصولة بالله الراجعة إليه ، قامت بعملها في صمت وعزلة وعفة . !

لعل السلطان نفسه كان يقضى الطريق لهذه القلوب الطيبة حين قرر أن يشارك في حمل الأحجار على عاتقه بكرة وأصيلا ، ولو شاء لأصدر الأوامر وراقب المتفادين ، إنه أبى إلا أن يسد الثغرات ويشد أخمصون نفسه مع جيشه!!

وتدبر عبارة القرآن في وصف هذه الضمائر البارة من العلال قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ . . . نسليم من أوصار الغش

وجنود العظيمة ولقت الأنظار! إن الشخص الذى لا يعمل أو لا يجيد عمله إلا ابتغاء ثناء يسمعه ، لو مال يأخذه لن يعمل شيئا طائلا إذا انقطع الثمن ، وابتعد الناس! ومعنى هذا أن الخير عنده غرض عابر لا باعث أصيل ، إن قلبه في الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتي إليه ، إنه قلب غير سليم .

وربما خامرت القلب تطلمات دنيا إلى مال أو جاه ، بيد أن الإيمان يطاردها ويبقى الضمير متشبهاً بربه مؤثرا له وهذا معنى قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٦) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٧)﴾ .

إنه ليس غريبا على النفس أن تحب المال والجاه ، بيد أن هذه المحبة يجب أن تهزم أمام وجه الله وارتقاب جداء!

ولو تقنيا عن أسباب الزلازل التي تهز كيان الأمم لوجدناها تلك الضمائر الميتة ، تلك القلوب التي تيبست ، فهي لا تروح بنبل ولا تهش لفضيلة ولا تشمئز من فيج .

وقد ذكرت السنة الشريفة أمثلة للضمير الحى عندما يتغلب على المفريات ويهزم الوسوس ويسبح بقوة ضد التيار وينجح!!

فحين أبى ذر رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يعصبهم الله، وثلاثة ييغضهم الله .

فأما الثلاثة الذين يحبهم: فرجل أتى قوما فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم، فمضوه فاستخلف رجل باعقائهم، فأعطاه سرا، لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه .

وقوم ساروا إليهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يمشق ويبتلو آياتي...!

ورجل كان في سرية فلقى العدو ، فانهزموا ، فأقبل يصدره حتى يقتل أو يفتح له .

وأما الثلاثة الذين ييغضهم الله فالشيخ الزاني ، والفقر المختال ، والغنى الظلوم...»

وظاهر أن الثلاثة الآخرين مانت قلوبهم . فاستمرهوا الرذائل مع ضعف الأسباب التي تدفع إليها .

ومن صور التضامات الحية ، مآذكرته أحداث أخرى ، عن الرجل يقدر على الفاشحة ، ولكنه يلوس مغرياتنا ، ويستبقى نفسه طاهرا ، وصلته بالله زاكية .  
وصورة هذا الرجل الذي استأجر عاملا عنده ، فأدى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل أن يأخذ أجره وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذي تركه من زمن بعيد!

كان رب المال ، قد أدار الأجرة في عمله فتمت حتى أمست ثروة فلما جاء العامل أعطاه الأصل والنماء ، والعامل مدعوشا  
إن الإيمان يضع ضوابط صلبة للسلوك ، ويجعل من القلب ديدنا صاحيا يحرس الحقوق والواجبات ، فلا حيف ولا فوضى .!

وبعض الأنظمة تجعل من سلطان الدولة شيئا رهيبا يحمل الناس حملا على العمل ، والإنقاذ فهل تم ذلك؟ لا ، لأنه ليس في مقدور نظام ما أن يضع شرطيا مع كل عامل في الأرض أو في المصنع لينشط ، ومع كل مقاول حتى لا يفتش ، ومع كل طبيب حتى لا ينهاون ، ومع كل تاجر حتى لا يحتكر ، ومع كل رئيس حتى لا يستبد ويظلم .

وإذا خان الشرطي فهل نحى له بشرطى آخر؟ قد يقال : إن رفع المستوى الثقافي وتبصير الكبار والصغار بما ينبغي وما لا ينبغي يمكن أن يمنع هذه المحلورات .  
والواقع أن الجرائم الكبرى لم يفتقرها إلا مجرمون على حظ كبير من المعرفة ، وأن النضج العقلي لا يستلزم الطيبة والإخلاص والشرف ، وكمن أذكيا أساءوا إلى أنفسهم وأنهم .! ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضل الله على علمه وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (١)

إن القلب النقي ، الغيور على الحق الحريص على الشرف ، القاهر للأثرة ، المحب للناس لا يصنعه إلا إيمان وثيق ، وتعلق بالله وحده .

والواقع أن حديث القرآن من الله سبحانه وتعالى وعن تاريخ الماضين الطويل ، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب ، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة ، إن ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب ، واتجاهه الثابت إلى الحق والخير .

## ٢٨. موقف الإسلام من العنصرية السائدة في بعض الحضارات؟

ظهر خلال هذا القرن الزعيم الألماني «هتلر» يزعم أن الدم الأرى أرقى من غيره ، وأن الشعب الألماني بطبيعته يرجع غيره من الشعوب السامية - يعنى اليهود والعرب وأشباههم - وتحول هذا الزعم إلى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الألمان ومن على مستواهم .

وهذا كلام خرافي لا وزن له! وإن كان راسبا لا في نفوس الألمان وحدهم ، بل في نفوس الأوروبيين وأفراد الجيش الأبيض عموما!

إن بنى آدم من ناحية الخلقة يستون في أنهم نفخة من روح الله الأعلى حلت في إهاب من تراب هذه الأرض ، فالبشر كلهم ينميههم أصل واحد ، ويجمعهم نسب مشترك . قال تعالى يشرح تلك الحقائق : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (٢) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٣) ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٤) .

لا فروق بين جلد أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر ، إن هذه الألوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف في ألوان الأزهار والورد ، ولا دلالة على عراقة أو نقاعة .

بيد أن كثيرا من الناس يسره أن يختلفوا من عند أنفسهم هذه الفروق ، وأن يقيموا حولها عصبية ، وأن يجعلوا لها وزنا خاصا في التقديم والتأخير ، والقبول والرفض!

وقد رأيت البعض يتشبث بهذه الأوهام لأنها رجحت كفته دون جهدا ومنحته



شرفاً جعله - دون حركة - يسبق الناشطين! إنه لشيء ظريف أن يحسب المرء سيده لأنه يكون في بطن معين، ونشأ الناس من ماء مهين، أما هو فمن ماء شريف.

إنه - مع احترامنا لقوانين الورثة - نقرر أن الورثة لاتشع عظمة ولا تكسب نجاحاً، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة، وهناك فجار من أصلاب أنبياء، وقد كان أبو الطيب شاعراً مقلداً من أب لا يعرف شعراً ولا نثراً، وكان أبو العلاء فيلسوفاً متشاكساً من أب لا يدري شيئاً من الفلسفة..

ثم إن روافد الورثة غامضة المتبع ولكنة في أبناء الجيل الواحد، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة أحبت عبقرياً دميماً وعرضت عليه الزواج ليتجبا ابناً يرث جمالها وذكاءها! فقال لها الرجل: أخشى أن يرث خباياك ودمامتي!!

إن القول بأن جنسا ما ذكى بأصل الخلقة، وجنسا آخر غبي بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر، إن ظروف البيئة هي التي تصنع الأعاجيب، وهي التي تسمى المواقب أو تقتلها، بل هي التي تحيي الفطرة أو تميتها.

والجنس الأبيض الذي يعمر غرب أوروبا وشمالها، والذي يفرض وصايته على العالم كله، كان أياما طويلا يشتهر بالغباءة والانحطاط، وقد نقلنا في كتابنا «مع الله» كلام المستشرق «فيليب حتى» عن تأخر الأوربيين الحضاري وتثوق عرب الأندلس عليهم... في الوقت الذي كانت فيه جامعة «أكسفورد» ترى الاستحمام عادة وثنية، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام في مؤسسات فاخرة... ويدلنا على موقف العرب حيال برايرة الشمال - هكذا كان أبائنا يسمون سكان أوروبا - وفكرتهم عنهم ما ورد في كلام عالم «فيلطلة» صاعد القاضي المتوفى سنة ١٠٧٠ م فقد كتب عنهم: أن إفراط بعد الشمس عن مسامة رعوسهم يرد هواهم وكشف وجوههم فصارت لذلك أمرجتهم باردة وأخطا لهم نجة! فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسلت شعورهم واتعدمت قدة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيه العمى والغباءة!!

أرايت هنا الوصف؟ إنه لاهل أوروبا الذين يقودون العالم الآن، وليس للهنود أو الزنوج العرب... أو بقية العالم الثالث!!

والعالم اليوم ينظر إلى هزائم العرب أمام اليهود، ويتسم ساخراً...! وقد كان أباء أولئك المهزومين يحتفرون الجبن اليهودي ويبرعون منه، ويقولون لنبيهم في أول قتال له مع الوثنية: لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وريك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!

بل اذهب أنت وريك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، إن خضت بنا هذا البحر خضناه معك، ما يتخلف منا أحد!!

إن الإسلام بين أن الأفراد والأجناس يصنعون يومهم وغدهم بأنفسهم، وهم في سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق، ﴿إِنَّمَا لِإِخْوَى الْكَبَرِ (٢٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٢٦) لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقِدْ أَوْ يَتَّخِرْ﴾ (١) فقد يسبق الأسود في الدنيا والآخرة، أو يقع العكس! وقد ترجع كفة رجل من سواد الناس، وتطيش كفة آخر من أبناء الرسل، أو العكس! ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن تَقَلَّتْ مُوَاظِنُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٧) وَمَن خَفَّتْ مُوَاظِنُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بَعَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ (٢٨)﴾.

وجاء في السنة أن النبي ﷺ نيه قومه: لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم وقال: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وهذا مصداق الآية الشريفة ﴿لِذَا نَعِ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَتَسَاءَلُونَ (٢٩) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ (٣٠)﴾.

ومع كثرة ما نبه الإسلام إلى مبدأ ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٣١) لوحظ أن العرب يغالون مغالاة منكرة بالأنساب والحِرَف، ويجعلونها محور تقدير جائر وعصبية عمياء.

الزراعة مهنة تافهة، وكلمة فلاح لامرئ نازل المرتبة، وقد كان الفرزدق يهجو جريرا بأن أباه حداد! أما هو فإن الذي سمك السماء بنى له بيتا دعائمه أغز وأرفع! ثم؟ بخير شئ!

(١) المذكر: ٣٠-٣٥  
(٢) الأعراف: ٨-٩  
(٣) المزمون: ١٠١  
(٤) الأحلاف: ١٩  
(٥) الحجرات: ١٣

وفرضت تقاليد البلد نفسها على المجتمع العربي، بل على جانب من الفقه الإسلامي، فإذا عدد كبير من رجال الفقه يرون أن الهاشمية لا يكاثفها عربى عادى، وأن العربية لا يكاثفها أعجمى، وحكم القضاء الشرعى بتطبيق فتاة من أسرة شريفة النسب تزوجت بالشيخ على يوسف محرر صحيفة «المؤيد» للشهيرة.

أما حديث الرسول ﷺ: «إذا تأتاكم من ترصون دينه ومروءته لمزوجه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، فقد وضع على الرفا

وكما تسلك هذه التقاليد إلى مبدآن الفقه تسلك إلى مبدآن الحكم والسياسة، فكانت عصبيات القبائل قلبا وعصبيات الأسر حديثا من وراء طلب الرئاسة ويسط النفوذ.

وعندما يبحث سبب فساد المجتمع الإسلامي وانهيار الحضارة الإسلامية عموما، فتكون هذه الجاهليات من أبرز العلل.

وإلى يوم الناس هذا لا تزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب! ذلك في وقت يشع في أرجاء العالم تنافس لا حدود له في البحث العلمى والإنتاج الفزير، وتعويد السلع، وكشف المجهول، ومراقبة الخصوم، وكسب الأصدقاء، إنه تنافس ترتبط به مصائر أم ومستقبل رسالات! ترى ما موقفنا؟

جاء في السنة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا إلا نى جعلت نسباً وجنته نسباً، جعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأيبس! إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان! فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم، أين المتقون؟»

وعن جابر خاتبنا رسول الله في أوسط أيام التشريق خطبة الرودع فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد! إلا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لجمعى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر! إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إلا هل بلغت؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال: فليبلغ الشاهد الغائب...»

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال: «ليبتنهن أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدرج تحت يأنفه: إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية أى كبرها، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى، الناس بنو آدم وأدم من تراب...»

## ٢٩. ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة،

### السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها،

### كالرسم والنحت والتصوير؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمى باهر، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث الفنى والتجارب الغالية! ولم يكن عجباً أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية في ترقية نفسه وترقية معاشه، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف في تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعى على الناس!

وأحسب أن التقدم الصناعى العام وفر للجماهير متعا ما كان يحصل عليها الملوك الأقدمون! الأطلعمة أنعم، والأشربة صنوف، والملابس تفضل الحرير نسجا ولونا ورقة، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير، والقيان التى كانت تغنى في مقاصير الأمراء انتقل صوتها إلى الأكوخ، ونام على لحنها العمال والفلاحون، والمرء في المشرق يكلم صاحبه في المغرب بثمن ميسور، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى، وملكو غدا أنصبة أكثر..!

ومع هذا كله فالأعصاب مشدودة، والأطعام طاغية، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة للكثير الموجود، وتحاسد الأفراد والأقطار أشعل البغضاء هنا وهناك!

وقبل في وصف العالم: إن عضلاته أكبر من فكره، ولو أنصفوا قالوا: إنه عالم يذكر نفسه، وينسى ربه، ويوجد حقه، ويمارى في لقائه، ويظن أن هذه الدنيا كل شىء، فلا امتداد لوجود آخر، ولا حياة إلا هنا...!!

وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطبيعتها! إن الله استضافنى في كونه وأطعمنى خيرها فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبدول، ومن السفاهة كذلك أن أخس بشكر النعم!

إن الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل ، فهل هذا ثم فادح ؟

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١) .

على ذلك الأساس أنظر إلى ماقدمته الحضارات قديمها وحديثها ! إنه - كما علمنى الإسلام - لى وليس لغبرى ، أليس يقول الله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢) ؟

ومن ثم فالأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحرم إلا بنص قاطع ، والواقع أن نفراً من سوداوسى المزاج أولعوا بالتحريم ، ومنهجهم فى الحكم على الأشياء يخالف منهج نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام الذى ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن أثماً ، فإن كان أثماً كان أبعد الناس عنه ، روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن فوما تشددوا على أنفسكم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والأديرة ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم .

وقد أشاعت المدنية الحديثة «الراديو والتلفزيون» وغيرهما من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وأن المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الفسار .

لقد كان من المستطاع أن تتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة وتذوق الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق ، ودعم التقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن ندرّب الألوف على إتقان حرك نحن محتاجون إليها ، وأن نرفع مستوى الأداء لأشغال كثيرة ، فإن البطالة السائرة والمفنة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا وأوقفت مسيرتنا ، إن وسائل الإعلام لو أحسنّا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لاستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدها .

فد يفهم من ذلك أنى أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس - لا ، ولكنى ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغنى كثيرا ، والاستجمام حق المرهقين لا حق القاعدين !

أما الغناء فكلام ، حسنة حسن وقبحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناه شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه ، وما نحارب إلا غناء هابط المعنى واللحن .

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق ، وقد احتج البعض بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١) وإذا تلى عليه آياتنا وكفى مستكبرا كان لم يسمعها ... (٢) .

ولعمري أن من يشتري جد الحديث أو لهوه للأسباب المذكورة فى الآية جدير بسوء العقاب ، أما من يبيع أعصابه المكثوبة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للآية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشتري مصحفا للإضلال فهو مجرم .

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش .. وما يشاع عن البيعة الفنية من تحلل ، هو الذى جعل عددا من العلماء يحرمه ، وإلى هذه الجملة من الفرائض يشير حديث البخارى إلى من يستحلون الخمر والخمر والمعارف ..

بيد أنه ليس من الضروري أن تجتمع هذه العناصر كلها عند سماع أغنية . وعلى أية حال فإذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما إذا برئ منها فلا شئ فيه .

والموسيقى كالفناء وقد رأيت فى السنة أن النبی ﷺ منح صوت أبى موسى الأشعرى - وكان حلوا ، وقد سمعه يتغنى بالقرآن - فقال له : «لقد أوتيت هزمارا من مزامير آل داود ! ولو كان الزمار آلة رديئة ما قال له ذلك ..

وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج ، ولا أدرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها ؟

على أن الألمان تختلف في تأثيرها وصدادها النفسى ، فإذا كان هناك مجال  
لاعتراض قُلى الأصوات الخنثى والألحان الطرية المائعة .

ونعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجلد والقليل  
من اللهو ، ولورزقنا بفنانين ذوى شرف ومقدرة لا يمكن تحويل الفنون إلى عوامل  
للبناء لا للهدم ، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهانة الفرائز الدنيا .

أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين : الجسم الذى يصنعه للمشاكل الآن  
لأغراض شتى والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك .

والتصوير سواء كان شمسيا أو قلعيا هو جزء من الطب والأمن والعلوم الكونية  
والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم  
« إلا رماهى ثوب ، ولحديث زرين سئل ابن عباس عن آجرة كتابة المصحف ، فقال :  
« لا بأس إنما هم مصورون ، وإنهم إنما يأكلون من عمل أيديهم » .

ولم يقل أحد إن صورة الوجه فى المرأة محرمة ، ولا يقول أحد إن إثباتها بطريقة  
أو بأخرى تحول المباح إلى محرم .

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الإسلام كصور  
بوذا ، أو إبراهيم ، أو صليبا النصرى ، أو أى شعار دينى يخالف التوحيد .

كما يحرم أى تصوير يخل بالأدب ، ويحرك الفرائز إلى المعصية .

أما التماثيل المصمتة فإن النصوص الواردة تتظاهر على رفضها ، ما لم تكن  
الأعيان للمصيبة أو عرائس هزلية ، كحلوى المناسبات المختلفة ، فإن أحدا لا يفكر  
فى توقيرها أو عبادتها .

ولقد رأيت بمعنى من يعبدون هذه الأصنام فى جنوب آسيا ، ورأيت فى مصر  
من يحيى يشعشع عمالا لعبد الناصر!! وذلك أثناء نقله من مكان إلى مكان .!!

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما  
أو كان رسما على ورق ، وأخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملاسبتها  
سببا فى ضياع الدين والدنيا معا!

ولنضرب مثلا بالروايات التى جاءت فى قضية البناء! روى الشيخان عن عذاب  
ابن الأرت قال: « إن المسلم يؤجر فى كل شئ ينفعه إلا فى شئ يجعله فى هذا التراب! »

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « النقة كلها فى سبيل الله ، إلا  
البناء فلا خير فيه! »

وأخرج داود عن أنس أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « ما إن كل بناء وبنا على  
صاحبه إلا ما لا بد منه . »

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : مرى رسول الله ﷺ وأنا أطين حائطا  
من خصر ، فقال : ما هذا يا عبدالله؟ فقلت : حائط أصلحه! فقال : « الأمر يسر من  
ذلك ، ونى رواية : « ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك! » يعنى الموت أو الساعة!! والحديث  
رواه أبو داود وصححه الترمذى!!

هذه الآثار كلها لو أخذت على ظاهرها ما بنيت مدينة ولا قرية! ولعاش الناس فى  
أكواخ لا تستر العورات إلا بجهد!

والواقع أنها واردة فى المكاثرة والمفاخرة والاستطالة على الناس! وبناء القصور  
جائز بلا ريب!

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقا يحرمون بناء القصور؟

إنهم فى بعض البلاد لا يزالون يرون الصورة فى التلفزيون محرمة ، وأقمار  
الأجانب تلتقط الصور لنا فى أيام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندرى  
أولا ندرى .



### ٣٠. كيف أعلن الإسلام حقوق الإنسان...؟

خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان ، ولتسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان! ومع أن الإنسان يعاني على الأرض ما يعاني فهو مع بني جنسه إذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١).

ولكن التأمل في تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنها الذل والضياع! ربما أزهلها الجوع والدواب تجرد ما تأكله! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة أسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد من الذي أنزل بالبشر هذه الكوارث؟ لم يفعل ذلك ملك ولا جن ، لم يفعل ذلك ماء ولا هوا!

إن الذي فعل ذلك بعض البشر ، ناس لديهم فضول سلطة أو ثروة ، استغلوا سلطانهم وغناهم في إيذاء الآخرين والحقف عليهم .

ومضت قافلة البشرية من قديم تتعسف الطريق ، وتكابر الوحي ، وتعارض الإنصاف ، وتدنن الأخلاق ، وتغرض الأهواء .. وأخيرًا استطاع نفر من أولى العزم وحمة الحقيقة أن يقلعوا الأظفار الحادة ، وأن يروضوا الطبايع النهمه ، وأن يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمي الضعفاء ، وتضمن الحقوق في أسلوب مفصل أوحى به سلسلة التجارب الطويلة في محاربة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والانحراف الخلقي .

وعندما ننظر إلى المواد التي تضمنتها هذه الدساتير نعرف بدقة ما هي الحقوق التي يطلبها الإنسان والتي لا يزال الكثيرون يشكون فقدها ! .

إن المادة الأولى في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان تنص على أن الناس يولدون أحراراً ، يتساوون في الحقوق والواجبات ، وكون الناس يولدون أحراراً متساوين كلمة نطق بها عمر بن الخطاب رجباً لا لا إعداء ولا تكلفاً ، بل انطلاقاً من الفطرة الإسلامية ! .

(١) الإسراء : ٧٠ .

ولكن هذه الكلمة ظلت دوماً نظرية خيالية! فكم من أناس ولدوا ولهم حقوق ليست لغيرهم ، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم ، وكم من وظائف تفوتت الفرص في شغلها ، واختير لها من ليس لها بأهل ، ولا تسئل كيف؟ فإن ناساً قبلك تجربوا على السؤال فلم يوقف لهم على أثر أو عاشوا ناكسٍ رؤوسهم لغرط ما حل بهم ، إن القدرة التي يملكها البعض ولا يدري كيف امتلكها . فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها ، ومع أنه الله - وهو المقتدر الأعلى - لا يظلم أحداً في الملوك الذي نفرد بحكمه ، وقال : ( يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي فلا تظلموا ) ، مع ذلك فإن ملاك السلطة والثروة دأبوا على الظلم في أقطار كثيرة ، وبعد لأي قدورت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التي وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرة ... !!

إن حقوق الإنسان ولدت في ديننا مع النطق بكلمة التوحيد ، فعندما نؤمن بالله الذي لا يعيد غيره ولا يشرع غيره ولا يحكم غيره ، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية!!

نعم ، إن الإيمان بوحداية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمر ، والإحساس بأنه - وحده - لضر النافع الخافض الرفع للمعطل المانع ، إن ذلك يمنح الإنسان حرية واسعة تجعله لا يبالي بطواغيت الأرض كلها ، لأنهم مهما فحش سلطانهم ليسوا إلا عبيداً لربه .

ونلاحظ أن القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مرة ، ذلك لأن الفرعون مريض نفسي شائع بين الحكام المستبدين ، وتأمل قول فرعون لقومه : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (١) وقوله للسحرة لما آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا : ﴿ انْمُتْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَذْنُ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْضِيَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي يَدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَتْنَاهُ عَذَابًا وَابِقًا ﴾ (٢) . . . إن ذلك الفرعون السفيف يرى ألا رأى إلا رأيه! فهو وحده الذي يصنع القرارا ويرى أن من اعتنق رأياً قبل أن يستأذنه مخطئ متعمد! إنه ملك الضمائر والسرائر ، والناس عبيد إحساناته . !!

ولكي ترقى الإنسانية هذه الوثبة : شلخت الدساتير الحديثة في أمر الشورى - وإقرار أوصى الأمر بها - كما وضعت قيوداً جديدة على التصرف في المال العام ومنع العيب فيه .

(١) غافر : ٦٩ .

(٢) طه : ٦٩ .

وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل إنسان في محاكمة عادلة ، فلا يحبس أو يعتقل أو يؤذى جوراً وظلماً ، وإنما يبقى إنساناً مصوناً حتى يصدر القضاء النزيه حكماً عليه فيؤخذ به وحلماً

إن الرسول رأى وحشياً الذي قتل عمه حمزة أحب الناس إليه فما استطاع أن يسيء إليه بكلمة بعدما أسلم .

ورأى عمر بن الخطاب رجلاً كان قد قتل أخاه في الجاهلية ثم أسلم ، فقال له عمر : والله لا أحبك! قال : أظنك تمنعني حقى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا . قال : لا خرج إذن ، إنما يأبى على الحب النساء!!

الحق أن سنة الرسول ﷺ وتقاليده الخلافة الراشدة كانت نموذجاً أعلى لاحترام الإنسان والمحافظة على حقوقه ، كان النبي يدعو من له مظلمة عنده أن يقتصر منه ، ويأخذ حقه! وكان خلفاؤه كذلك ، وقد رفض عثمان أن يستنصر أهل المدينة خصوصاً قبيلته . للدفاع عنه ، حقنا لدماء من استباحوا دمه!

ولو كان في الحكم رجل آخر لأهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه!!

في هذه البيئة الحرة تربى الرجال الذين هدموا القيصرية والكسروية ، واستمع التاريخ إلى رجل منهم يقول في أرض فارس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحدهم! جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام!

كانوا يدركون أن الوجه الآخر لكلمة التوحيد هو حقوق الإنسان ، الإنسان الذي لا ينحني إلا لربه وحلماً

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد الفد لتكوين الأمة المسلمة العارفة بربها السيدة في وطنها التي لا يجار عليها ولا يستباح حماتها ، وقد كره الإسلام الاستضعاف ، وعزم على المؤمنين أن يكون حمى الأنف عزيز الجانب!

فإن ضاقت به أرض فليرحل إلى غيرها ، وليبق كما كتب الله له قوماً أبياء ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ... ﴾ (١)

على أن الرحيل لا يسوغ أن يكون فراراً من مقاومة ممكنة ، جاء في خطبة لأبي بكر الصديق . . . إنا سمعنا رسول الله يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب» . أو أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدر من على أن يغيروا فلم يغيروا! إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب» .

والواقع أن الظلمة من أجبن الناس ، ويوم يحس أحدهم أنه إذا ظلم أحداً ارتدت النعمة إلى خده ، فكر ألف مرة قبل أن يعتدى . إنهم لا يزارون إلا في الحلاء ، ولا يمتدون إلا في الفراغ والويل للشعوب الجبانة!!

للإنسان حقوق سياسية تجعله يتقذ أي خطأ من السلطات كلها عليها وديارها دون أن يلحقه أي ضرر ، وله أن يتولى أى منصب تؤهله له كفايته دون أن يقفه عائق ما . وأساس ذلك أنه ليس لأحد بعد رسول الله عصمة تعلو به على النقد ، وأن المناصب أمانات ينالها الجدير بها ، ويعد عنها من لا يستحقها .

وللإنسان حقوق مالية تفرضها له الأخوة العامة بين المسلمين ، وقد أشرنا من قبل إلى أن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلط عليه . قال ابن حزم : ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه! وذكر ابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب وقد أصابت الناس أزمة أن عمر قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالمر تفلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم! .

والناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعاً ، يسور الأخذ ، يستير به الذكر والأنثى ، والغنى والفقر ، فطلب العلم فرضة كما جاء في السنة الشريفة ، وما تضيع ملكات الإنسان ، ويخصب تفكيره وشعره ، إلا بأمداد لا تنتهي من المعرفة . ١ .

والمستغرب أن الإنسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيداً عن دينه وينبت في غير مغاربه ويحكم بغير شرائعه .

الشعوب هنا تختار حكاهم وتباعد عن مستهم إن ستمتهم! أما عندنا فالشعوب تقاجأ بحاكميها كما يقاجأ المريض بعله لا يعرف كيف الخلاص منها!

وعندما وقعت مذابح لبنان تظاهرت الألوف غضباً في كل عاصمة إلا في العواصم الإسلامية ، لأن التظاهرات تنوعاً من يلقي؟ إن الشجا يبعث الشجا ، فقد تحول هذه التظاهرات ضد احكام بفعل فاعل!! فالأفضل أن تمتع ، والرؤساء المحبون سيؤدون الواجب!

### ٣١. هل مسؤولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامي وحده أم تجاه المجتمع البشري كله.. كيف؟

معرفة الإسلام تجعل ولائى للناس جزءاً من ولائى للدين الذى أحبيته  
فأنا لا أشعر بانقطاع فى هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت أحد الشيوخ فى أثناء الدروس يقول : نحن المسلمين أمة الإجابة ،  
وغيرنا من أهل الأرض أمة الدعوة قلت : ما معنى هذا؟ قال : إن محمداً ﷺ دعا  
العالمين إلى الله ، فنحن استمعنا إلى النداء وأسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله  
تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا  
ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّافًا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (١) فنحن أمة الإجابة!!

أما غيرنا مدعو مثلاً ، ولما يجب بعداً لعل النداء لم يصل إليه ، أو لعله وصل  
إليه مشوها لا يحرك دواعى القبول ، وأياً ما كان الأمر فهو مدعو!

وعلى أن أبلغه ما يجهل ، وأن أثير فيه دواعى التصديق ، لقد عرفت الحق قبله ،  
فأمنت ، ولست أولى منه بذلك الخير ، وقد يكون خيراً متى لو عرف ما أعرف ،  
والواجب يفرض على أن أكون صورة مرغبة لا صورة منفرة ، وإلا كنت مشغولاً عن  
إصلاحه ، أو حاملاً أوزاره؟!

ومن المزن أن عدداً من علماء المسلمين شغله الترف العقلى فخان أمانة الدعوة  
والبلاغ ، وأن عدداً من حكام المسلمين شغله المجد السياسى ، فما أحسن خدمة  
الحق ولا جذب الانتباه إليه! ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الإجابة وأمة الدعوة  
كانت مليئة بالخصاص ، بل كانت مخضبة بالدم!

قد تقول : أهذا كل ولائك للإنسانية؟ وأجيب للفقور : لا .. لا تس أى حسن  
الظن بالفطرة الإنسانية نفسها ، لأنى مسلم أعلم أن الصفة الأولى لدينى أنه دين

الفطرة! إن الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه إذا أدر كرها .. ويوم تخف  
قبضة الموروثات الرديئة فإن الجماهير ستكون قريبة منى أو أكون أنا قريباً منها .

ولو خلى المرء وفكره لانيه إلى إله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب  
الوحيد ، ولو خلى المرء وفكره لأثر الزواج على المعسر ، والصحو على السكر ،  
والإخاء على الأثرة ، والصيحة على الفش!

أتنى حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادي أنها كالشمر الذى ينبت جميل  
الرواء شوى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، إن  
هذه الأمراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كى يحموا  
محاصيلهم ، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد  
تلتهمها الأوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زانقين!

وماذا يفعل أولئك الصغار إذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم أنه لا إله ، والحياة  
مادة؟ أو سمعوا أن الآلهة شركة مقرها جبل أوليب أو صحراء الجزيرة أو فوق  
السحاب؟ إنهم يكبرون زانقين .

أترانى أنافع عن ذلك الانحراف؟ كلا ، وإنما أذكر الواقع المجرد! والذى  
أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تلك بها حق الاعتراض على الباطل الذى  
يعرض أو يفرض عليها ، وأن هذه الخصائص من القوة حيث يعد إعمالها تقصيراً  
سيئاً وأساساً لمسألة عادلة يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ وَرَأَى أَخْذَ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ  
مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١٧٧) أو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً  
مِنْ بَعْدِهِمْ فَتَسُبُّهُمْ إِنَّمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١٧٨) وكذلك تفصل الآيات وتعلمهم  
يرجعون ﴿ (١) .

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الإنسانية قادرة على المقاومة  
والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافة ، ويتشبث بالحقائق ، يجب أن يرفض  
الضمير البشرى الإثم ويتشبث بالير والطيبة .

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة ، جاءت مجلدات من الخلق لمحوته كي يؤدى وظيفته ، ويبقى الإنسان إنسانا ، يعرف به ويؤثر حبه !!

وإذا كان الوحي الإلهي غير كاف في إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده ، أحاطت بالأفراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترقق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لولاها ومناشدته الرحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالنَّاسِئِ وَالضَّرَءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ (١) .

ومع ذلك فالفطرة وحدها لا تحط في كل شيء ! إنها تخطف وتصيب ، وتجور وتستقيم ! ودورنا نحن المسلمين أن ندعم الصواب ، وأن نوهن الخطأ ، وأن نذكر بما تنوَس من حق .

وفي ظلمات الجاهلية الأولى شعر نفر من ذوى القلوب النبيلة أن المستضعفين يجار عليهم في الحرم ، وتغصب حقوقهم ، فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهوف ، ويبقروا إلى جانبه حتى يرضى ، ذلك هو حلف الفضول الذى تم في دار عبدالله بن جدعان .

وبعد ظهور الإسلام ونزول الوحي ، ذكر النبى ﷺ هذا الحلف بإعزاز وولاء وقال : لو دعيت به فى الإسلام لأجبت ! نعم إن الإسلام الذى جاء به هو إنسانية فى صورتها الوسيمة ، ونحن - انبعاثا من هذا المعنى - نرى لزاما علينا فى ميدان الدولى أن نحارب النفرة العنصرية ، وأن نخاصم الاستكبار بالقوة ، وأن نفر عيننا بانتصار العدالة ، وأن نفرح بشيوع الرخاء بين عباد الله .

إننى أغبط الرجال الذين يعملون باسم «لجنة العفو الدولية» على البقطة الخلقية الغيرة الإنسانية التى تجعلهم يرقبون الأحداث فى العالم ، فإذا وجدوا ظلما شهروا به ، ومزقوا الأستار عنه ، وألبوا الدنيا عليه .

أشعر كان هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التى تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم لقائل «إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأذكرها كمن غاب عنها . ومن قاب عنها فرضيها كان كمن شهدها !!

إن الدين تحمين للحسن وتقييح للقيح حيث كان ، ومن أى الناس كان . وأذكر أننى لم أعلم بمصارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الأسرة الجديدة فى الصومال ، إلا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع . . إن أغلب الإذاعات الإسلامية والعربية أثرت الصمت . . !

قلت : هؤلاء الساكنون أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر ! إن هلاك الأجيال على ظهر الأرض يحىء من شيوع الخيخ وسكات العارفين ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَبْهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٣) .

والاتسماءات الزورة لا تخدع ذالب ، كم من متممين إلى الإسلام لو فترست فى أعمالهم ما وجدت أثرًا لفطرة سليمة ، أو تقوى حقيقية ، وكم تجد مسالك هى الإسلام بعينه ولكن العنوان مفقود . . !

أعجبتنى نظم الشورى فى الغرب ، ورأيتها تطويرًا جيدًا لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديما . . فإذا أذنب لولاء الجور الذين أهاثوا الإسلام وأمته يقولون فى صفاة نادرة : هذا اقتباس أجنبى ، والشورى عندنا لا تنقيد حاكما . . !

وتأملت فى أحوال القائلين فرأيت ناسا يخزى بهم الحق ، وتستخفى المروءة ، يسترون عوراتهم العقلية بركامات ميتة ، وتدين شائء ، فقلت فى نفسى : الأوروبيون فى نظم الشورى قللوا النبوة والخلافة الراشدة ، وهؤلاء العرب قللوا الحجاج والمعتمص وبقيع السلاطين . . !

ما أكثر ما ظلمت أمتنا بالمتقولين الجبهة . .

على أن الإنسانية فى غيبة الوحي تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى كما زاحمت الفطرة غرائز وأهواء جامعة ، والحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها



نقاشص ونقاشص كثيرة .. وربما اختلف الناس في مفهوم العدل ، بل في مفهوم الفضيلة والذيلة ، وبين الجبهتين اللتين تحكما العالم تفاوت واسع في وجهات النظر .

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع إلى وحى الله والاستهداء به في متاهات الظنون ، ومتشعبات الهوى ، إنه لا بد من دين لدينا الناس .

ونحن للمسلمين غلظ الوحي الخاتم ، ومن حقنا وحدنا أن نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعا ، فإن كتابنا جمع لباب الدين ، وتضمن جملة الحقائق التي يفتقر إليها البشر ، ليوفوا بحق الله أولا ، ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين في هذه الحياة .

بيد أن الناس لن يسمعو حرفا منا ما بقينا على تخلفنا الشائن ، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذي لدينا ، وما بقينا - على غفانا - نتسول من الشرق أو الغرب برامج إصلاح وضرورات حياة .

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق إيماننا ، ولنتمسك بالخصائص التي زكت ووثقت بها أمتنا ، وهي ما قرره الآية الكريمة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

إننا لسنا جبهة ثالثة في العالم ، إننا الجبهة الأولى فيه ، فلما أزرينا بأنفسنا أزرى بنا الآخرون ، وطريق العودة عهد لا مسدودا

## ٢٢. ما تأثير القرآن في الفكر الإنساني؟

بحسب كثيرين أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل ، أو أنه بحسب الإنسان أن يكون صافي الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليمث دينه ويكتمل يقينه ، مهما كان عقله بعد ذلك ..

وذلك خطأ فإن الإسلام يريد أولا عقلاً سليماً وفكراً مستقيماً ، فما قيمة امرئ مشوش الذهن سقيم التفكير؟

إن صحة النظر إلى الأمور ودقة الحكم على الأشياء نجى - أولاً ، ثم نجى - الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك ..

وعندما بدأت الدعوة إلى الإسلام أهلب القرآن بالناس أن ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة ، وأن يعيدوا البيضة إلى عقولهم المغيبة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى نُفَرِّدُكُمْ تَعَفُّوهُمْ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَنْتٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) .

كان المتصبرون للتقاليد القائمة يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ (٢) وكان النبي المكافح لإزالة هذه العجوبة العقلية يرفض هذا التقليد الأعمى ﴿ قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ .. ﴾ (٣) .

لا بد من موازنة عادلة ، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون إليها والحق أني لم أقرأ كتاباً منسوباً إلى السماء احتفى بالنظر العقلي وخط على ضوءه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم ..

إنه يخاطب الإنسان هكذا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ

(١) الزخرف : ٢٢

(٢) ص : ٨٦

(٣) الزخرف : ٢٤

الأرضُ مَخْضَرَةٌ... ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ جَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا... ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ... ﴿٢٤﴾

لعمري ما وجد العقل من يده الخلق إلى يوم الناس هذا كتابا يعترف به ويجلو بريقه ويهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهويل الفن حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة، وقضايا تعتمد على البرهان، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة، أو كما يعبرون في عصرنا بالمادة وما وراء المادة... وانضم العلماء بالدين إلى الملائكة المقربين في الشهادة بوحديانية الله وعدالته كما جاء في الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٥).

وبديه أن العلم هنا ليس العلم النظري الجاف، لا، إنه علم صادق، مطابق للواقع، يهد لما نسميه العاطفة العاقلة! ثم تثبت به وتتصبل به، فلا ترخص قيمته ولا تنزاع عنه، إنها خيانة أن تخفف من الحق عند ثقل الأعباء، أو تستدير له إذا أرهقنا الأعداء..!

وفي القرآن الكريم غاذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر إليه، ولنختار هذا النموذج! يقول الله سبحانه وتعالى معرفا نفسه لعباده: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

(١) الحج: ٢٣. (٢) الحج: ٦٥. (٣) الفرقان: ٤٥. (٤) النور: ٤٣. (٥) آل عمران: ١٨٠. (٦) يونس: ٧٨ - ٨٠.

هذه إثارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق، ومنهج القرآن في الحديث عن الله جدير بالاحترام كله، إنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له: تفكروا! أنظروا! الشمس عقدت اتفاقا مع الأرض لتعاقب الليل والنهار؟ أنظروا! كلتيهما حددت المدار التي يتحركان، ووضعت عقوبة لمن يتجاوزها؟ إن هذه الأجرام السابحة في الفضاء لا تمقل شيئا، وإنما تدبرها حكمة... (أفلا تعقلون)؟

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم ﴿يَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٩) مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْخَانُ اللَّهِ عَمَّا يُعْقِفُونَ (٣٠) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَالِي عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١).

هذه عقيدة التوحيد، وتلك أسانيدُها العقلية، تابعت في سياق صريح قاطع ثبت لله كل كمال وينزهه عن كل نقص، ويسند إليه الملائح التي تنبئ له، وتليق بمجدها! حسنا، فهل وقف الأمر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه؟ لا لقد جاء بعده تيار عاطفي يدفع إلى البراءة من كل شرك وجعل، ويخوف من عواقب هذا الانحدار، جاء هذا التيار في صورة استعانة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب المالح الذي سينزل بالشاردين المماندين، وغضب الجبار محذور، ومن شمائل العبودية أن تنوء، وتبأى عن أسبابه ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ (٣٢) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٣٣) وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ (٣٤).

والغريب أنه بعد تزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها حملا، يقول الله لنبيه ﷺ: تمهل، وتذرع بالحلم، وقابل بإحسان من يصف ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٣٥) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ ﴿٣٦﴾.

هذا نموذج من عشرات تبين عليها السور في القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية، والمستشرقون يرون أن القرآن

(١) المؤمنون: ٩٠ - ٩٣. (٢) المؤمنون: ٩٤ - ٩٥. (٣) المؤمنون: ٩٦ - ٩٧.

الذى يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على الفكر . . فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة؟ إن ما لديهم فراغ!!

ولا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان، إلا هذا القرآن، إن التفكير قريضة إسلامية كما يقول الأستاذ العقاد!

ومجال التفكير هو فى العالم المادى، هنا يستطيع الإنسان أن يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل الأمر إلى ما يفيد فى دينه ودينه، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم عندما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٢٩) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٣٠)﴾.

أولو الألباب هنا يتفكرون فى خلق العالم! ويستنتجون من قوانينه المطردة، ونظامه المتناسق أنه مخلوق لرب حكيم، فلا عبث ولا فوضى . .

وفى أول السورة نفسها ورد ذكر أولي الألباب على نحو آخر، إنهم لا يحاولون اكتناء اللغات العليا، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها، إننى شخصياً أشعر بأن الله ملك مستو على عرشه، لا يتدّ شىء عن سلطانه، ولا يبعد أمر عن حكمه! لكن كيف ذلك؟ لا أدري!

أنا لا أدري علاقة ووحى بجسدى، فكيف أدري استواء الله على عرشه!! الأفضل أن أتجاوز ذلك إلى غيره على نحو ما قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجازئه إلى ما تستطيع!

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٣)﴾ على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولاً للمتناقضات! وكما قيل: ما يعز على العقل فهمه شىء، وما يحكم العقل باستحالته شىء آخر . .!

(١) آل عمران ١٩٠، ١٩١ .

(٢) آل عمران ٧ .

وقد حارب القرآن الأوهام، وكلم يعيش الناس صرعى أوهام! وحارب الظنون، وكلم من ظنون توارثها البشر، وجعلوا منها عقائد مقدسة، وما كانت يوم وجبت إلا شعائعات لا أساس لها . . . ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (١)﴾ .

ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى أن تتبع ما لا نعلم وأن تتأثر بما لا أصل له، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدماها فى تبيين الحق، وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٢)﴾ ومن معالم الجماعة المسلمة أنها تحترم للنطق، وتسلم باليقينيات وتخضع لسلطة العلم! وقد مضى هذا المنهج إلى غايته وهو يحارب الشرك ويؤسس التوحيد، فترى الحملة على المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه! قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٣)﴾ بل إن ذلك يراعى عند قصص الأولين، وذكر أسباب الخروج على الضالين للمستبدين، فقد جاء على السنة الفتية أهل الكهف ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ... (١)﴾ أى ببليل واضح مقبول!

الحق أن أثر القرآن الكريم فى الفكر الإنسانى عميق، إنه هو الذى أقام الإيمان على المنطق ورفق راية العقل!

(١) يونس: ٣٦ .

(٢) المؤمنون: ١١٧ .

(٣) الإسراء: ٣٦ .

(٤) الكهف: ١٥ .

١٠٠ : ١١١ (أ) ١٠٠ : ١١١ (ب)

١٠٠ : ١١١ (أ) ١٠٠ : ١١١ (ب)

١٠٠ : ١١١ (أ) ١٠٠ : ١١١ (ب)

... (١) ...  
 ... (٢) ...  
 ... (٣) ...  
 ... (٤) ...  
 ... (٥) ...  
 ... (٦) ...  
 ... (٧) ...  
 ... (٨) ...  
 ... (٩) ...  
 ... (١٠) ...  
 ... (١١) ...  
 ... (١٢) ...  
 ... (١٣) ...  
 ... (١٤) ...  
 ... (١٥) ...  
 ... (١٦) ...  
 ... (١٧) ...  
 ... (١٨) ...  
 ... (١٩) ...  
 ... (٢٠) ...

١٠٠ : ١١١ (أ) ١٠٠ : ١١١ (ب)

١٠٠ : ١١١ (أ) ١٠٠ : ١١١ (ب)

... (١) ...  
 ... (٢) ...  
 ... (٣) ...  
 ... (٤) ...  
 ... (٥) ...  
 ... (٦) ...  
 ... (٧) ...  
 ... (٨) ...  
 ... (٩) ...  
 ... (١٠) ...  
 ... (١١) ...  
 ... (١٢) ...  
 ... (١٣) ...  
 ... (١٤) ...  
 ... (١٥) ...  
 ... (١٦) ...  
 ... (١٧) ...  
 ... (١٨) ...  
 ... (١٩) ...  
 ... (٢٠) ...

ولا أدري بدقة كم آية نسخها في صفحة واحدة!!

وقد وصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى بضع مئات، وهذا كلام منكر، وقد رفضه الراسخون في العلم، والشبهة التي قامت في ذهن الحازن - غفر الله له - أنه ظن آيات الجهاد تعارض الآيات التي ذكرها، وهو ظن مستبعد!!

بل إن لبعض يرى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾<sup>(١)</sup> ناسخاً لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾<sup>(٢)</sup> كأن بين الآيتين تناقضاً، ولا تناقض إلا في دماغه هو!!

لقد رأيت القائلين بالنسخ يتورطون في مهازل، وعلّة هذا أنهم يعيدون عن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، سواء كان هذا التفسير قضية واحدة في طول القرآن وعرضه، أو كان استكشافاً للوحدة التي تشمل أجزاء السورة، والتي تجعل آياتها معالم لصورة بيئة التقاسيم، متعاقبة المعاني والأهداف..

وعلى أية حال، فما من آية في كتاب الله قيل بنسخها إلا كان هناك قول آخر بإحكامها، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَانِعٌ مَنَعٌ فَإِذَا يَكُونُ جُفَاءً﴾<sup>(٣)</sup> قال كثيرون: كان الحكم الشرعي أن يثبت الواحد لعشرة من الأعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين!

وقال المحققون: الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد أمام عشرة مدام قادراً صابراً أملاً في النصر أو راعياً في الشهادة، على أن له رخصة أخرى إن عجز، وهي أن يقف أمام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو أبداً دون ذلك... قالوا: والرخصة هنا تقصر الصلاة في السفر، فالقصر في السفر لا ينسخ الإتمام في الإقامة...

وما دام لم يرد قول بنسخ إلا ورد معه قول بإحكام، فلست أجد إبطال الآيات ولنقرر أنه لا نسخ في القرآن الكريم أبداً، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج في التشريع.

قد يقال: ليس يقول الله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾<sup>(٤)</sup>

(١) فاتقوا: ١٦.  
(٢) الأنفال: ٦٦.  
(٣) آل عمران: ١٠٢.  
(٤) البقرة: ١٠٦.

لقد ذكر صاحب النار الوجه الحق في تفسير هذه الآية، ونقل رأيه مع تعليقات لي في كتابي «نظرات في القرآن الكريم»، وخلاصته أن الآيات نوعان تكليفية وتكوينية.

والمقصود بالآيات التكوينية خوارق العادات التي يجريها الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَّا جَاءَهُمْ آيَةُ لِيُؤْمِنُوا بِهَا﴾<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿وَمَا مَتَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

أما الآيات التكليفية، فهي كلمات الله المتضمنة هذه العبادة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَبِلِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup> يسمع آيات الله تفتل عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يستمعها<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾<sup>(٥)</sup>.

والنسخ يقع في الأولى ولا يقع في الأخرى، فإن المعجزة التي تصلح لامة، لا تصلح لأخرى، ولا شك أن المعجزة الأخرى، التي أيد الله بها خاتم أنبيائه تغاير الخوارق الحسية التي أيد بها الأنبياء السابقين.

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية محددة، وجاء بعد قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا...﴾<sup>(٦)</sup> إلخ. مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية»<sup>(٧)</sup>!

بل إن آية «ما نسخ من آية...» اتصل بها قوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَ رُسُلَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ؟﴾<sup>(٨)</sup> وهو نساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس في آيات تكليفية أو أحكام شرعية، وإلّا هو في حقيقة المعجزة التي تصحب رسالات المرسلين وتشد أزرهم أمام أعدائهم، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الإنسانية التي ميز الله بها محمداً ﷺ، يريدون معجزة تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال!

(١) الأنعام: ١٠٩.  
(٢) يوسف: ١٠.  
(٣) الإسراء: ٥٩.  
(٤) البقرة: ١١٨.  
(٥) البقرة: ١٠٨.  
(٦) البقرة: ١٠٧.

وخلال الحديث عن الوحدة ، وكشفه الحسنی ، وأوصافه العلوی ، تشعب ١١ استثناء العالم عن ربه ، وتقييمه نفسه . أى أن شرح حقيقة التوحيد فى شبهات للمحدثين ، وبذلك تتعاقب أذا نسق فلذا

وهالك أمثلة من الكتاب العزيز ، يه سألهم من خلق السموات والأرض ليقول من خلقهم ليقولن الله فأتى يؤفكون ١٢ أوجد العالم من عدم ، فهو ياربه ومبدع أن العالم مخلوق أنه يبرز من العدم إلى عالم ... إلخ ، إن الصغر لا يصنع شيه العالم كمدومًا ثم عراه الوجود من غير والخلق من لا شيه ليس عملاً ناتفا مغفل ! إن الخلق عمل هائل وإذا كان متخصيصين مهرة - وهذا عمل دون الخ أجنح إلى خيال بعيد ، ولكننى أسأل : لم تعرف لها إلى اليوم نوايات ، أفلا يكو والله أكبرا

الأمر هنا ليس نفيا للشركاء فإن الش يزعموا لأحبارهم شيئاً ، والمصابون يجنو خلقوا شيئاً ، ﴿ الله خالق كل شيء وهو ولا يسوع لأحد أن ينتظر من القرآن هى موضوع الأخذ والورد والقبول والإن يتناول أبعاد الجهال بما يملقها ، وأن يدور

(١١) الفرق ٩ (١٢) الفرق ٩

ومن الشائعات التى انتشرت فى ميدان النسخ أن هناك قرأنا أنزل ثم سحبوا والمعروف فى ديننا أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر الذى يفيد اليقين ، وأن غير الواحد لا يثبت قرأنا أبداً ، فالزعم بأن قرأنا كان ، ثم رفع كلام لا يلتصق إليه .

والقرآن الكريم قد ينسخ أجزأكما جامات فى السنة الشريفة وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس فى الصلاة باستقبال المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ قد نرى نقب وجهك فى السماء فنوليك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره .. ١٣ ﴾ .

واستقبال بيت المقدس لم يكن ينص قرأنا ، وإذا كان بالإهام إلى عن طريق السنة التى يهذى إليها قلب الرسول الكريم ، ولم يكن ذلك اجتهاذاً شخصياً ، قال تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ١٤ ﴾ .

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم ، منع تسليم النساء المؤمنات إلى قريش ، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن إلى مكة ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ١٥ ﴾ .

## ٣٤. هل الاستدلال القرآنى فى قضية الألوهية على

### الوجود أم على التوحيد ؟

إن الطفل الذى يودع فى أحد الملاجم قد يفكر فى أبيه خشمًا كبير ، وقد يبحث عنه ، ولكن لا يجرى فى خاطره أبداً أنه جاء الدنيا من عدم ، أو ظهر على الأرض من غير أب !!

والبشرية فى أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما أخطأت الطريق إليه ، فقد تعبد اسماً لا حقيقة له ، وقد تعبد حجراً موهوم الضرع والنع ، وقد تعبد عجلاً أو تقلس بقرة أو تزله نهراً ، وقد بجىء من يرفض هذه الألهة المزعومة كلها وينكر أن يكون للوجود سيد !!

إن قضية الألوهية فى التاريخ الإنسانى يكتنفها قدر من الغموض ، وجمهرة الأمم رنت إلى إله كبير ، ثم رمزت إليه أو تعرفت عليه عن طريق التماثيل ، أو الكائنات التى تنتمى إليه على نحو ما ، ويخيل إلى أن رفض عقيدة الألوهية من الأساس لم ينجم إلا بعد شيوع التشديد الخرافى ، ورفض العقل السجود لخير أو حيوان أو إنسان ..

وكان هذا الرفض المطلق يقع على نادرة ثم شاع فى عصرنا الحديث ، مع التقدم العلمى وانتشار تدوين مفشوش ، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوا ولا أنصفوها .

وحديث القرآن الكريم عن الألوهية بنسب الموضوح الشديد ، فهو ينفى الشركاء بحدة وحسم ، وينفى أن يكون هناك أحد فوق مستوى العبودية لأن له بالله صلة خاصة ، لا ، هو إله واحد ، وكل ما سواه عبده ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً ١٦ ﴾ فقد أحصاهم وعدهم عبداً ١٧ وكلهم أتته يوم القيامة فرداً ١٨ ﴾ .

(١) فرق ٩-٩٥

(٢) الفرق ١٠٠

(٣) الفرق ١٢٣

(٤) الفرق ١١٤

(٥) الفرق ٩

القضية ، إنه ينشئ العلاقات بالله على نحو يربط الناس بخالقهم ، ملك الأسماع والأبصار والأفئدة مدبر الأمور كلها ، الذي لا راد لحكمه ، ولا مهرب من قضائه ، ولا منتهى لعلمه ، ولا مجبر عليه .

ومن رحمة الله بخلقه أنه يفتح عيونهم على آياته ليعرفوه من خلال نظرهم في هذا العالم الذي يعيشون فيه .

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

الجملة الأولى فيها تأسيس لمقيدة التوحيد ، والجملة الثانية فيها نفى لحكاية الشركاء ، والآية كلها تعهد للحديث عن مجالى الوجود الإلهي في آفاق العالم ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢).

في هذه الآية تنبيه للعقلاء إلى أن كل شيء في الوجود يشير إلى سيده ، ويدل على الخالق الكبير ، وقد جاء الكلام على أسلوب السرد المجمل ، لكننا نرى التفصيل في مواضع أخرى ، تدبر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفْثِرُ سَحَابًا فَيَسْقِي فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيُرِي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٣) وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله ليلسين ﴿ (٤) بعد هذا التفصيل لنزول الغيث إلى مترقيه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للإنسان : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴾ (٥) كأنه يقود المرء إلى النتيجة البديهية بعد تجربة عملية تمت بين سمعه وبصره هذه آثار الرحمة ، وهذه آثار القنوة ، وهذه مظاهر العلم . وهذه ... إلخ ، كل شيء يشهد لله ويوجه إليه !!

(١) البقرة : ١٦٤ .

(٢) الروم : ٤٨ - ٤٩ .

وكما قال للإنسان انظر .. قال للناس : ﴿ انظُرُوا إِلَى فَعْمِهِ إِذَا تَمَرَّ وَيَتَّبِعْهُ إِنْ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

وما يعين على فهم الأسلوب القرآني أن تذكر حقيقة فلسفية معروفة هي أن العالم ليس له من ذاته وجود إن وجوده طارئ عليه من الخارج ! أتري المصباح الكهربائي عندما تغمز «الزره فيضى»؟ إنه لا يضيء أبدا من ذاته ، لابد من تيار خارجي يسري فيه ليتوهج ! إنه معد فقط للاستقبال ، وإشعاع ما يجيشه من جهة أخرى ، كذلك الكون ، إن وجوده ، ذاتا وصفات مفاض عليه من أعلى ، وإذا انقطع التيار الذي يمد تلاحش ، واستخفى فلا أثر له ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢).

وعندما يلفت القرآن الكريم نظركم إلى آيات الله في الأرض والسماء وما بينهما ، فهو يعطينا فكرة عن الإيجاد والإمداد معا ، ولا بأس أن يضم إلى تلك إشعارا بأنه الله الواحد ، وأن ما عداه من الهة مزعومة إفك مبین ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيَّاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَسْبِّحُ لَهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ... ﴿ (٤) .

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجود الأعلى في شتاي توحيد الله وتمجيده ، فالله أعظم وأعز من أن يكون إثبات وجوده أمرا يفرد له عنوان ، وكأنه موضوع يفترق إلى البرهان .



(١) خاف : ٦٤ - ٦٥ .

(٢) فاطر : ٤١ .

(٣) الأنعام : ٩٩ .

## ٣٥. ما أهمية القصص في القرآن،

وهل لها أصل تاريخي،

وما الحكمة في تكرارها؟؟

لابد من دراسة الماضي والتفوس في أحداثه ، فإن هذه الأحداث ليست ملكا لأصحابها ، وإنما هي ملك الإنسانية جميعا ، يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ، ويستخلصوا منها النتائج ، يضعوها نصب أعينهم وهم يخطون للحاضر والمستقبل على سواء . . .

وظاهر أن سير الأفراد والأم يخضع لسنن دقيقة ، وأن ازدهار الحضارات وانقضاءها ، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم بحظ عشوائي وإنما يقع وفق قوانين صارمة! بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادا ، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الآثار .

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم ، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذولب ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (١) وقد لما سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين ﴿ أَفَلَمْ يَنْهَدْ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى ﴾ (٢) وقال : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بَاتِّبَاتٍ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣)

وتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية في عمومها وانطباعها على شتى الأمكنة والأزمنة ، فقانون الأجسام الطافية مثلا يشمل جميع الأنهار والبحار ، واهيار الأم لشيوع القوضى والفساد يتناول شتى الأجناس والمصور ، وقد هدد الله العرب

(١) طه : ٩٩ . (٢) طه : ١٣٨ . (٣) الأعراف : ٩٠١ .

بالمصير الكاثع إذا بقوا على عنادهم ومكرهم ﴿ ... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (١) .

وسنن الله الكونية لا تتحاي أحدًا ، وكذلك سننه التاريخية والحضارية ، وهي منطوقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء ، وقد وقعت محنة أخذ لأن المسلمين لم يلتزموا النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وإن واثته مؤقتًا ظروف مساعدة . قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٢) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (٣) ولا تنهرا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٤) إن يمسسكم فرح فقد مس القوم فرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس (٥) .

وقد تضمن القرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانية حاسمة ساقها في تصاعيف القصص التي ذكرها أو في خواتمها مثل قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦) وقوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ وَبَيْنِ إِنْ اللَّهُ لَا يَصْبِحُ أَحَرُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧) وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْبُجُ جَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَكُفُّ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٨) ... الخ .

إن القصص لقرائي سرد واع موجه للتاريخ الإنساني ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق! بل لغرض منه التربية والتوعية ، وتجديد المعاني بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة !!

وقد شاع أرب القصة في عصرنا شيوخًا يستحق الدهشة ، وامتلأت الأبدى بروايات يرقوهم حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض وجملة هذه الروايات من نسج الخيال ، وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون إثارة وضعية .

والبيان شاع بين هذه الأقاصيص ، وبين التاريخ الذي يجسده القرآن الكريم ويغزو به الألباب والتغنى ليحوي الغفلة ويرفع المستوي ويضئ السبل ، الدين بعيد بعيد .

(١) صافات : ٤٣ . (٢) ن عمران : ١٣٦ - ١٤٠ . (٣) القصص : ٨٣ . (٤) يوسف : ٩٠ . (٥) لحد : ١٧ .





انظر مثلاً إلى قصة هود مع عاد ، أنك ترى هوداً في سورة الأعراف بدأ هادئاً طويلاً الأناة مع ناسٍ تشبه بالشيران الهابطة ﴿وَإِنِّي عَادُ أَهْلَهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٩) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا نَنَازِلُكَ فِي سَفَاةٍ وَإِنَّا نَعْتَلُكَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٠)﴾ !!

فإذا تأملت في القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجلت النبي الحليم يبدأ مندكاً بوثنية قومه وحاسماً في كشف كذبهم على الله ومثلراً يسوء المال إن هم بقوا على جبروتهم ﴿وَإِنِّي عَادُ أَهْلَهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٦٩) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَتَّقُونَ (٧٠) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٧١)﴾ !!

وتفسير هذا أن لقاء أي نبي مع قومه لا يقع مرة واحدة ، إنه لقاء يبقى عشرات السنين ، وما يبدو بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة ، بل يأخذ صوراً كثيرة!

وحتى لو وقع لقاء واحد - كما حدث لموسى مع السحرة - فإن كل ما دار من حوار لا يثبت في عرض واحد ، بل توزع أجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة ...

ومن ثم كان القصص القرآني مجالاً رحباً لمعالجة النفوس والجماعات من خلالها المتنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع ، نسيب القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بده الوحي حتى قيام الساعة!

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة ، ليس المهم تحديد موقع ، أو حتى تحديد الشخص ؛ فما يعتنيا أن تعرف دهوة ذى القرنين ، أو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسمى !! المهم تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال تاريخ صادق وقصص حق .

### ٣٦. ما تفسير الآيات التي قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفا ماديا؟ مثل ﴿وَجَاءَ رِيكُ الْمَلِكِ صَفَا صَفَا﴾

جلست يوماً أفكر : ما أنا بين الناس؟ قلت : واحد من ألوف مؤلفة تسكن هذه الأرض! سألت مرة ثانية : ما أنا بين من سكنوها منذ الأزل ومن يسكنونها آخر الدهر؟ فشعرت بأنى انشغال ، وأن وجودي يصغرها!

سألت مرة ثالثة ما أنا بين شتى العوالم؟ إن أرضنا التي نحس ضخامتها ذرة محقوقة بين أسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة ، وما يقدر العلماء أبداً على معرفة حدود هذا الكون ، ولا أن يعرفوا ما يزرع به من أحياء !

وشعرت بأنى ازداد تضالاً . . . ! قلت : يجب أن أعرف قدرى ، وألا أعلو حدى ، إن الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية . . .

وراقبت بعض الحشرات السارحة في عالمها الخاص بها وقلت : أتدري عن عالم الإنسان شيئاً؟ أعترف ما يحول في فكره؟ أعترف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب؟؟ كلا كلا أتى لها هذا؟؟

قلت : إن علمى بحقائق الألوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتي! ينبغي أن أعرف قدرى وألا أعلو حدى! إنني نقطة مغموصة في مساحات رهبة من الزمان والمكان ، كيف نحاول فطرة في ترعة أن تستوب البحار والمحيطات وتشرف على اللجج والأنواء؟؟

ورحت مع أبى القاسم القشيري أناجي ربي بهذه الآيات :

يامن تقاصر شكري عن أيديهِ	وكل لسان عن معاليهِ
وجوده لم يزل فرداً .. بلا شبه	علا عن الوقت ماضيه وأتتبه
لا دهر يخفقه ، لا فخر يلحقه	لا كشف يظهره ، لا سر يخفيه
لا عد يججمه ، لا ضد ينعته	لا حد يقطعه ، لا قطر يعويه
لا كون ينصره ، لا عون ينصره	وليس في الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزلى لا زوال له	وملكه دائم لا شيء يفتنيه !!!



العلماء المتأخرون بأنها تعنى القدرة ، وهو استعمال مجازي مشهور يقال لا يد لي بكذا ، أى لا قدرة لي عليه ، أما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم لا يزولون هذه الظواهر بل يأخذونها على الحقيقة . والواقع أنهم لا يعمون أصل التأويل ، ولكنهم يسلكون في تأويلها مسلكا علميا متينا يدل على علو كمهم في الفهم ، وأنا أحب أن أقصر لكم لأنه يتفهمكم في مواضع كثيرة .

قال : «إِنَّهُ لَمَّا طَلَّتِ الْأُطْلُةُ الْقَاطِعَةَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ ، كَانَ هَذَا قَرِينَةً مَانِعَةً مِنْ إِزَادَةِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِي الْمَعْرُوفِ لَنَا ، فَإِذَا هِيَ مُصَرَّوَةٌ عَنْ هَذَا الظَّاهِرِ ، وَكَأَنَّهُ يَرَادُ بِهَا مَعْنَى مُجَازِي ، لَكِنَّا لَمْ نَقُمْ لَنَا قَرِينَةً مَعِينَةً عَلَى تَحْدِيدِ هَذَا الْمَعْنَى فِي أَغْلَبِ الْآيَاتِ ، هَلِ الْمُرَادُ بِهِ الْقُدْرَةُ ، أَمْ الْإِرَادَةُ ، أَمْ صِفَةٌ لَا نَعْرِفُهَا ؟ أَمْ لَيْسَ هُنَاكَ مُجَازٌ فِي الْمُرَادِ يَشَارُ بِهِ إِلَى صِفَةٍ مَعِينَةٍ وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ تَحْشِيلِي لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ فِي النَّفْسِ ؟ كُلُّ ذَلِكَ سَائِعٌ فِي النَّظَرِ ، وَلَيْسَ ثَمَّ دَلِيلٌ يَبِينُ وَاحِدًا بِخُصُوصِهِ ! لِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ نَقِفَ حَيْثُ وَقَفَ بَنَاءُ اللَّغْوِ ، فَلَنُثَبِّتَ لَهُ تَعَالَى مَا أَرَادَهُ مِنْ كَلَامِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي نَأْتِيهِ مِنْ صِفَاتِ الْخُلُوقِينَ !» .

قال : «تَرَوْنَ مِنْ هَذَا أَنَّ السَّلَفَ يَجُوزُونَ الْمَعْنَى الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى أَنَّهُ احْتِمَالٌ يَحْتَمِلُهُ الْكَلَامُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُلْزِمُونَهُ التَّزَامَا ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ بِالِاتِّزَامِ قَوْلٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَكَبُوا عَنِ الْخَوْصِ فِي تَحْدِيدِ مَعَانِي هَذِهِ الظَّوَاهِرِ ، وَاسْتَفْرَقُوا بِمَعْنَاهَا الْإِجْمَالِي الْمَصْرُوفَ عَنِ الظَّاهِرِ . . . أَمَّا طَرِيقُ الْخَلْفِ - وَهُوَ الْخَوْصُ فِي تَحْدِيدِ التَّأْوِيلَاتِ - فَإِنَّمَا أَجْمَعُ إِلَيْهِ - وَهَلْ أَعْلَمُ - ظُهُورُ بَدْعِ الْمَشَبِهِةِ وَالْمُجَسِّمَةِ وَغَيْرِهِمْ ، فَأَرَادُوا سَدَ بَابِ الْإِبْهَامِ ، وَدَفَعُوا الْوَسْوَاسَ عَنِ الْعَوَامِ ، لِكَيْلَا يَخْرُجُوا عَنْ دَائِرَةِ التَّنْزِيهِ ، وَلَا يَحُومُوا حَوْلَ التَّشْبِيهِ جَزَاءً لِلَّهِ خَيْرًا بِمَا فَضَّلُوا ، وَغَفَرَ لَهُمْ تَحْدِيدُ مَا حَدَّوْهُ .

قال : «وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ طَرِيقَ السَّلَفِ هُوَ الْأَلْيَقُ بِالْعُلَمَاءِ ، وَطَرِيقُ الْخَلْفِ أَصْلَحُ لِلْعَوَامِ وَأَنْصَافِ الْعَوَامِ !» .

وَأَرَى أَنَّ كَلَامَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، إِنِّي فِي دُرُوسِي وَعَقْدَاتِي أَتَّبِعُ مَذْهَبَ السَّلَفِ ، وَعِنْدَمَا أَجَادِلُ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمَادَنِينَ أَتَنَفَّسُ بِمِجَازِ الْخَلْفِ !  
وفي كل الأحوال أرفض تجريد الفلاسفة ، وتحميم اليهود والنصارى ، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير .

## ٣٧. كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السموات سبع

### والأرضين سبع مع حقائق العلم التي ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء؟

ذكرت في أكثر من كتاب أنه يستحيل أن يقع تناقض بين الدين والعلم ، فإن العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله ، والدين الحق توجيه أت من عند الله خالق هذا الملكوت ، فكيف يحدث بينهما تكاذب؟

ما أثار التساؤل يرجع إلى أن الناس سمع شيئاً ما ديناً وليس بدين ، أو سمع شيئاً ما علماً وليس بعلم ! وقد يكون مثار التساؤل خطأ شخصياً من أحد المتكلمين في الدين أو أحد المتكلمين في العلم ، وما أكثر أخطاء الفريقين!

قال لي أحد الناس : ثبت أنه لا حياة إلا في أرضنا ، وأن الكواكب الأخرى ميتة لا حياة فيها ! قلت : هذا التعميم خطأ ، يمكن أن يقال : لا حياة بشرية ، أو لا حياة نباتية ، أو لا حياة لكائنات تعتمد على النفس وتعجز عن الوجود في درجات حرارة معينة !!

ومن قال : إن المخلوقات كلها على غرارنا ؟ ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا

خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُخْلِذِينَ عَصَاهُمْ﴾ (١) إنها جرامة أن يتحدث بعض الناس باسم العلم فينطق بالجهل ، ويبدو أن الأمر كما يقول العقاد : هناك مقلدون في كراهية التقليد!

قال : تعنى أن هناك حياة في الكواكب والنجوم؟ قلت : لا أمتنع أن هناك حيوات أخرى ، وأستبعد أن تكون الأفلاك حجارة صماء موحشة تسبح في الفضاء ، ليس على أدعها إلا الخراب !!

إن علماء الفلك متفقون - تقريباً - على أن أرضنا تشبه حبة رمل في صحراء مترامية الأطراف! فهل هذه الحبة وحدها التي سعدت بالعقل - أو شقيت - وأما بقية الحبات فلا حراك ولا فكر ولا قيمة . . هذا بعيد!!

الذي أشعر به من كتابي أن هذه الأفلاك مشحونة بكائنات راشدة ، تسبح بحمد الله ، وترتض لسكان الأرض ، وتأسى لمسيهم ومعاصيهم ، وتسال الله لهم المغفرة ،



... (b) ...

١٠٠٠

لم يوصوا بالاعتزال للشيخ لدى سماعه (وقال الذين كفروا لا يستعملوا بهذا القرآن وأصله عجمي آل قريظة) (١) ولم يوصوا بالاعتزال للشيخ لدى سماعه (وقال الذين كفروا لا يستعملوا بهذا القرآن وأصله عجمي آل قريظة)

১৯৫৩-৬০

على النسي <sup>١٠</sup> <sup>١١</sup> <sup>١٢</sup> <sup>١٣</sup> <sup>١٤</sup> <sup>١٥</sup> <sup>١٦</sup> <sup>١٧</sup> <sup>١٨</sup> <sup>١٩</sup> <sup>٢٠</sup> <sup>٢١</sup> <sup>٢٢</sup> <sup>٢٣</sup> <sup>٢٤</sup> <sup>٢٥</sup> <sup>٢٦</sup> <sup>٢٧</sup> <sup>٢٨</sup> <sup>٢٩</sup> <sup>٣٠</sup> <sup>٣١</sup> <sup>٣٢</sup> <sup>٣٣</sup> <sup>٣٤</sup> <sup>٣٥</sup> <sup>٣٦</sup> <sup>٣٧</sup> <sup>٣٨</sup> <sup>٣٩</sup> <sup>٤٠</sup> <sup>٤١</sup> <sup>٤٢</sup> <sup>٤٣</sup> <sup>٤٤</sup> <sup>٤٥</sup> <sup>٤٦</sup> <sup>٤٧</sup> <sup>٤٨</sup> <sup>٤٩</sup> <sup>٥٠</sup> <sup>٥١</sup> <sup>٥٢</sup> <sup>٥٣</sup> <sup>٥٤</sup> <sup>٥٥</sup> <sup>٥٦</sup> <sup>٥٧</sup> <sup>٥٨</sup> <sup>٥٩</sup> <sup>٦٠</sup> <sup>٦١</sup> <sup>٦٢</sup> <sup>٦٣</sup> <sup>٦٤</sup> <sup>٦٥</sup> <sup>٦٦</sup> <sup>٦٧</sup> <sup>٦٨</sup> <sup>٦٩</sup> <sup>٧٠</sup> <sup>٧١</sup> <sup>٧٢</sup> <sup>٧٣</sup> <sup>٧٤</sup> <sup>٧٥</sup> <sup>٧٦</sup> <sup>٧٧</sup> <sup>٧٨</sup> <sup>٧٩</sup> <sup>٨٠</sup> <sup>٨١</sup> <sup>٨٢</sup> <sup>٨٣</sup> <sup>٨٤</sup> <sup>٨٥</sup> <sup>٨٦</sup> <sup>٨٧</sup> <sup>٨٨</sup> <sup>٨٩</sup> <sup>٩٠</sup> <sup>٩١</sup> <sup>٩٢</sup> <sup>٩٣</sup> <sup>٩٤</sup> <sup>٩٥</sup> <sup>٩٦</sup> <sup>٩٧</sup> <sup>٩٨</sup> <sup>٩٩</sup> <sup>١٠٠</sup> <sup>١٠١</sup> <sup>١٠٢</sup> <sup>١٠٣</sup> <sup>١٠٤</sup> <sup>١٠٥</sup> <sup>١٠٦</sup> <sup>١٠٧</sup> <sup>١٠٨</sup> <sup>١٠٩</sup> <sup>١١٠</sup> <sup>١١١</sup> <sup>١١٢</sup> <sup>١١٣</sup> <sup>١١٤</sup> <sup>١١٥</sup> <sup>١١٦</sup> <sup>١١٧</sup> <sup>١١٨</sup> <sup>١١٩</sup> <sup>١٢٠</sup> <sup>١٢١</sup> <sup>١٢٢</sup> <sup>١٢٣</sup> <sup>١٢٤</sup> <sup>١٢٥</sup> <sup>١٢٦</sup> <sup>١٢٧</sup> <sup>١٢٨</sup> <sup>١٢٩</sup> <sup>١٣٠</sup> <sup>١٣١</sup> <sup>١٣٢</sup> <sup>١٣٣</sup> <sup>١٣٤</sup> <sup>١٣٥</sup> <sup>١٣٦</sup> <sup>١٣٧</sup> <sup>١٣٨</sup> <sup>١٣٩</sup> <sup>١٤٠</sup> <sup>١٤١</sup> <sup>١٤٢</sup> <sup>١٤٣</sup> <sup>١٤٤</sup> <sup>١٤٥</sup> <sup>١٤٦</sup> <sup>١٤٧</sup> <sup>١٤٨</sup> <sup>١٤٩</sup> <sup>١٥٠</sup> <sup>١٥١</sup> <sup>١٥٢</sup> <sup>١٥٣</sup> <sup>١٥٤</sup> <sup>١٥٥</sup> <sup>١٥٦</sup> <sup>١٥٧</sup> <sup>١٥٨</sup> <sup>١٥٩</sup> <sup>١٦٠</sup> <sup>١٦١</sup> <sup>١٦٢</sup> <sup>١٦٣</sup> <sup>١٦٤</sup> <sup>١٦٥</sup> <sup>١٦٦</sup> <sup>١٦٧</sup> <sup>١٦٨</sup> <sup>١٦٩</sup> <sup>١٧٠</sup> <sup>١٧١</sup> <sup>١٧٢</sup> <sup>١٧٣</sup> <sup>١٧٤</sup> <sup>١٧٥</sup> <sup>١٧٦</sup> <sup>١٧٧</sup> <sup>١٧٨</sup> <sup>١٧٩</sup> <sup>١٨٠</sup> <sup>١٨١</sup> <sup>١٨٢</sup> <sup>١٨٣</sup> <sup>١٨٤</sup> <sup>١٨٥</sup> <sup>١٨٦</sup> <sup>١٨٧</sup> <sup>١٨٨</sup> <sup>١٨٩</sup> <sup>١٩٠</sup> <sup>١٩١</sup> <sup>١٩٢</sup> <sup>١٩٣</sup> <sup>١٩٤</sup> <sup>١٩٥</sup> <sup>١٩٦</sup> <sup>١٩٧</sup> <sup>١٩٨</sup> <sup>١٩٩</sup> <sup>٢٠٠</sup> <sup>٢٠١</sup> <sup>٢٠٢</sup> <sup>٢٠٣</sup> <sup>٢٠٤</sup> <sup>٢٠٥</sup> <sup>٢٠٦</sup> <sup>٢٠٧</sup> <sup>٢٠٨</sup> <sup>٢٠٩</sup> <sup>٢١٠</sup> <sup>٢١١</sup> <sup>٢١٢</sup> <sup>٢١٣</sup> <sup>٢١٤</sup> <sup>٢١٥</sup> <sup>٢١٦</sup> <sup>٢١٧</sup> <sup>٢١٨</sup> <sup>٢١٩</sup> <sup>٢٢٠</sup> <sup>٢٢١</sup> <sup>٢٢٢</sup> <sup>٢٢٣</sup> <sup>٢٢٤</sup> <sup>٢٢٥</sup> <sup>٢٢٦</sup> <sup>٢٢٧</sup> <sup>٢٢٨</sup> <sup>٢٢٩</sup> <sup>٢٣٠</sup> <sup>٢٣١</sup> <sup>٢٣٢</sup> <sup>٢٣٣</sup> <sup>٢٣٤</sup> <sup>٢٣٥</sup> <sup>٢٣٦</sup> <sup>٢٣٧</sup> <sup>٢٣٨</sup> <sup>٢٣٩</sup> <sup>٢٤٠</sup> <sup>٢٤١</sup> <sup>٢٤٢</sup> <sup>٢٤٣</sup> <sup>٢٤٤</sup> <sup>٢٤٥</sup> <sup>٢٤٦</sup> <sup>٢٤٧</sup> <sup>٢٤٨</sup> <sup>٢٤٩</sup> <sup>٢٥٠</sup> <sup>٢٥١</sup> <sup>٢٥٢</sup> <sup>٢٥٣</sup> <sup>٢٥٤</sup> <sup>٢٥٥</sup> <sup>٢٥٦</sup> <sup>٢٥٧</sup> <sup>٢٥٨</sup> <sup>٢٥٩</sup> <sup>٢٦٠</sup> <sup>٢٦١</sup> <sup>٢٦٢</sup> <sup>٢٦٣</sup> <sup>٢٦٤</sup> <sup>٢٦٥</sup> <sup>٢٦٦</sup> <sup>٢٦٧</sup> <sup>٢٦٨</sup> <sup>٢٦٩</sup> <sup>٢٧٠</sup> <sup>٢٧١</sup> <sup>٢٧٢</sup> <sup>٢٧٣</sup> <sup>٢٧٤</sup> <sup>٢٧٥</sup> <sup>٢٧٦</sup> <sup>٢٧٧</sup> <sup>٢٧٨</sup> <sup>٢٧٩</sup> <sup>٢٨٠</sup> <sup>٢٨١</sup> <sup>٢٨٢</sup> <sup>٢٨٣</sup> <sup>٢٨٤</sup> <sup>٢٨٥</sup> <sup>٢٨٦</sup> <sup>٢٨٧</sup> <sup>٢٨٨</sup> <sup>٢٨٩</sup> <sup>٢٩٠</sup> <sup>٢٩١</sup> <sup>٢٩٢</sup> <sup>٢٩٣</sup> <sup>٢٩٤</sup> <sup>٢٩٥</sup> <sup>٢٩٦</sup> <sup>٢٩٧</sup> <sup>٢٩٨</sup> <sup>٢٩٩</sup> <sup>٣٠٠</sup> <sup>٣٠١</sup> <sup>٣٠٢</sup> <sup>٣٠٣</sup> <sup>٣٠٤</sup> <sup>٣٠٥</sup> <sup>٣٠٦</sup> <sup>٣٠٧</sup> <sup>٣٠٨</sup> <sup>٣٠٩</sup> <sup>٣١٠</sup> <sup>٣١١</sup> <sup>٣١٢</sup> <sup>٣١٣</sup> <sup>٣١٤</sup> <sup>٣١٥</sup> <sup>٣١٦</sup> <sup>٣١٧</sup> <sup>٣١٨</sup> <sup>٣١٩</sup> <sup>٣٢٠</sup> <sup>٣٢١</sup> <sup>٣٢٢</sup> <sup>٣٢٣</sup> <sup>٣٢٤</sup> <sup>٣٢٥</sup> <sup>٣٢٦</sup> <sup>٣٢٧</sup> <sup>٣٢٨</sup> <sup>٣٢٩</sup> <sup>٣٣٠</sup> <sup>٣٣١</sup> <sup>٣٣٢</sup> <sup>٣٣٣</sup> <sup>٣٣٤</sup> <sup>٣٣٥</sup> <sup>٣٣٦</sup> <sup>٣٣٧</sup> <sup>٣٣٨</sup> <sup>٣٣٩</sup> <sup>٣٤٠</sup> <sup>٣٤١</sup> <sup>٣٤٢</sup> <sup>٣٤٣</sup> <sup>٣٤٤</sup> <sup>٣٤٥</sup> <sup>٣٤٦</sup> <sup>٣٤٧</sup> <sup>٣٤٨</sup> <sup>٣٤٩</sup> <sup>٣٥٠</sup> <sup>٣٥١</sup> <sup>٣٥٢</sup> <sup>٣٥٣</sup> <sup>٣٥٤</sup> <sup>٣٥٥</sup> <sup>٣٥٦</sup> <sup>٣٥٧</sup> <sup>٣٥٨</sup> <sup>٣٥٩</sup> <sup>٣٦٠</sup> <sup>٣٦١</sup> <sup>٣٦٢</sup> <sup>٣٦٣</sup> <sup>٣٦٤</sup> <sup>٣٦٥</sup>

[illegible][illegible]

၆၅၆  
 ၂၈.၈.၂၀၁၆

(၁) နိုင်ငံတော်အတွက် အကျိုးရှိစေရန် ဆောင်ရွက်ခြင်း။

...  
...  
...

6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100. 101. 102. 103. 104. 105. 106. 107. 108. 109. 110. 111. 112. 113. 114. 115. 116. 117. 118. 119. 120. 121. 122. 123. 124. 125. 126. 127. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 134. 135. 136. 137. 138. 139. 140. 141. 142. 143. 144. 145. 146. 147. 148. 149. 150. 151. 152. 153. 154. 155. 156. 157. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 165. 166. 167. 168. 169. 170. 171. 172. 173. 174. 175. 176. 177. 178. 179. 180. 181. 182. 183. 184. 185. 186. 187. 188. 189. 190. 191. 192. 193. 194. 195. 196. 197. 198. 199. 200. 201. 202. 203. 204. 205. 206. 207. 208. 209. 210. 211. 212. 213. 214. 215. 216. 217. 218. 219. 220. 221. 222. 223. 224. 225. 226. 227. 228. 229. 230. 231. 232. 233. 234. 235. 236. 237. 238. 239. 240. 241. 242. 243. 244. 245. 246. 247. 248. 249. 250. 251. 252. 253. 254. 255. 256. 257. 258. 259. 260. 261. 262. 263. 264. 265. 266. 267. 268. 269. 270. 271. 272. 273. 274. 275. 276. 277. 278. 279. 280. 281. 282. 283. 284. 285. 286. 287. 288. 289. 290. 291. 292. 293. 294. 295. 296. 297. 298. 299. 300. 301. 302. 303. 304. 305. 306. 307. 308. 309. 310. 311. 312. 313. 314. 315. 316. 317. 318. 319. 320. 321. 322. 323. 324. 325. 326. 327. 328. 329. 330. 331. 332. 333. 334. 335. 336. 337. 338. 339. 340. 341. 342. 343. 344. 345. 346. 347. 348. 349. 350. 351. 352. 353. 354. 355. 356. 357. 358. 359. 360. 361. 362. 363. 364. 365. 366. 367. 368. 369. 370. 371. 372. 373. 374. 375. 376. 377. 378. 379. 380. 381. 382. 383. 384. 385. 386. 387. 388. 389. 390. 391. 392. 393. 394. 395. 396. 397. 398. 399. 400. 401. 402. 403. 404. 405. 406. 407. 408. 409. 410. 411. 412. 413. 414. 415. 416. 417. 418. 419. 420. 421. 422. 423. 424. 425. 426. 427. 428. 429. 430. 431. 432. 433. 434. 435. 436. 437. 438. 439. 440. 441. 442. 443. 444. 445. 446. 447. 448. 449. 450. 451. 452. 453. 454. 455. 456. 457. 458. 459. 460. 461. 462. 463. 464. 465. 466. 467. 468. 469. 470. 471. 472. 473. 474. 475. 476. 477. 478. 479. 480. 481. 482. 483. 484. 485. 486. 487. 488. 489. 490. 491. 492. 493. 494. 495. 496. 497. 498. 499. 500. 501. 502. 503. 504. 505. 506. 507. 508. 509. 510. 511. 512. 513. 514. 515. 516. 517. 518. 519. 520. 521. 522. 523. 524. 525. 526. 527. 528. 529. 530. 531. 532. 533. 534. 535. 536. 537. 538. 539. 540. 541. 542. 543. 544. 545. 546. 547. 548. 549. 550. 551. 552. 553. 554. 555. 556. 557. 558. 559. 560. 561. 562. 563. 564. 565. 566. 567. 568. 569. 570. 571. 572. 573. 574. 575. 576. 577. 578. 579. 580. 581. 582. 583. 584. 585. 586. 587. 588. 589. 590. 591. 592. 593. 594. 595. 596. 597. 598. 599. 600. 601. 602. 603. 604. 605. 606. 607. 608. 609. 610. 611. 612. 613. 614. 615. 616. 617. 618. 619. 620. 621. 622. 623. 624. 625. 626. 627. 628. 629. 630. 631. 632. 633. 634. 635. 636. 637. 638. 639. 640. 641. 642. 643. 644. 645. 646. 647. 648. 649. 650. 651. 652. 653. 654. 655. 656. 657. 658. 659. 660. 661. 662. 663. 664. 665. 666. 667. 668. 669. 670. 671. 672. 673. 674. 675. 676. 677. 678. 679. 680. 681. 682. 683. 684. 685. 686. 687. 688. 689. 690. 691. 692. 693. 694. 695. 696. 697. 698. 699. 700. 701. 702. 703. 704. 705. 706. 707. 708. 709. 710. 711. 712. 713. 714. 715. 716. 717. 718. 719. 720. 721. 722. 723. 724. 725. 726. 727. 728. 729. 730. 731. 732. 733. 734. 735. 736. 737. 738. 739. 740. 741. 742. 743. 744. 745. 746. 747. 748. 749. 750. 751. 752. 753. 754. 755. 756. 757. 758. 759. 760. 761. 762. 763. 764. 765. 766. 767. 768. 769. 770. 771. 772. 773. 774. 775. 776. 777. 778. 779. 780. 781. 782. 783. 784. 785. 786. 787. 788. 789. 790. 791. 792. 793. 794. 795. 796. 797. 798. 799. 800. 801. 802. 803. 804. 805. 806. 807. 808. 809. 810. 811. 812. 813. 814. 815. 816. 817. 818. 819. 820. 821. 822. 823. 824. 825. 826. 827. 828. 829. 830. 831. 832. 833. 834. 835. 836. 837. 838. 839. 840. 841. 842. 843.

[illegible][illegible]

أما وجهات نظر القضاة في قضية ما فتحاتهم لتتوسع في القضايا والمواضيع ولا يقتصر على قضايا الحكمانية فقط بل يتعدى ذلك إلى القضايا التي تهم المجتمع كقضايا حقوق الإنسان والبيئة والتنمية المستدامة.

[illegible][illegible][illegible]







## ٣٩. ما الفرق بين القرآن، والحديث القدسي، والحديث النبوي؟

القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى، المسجل بين دفتي المصحف الشريف، وهو المعجزة التي أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ، ونجدى مكذبيه! وهو منقول بالتواتر، ومتعبد بتلاوته، ومعصوم إلى آخر الدهر من أى تحريف.

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بذلك تحديهم بكتاب يخاطب الألباب والأفئدة، وجاء على ألسنتهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى...﴾<sup>(١)</sup>، لا، هذا القرآن تسير به الجبال وتقطع به الخرافات، ويكلم به الأحياء!

وقد وقعت الخوارق التي يطلبون نما آمن منهم أحد لأن العناد أعماهم.

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يوشعون في الأحاديث، فدخلت على عليٍّ عليه السلام فآخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أما إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى..

فيه نيا ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصصه الله تعالى، ومن ابغض الهدى في غيرهِ أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة: ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾<sup>(٢)</sup> من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

(١) الزمخ: ٣٦.

(٢) الجن: ١٠١.

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تسبق دراسة السنة أو بتعبير آخر: لن يكون فقهها في السنة قصير الباع في فقه القرآن الكريم، والكتاب والسنة معا دعامة الدين.

أما الحديث القدسي فهو كلام الله تعالى ولكنه لا يحتوى الخصائص القرآنية، فليس معجزاً في عبارته ولا وقع به للتحدى، ثم إنه لا يتعبد بتلاوته، فلا تصح به صلاة.. وأخيراً لم يصل إلينا بطريق التواتر القطعي، فالأحاديث القدسية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف، بل قد يكون فيها الموضوع كحديث (عبدى أطلعنى أجعلك رانيا تقول للشيء كن فيكون)، فإنه لا أصل له..!

ويرى البعض أن الحديث القدسي من كلام رسول الله ﷺ، غير فيه الرسول عن مراد الله تعالى، وكان لسان الحال يقول كذا، والجمهور على الرأى الأول، وأنه يشبه الوحي النازل في صحف إبراهيم وموسى، أى كلام ينهى غير معجز ولم تكلف بتلاوة ألفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم..!

من غاذج الحديث القدسي الصحيح ما رواه مسلم عن أبى إدريس الخولاني عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال:

«يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم معروفاً فلا تظالموا..»

يا عبادى، إني حرمت ظلمكم، فالظلم على نفسى وجعلته بينكم معروفاً فلا تظالموا..

يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم معروفاً فلا تظالموا..

يا عبادى، إني حرمت ظلمكم، فالظلم على نفسى وجعلته بينكم معروفاً فلا تظالموا..

يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم.

يا عبادى، إنكم لن تبغوا ضركى فتضررتنى، ولن تبغوا نفعى فنتنعمونى!

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً..

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد

وسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك عندى إلا كما ينقص المغيط إذا  
ادخل فى البحر

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصاها لكم ثم أو فليكن إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله،  
ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه..

ومن غايج الحديث القلمى الحسن السند ما رواه أنس بن مالك قال : قال  
رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى :

يا ابن آدم ، إنك ما دعوتى ورجوتى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى !!  
يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى !!  
يا ابن آدم لو أتتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً  
لأتيتك بقرابها مغفرة!!

فى هذا الحديث جرعة منعة للإرادة التى عليها اليأس من طول ما انهزمت فى  
الحرب السجال بين الخير والشر أو بين العصمة والسقوط ، والمواد أن تفرق لتستأنف  
سيرها إلى الله ، وتلزم الصراط المستقيم ، فالحديث هنا يشبه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا  
عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ  
جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٦) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ... ﴾ (١).

وليس الحديث تهوينا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشىء آخر ، تلفت البصائر إليه أن آفة الكثيرين من العصاة هى عبادة النفس  
أعنى أنهم يعبدون أنفسهم من دون الله ، أو يشركون أنفسهم مع الله ، ويقدمون  
هوامهم على دينه .

ومن برئ من هذه الآفة الغبية ، ووقف أمام الله ، أو لقيه هاضماً نفسه ، بآدى  
الفاقة إليه وحده ، فهو أهل لأن يحظى بمغفرته .

وذلك فى نظرى السرى رفض الله سبحانه لى شىء يعتبر شريكاً له ، إن أى  
شىء يهكر حقيقة التوحيد ، مهما كان أمره ، بشراً أو حجراً أو مالا أو جاهاً هو

صدع هائل فى الإيعان!!

(١) فزير : ٥٣ ، ٥٤ .

أما الحديث النبوى فهو ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو حكم  
أو تقرير ، فإن الرسول الكريم إمام الأمة ، وأسرته الحسنة ، وله عليها حق الطاعة ،  
كما بين الله ذلك فى كتابه ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) ﴿ مَنْ يُطِيعِ  
الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (٢) .

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ﷺ ، وبحسب أن  
القرآن وحده كاف فى هداية الناس دون بيان من صاحبه ، ودون تطبيق عملى  
يوضح مراد الله من عبادته ، وهذا خطأ بالغ ، فإن القرآن ليس نقطة عثرتنا عليها فى  
فلاة ، ولا كتاباً نظرياً يستطيع كل امرئ أن يفسره على هواه ضارباً عرض الحائط  
بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه!!

والحق أن تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل فى تاريخ الإنسانية الطويل .  
إن محمداً - لو لم يكن رسلاً - لكان لنفاسه معدته ، وطهر سريره ، ومجادة  
نفسه ، أهلاً لأن يسمع نصحه فكيف وهو بالرسالة التى اختير لها - قد اتصل باللا  
الأعلى ، وأضحى معصوماً فى كل ما يصدر عنه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٣) .

إنه عندما يتكلم يبلغ عن الله ، ويصدر من فؤاد موصل بنور السموات والأرض ،  
وكما قال الله له : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ  
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ، قال  
رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكّيهم ،  
ولهم عذاب أليم:

رجل على فضل ماء بفلاة يمتعه ابن السبيل ، يقول الله له يوم القيامة: اليوم أمتك  
فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل بدالك...:

- |                 |                 |
|-----------------|-----------------|
| (١) فزير : ٥٦ . | (٢) فزير : ٥٦ . |
| (٣) فزير : ٥٦ . | (٤) فزير : ٥٦ . |

و رجل بايع رجلا بسلمة بعد العصر فحلف له بالله تعالى: لقد أخذها بكذا وكذا  
فصدقه وأخذها وهو على غير ذلك!!

و رجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها ما يريد وفى له! وإن لم يعطه لم  
يقبله!!

وجمهور المسلمين على أن طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه، وأن من قرر  
عصيان رسول الله، ورفض ما أمر به أو نهى عنه، فقد خلع رتبة الإسلام من  
عقه..

والواقع أن من يترك حديثاً ما من الرويات التي بلغتنا، لا يفعل ذلك فربما على  
صاحب الرسالة، وإما شكاً منه في صدق ما نسب إليه، أو في المعنى المراد  
منه..!

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله، كلاماً جمع بطريق الجزاف  
أو سجل دون وعي!! لا، إن جميع الضوابط التي يمكن حشدتها لضمان الصدق  
والدقة قد اتخذها علماء المسلمين.

ثم إن السنة العملية، وصلت إلينا بطريق التواتر، الذي وصل به القرآن نفسه،  
فلا مجال لإنكار صلاة أو زكاة من الصلوات المكتوبة، أو الزكوات المحسوبة.



#### ٤٠. ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبداً وما يبدو حيناً من تعارض هو من سوء  
الفهم لا من طبيعة الواقع، وذلك مثل حديث: «من يدخل أحد الجنة يعمل به»، وقوله  
تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

الفهم الصحيح للموضوع كله، أنه لا بد من عمل يتال به المرء رضا به،  
ويستحق رحمته، فالجنة ليست للكسالى والأراذل، بيد أن العمل للقبول هو  
المقرون بالتواضع لله، وإنكار الذات، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل  
المتقرب به لأن عيوبه لا تغفى عليه، أو لأنه دون حقه، أو لئى سبب آخر.

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الأنف، ليس في حسابه إلا أنه قدم العمل المطلوب  
للجنة، وعلى الله أن يسلم له الفاتح ليدخلها بعدما امتلكها بعمله!! هذا المغرور  
لا يقبل منه شيء، ولا مكان له في الجنة.

أما من جاء خاضعاً خفيض الجناح، شاعراً بالانكسار لأنه لم يقدم ما الله أهل  
له فإنه يدخل الجنة بعمله!

والدلائل على هذا المعنى كثيرة، وما يعقلها إلا العالمون!

إن السنة بحر متلاطم الأمواج، وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيه يدرك  
ملايسات كل قول، والوارد الحق منه! فإن النبي عليه الصلاة والسلام ظل يكلم  
الناس ثلاثاً وعشرين سنة، اختلفت فيها الأحوال، وتباين الأفراد وتشعبت القضايا.

ووضع كل حديث بإزاء المقصود منه، أو معرفة النطاق الذي يصح فيه، هو عمل  
الفقهاء، وهو عمل لا مناص منه ولا حرفنا الكلم عن مواضعه!

والحزن أن ناساً لافقه لهم تكلفوا مالا يحسنون من قراءة للسنة، وإفتاء بها،  
فأساءوا ولم يحسنوا، وهم الآن حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية!

بعضهم فهم أن الإسلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة  
إلى دين!

(١) فتح: ٣٢.

وبعضهم فهم أن مستقبل الأمة إلى ضياع لأنه لا يبقى يوم إلا والذي يليه شر منه  
وبعضهم فهم أن الغنى مضاد للفقير ، وأن الفقر أخو اليقين وطريق الآخرة  
وبعضهم فهم أن الفقر تحويل قسرى للمره من طريق النجاة إلى طريق الهلاك  
أو العكس ، لأن العلم الإلهي سبق بذلك!!

وسبب هذا الخبط اشتغال الدماء بالسنة ، دون أن يكون لديهم رصيد من  
الحكمة القرآنية ودون أن يكون لديهم ذوق أدبي بأساليب الأدب العربي ، ودون أن  
يكون لديهم بصر بأغوار النفس الإنسانية ، وأحوال المجتمعات البشرية ، ودون دراسة  
عميقة للسيرة الشريفة ، وما حفل به ربع قرن من أحداث جسام وشئون وشجون!  
ودون تفريق بين ما هو عادى وما هو عبادى .

فالسنة عندهم الأكل على الأرض ، لا على مائدة ، وتطيف لهم بالسوك لا بالفرشة  
والاستنجاء بالأحجار لا بالأوراق ، وإرخاء ذيل العمامة على الألفية ، وإشراق الأبيض من  
لللابس الفضفاضة ، وضرب الثقل على الوجه حتماً ، وذلك بالنسبة إلى النساء!

والواقع أن العدالة البدوية غلّت سنة نبوية ، ولما كان العرب يؤخرون المرأة في المكانة  
فقد مُنعت باسم الإسلام من التردد على المساجد ، ومن تلقى العلم في المدارس ، ومن  
جهاد الكلمة ، أي جهاد الأمر ونهيه! ومن أي مشاركة في جهاد عسكري ... إلخ .

والمعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد ، ومتافاتها للكتاب والسنة ،  
ومع ذلك فإن الدماء المتحدّثين في الإسلام يقاومون الحق بعصبية ، ويرمون  
غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة .

والذى أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم ، ولكن لا يشتغل  
بتفاصيلها إلا الفقهاء ، ومن يعنهم الأمر من الولاية والقضاء والدعاة ، والمتخصصين  
في أي مجال يحتاج إلى الإلزام بهذه التفاصيل .

أما رجل الشارع أو الشخص العادى ، فإن أربعم حليماً تكفيه وتغنيه .

وعلى أية حال ما يجوز لجاهل القرآن أن يحدث الناس أو يتصد للفقير في شئونه!  
لقد رأيت أغفلة تشغل بالسنة ، انتهى أمرها بالهجرة إلى اليمن لعلها تبدأ من  
هناك نهضة إسلامية!! نهضة بعيدة عن فقه الحياة والاستمكان من الدنيا! نعل  
صالحى الجن سوف يملونهم بالتفجيرات في ميادين الحرب ، أو بالغذاء والكساء  
والدواء في ميادين السلام ... والجنون فنون!!

نحن نستمد معاهد الإيمان وأركان الإسلام وأعمدة الأخلاق والمعاملات من  
الكتاب والسنة معا ، والسنة العملية التى وودت بطريق القطع تفسير مستيقن  
للقرآن نفسه ، وعلى ضوء هذا نصلى الخمس ، ونهج البيت ، ونعرف الكيفيات  
لهذه الفروض من السنة العملية ، وهناك أحكام كثيرة في الفروع أجمع عليها  
الفقهاء ، ولا يخرج على هذا الإجماع مؤمن ، أما ما كان موضع خلاف ، فالأمر فيه  
على الاتساع ، يعتنق أي مسلم ما شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج .

قال الفقهاء : والسنة المشهورة تخصص عموم القرآن ، فالأولاد مثلاً يرون أباهم ينص  
الآية : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْفَمَةِ الْأُنثَى...﴾ (١) وقد جاءت السنة بأن  
المقاتل لا يرث أباه الذى قتله . كما جاءت السنة بأن لكافر لا يرث أباه المؤمن ..

وقد تجددت السنة نصاً جاء في القرآن الكريم مطلقاً ، فالآية تجعل الأم من الرضاع  
محرمه كالأم نفسها ، وكذلك الأخوات قال تعالى : ﴿...وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ  
وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرُّضَاعَةِ﴾ (٢) وجاء في السنة أن ذلك ليس على إطلاقه ، فلا تحرم رضعة  
ولا رضعتان ، ويرى عدد من الأئمة أن أقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم !!  
وبقى أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق!

والذى أميل إليه أن الأمومة لا تتكون من رضاع كثير ، فإذا ورد في السنة أن الحد  
الأدنى لذلك خمس رضعات ، أو عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية!

وقال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (٣) ، ولكن السنة بنت أنه لا يقتصر الفرع  
من الأصل ، فإذا قتل أب ابنه عوقب بغير قتل! ، والسبب أن هذا القتل شذوذ عن  
سنن الآيات الذين قد يقتلون أبناءهم بجهاتهم ، ويحين كادحين ليؤفروا لهم السعادة  
لا بد أن هذا القتل لا تصحبه نية الإجماع ، وأنه وقع تحت ضغط جنونى طارئ!  
ويرى مالك أنه لا قصاص إلا إذا كشفت التحقيقات أن الأب رجل متوحش مجرد من  
مشاعر الحق ، فكر ودبر لفرض خيس! ، ويرى غيره إلغاء القصاص مطلقاً إمضاء للسنة !  
وهذا التخصص أو التقييد هو تفسير عن تلقى الوحي للمراد الإلهي ، ومن أحق  
من نبى القرآن بنفسه! ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم ، بل هو بيان وتوضيح .

وتستغل السنة بإنشاء أحكام إلى جوار ما شرع في القرآن ، وأى ضمير في هذا! قالوا : مثل المسح على الخفين بدل شريعة الغسل! ومثل تحريم الذهب والحديد على الرجال ... إلخ .

والتحقيق أن تشريعات السنة كلها داخلية في نطاق القرآن الكريم ، ودلالاته القريبة والبعيدة ، وعندى أن المسح على الخفين ليس من إنشاء السنة بل هو معنى الفداء الثابتة : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكُفَّينِ ﴾ (١) بكسر اللام عطفنا على ما قبلها ، والتعبير مجازي كما يقول علماء البلاغة ، أطلق الحال وأراد المحل !!

أما تحريم الذهب والفضة فسلأ أبواب الترفق وأظن ماورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الأذان ، وإلا فلا مانع من استعمال الجرس للإنذار أو فى الساعات المنبهة ، أو فى الهاتف أو فى أحناق الدواب مثلا .

ولفقهائنا الختفية كلام فى هذا الموضوع أورده هنا لأنى مبال إليه ، إنهم يرون أن الفرض والحرم لا بد فى إثباتهما من نص قاطع ، ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على إثبات حرمة أو إثبات فرضية .

ويعنى هذا أن الأحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الأئمة الآخرون!

الأئمة يقولون : الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والحرم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمتنوب ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه ، والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله ، والمباح ما استوى فيه طرأ الفعل والترك .

ويرى فقهاء الختفية أن ما أمر به حديث أحد لا يرتفع إلى درجة الفرض ، ويسمى لديهم واجبا يؤمر بفعله ويلزم على تركه ، وما نهى عنه حديث أحد لا يرتفع إلى درجة المنع بل يؤمر بتركه ويلزم على فعله ، وبأخذ حكم الكراهة التحريمية . وهم يطلقون هذا الحكم على ما انفردت السنة يحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلا .

لا فريضة عندهم إلا بنص قطعى ، ولا تحريم إلا بنص قطعى ، وأخبار الأحاد عند الجمهور لا تغد إلا الظن العلمى ، وشذ بعض الختلفة فرؤى عن إمامه أنها تنقيد القطع ، وهذا فهم مردودا

## ٤١. هل الصورة التى رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»؟

ظاهر أن الذى أوحى بهذا السؤال ما كتبه «داروين» من أصل الأنواع ، وما أعلنه من رأى فى قضية النشوء والارتقاء .

ومع أن النظرية منقوضة من جوانب كثيرة ، ومع أن هناك من علماء الأحياء من رفضها جملة وتفصيلا ، فإن أعدادا من الناس لاتزال تروج لها ، بل إن هذه النظرية لا تزال تدرس فى بلادنا وكأنها حقيقة علمية !

والسبب فى ذلك أن سدة المذاهب وسماصرة الإلحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون إقناعنا بأننا من الأرض وحدها نتلقا ، وأن الروح الذى نسمو به ونسود بقية الأحياء لم يجهن من الله! فهم لا يعترفون به!! إنه ظاهرة أرضية بحتة! وأنا رجل مسلم ، أشعر بأن نسبى السماوى أزكى من نسبى الأرضى وأحق بالتقديم ، وأثنى ابن آدم الذى خلقه الله من تراب الأرض ، ولو استبقاه على هذا الطور من الإيجاد ما كان له شأن يذكر !

إن آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد أن نفخ الله فيه من روحه بهذه النفخة العلوية أضحي كائناتنا جديرا بأن تسجد له الملائكة وتحبب فى وضعه الجليل الإبداع الإلهى وحسن التقويم وعبقريته العقل وسناء المواهب!! ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْتَوٍ ﴾ (٢) فإذا صوّفته ونفخت فيه من رُوحى فقوماً له ساجدين ﴿ (١)﴾

لولا هذه النفخة لكتبت نوعاً من الأنواع التي تحدث «لدورين» عنها ، ولكنت من أسيرة متفاوتة الأفراد من زواحف وسياح ومن طيور وأنعام!!

إننى أؤمن بأن الله خلقنى ونفخ فى من روحه ، وإذا كان أبى آدم صور من طين مباشرة ، فأنما من سلالته على طول المدى ، وقد قال الله فى وفى أخوتى من أبناء آدم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ (٩)﴾ .

والنفخة التي سمرت فى أوصالى وجعلتنى خلقاً آخر تستحق التأمل العميق ، إننى الآن واحد من خمسة آلاف مليون بشر ، هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد! كلا ، إنه كما تختلف بصمات أصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية ، ومشاعرنا النفسية .

لكل قلب همومه وأشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، أى إن النفخة ها هنا!

فإذا كان ذلك فى عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بده الخليقة؟ وماذا عن أجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الأرض ما شاء الله؟

إن الله العظيم الذى أشرف على كل جنين ، وتابع أطواره حتى اكتمل وزحم القرون بين أن هذه الحياة الإنسانية المذلة شئ صغير بالنسبة إلى ما خلق من عوالم لا تدبرها! ليس القائل : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ .

إن الشبه واحد بين أسمع الناس وأبصارهم أى بين مظاهر الحياة الإنسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقى يقول :

يأنفس مثل الشمس أنت أشعة

فى عامر ، وأشعة فى بلقع

فإذا طوى الله النهار تراجمت

شئى الأشعة والتفت فى المرجع

(٢) غار : ٥٧ .

(١) لجله : ٧-٩ .

إن الغروب الذى يطوى الأشعة فى رأى العين فيبداً لليل ، كالوقت الذى يسترد السر الإلهى فتنتهى الحياة .

لكن الشمس تقرب من ناحية لتطلع فى أخرى ، والنفس تموت بيننا ، أو تغنى بيننا لتستأنف وجودها فى عالم آخر !

وكان النبى ﷺ يشير إلى هذا المعنى عندما يقول فى كل صباح : «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور» وعندما يقول فى كل مساء : «أصبنا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير» .

ومع البعث تبدأ الخصائص الإلهية فى كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها ، وكل امرئ حسابها على قدر ما أعطى من مواهب وإمكانات ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا (١)﴾ ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٢)﴾ .

وعلى أية حال فإننى قد أدركت أن جسمى يتكون من تراب هذه الأرض ، لكننى لن أصدق أبداً أن الحب واليقض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبتت مع العشب والكلأ ، وجاءت من تراب هذه الأرض!

ثم شئ آخر يجعلنى أحس بأبى آدم ، وبأنه حقيقة لا يليها تطاول العصور ، ذلك هو وحدة الشعور والفكر بينى وبينه ، إن الله أسكنه داراً حسنة وسط حديقة يانعة ، فيها ما يغنى ويكفى وقال له : ﴿إِسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (٣)﴾ بيد أن الإنسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافهاً ، يريد الحصول على المنوع وإن كان مؤذياً فى الحلال الطيب سعة ، أو فى دائرة المباح مقنعاً لكن أبى إلا الجرى وراء الوهم .

وكانت له آمال باطلة يود لو تحققت ، إنه يحب الحلود ، ويحب أن يكون ملاكاً!! يا أبانا مايقبى! إن الله أسجد لك ملائكته كيف تنزل دون مكاتتك؟

وجعل إلى مشيئتكم البقاء فى الجنة والتغلب فى رياضها فماذا تخاف؟

وعرف الشيطان مكان الضعف من نفس أبينا الطامع! فحلف له بالله أن أمانيه سوف تتحقق إن هو أكل من الشجرة المحرمة . . وكان صوت النهى قد بدأ يخفت ،

(١) الطلاق : ٧ .

(٢) النجم : ٣٢ .

(٣) لقمة : ٢٥







أدلة الشريعة ، ومع أغلب الفقهاء في رعاية الصلحة المرسله ، واحترام جملة القواعد التي تحكم الفكر التشريعي عندنا .

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل المقدر ، وهو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق أدل على خصائصنا من الفلسفة الإسلامية .

لكن علم الأصول لمحمد في كتيبه ، ولسيرة في القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه والعالم الإسلامي تحكمه بعض الآراء الاجتماعية التي لفتت حظه عند فريق من الناس ، ثم قامت عليها تقاليد راسخة ، ثم اعتبرت هذه التقاليد هي الإسلام بعينه ، واعتبر تركها خروجاً على الدين ، وربما تاركوها بالارتداد!

إذا كان ذلك ما دعا إلى الكلام عن النص وروح النص ، والظروف وتغاير الظروف ، فللموضوع وجه آخر ، وإن لم يحسن أصحابه الكلام فيه ، أو تصوير شكائهم كما يجب !

أعرف مجتمعات حست فيها ألوف الفتيات لأن الكفء لم يتقدم من الكفء المرتقب؟ أستاذ في العلوم؟ محام قدير؟ أديب رائع؟ تاجر ناجح؟ شاب تزينه التقوى وخلمة للثقل؟ لا ، لا كفاية وراء هذه الحلال كلها ! اللهم النسب الفارع ، والمكانة المدعومة بالمال الكثير !

وقضية الكفاية يستدعا فقه معيناً ، لكن هناك فقها إسلامياً آخر يقول إن الزمعي المسلم كفء لبنت الخليفة الهاشمي ، لا ، هذا فقه مهملاً ! ماذا لا يكون الإهمال نصيب الاجتهاد الأول؟ هذا ما حدث !

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشرعية - يزدرى بسبب هذا الذي حدث ؟

إنه لا شكاة من نصي معين ، لا شكاة من أمر أو نهى عن محرّم ، الشكاة من فهم ضيق لأحد النصوص أو من واجب لم يرد به أمر ، أو من تحرّم لا يستدعي نهياً ! وعلاج هذا الحلال ميسور ، بل هو عمل المجتدين والمصلحين والدعاة الفاضلين .

قال لي أحد الناس : إن إعطاء الأنثى نصف نصيب الذكر موضع ضيق من التفتين في الغرب ! وهم يرون المساواة بين الجنسين ، وإهمال هذا النص !

قلت : إن هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعل نفقة الفتاة مسئولية الأسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغرب بين الذكر والأنثى في طلب الرزق ، وخرجت الفتاة للكدح من سن السادسة عشية ، فماذا حدث ؟

إن الغربيين يجب أن يخجلوا من الأدران الجنسية التي تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، ولزعم بأن الجنسين سواء في الغنى والقرم .

وأنا لا أنال حائزاً في تحليل هذا الرضا العام ، بانتهاك الأعراض ، وإشباع الرغبات ، وتقديم الأجساد في المراقص والحدايق !

وعلى أية حال ، الرجل ملازم بالإتفاق على زوجته إن كان زوجاً ، وعلى ابنته إن كان أباً ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كي تعيش ، فإنها ستفقد نفسها في مازق كثيرة !

ولها بقينا أن نعمل ونكسب في أوضاع متخيرة مضبوطة ، لها وليس عليها ! ومع ذلك فما ناله الرجل من زيادة في ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجنى الغرب نتائج فسوقه ! ولولا اتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدي لقيادة الإنسانية ، لما بقي الغرب في مكانته تلك ، مع بغيه وبغاله ! إنه باق لعدم وجود البديل وحسب !

القرآن الكريم قد أحكم لله آياته ، وسرّ فهمها وذكرها ، وما تشابه من آيات القرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية ، والمسالك الفردية والاجتماعية . !

وليست هناك أية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيذ ، أو تعطيل عملها ، تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا كنا نعيب على بعض اللجنتين تبرمهم بأحكام الحدود والقصاص ، فهناك عيب أشد على نفر من اللتين إلى الدين ، أنهم أطاعوا ما استسهلوا ، وتركوا ما استوعروا .

إنهم صلوا لأن الصلاة عمل لا يجري وراءه المتاعب . أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَقْلُوا... ﴾ (١) فأمر قواماً طائفة الجناء الحريصين على منافعهم ومتاعبهم ، هنا يمكن اللجوء إلى تأويل النصوص وتغاير الظروف ، وجعل العجز عقلاً ، والجنح حكمة . . !

والبعد عن الصراط المستقيم يستوى أن يكون الانحراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار .

## ٤٣. ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟

إذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يئمن أحداً فإن توارث الذهول عنها أمات الشعور بها ، حتى قال الحسن البصري عن الموت - وهو أول مراحلها - ما رأيت حقاً أشبه بها طل من الموت...!

وكل حقيقة يجب أن نتعرف بها خصوصاً عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطيء عميقاً ، ثم تترك غرا لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فإنك فاته !!

قد نستغنى عن بعض الحقائق وإن كان الجهل بها عيباً ، مادامت لا تمسنا ، أما إذا ارتبط كياننا للمادى والأدبى بشيء ، ثم غفلنا عنه فهذا العاطمة .. !!

إننى أتخيل فجيعه المجاهد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الخواص أمام غيب تحول إلى شهادة أمام أمر كان يهزأ منه فإذا هو جدار يصدع دماغه! لقد وقف وجهها لوجه أمام ما كان ينكره بقوة ﴿ وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا ﴾ (٢٢) وجمي يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٢٣) يقول يا ليتني قدمت حياتي ﴿ (٢٤) 》.

ليت ! وهل ينفع شيء ليت ؟ إنه أضاع ماضيه فى الحياة الأولى سدى ، وما هو ذا يحصد مازعه ! ما فكر قط فى هذا اليوم ولا أعد له عدة ، ومع التآوه والتندامة يقول : يا ليتنى قدمت حياتى ، وهيهات .

وهناك شخص آخر ، كان فى دنيا الناس يذكر الله ويثالب النسيان ، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشه منطلقاً إلى المسجد ، يغمض عينيه عن المغانم المبلولة ، يستغف عن المحرمات وإن كثرت حولها المفريات .

(١) القبر : ٢٢ - ٢٤ .

إنه - يوم الحساب - يتلقى نيا لجاحه فيصبح جلالان . سمعا كل إنسان ﴿ هَازِمًا أَمْرًا وَكَاثِبًا ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿ فَبُهِرَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (٢٠) لِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ فَطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ (٢١) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿ (٢٢) 》.

إنها فرصة العمر ، بل فرصة الخلود! شتان بين مصير ومصير !  
وأثر الإيمان باليوم الآخر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية ، إنه يتحمل حيناً ليظفر بالراحة بعد حين! كما قيل لأعرابي : تصوم فى هذا اليوم الحار؟ قال : أصومه ليوم أحر منه !

وتعليل النفس بالألام عون على الرضا بالمتاعب ، وحبسها على ما تكره لتتال ما تحب! وكما قال الشاعر :

مضى إن تكن حقاً تكن أسعد المتى

وإلا فقد عشنا بهزاً متارعداً !!!

وهذا الاستثناء بالنسبة إلى الآخرة مرفوض ، فإن الدار الآخرة أحق وأثبت من الدار الأولى ، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ومن هنا صرح وصفها بما يدل على زيادة الحس فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْخَيْرَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤) . والحيوان كالفيضان مصدر على سعة المعنى .

وقد كثرت فى القرآن الكريم المواطن التى تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك فى هذه الدنيا أو تركيته وترقيته ، فعندما ضالقت زوجات النبی ﷺ بمحشيتة الخشنة قبل لهن : الأمر على غير ما ألفتن قديماً ، لقد جثتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع إلى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

إنه بيت الكفاف والخشونة ! بيت التلاوة والتعهد ! لا يد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين ، ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الإسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا إلى الآخرة وسعى لها سعيها

(٢) المنكوت : ٦٤ .

(١) الحاقة : ١٩ - ٢٤ .

فليبق موطننا نفسه على حياة ناشئة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَاجَكُ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَتَعَالَى مَتَكُنُّ وَأَسْرَحُكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

وجمهور الناس قد يحس غصه وهو يرى المرتشين والمفسدين أو للملحدن المجرمين  
يرحون في طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وأمانة القوة .

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يحو ذلك  
محوا عندما يقول : ﴿لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (٣٠) مَنَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ  
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣١﴾ لكن الذين اتقوا رُبِّهم لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تَزِلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٣٢﴾

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر في القرآن كثيرا ليحارب ظاهرة مؤذية تسود  
الامة العربية والإسلامية من زمان غير قريب حكام الجور الذين يتهافت حولهم  
الأتباع ليؤازروهم على ظلمهم ، ويشاركوهم في منافعهم الحرام .  
إن التبعية في الفساد والإفساد مقسمة على الفريقين قسمة عادلة ، لأن هؤلاء  
يوحون وأولئك ينفذون ، الرؤوس والأذناب شركاء ، في اقتراف الجرائم ، وفتنة  
المستضعفين وإثارة الفتن ، ومن هنا جمعهم مصير واحد .

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير ، ويذكر ما يقع فيه من حوارا ﴿وَهَذَا وَإِنَّ  
لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ﴾ (٣٣) جَهَنَّمُ يَصُورُنَّهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٤﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ  
وَعَسَاقٌ ﴿٣٥﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٣٦﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ  
صَالُوا النَّارِ ﴿٣٧﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٣٨﴾ قَالُوا  
رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ هَذَا عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الْكِبَرَاءَ عِنْدَمَا يرون الأذنان  
يلحقون بهم في دار الجحيم تسوؤهم للقميا ، ويصيحون مستكرين مرأهم ؛ لظاننا  
هشوا لهم في الدنيا وسارعوا إلى لقاءهم ، أما اليوم فإن الفريقين يتبادلان السخط .  
والتشاؤم وعدم الترحيب . II .

(١) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ . (٢) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٨ . (٣) ص : ٥٥ ، ٦١

وتذكر الفريقان أنهم كانوا يتفقون على إهانة المؤمنين ، ونعتهم بأقبح النعوت ،  
ويتظاهرون على اضطهادهم وإقحامهم ، أين هم الآن ؟ .

وقالوا : ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْ نَرَى رَجُلًا كَذًا نَعْلَمُهُ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٤٠) اتَّخَذْنَاهُمْ  
مُخْبِرِينَ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿٤١﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَخُبْرٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٤٢﴾

تسجيل هذا المنظر الذي يسبق حتما ، والتعجيل بعرضه الآن ، فيه طمأنة  
لجمهور المؤمنين الذي أرفقه الاستضعاف والاستهزاء أما الكافرون فإنهم لا يعونه  
ولا يصدقونه !

ومنظر آخر جدير بالتأمل ، يقوم بعض أهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون  
فيها مصابير من كانوا يعرفونهم قديما من أهل الضلال والكفران ! ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ  
إِنِّي كُنْتُ لِي فَرِيقٍ﴾ (٤٣) يَقُولُ أَتُنْكَلِ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاعِظَانًا إِنَّا  
لَمُدْبِرُونَ ﴿٤٥﴾

هذا الفريق يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات ، ويتبعون الترهات ، فهو  
يقول لصاحبه : أتصدق أننا بعد فناننا نبعث ونعزى ؟

ويشرف الرجل المؤمن على قبره القديم ليراه وسط أهوال ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ  
﴿٤٦﴾ فَاطْلِعْ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُرْثِدِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ  
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٤٩﴾

وعبرة إن كدلت لتردين ، تشعر المؤمنين في يوم الناس هذا بضرورة الثبات على  
الحق ، لأن التهورين فيه طريق السقوط والضياح ، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل  
الله عليهم ، إذ شرح صدورهم لهذا واستدامهم عليه !

وفي دنيانا الحاضرة ، ينفر المنافقون من أهل الإخلاص واليقين ، وبهجرون  
مجالسهم ، ويبعدون عنهم إذا جمعتهم المصادفات في طريق ، ذلك لأن قلوبهم مع  
الكفر وأحزابه ، ما يأنسون إلا بهم . . . بيد أن الحال تتغير تغيرا عميقا في الدار  
الآخرة ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا نَظَرْنَا نَحْنُ مِنْ أُولَئِكَ قِيلَ

(١) ص : ٦٢ ، ٦٤ . (٢) الصافات : ٥١ ، ٥٢ . (٣) الصافات : ٥٤ ، ٥٧

ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَاتِّبِعُونَا نُورِثْكُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ  
مِنْ قِبَلِ الْعَذَابِ (١)

إن القرآن الكريم يربى الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرهه ، ويعالج  
عللهم بما يسوق من صوره !

إنه يذكره لإصلاح الدنيا لا لهدمها ، ولتعلق الهمم بالأبقى والأجدى لا  
بالسراب الخادع .

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الأرض ومغاربها ، فما يعرفون إلا هذا  
الشراب ، وما يعملون إلا على إياهم فوقه وما يرمقون السماء بنظرة رجاء ، وما  
يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان .

مررت يوما بأحد شوارع القاهرة ، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها ،  
وتجاوزت صاحبها الحزين على ضحيته ، ونظرت إلى الدابة الميتة عند أقدامه وقلت  
فى نفسى : انتهى أمرها ، إن كثيراً من القادة والساسة لا يرقون بحياتهم فوق هذا  
المستوى الحيوانى ، يظنون أمرهم انتهى عندما يتفقدون كهذه الدابة ، ألا ما أحقر  
الكفر ، وأسوأ تصوره للوجود !



## ٤٤. ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير على ضوء ما يحدث فى الدول المتقدمة التى تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط ؟؟

لا نستطيع إنكار المدى الكبير الذى بلغته الحضارة الحديثة فى اكتشاف أسرار  
الكون! إنها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة ، وقد طوعت ما بلغته إلى تقدم  
صناعى باهر طفر بالإنسانية طفرة وحيية ووهبية ، فى جميع المجالات المدنية  
والمسكينة ...

ولكن هناك إحساساً عاماً بأن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقدم روحى ، وأن  
إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن إنسان العصر الأول فى غرائزه وشهواته !  
ولذا كانت ثمة فروق ففى الوسائل لا فى البواعث والغايات ، بل لقد قيل فى  
إنسان العصر الحاضر : إن عضلاته أكبر من عقله .

والواقع أن الإنسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق ، وطالما  
رددنا أن الإسلام عقل يرفض الخرافة ، وقلب يكره الرذيلة !

إن الكمال الحقيقى امتداد ونضج فى جميع الملكات الإنسانية ، وهذا التوازن  
أساس لا بد منه لقيام مجتمع رشيد . وحضارة يابنة الشمار ، مديدة الظلال ، فهل  
الحضارة الحديثة - بعد تلك المقررات - جديرة بالخلود؟ أو هى أروج من غيرها فى  
موازنة منصفه؟ الحق ، لا . !

فالرجل الأبيض ، قائد هذه الحضارة ورائدها ، إنسان طافح الأتانية ، يشده إلى  
منافعه ألف رباط ، وقيل أن نشر شره للمسور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر أحد  
مظاهر الحضارة الإسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الإسلام للأعاجم ، وبنوهو به من الظلمة إلى النور ،  
وبعد ربح من الزمان كان هؤلاء يصلون وراء الأتقاء من شتى الأجناس ، ويتلقون  
عندهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء ..

فالبخاري هو المحدث الأول ، وأبو حنيفة الفقيه الأول ، والحسن البصري المربي الأول ، وسيبويه اللغوي الأول . . . إلخ ولم يشعر المصريون بأى ضيق من أن يقودهم «فطر» في معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج في أن يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين في حطين .

إن الإسلام محا التفرات الجنسية في أغلب الميادين ، وربط الناس بمنزلهم العالية وحدها !

أما الجنس الأبيض ، وطلّاعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يمدون أنفسهم ، ويقصدون مصالحهم ولا تحكّمهم إلا شرعة لغالب

اكتشف الإنجليز أستراليا فماذا فعلوا بكانها؟ شرعوا بطاردونهم من مكان إلى آخر حتى حصّدوا جمهورتهم ، وأخبرنى صديق قادم من أستراليا أن البيض يسرون أروا الخمور ل هؤلاء السكان الأصليين حتى يفضوا عليهم القضاء الأخير ، وتبقى أستراليا للمغفّرين المسلّحين بالتقدم العلمى والصناعى ، المجردين من كل رحمة وإيثار . . . !

أكان سكان أمريكا الأصليون أسعد حقاً من أستراليا ؟ لقد تنبعتهم حرب الإبادة من بلد إلى بلد ، وكان المكتشف الذى يسبل ريقه للذهب ينظر ، فإذا وجد هنديا أحمر على رأسه تاج من ذهب ، قطع الرأس ، وعاد بالتاج . . !

قد يقال : كان ذلك فى الأيام الأولى لاكتشاف العالم الجديد ، وقد لوقت اليوم البشرية ، وضاعت بما كان يفعله المستعمرون الأولون ، واستكثرت !

ولغيب أن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الأبيض ، وعندما أحوزه الانتصار السريع ضد اليابان ألغى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكي فقتل نصف مليون إنسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب ، ولا ريب أن عشر هؤلاء الهلكى فقط هو الذى كان يمكن أن ينجذ فى الحرب . . !

المأساة أن هؤلاء «المختصرين» ارتقوا علميا وعبثوا خلقيا ، وأنهم عبيد لذاتهم العاجلة ، وأن الفكرة من يوم الدينونة غائصة أو معدومة لديهم ، أنهم لم يسمعوا يوماً من يقول لهم : ﴿ ولا تحسن الله عاقلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤزرهم يوم نخضع فيه الأنصار ﴾ (٤٦) فهذهن مقبلي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم

هواء (٤٥) وأتذو الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخبرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك وتب الرسل . . . (١)

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر ، لاسيما إذا كان هو واضع القانون ومطبقه ! إن القانون يومئذ يحرس الأقوياء ويحتاج الضعفاء ، وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطينى ويمحى وجوده فوق أرضه ، ويباء بالوف مؤلفة من اليهود لتحتيا فوق أنقاضه ، والقانون الدولى كمك المم ، لأن ملاك القوة يريدون ذلك ، وأجهزة الدعاية قديرة على إبطال الحق وإحقاق الباطل . . !

إن الغرائز للمهتاجة ، والعادات السيئة ، والموروثات الرديئة تهزم الحق فى دنيا الناس ، وقد نظرت إلى جموع المستشرقين - وهم قوم ذو ثقافة واسعة - لفنتهم ضغائن غيبة ضد «محمد» ﷺ ، فأذاوا عنه أنه كفى جنسه محب للنساء . . .

إن هؤلاء للمستشرقين قروا فى المهد القديم أن سليمان جمع فى عصمته ألفاً من النساء ، سيعانة من الحرائر وثلاثمائة من الإماء ، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده؟ لا ! نصف العشر؟ لا ! ربع العشر؟ لا !

ومع ذلك سليمان نبى حكيم ، ومحمد دون ذلك !!

ونشهد الأنشد الذى لسليمان تسمع فيه صحبات الباحث عن الحبيب المجهول أو المعلوم ، أما قرآن محمد فليس فى طوله وعرضه إلا جزائر يدفع البشر إلى ربه ، ويذكر بيوم لقاءه ، ومع ذلك فسمحمد لا يوحى إليه ، والأشواق وراء الحبيب للشود هى الوحى المصموم ما قيمة العلم إذا لم يكن معه إنصاف ولا عدالة ؟ إننى أسقت الذكاء الحبيث ، والثقافة المسفة ، وعندى أن امرأة حصاناً غافلة أشرف من موسى عبقريّة ، وإن رجلاً ساذجاً يعرف ربه أشرف من خبير فى الذرة يعبد نفسه ؟ !

وقد أنهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روى عنه : «التأسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأصنام» فيقولون: بينما ينفيل عبدة الوثن فيقتل لهم ليس من يعلم كمن يجهل» (٢)

والخسارة الغربية ، كما قلنا آنفاً ، اتسع علمها وضاق أدبها ، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها ، فهى الآن تصنع أجيالاً لا تعرف إلا الحياة ليومها فوق هذا التراب ،

(١) إبراهيم ٤٦ - ٤٤

(٢) الحديث رواه البخارى فى الترغيب والترهيب وقال : هو على غرسته له شاهد من الصحيح .



وإنما نحترمهم ! لقول رسول الله ﷺ : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعائلنا حقه .

وأحب أن أعرض غاذج متناثرة للخلاف الفقهي تومئ إلى طبيعته وعلمته ، أما التأصيل العلمي لأسباب الخلاف فقد شرح في أماكن أخرى .

هل القاذف الكتاب تقبل شهادته بعدما تتم توبته ؟ ... من الأئمة من يرفض شهادته أبداً وإن تاب ، ومنهم من يقبلها بعد توبته .

وأصل المسألة تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤١ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ٤٢ ١ .

قال البعض الاستثناء وقع من الوصف بالفسق ، وبقي الحرمان من الشهادة على التأييد . وقال آخرون : بل الاستثناء يلحق الجمليتين معا ، وتقبل شهادته ليكن هذا أو ذاك ، فلا حرج على فهم !

والثانيون من جرمية قطع الطريق ، إذا استسلموا قبل إلقاء القبض عليهم ، تقبل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢١ ﴾ فهل يسقط الحد عن ارتكاب جريمة السرقة ، أو الزنى ؟ إذا تاب ؟

من الفقهاء من أعمل القياس ، واستشهد بالسنة ، وأوقف الحد ، جاء عن أنس بن مالك : كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إنني أصبت حدا فأقمه عليّ - قال : ولم يسأل عنه - فحضرت الصلاة ، فصلى مع النبي ﷺ ، فلما قضى النبي الصلاة قام إليه الرجل ، فقال : يا رسول الله ، إنني أصبت حدا فأقم في كتاب الله !! قال : « ليس قد صليت معنا؟ قال : بلى : قال : فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك ! »

وهناك فقهاء آخرون يرون ضرورة إقامة الحد رافضين القياس ومؤكدين الحديث الواردة . لكل رأيه ولا تريب على أحد . ١

(١) التبر : ٤ ، ٥ . (٢) المائدة : ٣٤ .

وفى فقه الأسرة نقرأ شريعة الخلع ! ولا أدري لماذا أهملت ؟ ولماذا كان القضاء يأمر رجال الشرطة باقتياد الزوجة الكارمة إلى بيت زوجها لتسلمه جسدها !

وهل الخلع طلاق أو فسخ لعقد الزوجية ؟ خلاف بين الفقهاء ، وظاهر القرآن أن الخلع فسخ : لأن الله سبحانه يقول : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ١١ ﴾ ثم يقول : ﴿ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ ١٢ ﴾ وفسر التسريح بعد ذلك بقوله : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ١٣ ﴾ .

وقد توسط الخلع أحكام الطلاق بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقِمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ١٤ ﴾ .

فلما ظهر أن رد المرأة للمهر الذي قبضته عود في العقد! وبحكم القضاء بالفسخ .

ويرى آخرون أن الخلع طلاق بائن للحديث الولود للإشهاد عليه ، وإلحق أتى حائر في ذلك مع قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسُكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ١٥ ﴾ .

كيف يكون الإشهاد نافعة مع هذه التوكيدات؟ ويغلب على ظني أن التقاليد التي ضامت المرأة من قدم لها دخل كبير في هذا الاضطراب .

إن التحقيق العلمي يوجب احترام شريعة الخلع التي أهملت ، كما يوجب ضرورة الإشهاد على الطلاق .

وترك فقه الأسرة إلى طرف من فقه العبادات ، إنني قضيت ردحا من الزمان أعمل في المساجد ، ورأيت مظاهر اختلاف بين الأئمة الأربعة : هذا يقتت في الفجر وذلك يصمت! هذا يصلي نافلة قبل المغرب وذلك يأبى! هذا يحصى المسجد في أثناء الخطبة وذلك يجلس! هذا يقرأ فاتحة الكتاب وراه الإمام وهذا ينصت! هذا يقبض يديه إلى سترته ، وهذا يقبضهما إلى صدره ، وهذا يسلمهما إلى جنبه !

قال لي صديق : أيسرك هذا التفات؟ قلت : كنت أوثر وحدة الصورة ، لكنني أدع الوضع كما ترى : لأن عنايتي بالموضوع أكثر من عنايتي بالشكل ، لأن هناك وجهات نظر فقهية محترمة وراه هذا التفات ، أكره الاصطدام بها . . . ١

(١) (٢) البقرة : ٢٢٩ - (٣) البقرة : ٢٣٠ - (٤) البقرة : ٢٢٩ - (٥) طلاق : ٣ .





والشديد المتحيز والفاقد لشديد المهارة في صرف المؤمن عن العمل العقلي والقلبي، وتعليقهم بأشكال ورسوم ولوراد ما أنزل الله بها من سلطان .

مع أن هذه الأعمال ركن في الإيمان، وغيرها إما بدع، وإما نوافل لا تقبل إلا بعد اكتمال الفروض!

ليس هذا استطراداً، وإنما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التي اطردت الآيات في القرآن الكريم لتفريدها وتقديرها... ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها..

وقد ظفر أسلافنا بأنصبه كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضارى وسيادتهم العالم زماناً طويلاً..

ورأى أن هذه الحرية خرجت على نفسها أو تحولت إلى فوضى خلقية في بعض الميادين، فليس من حرية الفكر أن ينشد أبو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الأدب العربي..

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الإسلامي بالبحث في ذات الله - متأثراً بالفلسفة الإغريقية - ويترك البحث في المادة وخصائصها، وعندى أن الجانب الطبى في ثقافة ابن سينا ألع وأضوأ من الجانب الفلسفى! وأن الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تتعد، وامتلئت حيث يجب أن تنكمش، على أنها اعتلت في العهود المتأخرة، وكادت تموت، وذلك تبعاً لاضمحلال الحرية السياسية في حياتنا العامة، وغلبة الحكم الفردى .

والحريات كالفضائل يقوى بعضها بعضاً وينميها، ومع ما أصاب الحريات إجمالاً من علل، فإن الحرية الدينية بقيت قوية وعاشت في ظلالها طوائف اليهود والنصارى والباطنية دون حرج، وما أحسب داراً أخرى غير دار الإسلام، يقع فيها هذا التسامح! لقد كانت الحرية الدينية أعصى الحريات على النقص، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض، وكان يهود اليمن مرعبي الزمام مصروني الحقوق! ويقوا وأقرين حتى باسرايل!

ومن الطرائف التي يحكيها الأبناء أن الخوارج اعترضوا نفراً من الناس، وأحبوا أن يشرفوا هويتهم، وكان فيهم أبو حنيفة، فأسرع بجيب الخوارج: نحن مشركون

مستجربون! فلما تركهم الخوارج يمشون لشأنهم قال الإمام الفقيه: إن القرآن يقول: ﴿وَأَن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (١) فأسمعونا كلام الله وأبلغونا مأمننا..!! وفعل الخوارج ذلك، ولما أبو حنيفة ومن معه من الفتنك!

والقصة تستدعي التأمل! ولئن كانت مثار ريبة عند البعض، إن التاريخ الإسلامى يصدق دلالاتها، ويكشف عن العلة في بقاء الطوائف الكافرة بالإسلام وسط بحر مائج من الأم الإسلامية، ما لا نظير له في القارات كلها..!

وتتساءل بعد ذلك الاستعراض: هل من حرية الفكر أن يسلم رجل ليتزوج امرأة مسلمة، فإذا نال مبتغاه منحها وغولت عاطفته عنها رجع إلى دينه الأول..؟ أو من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء أمته، وينقل إليهم أسرارها، ويتأمر معهم على مستقبلها؟

إنه لا بد من التفريق بين العبث بالأديان أو خيانة الأوطان وبين حرية الفكر! فالمسافة شاسعة بين العنيتين!

وقد ذكرنا في موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هذه الحرية المتاحة لضرب الإسلام وصرف الناس عنه ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ أَكْفَرُوا آخَرَهُ لَهُمْ لُعْطُمْ يَرْجِئُونَ﴾ (٢) فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع هذا العبث أو ينجم هذا التلاعب؟

إننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد، وسر الموقف الحاسم منه...

معروف أن الإسلام عقيدة وشريعة، أو بتعبير عصرنا دين ودولة، والدولة التي تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول في أرجاء الأرض، فهي تنشر الأمان وتحميه وفق شرائعها الوحي بها من الله تبارك وتعالى...

وهي تدفع المغيرين وترد المعتدين مستشيرة المهتم بيواضع اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الأخرى...



## ٤٧. ما الاجتهاد؟ وهل هناك ضرورة لفتح بابيه؟

ولماذا؟

يعلم المسلمون أن دينهم باق ما بقيت السموات والأرض، وأن به تبيان كل شيء. يحتاج الناس إليه أي إن كتاب الله وسنة رسوله هما النور المبدد لكل ظلمة، والكاشف لكل حيرة، وهما الدواء الشافي من كل علة والساد لكل خلة..

والاجتهاد هو بذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي من هذه الأصول، وفي ضبط مسيرة المجتمع بها، وهو عمل لا يقدر عليه بداهة كل إنسان، بل لا بد من أهلية علمية عالية..

فالقرآن الكريم هو خلاصة الوحي الإلهي من أزل الدنيا إلى أبدها، صيغ في أسلوب يعجز الإنس والجن، والسنة المطهرة هي توجيهات إنسان ملهم استخرج النبوات الأولى كلها بين جنبه، وشرع يصوغ العالم كله باسم الله في قالب جديد، وقد أدرك أولو الألباب أن التغيير الذي أحده برسالته الخاتمة كان حاسماً في سير الفكر والضمير، وأنه فتح صفحة جديدة في تاريخ الحياة الإنسانية..

ومن ثم فإن فقه الكتاب والسنة لا يبرح إلا لأهل النبأة والتقوى.

وفقهاء الإسلام يرون أن مصدر التشريع - كما يقول الشيخ الكبير محمود شلتوت - «هو القرآن الكريم نصه ومحتمله، ثم السنة وهي أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته، بشرط صحة النقل، ثم الرأي العلمي المستمد من النظر في الكتاب والسنة وإلحاق ما لم ينص على حكمه بما جاء فيه نص».

ويعنى بذلك القياس، ثم في تطبيق القواعد العامة المفهومة من النصوص والقضايا الخاصة.

وهذه القواعد مثل «الأصل في الأشياء الإباحة» «منع الضرر» «رفع الحرج» «سد ذرائع الفساد» «الضرورات تبيح المحظورات» «ارتكاب أخف الضررين» «دفع

المفسدة مقدم على جلب المصلحة» «تعمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» «ما أدى إلى الحرام فهو حرام» «ما قارب الشيء يعطى حكمه»... إلخ.

وهناك بعد ذلك ما يسمى بالمصالح المرسلة، وهو نهج فقهي غايته حماية النفس والمال والعرض والعقل والدين..

والواقع أن الفقيه في الكتاب والسنة، الذي يعيش في جوهما يقدر على استنباط مبادئ تنطلق الحياة منها، ورسم مسار تشريعي يضمن الرشد والخير للناس كافة، كما يستطيع أن يواجه القضايا المتجددة بأحكام إسلامية سديدة..

وفقه الإسلام الذي ورثناه مع مطلع القرن الخامس عشر للهجرة بعد أغنى فقه في العالم، والمهاد الذي يتحرك فوقه لا نظير له في دنيا الناس.

قال الفقيه الكبير الشيخ محمود شلتوت: «استقبل أصحاب رسول الله بعد موته حياة أوسع، إذ عرضت لهم شئون احتاجوا إلى تعرف أحكامها، فكانوا يرجعون إلى القرآن، فإن لم يجدوا فيه ما يدل على حكمها بحثوا عنه فيما يحفظه العدول النقات من بيان الرسول واجتهاده. فإن لم يجدوا الحكم نظروا وبحشوا مستلهمين روح الشريعة، وما عرفوه من هدفها، وما ترشد إليه قواعدها العامة التي أوضحت لها مكانة النصوص البينة».

وكان الشأن العام في عهد أبي بكر وعمر التحري الشديد فيما يروى عن النبي ﷺ، والنزوع في الشئون العامة إلى استشارة كبار الصحابة المقيمين معها في دار الخلافة والمعروفين بدقة الرأي، وحسن النظر، في إدراك المصالح، وحسن الفهم لروح الشريعة، وجودة التطبيق على القواعد العامة.

وكانوا إذا أجمعوا على رأي، وجب تنفيذه.. وبذلك كان أخذ الرأي بطريق الشورى مصدراً جديداً ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، أو فيما فيه نص محتمل.

وترجع حتمية الرأي في التشريع إلى أمور:

أولاً: تقرير القرآن مبدأ الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (١).



أيعنى ذلك أنى لا أريد فتح هذا الباب؟ كلا !

إن الاجتهاد التشريعى ، خصوصاً فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية !

والذى أدعو إليه أن تقوم مجامع كبيرة ، من علماء راسخين ، لا يخافون فى الله لومة لائم ، بحيون الاجتهاد الجماعى القديم ، ويقومون بعملين مهمين ..

الأول : إنعاش أو إحياء الفقه الدولى لتحديد أوضاعنا العالمية ، وإعادة النظر فى أنظمة الحكم الداخلية لإنقاذ المسلمين من مساوئ الحكم الفردى ، ومظالم المستبدين ، وإنشاء شرائع إدارية تضبط شئون العمال وتوزيع الأموال ، وتضون الحقوق الخاصة والعامة ..

إننا متخلفون بضعة قرون فى هذا المجال ، ولا يجوز ترك الإسلام يفترسه هنا الموت الأبدى !

أما العمل الثانى : فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة ، وغلبة أحكامها ، فمن الغرور القول بأن مذهباً ما انفرد بالصواب كله ، ومذهباً آخر يقلب عليه التخليط ..

إن للمذاهب المشهورة وغيرها تحتوى على ثرات نفيس من الأفكار وجهد عقلى ونقل قد يقصر أغلبنا عن بلوغ مستواه ، بيد أن القول المشهور شئء وللتحقيق العلمى شئء آخر ..

وقد نثبته فى مكان آخر إلى أن ابن تيمية رد فقه الأربعة فى إيقاع الطلاق البدعى ، والحق معه عند التأمل ، وأن ابن حزم هدى إلى أحكام فقهية أولى بالحياة من غيرها ..

ووجوه مجمع فقهى إسلامى عالمى ، يجتهد فيما جد من قضايا ، وفيما عانينا من فرقة وضعف أمر لابد منه ...

## ٤٨. ماذا عن تجديد الفكر الدينى فى الإسلام؟

جرت على الألسنة كلمة تجديد الإسلام ، وظن البعض أن المقصود منها ترقيع ثوب لحقه البلى أو تحريك آلة أدركها العطب! وقد يتطلب ذلك إهمال شعبة من شعب الإيمان ، أو التجاوز عن حد من حدود الله ، أو إرخاض الماضى غروراً بالحاضر ، وتقشياً مع المدينة الحديثة ... !

وهذا كله لا يخطر ببال مسلم ، ولا يفكر فيه إلا لصيق بليتنا لا يبرى عنه شيئاً .. ! إن التجديد للنشود حماية الأصل مما عراه وتفتيته مما شابه وعكر رونقه ، إنه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى ، أو إزالة الغبار عن صورة غطى الإهمال ملامحها ...

قلت فى أول كتاب الفقه من نحو أربعين عاماً ... إن حقائق الدين من منابعه الفريدة ما إن أخذت تسير فى مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البينات ، ومخلفات القرون ، وجهالات العامة ، وشهوات الخاصة ، وزنواات الحكم ما ذهب بالكثير من نقاتها وصفاتها ، حتى لتشبه ماء النيل فى مجراه الأدنى ، لا يصلح للشرب إلا بعد مجهودات متعاقبة من التنقية والتصفية تردده مساوئاً كما كان!

هل إمداد الناس بالمياه النقية يضيف شيئاً إلى جوهرها الأسمى؟ لا ، الأمل كله أن يعود للماء كما نزل من السماء! وأملنا فى تجديد الإسلام قريب من عملنا فى تنقية مياه الشرب ...

وقد نبه رسول الله ﷺ إلى جلال هذا العمل عندما قال : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» !!

والكلمات الثلاث فيها من إعجاز النبوة المحمدية ما يبهى ويسحر قديماً وأيناً عباداً غلاة يكرهون الحياة ، ويقررون عدم الزواج ، وصيام الأبد ، وقيام الليل وهجر النوم ، ثم رأينا كيف تعلموا الاعتدال ، وترك القتل ..

وقديماً رأينا من يضع الحديث فى فضائل السور فإذا قيل له : كيف تفعل هذا والرسول يقول : «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»؟ كذبت له ولم أكذب عليه !!

هذا اللون مفضوح من انتحال المبطلين ، ومثله كل ابتداع في الدين ، وخلق لتقاليد رديئة كبليت الأمة وأقعدتها في عالم يجري كالريح المرسلة أما تأويلات الجبهة فما أكثرها في تاريخنا القريب والبعيد وأخر ما وقع في يدى كتاب المؤلف من الجزيرة العربية زعم أن به نيفا وأربعين طليلا على أن الأرض واقفة والشمس هي التي من حولها تدور ..

ونظرت في هذه الأخطاء فإذا هي تفسير خاطئة لأكثر من أربعين آية قرآنية ، مال بها الكتائب المسكين عن وجهتها ليشرح الناس بأن الإسلام والعلم الحديث خصمان لا يتفقان !

والواقع أن حركات التجديد والإصلاح تخبو أو تقضى أو تكبو أو تقضى بمقدار موفقتها من هذه الأفات ، تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .. وتأويل الجاهلين ! ولما كان تجديد الإسلام عوداً إلى الأصل النازل من السماء ، فإن المثل الأعلى والقُدوة الصالحة لا يؤخذان إلا من سيرة محمد وصحبه !

إن محمداً عليه الصلاة والسلام ، والرجال الذين جمعهم حوله وزيارهم على يده هم وحدهم الذين يمثلون الإسلام الحق ، وهم أفضل القرون وأجدرها بالاتباع ..

وقد وقع انحراف عن خطهم ، وبدأت زاوية الانحراف تتسع أصلاها بمر الزمان . فإذا جاء اليوم من يريد العودة إلى القرن الماضي ، والقرن الذي سبقه ، فهو لا يزيد الأمة إلا خبالا ، ولن يصنع شيئا أكثر من مد زاوية الانحراف ، وتوسيع الشقة بين الصراط المستقيم ومواريث العوج التي نشكو منها ، والتي انتهت بنا إلى أن صرنا في مؤخرة العالم ..

إن سواءات الحكم الفردي في مطلع القرن الخامس عشر هي سواءات الحكم الفردي خلال القرن الثالث عشر ، وقرون كثيرة قبله ..

والمنار الذي غشى على سنه هو جو الشورى أيام الرسول ودولة الخلافة ، وعندما كان الحاكم - تأسيا برسول الله - يوكل من الكبر ، ويستعين للحق ، ويستشير أهل الذكر ، ويرى أنه أجبر للأمة بكبح لمصلحتها ، ولا حق له في أكثر من مرتبه المفروض له ، ويشعر بالرهبة عندما يقال له : اتق الله ، ويرى أسوته بعض الرعية الذين لا حول لهم ولا طول ، ويقتص من نفسه إذا أخطأ ، أو ترك لأمناء الأمة ومشيرتها أن يقتصوا منه ، كما قل عمر بن الخطاب - وهو يؤدب كبار اللوفتين - : لقد رأيت رسول الله يقتص من نفسه !!

هذه التقاليد السلفية في فن الحكم لها نظائر في شئون المال ، والقضاء ، وشتى الأوضاع الاجتماعية ، بل لها نظائر في شئون العبادة ..

ثم شرع المسلمون يتزحزحون عنها قليلا حتى أمسوا سواد العالم الثالث ، أو حثالة البشرية التي تملأ الأرض .. !

وذلك لأنهم ذهلوا كل الذهل عن سنة نبيهم وتقاليد سلفهم ، ولم يعوا من دينهم شيئا ذا بال ..

ويديه أن ما حدث قديما يتضمن مبادئ ويوسم اتجاهات ، وأن صور التنفيذ تتجدد على اختلاف الليل والنهار داخل النطاق الذي يهون البدأ والوجهة .

فالجهد حق ، وتلب التلب إليه قد يكون بإعلان عادي ، أو بصيغة « الصلاة جامعة » .. فهل تلك الإعلان أو تلك الصيغة هما الآن وسيلة إعداد الجيوش وحشد المقاتلين ؟ إن الوسائل تتغير ، والمبدأ ثابت .

والشورى حق ، وكان تنفيذها قديما يعتمد على وسائل قليلة الكلفة ، أو على طلب الرأي من الحاضرين ، لكن الأمر الآن يتطلب أنظمة دقيقة وتراتبية واسعة .. والمشغولون بتجديد الفكر الإسلامي ينبغي أن ينظروا في هدف الوسائل المطلوبة ، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف ، ويميز محاسن الإسلام ولا عليهم أن يقتبسوا من هنا ومن هناك ..

قال لى أحد الناس : ليس عيبا عليك وأنت من دعاة الإسلام أن تعجب بالديموقراطية وتدعولها ؟ قلت له : الحق معك ! ينبغي أن أدع الكلمات الأجنبية ، وأستخدم الكلمات العربية .. !

قال : الأمر أكبر من أن يكون اعتراضا على كلمة ، إننا نرفض تنويهك بنظام ! قلت له : إننى مسرور بعجبك للإسلام ، وأؤكد لك أننى لست أقل حبا له منك ! فاسمع ما عندى ..

عندما وقعت مجزرة « بيروت » الشهيرة ، وعندما وقعت مجازر قبلها تحركت الجماهير في عواصم كثيرة تتظاهر ضد الجزايرين وتدد بجرائهم ! كان ذلك كله بعيدا عن أرض العروبة والإسلام التى لم تطلق فيها مظاهرة احتجاج واحدة ! ما السبب ؟ إن الناس فقلوا - أو كادوا - ملكة الشجاعة تحت ضغط النظم الاستبدادية .



والخبرة بهذا البحر للتلطص من المعارف تحتاج إلى عبقرية فذة... ثم ينضم إلى ذلك ما قرره المسلمون - بإجماع - أن العلم النظري وحده لا يكفي في إعطاء قيمة أدبية لإنسان! لابد معه من تجرد لله، وصلابة في الخلق، ونزاهة في السلوك واستعلاء على أغواء الحكم والمال!

إن الفقه والفقهاء أسس شامخة في حضارتنا، ولا يصير البحر أحياناً أن يحمل موجه بعض الفناء!

والمسلمون الآن يعانون هزائم فقهية وسياسية أليمة! ومع نسلط الغزو الفكري على أقطارهم حسب البعض أن الدين صلة خاصة بالله، وأن الصلات الإنسانية بعد ذلك موكولة إلى الفكر الإنساني العادي، وبذلك يسقط الفقه عن مكانته، وينحرك الناس وفق ما يضعون من قوانين!

وهذا الكلام جهالة فاضحة بالإسلام، بل هو ارتداد حقيقي عنه، فإن القرآن الكريم كما تحدث عن العقائد والأخلاق تحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية، ورسم للأسرة، وللدولة جميعاً ما شاء الله من شرائع وتوجيهات، وسيرة محمد ﷺ لم تكن سيرة رجل يعيش في صومعة، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق، كما يشرف في الوقت نفسه على توزيع المال في المجتمع، والإمساك بدفة الحكم، وشئون الحرب والسلام، أي أن صومعته كانت الدنيا كلها...

وموضوع الفقه الإسلامي بعد العقائد والأخلاق يتناول أعمال المكلفين دون استثناء، وبيت فيها وفق توجيهات الكتاب والسنة، وما يعتمد عليهما من دلائل... ألا ما أرحب هذه الدائرة وأغناها...

وأرى أن اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاة فرصاً كثيرة للتصرف في نطاق الشريعة على هدى من مبادئها، ولنضرب مثلاً بما يقع في عصرنا هذا الذي تقاربت فيه الأزمنة والأمكنة والشعوب والمثل...

يقول الشيخ محمود شلتوت: «من مسائل الخلاف أن أبا حنيفة يرى مسئولية المسلم - وتفرغه - إذا أتلّف ما لا لئمي - إذا كان هذا المال ما يحرمه الإسلام كالخمر والتخثير، ولو كان المسلم قاصداً بإتلافه وجه الله وثواب الآخرة».

وخالفه الشافعي في ذلك، وقال لا مسئولية ولا غرامة عليه إذا أتلّف ما حرمه الشارع!!

ويعتمد أبو حنيفة في تقرير الضمان على التلّف بأن الإسلام أمرنا بترك أهل الكتاب وما يدينون، وقد روى أن عمر بن الخطاب سأله عماله: ماذا تصنعون بما ير به أهل الذمة من الخمر؟ قالوا: نعشرها!! فقال: لا تفعلوا، وولّوهم بيها، وخذوا العشر من أثمانها!

قال أبو حنيفة: «لولا أنها متوقفة - أي لها قيمة - وأن بيعها جائز بينهم لما أمرهم بذلك! ومن المعلوم أن تقوم أصل الضمان والمستثلية، أما إهدار تقوموا فإنما هو بالنسبة إلى المسلمين وحدهم».

ومن مسائل الخلاف كذلك أن أبا حنيفة يرى الاقتصاد من السلم إذا قتل كافراً من أهل الذمة، ويحكم بقتله، ويخالف في ذلك الفقهاء الآخرين...

وكلام الأحناف هو الذي يمكن إضماره في عصرنا، وتستطيع الدولة الإسلامية به أن تتعايش مع الأسرة الدولية، وتستطيع من خلال هذه المعاشية أن تبلغ رسالتها وتعرف شعوب الأرض بما عندها...

وكل ما يتطلبه الأمر إذا اختارت الحكومة مذهب الأحناف أن يتقبل الشافعية والحنابلة الموقف بشير أكثر، وألا يفكر بعضهم في اللجوء إلى عصيان مسلح!!

إن ضيق الخلق والأفق يجبر على المسلمين البلبا، وما كان الفقهاء قديماً يرون الخلاف مشارقة، بل وجدنا الشافعي يقول: «فإنس في الفقه عيال على أبي حنيفة» مع رفضه لكثير من آرائه!

كنت أسمع برنامجاً فقهاً في إحدى الإذاعات العربية، فعجبت لإجابات المفتي على الأسئلة التي توجه إليه، وقلت: هذا كلام أقرب إلى الهدم منه إلى البناء...

سئل: عفا الله عنه - ممن أخرج زكاة رمضان نقداً؟ فقال: لا تقبل، إلا أن تكون شعباً أو تركاً أو شيئاً من غالب قوت البلد ثم استرد يصف إخراجها نقداً بأنه مخالف للسنة، وأن رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»!!

وبدا من حديث المفتي أن إعطاء الفقير مالا - رياتاً أو جنينيات - بدعة... وأن الأحناف بهذا المسلك أصحاب بدعة!

وقد رفضت كلام الرجل جملة وتفصيلاً، فإن مصلحة الفقراء هي التي ترضى، وأخذ المال أجدي عليه وأطيب لأنفسهم - وجمهوره المسلمين - تخرج زكاة رمضان نقداً تبعاً لمذهب أبي حنيفة، وهو أقرب إلى العقل ولا يصادم نقلاً...





وينهض لقانون بلور لتنفيذ الصارم لمطالبات الوضع الجديد .

وفي أغلب عواصم العالم العربي يكلف المسلم أن يسمّ أذنيه عن نداء الكتاب والسنة ، يكفي أن يكون للإسلام وجود رمزي لا يتخطى حدوده ، أما زمام الحياة الخاصة والعامة ففي يد أخرى محو وثبت كيف تشاء ..

وعلى القانون أن يولّى عنى المجتمع وتقليده وموارثه نحو هذا الهدف الجديد .. نعم ، على القانون الذى وضعه الاستعمار أن يصرف البصائر والأبصار عن شرع الله وهذه حتى يعمل الزمن عمله فى تمجيد الإسلام كله بعدما مات تشريعه فى كل ميدان !!

إن للقوانين الوضعية التى جلبها الاستعمار معه وظيفة مقررة ، وظيفة أهم من اقتياد أمة مهزومة عسكريا وسياسيا ، وفرض إرادة الغالب عليها! إن القوانين الوضعية هنا تشوبه تمعّد لوجه الأمة الإسلامية ، أو مسخ حقيقى لكيانها الروسى والعقلى ، والهدف : أخير الإتيان على الإسلام من القواعد !

وعندما تقيس المسافة بين الدين ومطالبه وبين القوانين الجاهلية وأثارها ، تبدو الشقة بعيدة .. بعيدة أخذ مثلاً قضية الخمر - وهى نموذج للتقاليد الغربية الوافدة - أن المسلم يراها رجسا من عمل الشيطان ، ويرأها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويرى شاربيها ساقط المروءة واجب العقوبة ، ولكنه ينظر إلى أرجاء المجتمع فىرى مصانعها تقام وحوانيتها تفتح وأسعارها تقدر ، وأحفلها تبرز ، وإعلاناتها تكثر وشاربيها يكرمون ولا يهانون! فأى تحدّ لإيمانه أبلغ من هذا التحدى ؟

إن ولاءه لله ولاحكامه يصدّم ، ومبدأ السمع والطاعة يهتز ، والانزلاق عن سائر التعاليم الدينية الأخرى عهد !!

ومن حق للمسلمين فى كل شبر من أرضهم أن يرفضوا القوانين الوضعية وأن يعلنوا عليها حرباً قائمة فهى الوجه الرسمى لغبية جاهلية على دولتهم ، وهى الأساس للموضوع لقرب بقايا الإسلام الخلقية والاجتماعية ، بل هى الجرثومة المتحركة نحو الإيمان من القلب وجعل الولاء لله ورسوله صفرًا ...

ومن حق المسلم الذى ولد فى عصر الهزيمة الإسلامية وانتصار الجاهلية الحديثة أن

يشعر بالدعشة والتساؤل : لماذا كتب على آيات المصحف أن تموت وأن يرفض انطلاقتها إلى الحياة ؟ ولماذا تركت آيات أخرى يستطيع من شاء أن ينفذها وأن يهملها ، وهل هذه الاستطاعة باقية أم إلى حين ؟ ثم تلحق بالآيات المعلقة أى المينة ؟!

إن تطلع أى مسلم إلى طاعة ربه فى كل ما أمر به أو نهى عنه شيء عادى أو هو الشيء المرتقب الذى لا يرتقب غيره . ولذلك فمن السماح التى لا قرار لها أن يستغرب أحد الطلبة بحكم الله ، وأن يعرف سير القوافل المومنة وهى تنتصر لشرائع السماء .

ولكنه الفزوة العسكرية تحول إلى غزو ثقافى خبيث ، وسخ مخ الجيل الجديد وضلّ سعيه ، وخلق عصابات من الأدباء والمترجمين والإعلاميين والمؤلفين والفنانين ، هجموا على تراثنا يبتغون محوه ليحلوا محله أردأ ما فى الحضارة الغربية ..

بذلك ينتهى وجودنا الأدبى باسم التجديد ، وتحول هزيمتنا السياسية إلى فناء باسم التقدم .

يبعد أن الله أحبط كيد الحائثين ، ونشأت فى العالم الإسلامى شرقة وغربة نهضة عارمة تشد العودة إلى دينها وتزدرى ما أدخله الاستعمار علينا من قوانين ما أنزل الله بها من سلطان !

ومع المطالبة بعودة الشريعة الإسلامية إلى المجتمع الإسلامى ، نحب أن نلقى نظرة فاحصة إلى هذه القوانين الوافدة . . أن المستعمرين الأوائل الذين فرضوها كانوا نصارى ، فهل هذه القوانين نصرانية؟

الواقع أن الأتاجيل ليست كتب تشريع ، وأن عيسى عليه السلام بين أنه منفذ لتعاليم التوراة فى الجملة ومعنى هذا أن شرائع العهد القديم هى التى يجب تطبيقها ، نهل طبق النصرانى هذه الشرائع ؟ كلا ! لأن اليهود أنفسهم أعملوا أغلبها فكيف يجىء غيرهم ليرد إليها الحياة ؟ بل إن «بولس» داعية النصرانية الأكبر وسع دائرة التعطيل ، فالقى الحثان وهو مقرر من عهد إبراهيم الخليل ، وأباح أكل الخنزير ، ونصوص التوراة تأبى ذلك . . .

وأتباع النصرانية فى العصور الأخيرة ينظرون إلى شرائع التوراة نظرة ربيبة وتهمة . . فيبعضها يستحيل علميا قبوله لقسوته وشناعتها كتهديم بيوت بعض المرضى ونقصها من أسسها ، وبعضها حث به ما وقف تنفيذه كشرعية الرجم . . .

وعلى أية حال فإن اليهود والنصارى جميعاً أماتوا أغلب الأحكام السماوية وشروحاً لأنفسهم قوانين أرضية تحكم شئون الأموال والدماء والأعراض ..  
وظاهر أن عدداً من القوانين والتفكرات الرومانية ساد المجتمعات الأوروبية وساقها إلى وجهته، والقوانين الرومانية وثنية الأصل أرضية النزعة لا علاقة لها بالسماء ..  
وإنما تستمد وجاهتها من تقاليد ينيش - لأمروما - أن يستحكم الناس إليها ..  
وعند التأمل نشعر بأن واضع القانون كان يتخيل نفسه مكان التحرف ثم ينشئ العقوبة المناسبة فتجيء وكأنها اعتذار عن الجرم أو تقدير لوجهة نظره، أو إراحة لفرص النجاة أمامه ..

أعنى أنه ينظر في حال القاتل، فإن كان الدافع إلى القتل شعوراً مفاجئاً غلبه، أبعد عنه القصاص ومهد أمامه طريق الحياة !

إن واضع القانون في الحقيقة كان ينقد نفسه من القتل لأنه يتصور نفسه مكان الجرم، أما الآثار الاجتماعية لمنع القصاص فهو يحتاجها ..

وقد مضى هذا الشعور المعتل في طريقه حتى أبطل أو كاد عقوبة الإعدام لجماهير القتل .. وأمسى من العدالة أن يقتصب رجل ذنب بضع عشرة فتاة، ثم يقتلن جميعاً، ثم يقضى ببقية حياته في سجن مهذب !!

وفي نظر القانون الوضعي أن الجسد ملك صاحبه، ليس لله حق فيه ! فإذا زنى إنسان بـ ١٧ امرأة فلا حرج ولا جريمة، وإذا كان هناك حق لزوج، كانت المؤاخاة محدودة، تنهب بتنازل الزوج!

والمال أخطر من العرض، فسن الرشد المالى إحدى وعشرون سنة، أما سن الرشد عندما يتصرف المرء في عرضه، فثمانى عشرة سنة. والقضاء في شئون المال ملزم بما كتب، فلا تستمع الدعوى في دين شقوى زاد على عشرين جنيهاً، ولا مكان لضمير القاضى هنا في محو أو إثبات .. أما في شئون الدم والعرض فللقاضى أن يتصرف بما يراه أدنى إلى الصواب، والصواب هنا وفق مقررات البيئة، وفي قضية الثرى المصرى «على فهمي» الذى قتلته زوجته الفرنسية، وأتت المحكمة أن القاتلة لا تستحق عقوبة ما تقديراً لظروفها النفسية !!

وانقطاع الصلة بين التوجيه الإلهي وعلاج الانحراف انتقل من القضايا الخاصة إلى القضايا الدولية فإذا قتل يهودى في روسيا قامت الدنيا وقعدت، وإذا قتل ألف مسلم في بلد آخر لم يتحرك أحد ..

ومظالم الزوج في جنوب إفريقيا قد تثير قليلاً من التعليق، ولكن هذا التعليق يخفى عندما تبلغ القضية مجلس الأمن ويقترح توقيع عقوبات على جنوب إفريقيا! أن الدول العظمى كلها تستغل حقها في الاعتراض لتبقى جنوب إفريقيا ملكاً خاصاً للرجل الأبيض - يقترف ما يشاء دون حرج - ويحتاج حقوق السود بلا وجل .

وكان هلاك الأمم السابقة؛ أنهم إذا سرق الضعيف قطعوه وإذا سرق الشريف تركوه: أى أن العدالة تتلون مع القوة والضعف، وذلك ما يحدث الآن مع التقدم الحضارى الكبير، إنه تقدم علمى حقاً، ولكنه مشطل بأبوزار الهوى وأوحال الشهوات؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يخضع لحكمه، ولا يتبع هداه .

ولا نزع أن القوانين الوضعية شر كلها، فهي من صنع الإنسان الذى يصيب ويخطئ ويضل ويهتدى وربما تضمنت أمراً جديرة بالقبول خصوصاً عندما تعمل في الميدان الإدارى أو المستوى .. لكن ذلك لا ينسيتنا أمرين: أولهما أنها جعلت إقصاء الإسلام وإزهاق روحه هدفها الكبير، والآخر أنها تنقل إلينا قيم وأعراف أفسار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر!

ومن ثم كان الخندق عميقاً بين هذه القوانين الغائبة المفروضة كرها، وبين جماهير لم تنس ولا ما لله ورسوله، ولم تتنكر لماضيها الإسلامى الثابت .

والصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجى عقائده وأنظلمته .. وبين حراس الإسلام والأوفياء لتراثه وتاريخه وأمتة ..

ولما كان الإسلام ديناً متعدد الشعب، له في كل ميدان توجيهات ومعالم فإن رعى المعركة تسع يوماً بعد يوم تتناول السياسة والاقتصاد كما تتناول الزواج والحضانة، وقد رفضت الجماهير أن تقسم ولا ما بين ما تريد وما يراود لها .

وكل يوم يزداد صوتهما علواً بضرورة تحكيم الإسلام في كل شيء، وإنزال المبادئ والمعاملات جميعاً، على شرائعه المقررة في الكتاب والسنة ...

وأعداء الإسلام أيقاظ لموقف أمته من شريعته المهتدة ، وهم يضعون المواقف علنا وسرا أمام عودة الشريعة الإسلامية .

وأمل الفريقين لا يخفى ، فأعداء الإسلام يريدون بقاء القوانين الوضعية عمهيدا لإزالة الإسلام كله ، حتى من مجال الأخلاق ، فالأخلاق المدنية لديهم أفضل من الأخلاق الدينية ..

وأنصار الإسلام يبقون من عودة التشريع الإسلامى حماية الإيمان ذاته وحراسة آثاره فى شئون الحياة كلها ، ورد ما انتقص منها وإرغام المغيرين على الانسحاب بكل مقوماتهم المضادة لتعاليم الإسلام المناوئة لشعائره وشرائعه .

بيد أننا بعد ما كشفنا جبهة العدو لا نريد أن ندافع عن أنفسنا بالباطل ، فقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهاء ألف عام ، وأخذنا نطحن فى الماء خلال تلك القرون ، ما نزيد ولا تنقص . وكأنما أثبتنا الفلك وأغضنا عين الزمان ..

وعندما أروغنا على الحركة شرع لغيف منا بيده العمل من حيث وقف الأبناء غير معترف بأن شيئا ما قد حدث فى طول العالم وعرضه .

إنه لا بأس أن نفعل ما عندنا ، على شريطة ألا نتخس ما حققه الآخرون فى فترة غيابنا عن قيادة العالم .

وشئ آخر لا بد أن نزاجع أنفسنا فيه ، أن الشمال الإفريقى لا يعرف إلا فقه الإمام مالك ، وأقلب الأتراك والهنود وجمهور من العرب لا يعرف إلا فقه الإمام أبى حنيفة .. ولكل إمام كبير أتباع متحمسون ..

وهؤلاء الأئمة الأعلام صنعهم الإسلام ولم يصنموه ، وما أتروا فى اعتبارهم قسما مرموقة . لكن مسلمى العصر الحاضر لا يجوز أن يلقوا حضارة العصر وفكره الموارى بوجهة نظر واحدة لإمام لا يعرفون غيره .. الإسلام أكبر من ذلك .

الفقيه المسلم فى هذا العصر يجب أن يستوعب ما قاله رجالات الإسلام فى تفسير نصوصه ، وأن يواجه بهذه الحصيلة الفنية ما طالع به العصر من نظرات ومبادئ

إن التعصب للمذهبي متكور بين العامة ، وأرى أنه بين الفقهاء جريمة غليظة .. فإذا شرعنا نرد القوانين كلها إلى فقهاء الإسلامى ، فسند أنفسا أمام يتابع دققة وثروات طائفة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير .. وما علينا إلا أن نحسن التأسى ونسرع المسير .

## ٥١. ما معنى الإجماع وما مكانته فى الإسلام ؟

للإجماع معنيان نحب أن نوضحهما : فهناك إجماع على حكم شرعى مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى ، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أى أن هذا الإجماع يعتمد على نص هو الذى أثبت الحكم الشرعى ويستوى فى هذا النص أن يكون من الكتاب أو السنة ، مادامت دلالاته قاطعة !

والمجموعون هنا هم الأمة كلها من عامة وخاصية ، الأمة الإسلامية إذا اتفقت كلمتها على حكم شرعى من هذا القبيل فقد زادت الحكم قوة ، ومنعت للأبد أى شغب عليه ولما كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة فإن الخروج على هذا الحكم يعد انقلابا من الإسلام وخروجاً عن الدين !

أما الإجماع الآخر فهو اتفاق أهل النظر ، أو أرباب الاجتهاد على حكم ثبت بطريق القياس أو رعاية المصلحة أو تطبيقاً للقواعد الفقهية المعتمدة ، أو ما أشبه ذلك من أدلة .

ويجب احترام هذا الإجماع ، والتزام الأفراد به ، وإذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه فهو ينسخ بإجماع آخر ، من أهل الذكر ، وأصحاب الحل والعقد ، وليس لأحد أن يتصرف متجاهلا هذا الإجماع ، والأمة التى تحترم نفسها ، والأفراد الذين يحترمون مذهبهم لا بد أن يتقيدوا بهذا الإجماع ! لأن الخروج عليه قد يكون فسوقاً أو عصياناً ، وربما لا يسه ما يؤدى إلى الكفر .

ونعود إلى شرح الإجماع بمعنييه ، وضرب الأمثال التى تكشف حقيقته !  
أمر الله بالصلاة فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

ثم علم الرسول الأمة كيف تصلى ويُن عمليا أن الصلوات المفروضة تحتوى على سبع عشرة ركعة . موزعة على الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وأن كل ركعة بها ركعتين واحد وسجودا .. إلخ .

وأجمع المسلمون إجماعاً مؤكداً منذ القرن الأول على هذه الحقائق ! ما شذ أحد!





وفي صدر السورة يقول الله لنبيه محمد: ﴿كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١).

إن الكتاب الجليل الذي يحمله النبي العربي العظيم، يخرج الناس من الظلمات التي عاناهم بنو إسرائيل من قبل، كما يخرجهم من ظلمات الجاهلية الخيمة على كل قطر، إنه يدعو الوثنيات الدينية والسياسية على سواء.

الناس يسجدون لإله واحد، لا يسجدون لغيره. ومشاعر الخوف والرجاء والرغبة والرهبة ترتبط قبل كل شيء، ويعددها بالخافض الراجع الضار النافع!

وكل تقليد سياسي أو اقتصادي يربط المشاعر السابقة ببشر ما، فهي ذرائع شرك وأسباب فساد، ومحورها من الإصلاحات الأساسية للنظام الإسلامي.

ومعروف أن شبكة التشريعات الإسلامية تتناول الفرد من المهد إلى اللحد، وتتناول الدولة من تنظيف الطرق إلى عقد المعاهدات، والأمة الإسلامية بهذا

النهج أمة رسالة تعمل بها وتدعو إليها وقد قال الله لنبيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

ومعنى هذا أن الحكم الإسلامي ليس دعوة إلى سيطرة جنس من الأجناس، ولا هو محاولة لنشر فلسفة أرضية، ولا تعاون بين أفراد شعب ما؛ كي يعيشوا في مستوى معين من الغذاء والكساء!

إنه دولة تحمي عقيدة وتقيم شريعة، وكما يصلي الناس وراء إمامهم في المسجد يعبدون الله، ولا يعبدون هذا الإمام، يرضى الناس وراء حاكمهم لإرضاء الله وإقامة دينه، لا لإعلاء الحاكم، وإشباع نهمه في السلطة، أو غلبة طليبا لدنيا، وارتماها لغنم..

تلك هي السمة العامة لنظام الحكم الإسلامي، وللتفاصيل مكان يجيء بعد. والأمة الإسلامية - وقد بينا وظيفتها - مصدر السلطات التي تنشأ بين ظهرانيها، أعني أنها وحدها صاحبة الحق في اختيار الرجال الذين يولون أمرها وفي محاسبتهم على ما يقومون به من أعمال، وفي ذمهم أو ثناء عليهم، وفي معاقبتهم إن أساءوا، وفي عزلهم إذا شامت..

(١) إبراهيم: ١.

(٢) النحل: ٨٩.

وكلمة «مصدر السلطة» من مصطلحات العصر الحاضر، ونحن لانهتم بالاسم وإنما نهتم بالحقيقة والمثلول، كما أننا نرفض التلاعب بالألفاظ.

إن المسلمین أثبتوا حقهم في اختيار الخليفة، أو رئيس الدولة، بعد وفاة الرسول مباشرة، وتبين من مسلكتهم أنه لا خلافة بالاعتصاب أو الانقلاب العسكري، ولا خلافة بالوراثة، ولا خلافة بمعصية ما تفرض نفسها بأي لون من ألوان الإكراه اللادى أو الأدبى.

إنها بيعة حرة تعتمد على أكفا رجل فتقدمه وتراقبه، فإن صدق ظنها في خدمتها وخلمة رسالتها كانت طاعته ديناً، وتوقيره تقوى، وإن صدق عليه إبليس ظنه فلا طاعة له ولا كرامة..

ولأى مسلم يأنس من نفسه القدرة على هذه الرياسة أن يرشح نفسه، وإذا أنس القدرة في شخص آخر رشحها، وعرض على الناس اسمه!..

إن يوسف الصديق رشح نفسه لشئون المال، وقال للملك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ (١) ورشح خالد بن الوليد نفسه لقيادة المسلمين

أول الاصطدام بالروم في معركة اليرموك؛ لأنه رأى نفسه أبصر بأسباب النصر، ورشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح الصحابي الكبير أبا بكر الصديق لرياسة الأمة وتمت مبايعته..

وما روى مخالفاً لما قلنا فله ملاساته الصحيحة.. إن أبا ذر رضى الله عنه رغب في الإمارة ورشح نفسه لها، بيد أن النبي ﷺ أفهمه أنه ضعيف وأته - مع تقواه - لا يقدر على أعينها.

كما أن النبي رفض ناساً من عشاق الإمارة، طلبوا منه أن يعينهم في بعض المناصب..

إن للتطلعين إلى المناصب الكبيرة كثيرين، وكذلك الذين يحسنون الظن بوابهم! والأمة وحدها هي التي تنتخب من تتوسم الخير على يديه، وتراه أقدر على مقاليد الحكم، وأجمع خلال القوة والأمانة..

(١) يوسف: ٥٥.

...

[illegible]

۰۰ جہاں کہیں بکریں چرتی ہیں وہاں ان کی کھوپڑیاں، ہڈیاں اور دیگر اعضاء پائے جاتے ہیں۔

این کتاب را به مناسبت روز دانشجو تقدیم می‌کنم

يَنْفَرُ إِلَى النَّاسِ مِنْ أَهْلِ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا إِلَهَ (لَقِي)

[illegible]

... ॥

وینستم کلماتی بآن طایفه الناس را میخوانم بطاعتی که و رسول الله ای باقیانما

۱۰۰ جلدی جزیقی جزیقی جزیقی

— 166 —

...  
...

...

۱۳۰

ان شاء الله . ان شاء الله . ان شاء الله .

الصدق أمانة والكذب جناية ، والضميق ينكمض قومي حتى أختي

ایں قیومیت میں ان کا جو جہان ہے وہاں ان کی جہت ہے جس سے ان کی جہت ہے جس سے ان کی جہت ہے

ویناں ہر ایک کو اپنے اپنے کام میں لگا دیا۔

وَأَمَّا الْفِرْعَوْنِيُّونَ فَهُمْ كَالْقُلُوبِ الْمَغْلُوبَةِ

ایک طرف توں یہ کہ، لکھنؤ کے کچھ افسران نے اس وقت کے وزیر اعلیٰ کے پاس آ کر اس کی اطلاع دی تھی کہ ان کے پاس ایک ایسی کتاب ہے جس میں

والله اعلم بالصواب

3

۰۰۰ بحسب من بنجر خونا الی

بسم الله الرحمن الرحيم

... ۸۵۰ ...

ה'תשנ"ח

पञ्चमः अङ्कः ।

... ..

ה'תשנ"ח

• རྒྱ་རྒྱུ་གི་སྐད་ཀྱི་

وما هو الا قسمة كل كلمة على الالف واللام والياء

وہ بھی کہیں نہ کہیں، جہاں نہ کہیں نہ کہیں۔

لم يأتوا بالحق والحق علم الله والحق علم الله

وہی

[illegible]

والقبطية، والرومية، والكرونية، والقرونوية من القرونوية نظام زمانية

[illegible][illegible]

שְׁמוֹת הַיָּמִים הַלְלוּ אֶת ה' וְיִשְׁמְחוּ בְּהִלְלוֹתָיו וְיִשְׁמְחוּ בְּהִלְלוֹתָיו וְיִשְׁמְחוּ בְּהִלְלוֹתָיו

[illegible][illegible]

הַיְּהוָה יִשְׁמַר אֶת צְדֵק הַלְוִי וְאֶת חֻקֵּי הַיְּהוָה לֹא יִשְׁכַּח.

וַיִּשְׁמַע יְהוָה בְּקוֹל מֹשֶׁה וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל מֹשֶׁה וְהָיָה כְּדִבְרֵיךָ וְכִי אֶפְעֹל בְּעַמְּךָ כִּי אָמַרְתָּ לֵּאמֹר

नमो भगवते वासुदेवाय ॥

ومن الأسف قصور أدبي





كيف يقال هذا، مع قول رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشيرة إلا يؤتى به مغلولاً يوم القيامة حتى يفكه العذل، أو يوقه الجور، وإن كان مسيئاً زيد غلاً إلى غله».

إن واحداً من الخلفاء الراشدين لا يمدح بهذه الكلمات الحمقاء، فكيف بغيرهم من حكام الجور؟..

ومن الذي أعطى الحاكم مهما علا شأنه حق الاعتراض على رأى الجماعة أو رأى الكثرة، فإذا رفع يده أفضا سكت الناطق، وحسم القضاء؟ وما قيمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ مع هذا الحق؟

إن أجهزة الشورى المنظمة، المحترمة الملزمة هي التي تحفظ حدود الله، وهي التي تأخذ على أيدي الظلمة وتقي الأمة شرهم، وتنفذ قول الرسول الكريم «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك يعمهم الله بعقاب منه».

وقد حكم التاريخ الإسلامى قريب من مائة خليفة من يضع أمر تعدد على أصابع اليد! أكدت سيرتهم حاجة المسلمين الماسة إلى أدق أجهزة الشورى، وأشدّها محاسبة لولاة الأمور..

ومن معالم الدولة فى الإسلام حفاظها الشديد على حقوق الإنسان المادية والأدبية، وتوفير الأمن للأفراد والجماعات، والترهيب من إيذاء أحد أو ترويعه! وجعل النماء والأموال والأعراض فى مثل حرمة البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام أو أشدّها. وإقرار العذل مع المؤيد والمعارض والقريب والغنى والفقر، وتهديد الأمة جمعاء بالهلاك إن هي تبعت الهوى، واستمرت الفساد ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرْآنَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهِ مُصْلِحُونَ﴾ (١).

ولما كانت للسلطة ضاروة كضاروة الخمر، فإن النبى عليه الصلاة والسلام حذر الحكام من الميل مع الهوى فقال: «صنفان من أمى: من تنالهما شفاعتى: إمام ظلم غشوم، وكل غال مارق، والغلول الاختلاس من المال العام».

والغريب أن الفساد السياسى والاستقلال الشخصى لا يفتقران، فقلما نجد مستبداً إلا سارقاً لمال الأمة، متخوضاً فيه بغير حق، هو وأقاربه وأتباعه!!

ومن هنا نفهم ما رواه ابن عباس أن رسول الله بعث معاذاً إلى اليمن - أميراً عليها - وقال له: «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بيننا وبين الله حجاب».

ويستوى أن يكون المظلوم مسلماً أو غير مسلم كما جاء ذلك مصرحاً به فى روايات أخرى..

ولمآلة الحاكم إغراء! وكما يتساقط الذباب على الحلوى، يتهاوى الظالمون عند أصحاب السلطة، ولا يحتاج ذلك إلى دليل! وقد نبه النبى ﷺ إلى عواقب هذه المأساة، فقال: «ستكون أمراء فترفون وتكزون، فمن عرف لقد برئ، ومن انكر فقد سل؛ ولكن من رضى وتابع... ولم يذكر النبى جزاءه؛ لأنه معروف، ثم رأى أن يذكر جزاء مؤيدى الباطل وأذباب المفسدين فقال: «يكون أمراء فتشاهم غواش أو حواش من الناس يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست سنه؛ ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه» وفى رواية أخرى: «من صدقهم بكذبهم فأعانهم على ظلمهم شأنه بئرىء، وهو منى بئرىء! والروايات كثيرة فى هذا الموضوع الحساس فى حياتنا وناريخنا..

ونعل ذلك سر الخصومة الممتدة بين أئمة الفقه الإسلامى وبين جمهرة الحكام الذين سمعوا خلفاء، وهم ملوك من شرار الملوك!!

وقد كانت جماهير الأمة تعرف عدالة الفقيه بقدر قربه أو بعده من باب السلفين وما ذلك إلا لشعورها العميق بأن هؤلاء السلاطين قطاع طريق، لا خلفاء راشدين!..

أما رئيس الدولة - أو الخليفة الصالح - الوفى للأمة ورسالتها فإن محبته عبادة، وتوقير دين، وتأييده واجب على جمهور المؤمنين! أليس الساهر على مصالحهم الناهض بأعيانهم؟ أليس الحامل للرأية الفائد للجهاد؟

لقد جاء فى السنن أنه أول السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله!!.. كما جاء عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة: إمام عادل رقيق، وشر عباد الله منزلة يوم القيامة: إمام جائر خرقى» - أحق!!

## ٥٤. ما مدى تقبل الإسلام لأسس الدولة الحديثة؟

أجدنى بحاجة إلى تأكيد أنه لا فرق بين مقتضيات الفطرة السليمة ، وتعاليم الدين الخفيف !

إثنى أحيانا أصحاب بعض الأفكار الدينية المائلة على ضوء سلامة الفطرة ، كما أصبح بعض المسالك التى يزعم الإنسانون سلامتها على ضوء الوحي المعصوم . . وقد بحثت عن المقصود بأسس الدولة الحديثة بعد ما ذكرت أن الحكم عندنا يقوم على الاختيار الحر ، وأن الشورى تنظم الحاكم ، ماذا بقى؟

قالوا بقيت أمور نعرضها واحداً واحداً هل يقبل الإسلام أن يختار الخليفة لأجل محدود؟

قلت : ليس هناك نص يمنع ، فإذا وجدت الأمة أن ذلك أحفظ لمصالحها ، وأصون لحرمانها ، وأبعد عن إساءة السلطة ، وأدعى إلى تواضع الحاكم ، فلا حرج عليها فى تقريره . .

قد تقول : إن ذلك لم يعرف فى تاريخ المسلمين الطويل ! ونجيب بأن تاريخ الخلافة غير الراشدة ليس أسوأ ، بل قد يكون مثار لوم ومؤاخلة لذويه !

أما تاريخ الخلافة الراشدة فإن اختيار الخليفة فيه لم يتخذ نهجا واحداً ، فأبو بكر - رضى الله عنه - انتخبه أهل الحل والعقد انتخاباً مباشراً ، وعمر عهد إليه الخليفة القائم بعد مشورة عامة ، وذلك للظروف التى كانت غر بالدولة ، فهى مشتبكة فى قتال ضار مع الروم والفرس جميعاً . . وعثمان أختير من بين ستة عنهم عمر ، ثم أقبل الناس بياهمونه حتى تم استخلافه .

وعلى بايعته الجماهير بعد مقتل عثمان مبايعة حرة لا ثفرة فيها !

وهذا الأسلوب المتجدد يشير إلى جواز كل ما يمنع الاستبداد الفردى ، مهما اختلفت صوره ، ولا يجزئ مسلم على محرم تصرف لم يجز فى محرمه نفس ، من الكتاب أو السنة ، أو القياس الجلى ، أو الفوائد المحرمة ، بل الذى يقال هنا : إذا وجدت المصلحة فتم شرع الله !

وعندما نراجع تاريخ الخلافة غير الراشدة ، وجناباتها الشديدة على الإسلام ، تبلى إلى توفيت زمن الخليفة ، وتعرضه لانتخاب عام بين الحين والحين .

ولا يخلش هذا الحكم أن الأجانب سبقونا إليه فى معالجة الاستبداد السياسى الذى أصيبوا به ، ونجوا من عقابله وما نجونا !

وأعرف أن هلاك قوماً لم ينطقوا بحرف فى التعقيب على ظلم قدم أو حديث ، يضيغون بتقبيد المسلة التى يبقاها الحاكم فى الحكم لماذا؟ لعلهم لم يقرءوه فى متن ، أو شرح !

وهؤلاء لا يجوز أن يوزن لهم رأى . . !

قال صاحبى : يمكن القول بأن تقبيد زمن الخليفة مسألة لا يامر الإسلام بها ولا ينهى عنها! فما رأى الإسلام فى وجود أحزاب سياسية تسمى للحكم وتستعمل له أهنته وهى بعيدة عنه ، وتقوم بقيادة المعارضة الشعبية ، إذا جد ما يستدعى ذلك؟ قلت : هى كسابتها ، لا يوجبها الدين ولا يحرمها . .

إن تكون المذاهب الكثيرة ، واختلاف وجهات النظر ، أثر طبيعى للحرية الفكرية التى وفروها الإسلام لاتباعه ، وعرفها الناس بعد صراع مرير مع الجبابة والأدعاء . . وإيغال الحكمة الفردى فى الاستئثار بكل شئ ، هو الذى حظر على الناس حقاً طبيعياً لهم كان يكن أن يارسوه فى سلام وسماحة !

قال : كيف يسمح الإسلام بمعارضة لولى الأمر؟

قلت : إن العريضة فى نطاق الشورى ، وطلب الحقيقة واحترام حق الكثرة ، لاشئ فيها ، وهذه المعارضة تنفع فى تفصيلات تشريعية واجتماعية ليس لأحد أن يفرض رأيه فيها بلعنف ، سواء كان حاكماً أو محكوماً ، ولنضرب لك الأمثال ! . .

هب أن جماعة من الناس تخبرت من مذاهب الفقه الإسلامى أن يؤخذ الزكاة من جميع الزروع والثمار ، وأن تبقى المتاجم ملكاً لأصحابها على أن يؤخذ منها خمس ، وأن يسوى بين دية الرجل والمرأة ، وأن تباشر المرأة عقد زواجها ، وأن تقبل شهادتها فى الدبر . والأعراض كما تقبل فى الأموال ، وأن يقبل التفاضل فيما وراء الأصفاف الستة . . إلخ ثم وضعت هذه الجماعة منهاجها هذا وعرضته على الأمة ، وذكرت أنه أساس حكمها إذا منحت التأييد من الجمهور ، أ يكون

هذا التصرف زنتاً عن الإسلام ليكون عصياناً مسلحاً للحاكم الموجود؟ لا هذا ولا ذاك...

نعم إنه يخرج عن غلظ من تخليد حكم الفردى عندنا .

ألا لعة لله على هذه التخليد التي كتبت الدين وأتمته ، وجعلت دار الإسلام نهياً للنزق والكلاب :

لقد ذكرت حقيقة خلاف الفقير لتي يختن وراء الغوغاء .

وهناك ما يسع في خفية . هب أن جماعة من الناس رأيت أن تضع منهاجاً لتصنيع البلاد في ريشة زعامة . أو اجتماعاً مع غيرها ، في أقاليم منفصلة أو لإنشاء حزب إسلامية مشتركة . أو تغيير صليب عرض الإسلام ، مستغلة في ذلك إمكانات حكم . فما لتي يبع من يشه حزب ما ، لتحقيق ذلك؟ سواء ضاق به الحقيقة أو جحى :

أليكون ذلك تنقذ نسيدة يحدث عن جماعة؟ لا هذا ولا ذاك ؛ لأن الأمة ستقول كلمته . وستبصر مدته حدة . يتقدم نراه صواباً ، ومن فاز بشقتها اليوم يمكن أن يجره من غداً . مع توجه خدويز في كسب الرأي العام .

ليس هذا قفص من لاغتيال ولكت ولا احتيال ، وإلصاق التهم بالأبرياء ، ويمكن انجل من إمسك بقية لأمر من شوق ما ينبغي؟

قال صرحي : كنتك معجب لمنظاف لأتحدثي السائد في الغرب !

قلت : إنه هذه قد ضحبه كثير أو قليلاً . يذاته فسد عندئذ ؛ لأن الاستبداد السياسي يبع منه عذوة . ومنه الإسلام - أحارب الاستبداد بكل ما لدى من معة . ولتخصيت نصية ونفسكية أينما طويلا في أممتنا ، وبطش الحكم لقرن في يد حجة . حجة : أصغر نفس : لماذا يقتل فاتح السند محمد بن القاسم بقعة كبرت مد يصر منه ذنوس غيرة عمره مهانا منبوذاً؟ لماذا يقتل أبو حنيفة ساجد حجة ؟ لماذا يصب سوت ويجلد ابن حنبل ؟ ويموت ابن تيمية محبوباً ؟ لماذا حرس منادى ينزل عذبه من بعده؟ لماذا يضرب رئيس مجلس لمة عبد رزاق السعدي سعة جيت من بعد مشلولاً؟ لماذا؟ لماذا؟

إنني أستطيع البقاء ساعات أتساءل وأتساءل ، فإذا فكرنا في تغيير هذا البلاء ، ورسمنا أوضاعاً تطيع به ، جاء نفر من الغوغاء الذين يلبسون رزي الفقهاء ، ليقولوا باسم الإسلام : لا ، وهم - من الناحية العلمية - أشد الناس جهلاً بالدين ، وخبرة بأربهم ودناياهم؟

قلت ومازلت أقول : إن مبادئ الإسلام معصومة ، أما الذين حكموا باسم الإسلام ، وهم عشرات الخلفاء من ثلاث أو أربع عائلات ، فأمرهم فرط ، ونزید إلتصاف الإسلام منهم ، وحماية حاضره ومستقبله من لوتههم . .

لقد سقطت هذه الخلافة على أيدي التتار في القرن السابع الهجري ، ثم سقطت الخلافة مرة أخرى على أيدي الصليبيين في القرن الرابع عشر الهجري .

الأولى كانت حكراً على أولاد العباس والثانية كانت حكراً على أولاد عثمان ، وهو من وجهاء الأناضول في القرن الثامن! هل هذا الوضع هو الذي يستيقبه الإسلام ، ومن أجله يرفض تقييده مدة الحاكم ، ويرفض وجود الأحزاب السياسية .



## ٥٥. كيف يقيم المسلمون دولة إسلامية واحدة؟

والحق أن مأساة الإسلام الأولى لم تحي من كثرة حكوماته قدر ما جاءت من تفاهة الحاكمين ونذرة مواهبهم ، وسقوط منصب الخلافة بين أناس لا يصلحون لإدارة قرية صغيرة أو شركة محدودة !!

وما يد من كيان سياسي وثقافي موحد للمسلمين ، حتى يستطيعوا أداء رسالتهم والقيام بحق الله عليهم ، إلى جانب ما هو معروف من أن الإخاء الديني بين المسلمين ، يسبق أخوة النسب ، وأن الولاء للمعتقد فوق الولاء للنزعات العرقية والأرضية !

وقد يظن ظان أن هذا ضرب من الغلو لكنى بعد ما درست التاريخ الدولي للعلاقات بين المسلمين وغيرهم شعرت بأن هذا الترابط الإسلامي ضرورة حياة ، ونداء البقاء بين ملل وتحل تنظر إلى المسلمين بكره ، وتود لهم العنت ، بل الضياع ولا تزال الضغائن الأولى تتوارثها الأجيال ، وتزيد جذوتها وهجاً ، حتى مطلع هذا القرن الخامس عشر ، فمع عمق الفجوة بين الهندوكية والشيوعية والصليبية واليهودية ، رأيت لكل يعالجون الوجود الإسلامي بالقتل .

المذابح الطائفية في الهند ، والحرب الكيميائية في أفغانستان ، ومجازر صبرا وشاتيلا في لبنان ، ودير ياسين في فلسطين المحتلة ، إنها النعمة على الإسلام وأمته حيث كانت ، قاسم مشترك يجمع بين الأعداء على اختلاف الزمان والمكان ، وغيرهم بانتهاز فرصة الضعف السائد للإجهاد على هذا الدين إلى الأبد ...

فهل يلام المسلمون إذا فكروا في وحدتهم وخلانهم بعد ما فشلت النزعات العالمية والصيحات الإنسانية في حق دمائهم وحفظ حقوقهم ؟ ..

وسؤال آخر؟ من من الوثنيين وأهل الكتاب نسى عقيدته ، أو أصم أذنه عن نذاتها؟ حتى يقال للمسلمين : انسوا ما لديكم !!

إن التحالف المكتوب وغير المكتوب ضد الإسلام يجعل الإنسان يهتف بين الحين والحين بالبيت المشهور :

كل يوم تبدي صروف الليالي

خلقنا من أين سميد عجيب!!...

فلنقم للإسلام دولته الجامعة ولتعد إليه خلاسته الصائغة ، وليتعلم المسلمون من أخطائهم الماضية كيف يحترمون الصواب ويلتزمونه ..

سمعت من يقول : كيف يمكن حشد المسلمين في دولة واحدة ، وتحت راية واحدة ، وهم ألوف مؤلفة موزعون على أنظار فيحاء؟ .

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) . هذه الآية أدل شيء على صفة أمتنا ونصوى رسالتها . إنها أمة أورثها الله كتابه وأوصاها أن تعمل به وتدعو إليه ، وأن تجعل وجودها المادى والأدبى مربوطة بحقائق الوحي الأعلى ، وترجمة عملية لمراد الله من خلقه : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢) .

وقد بقيت علاقة الأمة المصطفاة قائمة برسالتها تلك على تفاوت مشير ، أحياناً تقوى فلا يعجزها شيء! وأحياناً تهين فيقبلها الذر!

ومع التامل في التاريخ الإسلامي أستطيع القول : إن بقاء المسلمين إلى يوم الناس هذا يرجع قبل كل شيء إلى حفظ الله تبارك اسمه! ثم إلى وفاء الجماهير العميق لدينها ثم إلى جهاد الفقهاء والدعاة والمربين !

أما التاريخ السياسي فركام من الأقداء نما على مر الأيام وبلغ ذروته في هذه السنين المجافا ..

وإن كان يظهر بين الحين والحين خليفة أو ملك يحس القذى ، ويمهد الطريق ويكبت العدو !!

لقد شقت الأمة طريقها بقوة على عهد الخلافة الراشدة ، وكانت الجماهير والحكام جسداً وروحاً لا تفكك بينهما .

ثم اضطربت أجهزة الحكم العليا ، ودخلها خلل مزيج أيام الدولة الأموية وصلر الدولة العباسية ، ومع ذلك رأى جمهور العلماء والدعاة أن يبقوا الأمة موحدة الصف والهدف وراء أولئك الحكام ، فكان المسلمون أمة واحدة وخلافة واحدة تقريباً ..

ثم نبئت إلى جوار الجذع الغليظ سيقان أخرى ما لبثت أن اشتدت ونحوت إلى جذوع قوية ، ومن هنا قامت دول إسلامية شتى ، فشاعت الفرقة والضعف ! ..

(١) الآية ٢٣ . (٢) الحج ١١ .

قلت : إن المسلمين يبلغون ألف مليون نسمة ، وقد قامت للصين دولة وهي مثل تلك العدد .. فإن قلت : إن الصينيين على أرض واحدة ، ومساحة مشتركة . قلت : إن الاتحاد السوفيتي قدر على بناء دولة واحدة فوق أرض تأخذ نصف أوروبا ، ومثل ذلك من آسيا مع تعدد الأجناس واللغات!

إنه لا توجد عوائق مادية تمنع قيام دولة واحدة للمسلمين ، بل إن هذه الدولة ظلت قائمة أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ما يخرج عن نطاقها إلا عدد محدود ، يزو إليها يستظل من بعيد بحمايتها .

إن العوائق دون هذه الدولة نفسية ، ومعنوية ، واستعمارية ، وهي ترجع إلى المسلمين قبل أن ترجع إلى خصومهم .

إن البعد عن الإسلام ، والملوث الأدبي الرهيب الذى حاق بشعبه كانا من وراء سقوط الخلافة ، واقتسام الأقاليم لثرائها ، بل إن المستعمرين فى أقطار شتى من إفريقيا وآسيا خرجوا من الأرض التى احتلوها طوعاً لا كرها ، ودون أن تسفك قطرة دم ، وتركوا فى هذه الأرض حكاماً محليين يحرصون مصالحهم ونستحي أن نقول : تركوا حكاماً حزنوا لانسحابهم !

ومن هنا نؤكد أن عودة الدولة الإسلامية الواحدة تحتاج إلى تهديد واسع ، يعيد المسلمين أولاً إلى دينهم الحق ، ويلاً أقدسهم وألبابهم برسائله وعقائده وشرائعه وفصائله ... كما تحتاج إلى بصر حاد بأخطائه الماضى وأسباب الانهيار حتى يمكن تجنبها ، بلادة ومقتولة ، فتبنى الدولة الجديدة على قواعد لا تنال منها الأيام ..

وغنى عن البيان أن هذه الدولة الجديدة ، ليست مركزية ، إنها مجموعة من الأقطار أو الولايات لها حكوماتها المحلية ، ومجالس شوراها ، وضرائبها ، وخصائصها المعنوية ، يتكون منها بعد ذلك ، كيان الدولة الكبرى ويوجد بعاصمتها الخليفة بسلطانه العامة ..

ويستطيع الأشخاصيون وضع القالب القانوني لهذا البناء السياسى ، ولا حرج عليهم أن يقتبسوا من الأنظمة المطبقة فى دولة مشابهة بعد إثرائها روح الإسلام ..

إن العنصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنشورة ، إنه عصر التكتلات الكبيرة القادرة على الحياة والمقاومة الذاتية !

إن العالم الإسلامى ضم أجناساً كثيرة ، من عرب وفرس وترك وهنود وزنوج ... إلخ وهي أجناس سعلت بهذا الدين ، وأرضت به ربها ، وحقت به وجودها ، ولكنا

نقول بصراحة وصرامة : الإسلام استفاد سياسياً وثقافياً من فضائل هذه الأجناس ، كما نكب ثقافياً وسياسياً من معائبها الأخرى! ..

ولما كنت عربياً مسلماً فإنى سوف أتحدث عن بنى قومي وأتحدث إليهم ..

ما هذه العروبة التى اخترعوها ، وكابروا بها الإسلام ، وحسموا الولاء له ، وجعلوا قوميتها فوق الدين ، ويعتبرا بعيداً عن هداة ..

هل العرب بلا إسلام يصلحون لشيء ؟ أو يقدمون للإنسانية أى شيء ؟

تفرست فى وجوه العرويين الجدد ، ورأيت منهم ضغن على محمد ، وهو أعلى قمة فى التاريخ واستهانة بصحبه ، وما حملوا للعالم من وحى ! أكان مطلوباً من هؤلاء الأصحاب ألا يبلغوا القرآن ؟ وأن يتلوا على سامع الناس هراء عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الرضيع لنا فطامنا

تخسر له الجبابر ساجدين!

لماذا؟ أيها الأبله؟

لا حياة للعرب ، ولا شرف ، إلا بالعودة إلى سيرة أجدادهم الأقدمين ، والإخلاص للإسلام عقيدة وشرعية ، واستبطان أدبه ، والتزام هدفه ، والاستقامة على صراطه المستقيم ..

أما أن يعود البعض إلى قبر مسيلمة ، وينشأه العودة إلى الحياة ، ويطلب منه قيادة صحوة عربية جديدة ، فهو لا يبالو أمته إلا خيالا ، ولن يزيد العالم إلا سخرية بها ..

ولما ترك العرب تقاليد الإسلام السياسية ، وتقوى الخلافة الراشدة ، وسلوك الفقهاء الكبار ، ماذا صنعوا؟

استحبوا تقاليد المفاخرة والمنافرة ، والذهاب بالأباء ، واسترخاخص الدماء ، فإذا الشعوب فى أرجاء الدنيا تنفس بحرية ، وتعرض حكامها فى طمأنينة وثقة ، وتهتف ضلهم إذا شاعت .. أما العرب ، فإن حاكما واحدا يقدر على سحق عشرات الألوف لتكون العزة لغير الله! ومع هذه الفتكات الروحية يتواصى بقية العرب بالسكوت المطلق !

أظن العرب فى جاهليتهم الأولى لم يبلغوا هذا الدرك من النذالة !

إنه لن تقوم دولة الإسلام الكبرى إلا إذا اعتنق العرب الإسلام من جديد ، وكروا ما صنع أسلافهم الأول ، ولا ذهب الله بهم وأتى بخير منهم .

يقول : أيها الناس كنت أحترف ليعلى (أكسب قوتهم) فانا اليوم أحترف لكم ،  
فأفرضوا لى من بيت مالكم!

ويجىء بعد أبى بكر عمر ليقول للناس فى المسجد الجامع : إذا وجدتم فى  
اعوجاجا فقوموه ، فيسمع من بين الصفوف صوت يقول : لو وجدنا فيك اعوجاجا  
لقومناه بسوقنا! فيكون جواب عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم  
اعوجاج عمر بسيفه !

وفى رواية أن عمر خطب فقال : يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسى  
إلى الدنيا هكذا؟ فشق الصفوف رجل يقول وهو يلوح بذراعيه كأنهما حسام  
مشوق : إذن نقول بالسيف هكذا ...

فسأله عمر : إياى تعنى؟ فيجيب الرجل : نعم إياك أعنى بقولى! فبرد عمر :  
رحمك الله الحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم عوجى .

ويجىء دور عثمان ، الخليفة النبيل المظلوم ، الذى يقول للناس : «إن وجدتم فى  
كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيود فضعوهما» ..

وقد كان عثمان قديراً على استصراخ عشيرته ، وإعمال السيف فى محاصريه  
لكن الرجل الحىس الرقيق قبل أن يموت دون أن يستشيع فطرة دم لمسلم !! .

ويتولى على الخلافة فيقول : إما أنا رجل منكم لى مالكم وعلى ما عليكم! ويقول :  
ليس لى أمر دونكم ويقول لصاحبه : إياك والاستئثار بالناس فيه أسوء - سواء .

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ميراثا من أجداده بنى أمية كره الرجل  
الكبير هذا الوضع الذى يرفضه الإسلام ، وخرج إلى المسجد الجامع يقول للناس :  
لقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأى منى ، وعلى غير مشورة من المسلمين ، وإنى  
أخلع بيعة من بايعنى ، فأختاروا لأنفسكم !

فردت الجماهير بصوت واحد : بلى إياك نختار يا أمير المؤمنين ...  
هذه هى الخلافة الراشدة ، التى أمرنا أن نستمسك بستها ، أترى واحدا من  
رجالها يعرف الحق الإلهى للملوك؟ أو يظن نفسه فوق الأمة قيد إصبع؟ ويحتسب  
الحكم بقرعة حلوبا نذر عليه وعلى أسرته وأتباعه؟

أترى واحدا منهم نكل بمعارض أو ضيق عليه الخفاق أو حرمة حقاله؟ ..

## ٥٦. يوجل الناس من الحكم الدينى، وعودة الخلافة! فهل هناك ما يدفع هذا الوجل؟

عندما يتخذ التعصب الدينى قناعا له من الحرية الفكرية فإن الأمر يستحق كل  
ازدراء ومن حق المسلمين أن يسألوا : لماذا نالت «إسرائيل» الرضا التام بوجودها وهى  
تقوم على أساس يهودى صرف؟ وترسم حدودها وفق مخططات التوراة ؟

إن الشرق والغرب كليهما اعترفا بحقها فى الحياة ، بل لم يعترفا بحق العرب  
فى «بقاء جزئى» إلا بعد الاعتراف بهذه الدولة الدينية ..

لماذا قامت طلفاتكانة دولة توجه أغلب نصارى العالم وتلك القوة الاقتصادية  
الثالثة - بعد أمريكا وروسيا - وتضع سياستها الرتببة لتنصير الشعوب الأخرى وفى  
طليعتها المسلمون؟

إن الحرب الصليبية التى شنتها قباصرة فروسيا لم تدع الشيوعية ثمراتها ، بل  
ضمت إلى الأقطار الإسلامية المفتوحة «أفغانستان» !

والحرب الصليبية التى شنتها الدول الغربية تركت فى الكيان الإسلامى تزيها  
طافيا وثقافيا يوشك أن يقضى عليه !

فإذا تحرك المسلمون ليحموا كيانهم ، ويجددوا دولتهم قبل لهم : يجب أن يتعهد  
الإسلام عن السياسة ، فنحن نوجل من الحكم الدينى!! ومن عودة الخلافة  
الإسلامية! الحق أن هذه صفاقة مستغربة ! ..

إن الذى نوجل منه ، ويوجل منه كل عاقل! هو عودة الاستبداد السياسى!  
أو تولي رجل الحكم وهو يزعم أنه ذو صلة خاصة بالله ، أو أن الروح القدس حل  
فيه ويتعاون معه !!

والخلافة الراشدة بريئة من هذا الخزن المقدس ، وتصريحات رجالها واحدا  
واحدا يتشنى لو يقولها اليوم أعظم رجال «الديموقراطية» للمعارضين ..

ألم يقل أبو بكر : إن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فتقوموني؟ وعندما يلى الأمر

والداهية الدعياء في عصرنا هذا متحدثون عن الإسلام لا فقه في الدين ، ولا بصر لهم بتاريخ المسلمين بصورون الحكم الإسلامي تصويراً منكراً ، ويقررون أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان ، يقولون : الحكم السلم لا تفقيد الشورى ، ولا يسمح بأحزاب معارضة ، ولا يعترف بمبدأ الانتخاب ، وحق الكثرة في فرض نفسها !!

إنهم يدافعون عن الفرعونية والهرقلية ، ويؤيدون الحجاج والسفاح وكل مفتات على الأمة .. إنهم ناس يستمدون فقههم كله من تاريخ الخلافة غير الراشدة ، والمثرك الذين حكموا الإسلام ولم يحكمهم الإسلام ...

وهم بفكرهم وسلوكهم امتداد لزواية الانحراف الثقافي والسياسي في التاريخ الغريب والبعيد ، وبعضهم له إخلاص الدبة التي قتلت صاحبها ، وللبعض الآخر باع طويل في الارتفاق والأكل على موائد الحاكمين !! ..

علماء الدين عندنا يقولون في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ : إن الراوي الثقة إذا خالف من هو أوثق منه عد حديثه شاذاً ورفض . وإذا كان الراوي ضعيفاً ، ونقل ما يخالف الصحاح عد حديثه منكراً أو متروكاً ورفض !! ..

فما نقول في ناس يرسمون صورة الإسلام من أحاديث شاذة أو منكسة أو متروكة؟ وفي أي مجال؟ في ميدان الحكم ، أو لمظاهرة فرد مستبد؟ ..

روى المحدثون عندنا هذا الحديث الضعيف ، تذكر نصه ثم تعلق عليه! روى بصيغة التعريض أن النبي ﷺ قال: «السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جارا وحاف أو ظلم كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر».

هذا الحديث الضعيف مختلف بسنن صحيحة كثيرة منها : لا تأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، وتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليعلمنكم كما لعنهم ..

ومنها : فإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعصم بعقاب منه .

ومنها أحاديث تغيير المنكر بمراتبه الثلاث ..

وظاهر الحديث الضعيف مرفوض من ناحيتي الشكل والموضوع ، وهو إما منكر أو متروك ومع ذلك نقله وروج له بعض المرتقة من المتحدثين عن الإسلام ..

ونسارع إلى القول بأن الأخذ على يد الظالم ليس باغتياله ، بعد محاكمة فردية

له من بعض الناس تراشعاً به

التصرف الإسلامي الوحيد مد رواق الحكم الشورى والمعارضة الحرة ، فمن رأى من الحاكم عوجاً حدث للناس عنه ، وشرح للرأي العام موقفه ، فإن أيده الناس أسقطوه في انتخاب صحيح ، وجاؤوا بتغير منه .

قال لي غلام ساذج : إنك تعترف بالنظام الانتخابي ، وتقرر رأي الكثرة مع أن القرآن ذم الكثرة في مواضع كثيرة قلت : أي كثرة تلك التي ذمها القرآن؟ إذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) أو قال في آية أخرى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) . كان معنى النظم القرآني الكرم أن أغلب المسلمين منافقون وجهال؟ ..

قيح لله فهمكم إن النبي ﷺ كان يرى في معركة أخذ استدراج المشركين إلى داخل المدينة ، والقضاء عليهم في حرب شوارعاً بيد أن الكثرة من أصحابه أبت إلا الخروج إليهم في العراء ، فنزل على رأيهم وهو كاره ، فلما رأوا أنهم أكرهوه على الخروج عرضوا عليه أن يتغلبوا خطته ، فأبى !! ..

فهل كانت كثرة الأصحاب جاهلة ، أو غير مؤمنة؟

كان عليه الصلاة والسلام - كثيراً ما يقول : «أشيروا على أيها الناس» . فهل حاكمكم الذي تزرون ألقى الشهادة الشورى . ولا يلتفت إلى الكثرة ، أرشد من صاحب الرسالة العظمى وأعقل ؟

إن غباكم في فهم القرآن والسنة لا يستفيد منه إلا أعداء الإسلام ، وعشاق الفرعة من الحكام !

عندم نطلب عودة الخلافة الإسلامية ، وقيام حكم للكتاب والسنة ، فنحن نرنو إلى الميائت الشريفة التي وعها عهد الخلافة الراشدة ، ونريد تجنب «خطاء السلاطين» . ولا نتفزع بكل جهد إنساني للخلاص من الاستبداد والمنسبيين .



## ٥٧. متى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟

الإنسان ليس ملاكاً معصوماً، ومن ثم لا نستغرب وقوع الخطأ منه، وإذا أخطأ فلا ينبغي أن نبادر إلى قمعه بوحشية، وإظلام حاضره ومستقبله ..

والشارع الأعظم يعلم هذه الطبيعة البشرية، ويهد لها طريق التوبة والتسامي ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشُّهُوتَ أَنْ تُمْلُوا مِنَّا﴾ عَظِيمًا (١٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (١٨).

هذه حقيقة لا ريب فيها، وهناك حقيقة أخرى لا تناسها .. إن كل امرئ يجب أن يعيش أماناً في سربه، وإفرا في دمه وماله وعرضه، وإن انحرافات الخطئين لا يجوز أن تتحول إلى وباء يعصف بالأمن ويحتاج الحرمات!

والإسلام عندما يضع عقوبة لخطيئة ينظر إلى هاتين الحقيقتين .  
قد يعجز العاصي ويلتمس له الدواء! ولكنه لا يأذن أبداً للجرعة أن تعكر الصفو، وتنتشر الخوف .

ومن أجل ذلك وضع الحدود، ودرأها بالشبهات، ووقفها بالتوبة إذا رأى القاضي (١). إن من تورط فيها نأثر على نفسه، نادم على سقطته، وإن عودته إليها مستبعدة، وإن مستقبله هو الصلاح والاستقامة ..

إن النبي ﷺ حاول أن يثنى معاذاً - غفر الله لنا وله - عن اعترافه، ورأى أن توبته تطهره، ولكن الرجل كان مهتاج الأعصاب لما بدر منه، وأراد أن يظهر نفسه بالرجم فتركه النبي الكريم وما يريد!

على حين أذن لمن صلى معه، أن ينصرف بما اقتضت، فقد طهرته صلاته أو اعتبرت توبته له ..

لكن إذا اضطرب جبل الأمن، أو رأى القاضي أن المذنب قاس مخوف الغدر، فإن الحفاظ على المجتمع، ومؤاخاة الجرم الجسور توجيان الضرب على يده وحماية الناس من شره ...

(٢) نحن نتابع أبو تيسية في هذا الكلام ونرى الحق معه .

إن الحدود حق، وأقامتها - بصورتها الشرعية - مطلوبة إلى آخر الدهر، وما يقال عن قسوتها ضرب من الهراء، ونحن نستعين ذلك كل الاستبانة عندما نتوسم أحوال المجتمعات التي أنكرتها أو تركتها ..

يقول الصحفي أنيس منصور: «إذا سرت في شوارع أمريكا» فلا تحمل فلوساً كثيرة، فقد يستوقفك أحد الزوج وفي يده سكين . وإذا ذهبت إلى محل لشراء شيء فلا تخرج من جيبيك مالا كثيراً للسبب نفسه، إن الأمريكيين يتعاملون بالبطاقات المالية ودفاتر الشيكات ولا يحملون مالا ... وفي الفنادق يطلبون منك أن تضع فلوسك عندهم والا فأنت للمسئول إذا سرقت أموالك أو أشياءك الثمينة! وقد تجد مكتوباً على باب الحمام: أغلق عليك الحمام من الداخل، وإذا هاجمك أحد فاطلب رقم كذا بسرعة!

وهم ينصحونك ألا تمشي وحدك في الشوارع فإذا اضطرت إلى ذلك فكُن متجهماً بادئ القوة، حتى لا يظن بك الحرفاء .

قال: «ونزلت أمشي وحدي قريباً من البيت الأبيض، وكان الشارع خالياً غاماً من المارون، وفجأة وجدت رجلاً يتوكأ على عصاه، استوقفني وسألني: كم الساعة؟ فتوقفت أنظر في ساعتى، فإذا هو يخرج سكيناً من بين ملابسه .. فأعطيته الساعة! ونظرت فإذا هو يزيح القناع عن وجهه ويبدو شاباً صغيراً! لم يكن شيئاً ولا زنجياً، وضحك وضحك .

وبينما أنا أنظر إلى الشاب إذ قفز إلى جوارى شاب آخر . فرفعت يدي إلى أعلى، مظهراً أنه ليس معي شيء، فأشار إليه - اللص الأول - من بعيد، فتركتني! . وعرفت أن الزوج ليسوا وحدهم قطاع الطرق في أمريكا! .

لقد فقد هذا السائح المصري ساعته؛ لأنه سرى وحده، فالأمن مفقود في العاصمة الكبيرة، لا أرتاب أن السارى لو كان أنشئ لفقدت ماله وعرضها جميعاً، وإذا قاومت مغتصبها فقدت حياتها!

وقد يكون القتل رب أسرة لا يعود إليها!

والحديث عن قلب يخشى الله أو يهاب لقاءه حديث خرافة! فقد انقطع التيار الكهربائى في المدينة مدة طويلة، فهبت أعقاب المتاجر والمعارض في الظلام العارض، إن وجود الضمير مرتبط برجل الشرطة وحده! ما أشرف هذه الحضارة .

وَعِنَّمَا يَتَسَوَّلُ الْأُمِّيُّونَ أَتَمِّيًا عَلَى هَذَا الْقَوْلِ  
يَقُولُونَ بَلَّغُوا

بقی آن قبول : ان عقوبۃ صغیرہ است . از آن اذنی : آریزۃ عجمیہ . و یون  
و یومہ یکدہ سبت . ۱۲۰ تا ۱۳۵ از غیران فی طریق علم ، و تاریخ مسیحیت ۷

[illegible]

مستوفى على العلم والادب، ولا يرى له من الجرام إلا ما لا يرى له من الجرام، ولا يرى له من الجرام إلا ما لا يرى له من الجرام.

[illegible]

والتحقيق في هذه المسألة هو الذي ينبغي أن يكون.

وہی ہے جو کہ ان کے لئے ہے۔

[illegible][illegible]

...مجلسه است. این جلسه در روز ۱۹ شهریور ۱۳۵۷ برگزار شد و در آن جلسه به بحث و تبادل نظر در مورد برنامه های آموزشی و فرهنگی و ... پرداخته شد.

ויהי ערב ויהי בקר והיו ימי שבת

وبعد ذلك، فإن الذي ينبغي الخروج عليه هو التمسك بالحقائق التي هي في الواقع، وليس بالحقائق التي هي في الواقع.

[illegible]

مذبح : مذبح  
مذبح : مذبح

(1) 1950-51: 1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 10, 11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99, 100, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 120, 121, 122, 123, 124, 125, 126, 127, 128, 129, 130, 131, 132, 133, 134, 135, 136, 137, 138, 139, 140, 141, 142, 143, 144, 145, 146, 147, 148, 149, 150, 151, 152, 153, 154, 155, 156, 157, 158, 159, 160, 161, 162, 163, 164, 165, 166, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 173, 174, 175, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 184, 185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 195, 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202, 203, 204, 205, 206, 207, 208, 209, 210, 211, 212, 213, 214, 215, 216, 217, 218, 219, 220, 221, 222, 223, 224, 225, 226, 227, 228, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237, 238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 246, 247, 248, 249, 250, 251, 252, 253, 254, 255, 256, 257, 258, 259, 260, 261, 262, 263, 264, 265, 266, 267, 268, 269, 270, 271, 272, 273, 274, 275, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 282, 283, 284, 285, 286, 287, 288, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 295, 296, 297, 298, 299, 300, 301, 302, 303, 304, 305, 306, 307, 308, 309, 310, 311, 312, 313, 314, 315, 316, 317, 318, 319, 320, 321, 322, 323, 324, 325, 326, 327, 328, 329, 330, 331, 332, 333, 334, 335, 336, 337, 338, 339, 340, 341, 342, 343, 344, 345, 346, 347, 348, 349, 350, 351, 352, 353, 354, 355, 356, 357, 358, 359, 360, 361, 362, 363, 364, 365, 366, 367, 368, 369, 370, 371, 372, 373, 374, 375, 376, 377, 378, 379, 380, 381, 382, 383, 384, 385, 386, 387, 388, 389, 390, 391, 392, 393, 394, 395, 396, 397, 398, 399, 400, 401, 402, 403, 404, 405, 406, 407, 408, 409, 410, 411, 412, 413, 414, 415, 416, 417, 418, 419, 420, 421, 422, 423, 424, 425, 426, 427, 428, 429, 430, 431, 432, 433, 434, 435, 436, 437, 438, 439, 440, 441, 442, 443, 444, 445, 446, 447, 448, 449, 450, 451, 452, 453, 454, 455, 456, 457, 458, 459, 460, 461, 462, 463, 464, 465, 466, 467, 468, 469, 470, 471, 472, 473, 474, 475, 476, 477, 478, 479, 480, 481, 482, 483, 484, 485, 486, 487, 488, 489, 490, 491, 492, 493, 494, 495, 496, 497, 498, 499, 500, 501, 502, 503, 504, 505, 506, 507, 508, 509, 510, 511, 512, 513, 514, 515, 516, 517, 518, 519, 520, 521, 522, 523, 524, 525, 526, 527, 528, 529, 530, 531, 532, 533, 534, 535, 536, 537, 538, 539, 540, 541, 542, 543, 544, 545, 546, 547, 548, 549, 550, 551, 552, 553, 554, 555, 556, 557, 558, 559, 560, 561, 562, 563, 564, 565, 566, 567, 568, 569, 570, 571, 572, 573, 574, 575, 576, 577, 578, 579, 580, 581, 582, 583, 584, 585, 586, 587, 588, 589, 590, 591, 592, 593, 594, 595, 596, 597, 598, 599, 600, 601, 602, 603, 604, 605, 606, 607, 608, 609, 610, 611, 612, 613, 614, 615, 616, 617, 618, 619, 620, 621, 622, 623, 624, 625, 626, 627, 628, 629, 630, 631, 632, 633, 634, 635, 636, 637, 638, 639, 640, 641, 642, 643, 644, 645, 646, 647, 648, 649, 650, 651, 652, 653, 654, 655, 656, 657, 658, 659, 660, 661, 662, 663, 664, 665, 666, 667, 668, 669, 670, 671, 672, 673, 674, 675, 676, 677, 678, 679, 680, 681, 682, 683, 684, 685, 686, 687, 688, 689, 690, 691, 692, 693, 694, 695, 696, 697, 698, 699, 700, 701, 702, 703, 704, 705, 706, 707, 708, 709, 710, 711, 712, 713, 714, 715, 716, 717, 718, 719, 720, 721, 722, 723, 724, 725, 726, 727, 728, 729, 730, 731, 732, 733, 734, 735, 736, 737, 738, 739, 740, 741, 742, 743, 744, 745, 746, 747, 748, 749, 750, 751, 752, 753, 754, 755, 756, 757, 758, 759, 760, 761, 762, 763, 764, 765, 766, 767, 768, 769, 770, 771, 772, 773, 774, 775, 776, 777, 778, 779, 780, 781, 782, 783, 784, 785, 786, 787, 788, 789, 790, 791, 792, 793, 794, 795, 796, 797, 798, 799, 800, 801, 802, 803, 804, 805, 806, 807, 808, 809, 810, 811, 812, 813, 814, 815, 816, 817, 818, 819, 820, 821, 822, 823, 824, 825, 826, 827, 828, 829, 830, 831, 832, 833, 834, 835, 836, 837, 83

[illegible]

وَالْحَقُّ يَدْعُنَا إِلَى رَوْحٍ عَظِيمٍ  
وَالْحَقُّ يَدْعُنَا إِلَى رَوْحٍ عَظِيمٍ

اللهم صل على محمد وآل محمد  
صلواتك عليهم في كل وقت  
ومكان آمين

أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَنَاتُ لَهُنَّ مِيرَاثٌ فَلْيَذَكَّرْهُنَّ بِمَا يَكُنُ لِهِنَّ مِنَ الْمِيرَاثِ

الآن وجهي بملابس بطرية الجميلة ، فإني قد عرفت هذه الجميلة ،  
 في حق الله سبحانه ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين .

[illegible]

וְיִשְׂרָאֵל יֹאמַר וְהָיָה כִּי יִשְׁכַּח אֶת-עַבְדִּי וְהָיָה עַבְדִּי לְנָסִים וּלְמוֹפְתִים בְּאַרְצוֹ וּבְמִדְבָּרוֹ וּבְכָל-אֶרֶץ מִצְרָיִם וּבְכָל-אֶרֶץ כְּנָעַן וּבְכָל-אֶרֶץ חֲמָט וּבְכָל-אֶרֶץ אֲשֶׁר יֵלֶךְ אֶת-עַבְדִּי וְהָיָה עַבְדִּי לְנָסִים וּלְמוֹפְתִים בְּכָל-אֶרֶץ מִצְרָיִם וּבְכָל-אֶרֶץ כְּנָעַן וּבְכָל-אֶרֶץ חֲמָט וּבְכָל-אֶרֶץ אֲשֶׁר יֵלֶךְ אֶת-עַבְדִּי וְהָיָה עַבְדִּי לְנָסִים וּלְמוֹפְתִים בְּכָל-אֶרֶץ מִצְרָיִם וּבְכָל-אֶרֶץ כְּנָעַן וּבְכָל-אֶרֶץ חֲמָט וּבְכָל-אֶרֶץ אֲשֶׁר יֵלֶךְ אֶת-עַבְדִּי

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم منبرا للعلماء والفقهاء  
والشيوخ والطلاب في كل زمان ومكان

[illegible][illegible][illegible]

## ٥٨. ما الضرائب في الإسلام، وما نظامها؟

سمعت كلمة من صديق عاش في أوروبا ردحاً من الزمن عجبت لها ولم أنسها ، قال : إن يوم إقرار الموازنة العامة للدولة يكاد يكون عيداً الفرحة عامة ، والبشر باد على الوجوه !

قال : وفي بعض البلاد يقال لدائمي الضرائب : احسروا تفاصيل الإنفاق . انظروا أين وضعنا ما أخذنا منكم من مال !!

لقد روعيت المصلحة العامة بأمانة وسبلت الشفقات ، وكفلت مدارس ومستشفيات ، وفُرحت طوائف ، وحققت آمال .. إلخ ، نعم أخذ المال بحق وأعطى ببصر ، ووزع بعدل ، فهناك لا تفرض ضريبة إلا بموافقة نواب الأمة ، ولا تصرف إلا بهذه الموافقة ..

تذكرت أنين «سديف» الشاعر الذي انضم إلى ثورة النفس الزكية وهو يقول :  
«الهمم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة - أي استأثر الأغنياء به فهو دولة بينهم -  
وامارتنا غلبه بعد المشورة - يشكو الاستبداد السياسي -

واشتريت اللالاه والمعازف بسهم اليتيم والأرملة - سوء التصرف في المال العام -  
وحكم في إيشار المسلمين أهل الذمة ! - فهم نعم العون للأمير الجائر -  
وتولى القيام بأمرهم فاسق كل محلة - هكذا تقع الطيور على أشكالها .  
الهمم قد استحصد زرع الباطل ، وبلغ نهيته ، واستجمع طريده .

الهمم فافتح له من الحق بنا حاصدة تبتد شمله وتفرق أمره ، ليظهر الحق في أحسن صورة ، وأمر نوره» ..

مالي وهذا الأذين القديم؟ إن الشجا يبعث الشجا .. كان الزمان أو كان الحاضر صورة الماضي ، في عالمنا الإسلامي المهضوم !!

يقصد بالضرائب المال الذي تأخذه الدولة من الجمهور في صور شتى ليعود ذلك المال مرة أخرى إلى الناس في صورة خدمات عامة وخدمات لوجود الأمة ورخائها ، وصون مصالحها ودعم القائمين عليها .

ومن هنا كان أداء الضريبة لا يد منه وكان التهرب منه ، أشبه بالخيانة الوطنية .. وفي البلاد الراشدة ينذر كل التذرة أن تنهب حصيلة الضرائب في إجابة شهوة خاصة ، من أجل ذلك ينظرون إلى التهرب من الضرائب على أنه ارتكب ما يحرمه من اللاتصّب الكبرى وما يصمه بأرؤا التهم ! ..

وقد فرقنا في كتاب آخر بين الضريبة والزكاة ، فإن الله فرض الصدقة تطهيراً للنفس من رذيلة الشح ومساعدة للفقراء على رد الضوايق والأزمات ، وإسهاماً في الدفاع عن العقيدة .. إلخ .

وحدد القرآن الكريم مصارف الزكاة في ثمانية أصناف لا يجوز أن تعدوها إلى غيرها .. أما دائرة الضريبة ، فهي أوسع مصادر ومصارف ، ومن حصيلة الضرائب ينهض الكيان السياسي والعسكري والحضاري للأمة ، ومنها ينفق الجهاز الإداري . وقد تكثر الضرائب وترتفع نسبها خصوصاً أيام الحروب حتى تصل إلى ٩٠٪ من الدخل العام ..

أما الزكاة فمؤكد إليها ابتداء القضاء على البأساء والقراء ، ومن مصارفها الثمانية سهم قد يوجه للجهاد العسكري ! لكن مفارم الجهاد قد تمتد لتشمل المال كله ، والنفس معه ..

ولعلك ترى من هذا أن ثمة تشابكاً بين دائرتي الضريبة والزكاة مع انفراد كل منهما بجمال تختص به !

والأم الكبرى - خصوصاً من لها نشاط عالمي - تفتن في وضع الضرائب وتعيد أوجيتها وتقرن ذلك بأهداف قومية مباشرة وغير مباشرة .

والإسلام حدد نسب الزكاة ، ومستحقها ، لكن النشاط الإسلامي العليّ المتمد يفرض على المسلمين بذلاً لا يقف عند حد كي ينفوا رسالات الله ، ويحسنوا الدفاع عنها ..

وقد تأملت في مطالب التربية والتعليم ، ومطالب الدعوة والشفافة ، ومطالب الأسطول البحري والجوي ، ومطالب الجيش وأسلمحته الكثيرة ومطالب الصناعات المدنية والعسكرية .. إلخ فوجدت أن ذلك يتطلب أموالاً لا تفيض منابها - فأدركت معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ (١) ..

(١) توبة : ١١١

وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) .  
ويظهر أن كلمة «النفقة» تشمل الصدقات المفروضة والناقلة، وتشمل أنواع  
البذل التي يفرضها العمل لله في شتى الميادين .  
وربما عر بالمسلمين أيام يكلفون فيها بإنفاق ما يزيد على حاجاتهم الخاصة ،  
لا يستيقنون شيئاً استجابة للآية الكريمة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ (٢) .  
وهذا ما يقوم به الجهاد الضرائبي! وقد تكون كلمة ضريبة بغضبة إلى الناس!  
وعلة ذلك فيما بلوت فساد الحكم في أغلب الأقطار الإسلامية، والتبذير الشيطاني  
في المال العام، وقلة الخائزين على العقب منه دون حساب . .  
وقد رأينا أن الدول الأخرى معافاة من هذا البلاء، وأن ما يؤخذ من دافعي  
الضرائب ينفق في أرشد مواضعه، ويراقب بعيون نافذة حادة . .  
وهكذا نرى المكشزين والمتجنين يرعون مصالحهم، ويعطون دون من ﴿وَمَا  
يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ قُلْ يَكْفُرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْتِنِينَ﴾ (٣) .

وقد كنت فيما كتبت صدر حياتي أرى ذلك من مقتضيات الفطرة، وأنهم من  
ظواهر الرأي، ثم وجدت أن فقهاءنا استنبطوه من القواعد المقررة في الشريعة! قال  
الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي إنه يمكن «إذا قصت ظروف الحرب فرض ضرائب  
على القادرين وأهل اليسار لتمويل الجهاد، وإمداد الجيوش وإعداد الحصون، وما إلى  
ذلك من احتياجات الحروب»! إن الشرع يؤيد ذلك ويوجبه كما نصح على  
ذلك الفقهاء، وإن كان كثير منهم في الأحوال المعتادة لا يطلب الناس بحق في  
المال غير الزكاة واستند الغزالي على ذلك بقوله: «ولأننا نعلم أنه إذا تعارض شران  
أو ضرران، قصد الشرع إلى دفع أشد الضررين وأعظم الشرين!»  
وما يؤيده كل واحد منهم - يعني المكلفين بهذه الضرائب - قليل بالإضافة إلى  
ما يخاطر به من نفسه وماله لوخلت بلاد الإسلام عن ذي شوكة يحفظ نظام الأمور  
ويقطع مادة الشرور» .

قال الدكتور القرضاوي: «مثل ذلك فك أسرى المسلمين، وتخليصهم من قيود  
الكافرين وإذلالهم، مهما كلف ذلك من أموال! قال الإمام مالك: يجب على كافة

المسلمين فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم، ذلك؛ لأن كرامة هؤلاء الأسرى  
من كرامة الأمة الإسلامية، وكرامة الأمة فوق الحزمة الخاصة لأموال الأفراد .

وهذا منطق شديد هدى إليه الفقهاء والدعاة والموجهون في تاريخنا العلمي،  
وسارت عليه الأم الآن شرقاً وغرباً، فالحكومات الواعية قد تجعل من الضرائب  
شريان حياة كما تجعل منها أحياناً جراحة شفاء وتجميل . .

رأينا الضرائب تزداد على أسباب التسرف وأدوات الزينة ولا بأس في ذلك  
فالحصيلة ستكون سناداً للفقراء والمعوزين . .

ورأينا الضرائب تفرض على المصنوعات الأجنبية حماية للصناعة الوطنية، وهذا  
حسن، وقد نهضت في الهند صناعات توشك أن تحقق الاكتفاء الذاتي للهند،  
بسبب الضرائب الصارمة التي أوجبتها الدولة .

وإذا أكره الجمهور على استخدام أدوات أو سلع غير جيدة، فإن سنة الارتقاء  
تستصل بها إلى المستوى المنشود يوماً ما .

على أية حال لا بد أن نذكر أن الفولة الإسلامية مربوطة بمبادئ وأداب وأهداف  
لا يمكن تجاهلها، في الداخل والخارج على سواء! وربما بلغت الدولة بعض غاياتها  
بوسائل قريية، كما حدث من تأخ بين المهاجرين والأنصار على عهد رسول الله  
ﷺ، أو على نحو ما فكر عمر بن الخطاب عندما قال: لو لم أجد للناس ما  
يسمعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عذتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم، حتى  
يأتي الله بالحل! ففهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم!! . .

لكن هذه الوسائل قد تصعب الآن، والبدل المقتوم عنها هو الضريبة التي تمكن  
الحكومة من مباشرة الإطعام والإيواء، وإمداد المحتاجين بما يسعفهم ويصونهم مادياً وأدبياً .

وما يقال في مطالب السلام يقال مثله في مطالب الحروب، لاسمياً وقد  
أحاطت بنا الذئاب من كل فج وسمع لعوانها طنين رهيب! . .

ولن يأسى مؤمن على مال يذهب في هدف شريف . .

## ٥٩. كيف يحقق الإسلام التوازن الاقتصادي في المجتمع؟

لا يرتاب عاقل في أن الإسلام منح الفرد حق التملك مادام السبب مشروعاً ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا يَكُونُونَ (٧٣) .

وقد رغب الواجدين أولى السعة أن يؤثروا غيرهم ويشركوهم في نعمة الله لديهم ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (٧٤) .

ورغب - سبحانه - من تليط اليد السفية على المال ترفيقه في العيش ، وتهدد الصالح المرتبطة به لفاتمة عليه ﴿ وَلَا تَوَثَّرُوا بِالسَّهَاءِ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٧٥) .

ونادى بتبارك اسمه جماهير المؤمنين أن يستعفوا عن الحرام ، وألا تكون معاملاتهم انتهاكاً وشراً ، بل يجب أن تكون عن طيب نفس ، وعن رضا قلبى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ (٧٦) .

الواقع أن ازدهار العمران وتوقد للملكات ، وتضاعف الإنتاج إنما يجىء مع سباق الحوافز الخاصة ، ورغبة البشر فى الكسب ، والمزيد من الكسب ، لأنفسهم وأولادهم ..

وقد أقر الإسلام حرية التملك ، وإن كان قد أنقلها بالقيود التى تمنع سطوة الأنانية ، وطفیان الاستغناء ..

والشيوعية تلغى الملكية الخاصة ، وتجعلها مسئولة عن المظالم الاجتماعية قديماً وحديثاً !

(١) يس : ٧١ - ٧٣ .

(٢) شور : ٣٣ .

(٣) النساء : ٥ .

(٤) النساء : ٢٩ .

وقد تكونت للشيوعية بشقيها الاقتصادي والفلسفى الإلحادى دول كبيرة ، والذى يعنى أنا السلم المؤمن بالله وكتبه ورسله - أمراً : أحدهما أهم وأخطر من الآخر . الأول :

إثبات معالم الإيمان جملة وتفصيلاً فلا هوادة فى جحد الألوهية ، وإنكار الوحي الأعلى ..

الثانى :

احترام للملكية الصحيحة ، ورفض ما عداها من تلك أسامة السحت والاعتصاب وضروب الاستغلال السيئ .

وإنما أقرر ذلك ؛ لأن هناك أناساً يزعمون الإسلام - ويعلم الله ما فى قلوبهم - ثم يتخوضون فى مال الله تخوضاً رهيباً فلا يتركون منه إلا ما عجزوا عن حمله ! ولا يبالون من أين اكتسبوا ولا يرقون لضعيف داسوه وهم يجمعون ولا يكثرثون محتاج يرون إليهم ابتغاء معونة !!

يقول أولئك : إنهم يحاربون الشيوعية ؛ لأنها ضد الدين !! وهم الطريق الموصل إليها والمغرى بها !! والذين الذى يذكرونه بعيد عن أخلاقهم وأعمالهم !

على أية حال نحن نحامى عن الإسلام الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد ، ونأبى أن تبغى رسالته العظمى فى وصاية نقر من الترفين والمتخومين ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمُ فِي الْأَرْضِ (٦) .

ومن الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة ، ومن هنا فإنك حيث تجد الخلل السياسى تجد الإثراء الحرام ، واستغلال السلطة إلى أبعد الأماد ، وسوق المغام إلى الأقارب والأتباع والحواشي ..

وأرى أن طهارة الربح أصل عظيم لصلاح المجتمع ، وأن مصادرة الأملاك التى سرقت من حقوق الآخرين تعيد إلى النفوس والأوضاع قدراً كبيراً من الاستقرار والتوازن ! إن رأى الأجانب فى أساليب الربح والحسارة ، والغنى والفقر فى بلادنا ينكس يهوس الدعاة ، ويلصق بالإسلام تهماً هو منها براء .

(١) القصص : ٦٠ .

وقد سردنا النصوص في محرم النهب والفسخ والاحتكار والاستغلال في أماكن من كتبنا ..

والمال المكسب من حلال يجب فيه حقوق شتى ، أولها الزكاة ، ومكانتها في الإسلام كبيرة ، والغاية منها قطع دابر البأساء والضراء ، وإبداء العون الذي يحق للفقراء الاكتفاء الذاتي .

وتدبر قول الرسول الكريم : « لا رجل يمنع أهل بيت نالته تغدو بعض قرح كبير . وتروح بعض ! إن أجبرها لعظيم . »

أى توفر لأهل البيت مقلداً سخيا من اللبن في الصباح والمساء ، وبذلك تتم تغذيتهم! إن الصورة المعروفة للزكاة يد تمثّل ذليلة سائلة لتتلقى فتاتا يسد حاجة اليوم ، ثم تكرر الضراعة والطلب لتسد حاجة الغد ، وهكذا دواليك !!

وبذلك لعمر الله مستحكمة ، إن الإسلام أول قاتل لاستخراج حق الله في المال ، ثم تولت الدولة إعطاء من ترى بهم حاجة ، لكن كيف تعطى وكم ؟ يجب الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك في تفصيل نقى من هذه السطور (١) : « فهناك المذهب الذى رجحه الغزالي وهو مذهب الملكية وجمهور الخطابية وبعض الشافعية وهو أن يأخذ المحتاج ما يتم كفايته من وقت الأخذ إلى سنة مستقبلية - أى نفقة عام كامل - قال الغزالي فهذا أقصى ما يخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخول ، ومن حيث إن الرسول الكريم ادخر لعماله قوت سنة ، والقائلون بهذا الرأي يذكرون أن كفاية السنة ليس لها حد معين تقف عنده ، فإن كنت لاتمم إلا باعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب ، من تقود أو حررت أو ماشية أخذ من الزكاة ذلك القدر ، وإن صار به غنياً ؛ لأنه حين الدفع إليه كان فقيراً مستعجلاً ، !!

ومن الطوائف التى ذكرها صاحب الكتاب الجليل « فقه الزكاة » أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أمر من ينادى فى الناس كل يوم : « أين المساكين ؟ أين الفقراء ؟ أين التاكسون ؟ » يعنى طالبى الزواج الذين لا مهر معهم !! فإن بيت مال المسلمين يساعد على الزواج وإيتاء المهر !!

ثم ذكر الأستاذ رأياً آخر للفقهاء فى القدر الذى يمنح من الزكاة ، هذا القدر ليس كفاية عام كما ذكرنا ، إنه كفاية العمر ، قال : « وهذا رأى هو الذى نصي عليه الشافعى فى «الأم» ، واختاره جم غفير من أصحابه » .

(١) نعت نعت كتاب فقه الزكاة أعظم ما ألف فى موضوعه فى تاريخنا العلمى .

إن الإسلام دين طيعى يحارب السرقة بتموين الناس ! ويحارب الزنى بتزويج الراغبين فى العفاف ! ويسخر تعاليمه المالية لتحقيق أهدافه الخلقية ، وضبط المسار الاجتماعى حتى لا يعوج أو يزيغ ..

على أن دائرة الزكاة مهما اتسعت قيتبقى ألا تعدل بها حدودها ، قد تكون الزكاة عوناً للعاجزين ، ولكنها مساعدة مؤقتة للعاطلين إلى أن يجدوا العمل !

وقد جاء فى الحديث : « لا تصوم الزكاة على ذى صرة سوى » أى أن الرجل السليم الخلق ، سوى الحواس والأعضاء ينتج إلى العمل ليتكسب منه ويقوت أهله !

ولا ننسى أن الزكاة نفسها هى فضول من عملوا وكسبوا وادخروا ، فالعمل هو المصدر الأساسى للثروة ، وعلى الدولة أن تعهد ميادينه لكل قادر ، وأن تحارب البطالة بكل ما لديها من قوة ! ..

وأجدنى مكلفاً بمصارحة قوسى ، وإن ساءنهم هذه المصارحة ، إن غيرهم من الناس كان أجلد منهم على العمل ، وأبصر بأسبابه ، وأجمل على معالجته والنجاح فيه ونيل الغنى الباذخ منه ! ..

وقد تساطت عن سر ذلك ؟ فوجدت أن تقليد البلو تسلسلت إلى تعاليم الإسلام وتقاليد المسلمين توقفت بأمنا على حين تحرك غيرها وسبق سبقاً بعيداً .

والبلو يحتقرون الفلاحة ، ويزفرون الحرف ومجالس الأغراب ملاهى بالمقارنات والمقارنات والتظاول بالرياسة ، والتزعة عن عدد من الصناعات !

فالفرزدق يهجو جريراً ! لأن أباه حليداً أما مجاشع جد الفرزدق فلا تدرى عما يأكل ؟ ..

والى أمد قريب كان ابن عملة القرية أصل من ابن طبيب القرية ! أو ابن شرطية ! واليد الثوبة بالنفط والفار مؤخرة عن اليد التى تقبض النفقة حصيلة كدح هذا وذاك !! وربما وصل هذا التفاوت إلى عقود الزواج فعند ابن هذا ليس كفوفاً لبيت ذاك ، ونسب ذلك كله إلى الإسلام ..

إن المجتمع الإسلامى يجب أن يعاد تشكيله وفق القانون الإلهى الغد ﴿ وقُلْ اَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ لَكُم مَخْرَجاً ۝ ﴾ (١)

أما عوائد المترفين والفاغدين فلتطرح معهم إلى الجحيم .

(١) توبة : ١٠٥ .

## ٦٠. ما موقف الإسلام من نظام المصارف العالي وما البديل الذي يقدمه؟

للتأمل في أعمال هذه البنوك يجد بعضها حلالاً محضاً، والآخر حراماً لا ريب فيه، وهناك أعمال يمكن بتعديلات يسيرة أن تأخذ الصورة المشروعة.

ومن هنا شرع الاقتصاديون للمسلمون يرفعون قواعد المصارف على أسس من الفقه الإسلامي، ففي هذا الفقه عقد المضاربة الذي يتم بين الخبيرة من ناحية ورأس المال من ناحية أخرى، كما أن في هذا الفقه قواعد بمهدة للصرف والحوالات والضمان والوكالة وغير ذلك.

ثم إن جماهير المسلمين راضية كل الرضا في أن تبعد طعنتها عن الشيعة فضلاً عن الحرام؛ لذلك ما كانوا يسمعون عن مصرف إسلامي حتى سارعوا إلى الإسهام فيه! وقد نهضت الآن عدة مصارف في وجه مقاومة منظمة من البنوك العالمية التي لا يسرها ما حدث!

وقد قرأت كلمات لرؤساء المصارف الإسلامية تشرح وظائفها، وعلائقها بالمؤسسات الاقتصادية الأخرى لرى أنها تلقى أضواء على الموضوع كله، فالأستاذ «سعيد لوتاه» رئيس للمصرف الإسلامي «بدي» يقول<sup>(١)</sup>: إن أنشطة هذه المصارف هي الترجمة العملية للنظام الاقتصادي الإسلامي في أبسط صورته، نحن نقوم بدور الوسيط بين المال ورجل الأعمال في كل المجالات، وذلك في نطاق محكم من تعاليم الشريعة، وتقدير عملي حاجات الأفراد، أي إننا نربط الفكر النظري بالواقع.

وفي العلاقة مع البنوك الربوية يقول: هناك فاصل لا يمكن تخطيه! فنحن لا نأخذ فائدة، والربا عندنا محرم في كل قرض سواء للاستهلاك أو الإنتاج.

ويمكن أن نتعامل مع البنوك الأخرى في الحسابات الجارية، وتحويل العملات، وصرف الصكوك «الشيكات» وحسابات «الخصم» وأنواع الكفالات، فهذه كلها أعمال مصرفية جائزة شرعاً.

(١) ينظر بعض قريب من الأصل

ويقول الأستاذ أحمد أمين فؤاد رئيس المصرف الإسلامي الدولي للتنمية والاستثمار - السابق -: إن المال والكون كله، ملك لله سبحانه، وقد استخلفنا الله في هذا المال ليرى كيف نكتسبه وكيف ننفعه، فما يجوز أن نمتلكه من وجه محرم ولا أن ننفعه على نحو سيئ، كما لا يجوز أن يكون تداول المال في المجتمع على نحو يزلزل قواعد الأخلاق ويهدد كرامة البشر، فالمال أداة لخدمة الإنسان وليس الإنسان عبد المال..

والفروض أن يكذح المرء ويتحاطر؛ لينجح لا أن يحاول الربح دون جهد يذكر.. والمصارف الإسلامية هي تعطي المال لطلابه تشارك في رسم الخطوة وتقدير الظروف وتحمل المسؤولية، أما البنوك الربوية فهي تتصل من هذا كله، وتحتمي وراء ضمان الفائلة وحسب!

وقد كان نتاج الأسلوب الربوي مريعاً، وانطبق عليه قوله تعالى:  
﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ (١)

كيف كان هذا المحق؟ تنظر إلى الدول المدينة والدول الدائنة على مدى أربعة أجيال من القروض الدولية!..

إن الدول النامية - المقترضة - تتلحرج من سبي إلى أسوأ، وما هي ذى قد أوفقت برامج التنمية وعجزت عن سداد الأقساط، والفوائد المقررة، ويوشك أغلبها أن يعلن إفلاسها.

أما الدول الدائنة فقد كانت فرحة بقدرتها على الإقراض وفرصتها في أكل الربا.. ثم ذاقوا وبال أمرها بعد تدهور أحوال المدين، وظهر عجزه.

حتى إعادة جدولة الديون لا تحقق خيراً، فإن هذه إعادة تؤدي إلى خسارة ٨٠٪ من القيمة الأصلية للدين..

ولو طبقت الأنظمة المحاسبية على هذه المؤسسات لأعلنت إفلاسها.. ليس هذا هو الحق الذي توعد القرآن به المرابين؟..

(١) لقبة: ٣٧٦.

## ٦١. ما هي حدود الكسب الحلال في التجارة؟ وكيف يضع الشارع حداً لأرباح التجار؟

التجارة باب عظيم من أبواب الثراء في الدنيا كما هي ميدان فسيح للنشاط العمراني، وتتقل الخيرات بين أرجاء الأرض .  
والمعجب أنها كذلك باب عظيم إلى الثراء في الآخرة ورفعة المكانة عند الله ، وحسبنا في ذلك قول الرسول الكريم :

«التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» ..

وقد وقفت ملياً أمام حديث آخر يشيد بخلق السماحة والرحمة في معاملة التاجر لغيره ، ويهزني ماذكر من مشوبة لهذه الخلال ، فمن حذيفة وأبي مسعود البدرى أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً من كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ! فقال له : هل فعلت من خير؟ قال : ما أعلم ... ! قيل له : انظر ... ! قال : ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا فأناظر الموسر وأتجاوز عن المعسر! .. فأدخله الله الجنة» ..

والمعروف أن قوم النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يشتغلون بالتجارة ، بل لعلها كانت مصدر رزقهم وعماد معاشهم ، وكانت حركتهم ناشئة بين اليمن والشام ، وبين فارس والروم .

وقد شارك النبي نفسه في بعض الرحلات التجارية ، وعاش ﷺ من العمل في هذا المجال عمره الأول ، وكذلك كان صحبه .

ولما كان العرب يمسون ويصبحون في هذا الجو التجاري للمشغول بالأرباح والمغامرات فإن لغة الوحي اتجهت إليهم من هذه الزاوية :

﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب آليم (١) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهلون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم؟ (٢) ﴾ .

(١) الصف : ١٠ ، ١١ .

وفي وصف المنافقين ، وعبيد الدنيا ، وطلاب المآرب الخاصة يقول سبحانه : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (١) .

والتجارة على كل حال ينبغي أن تكون شريفة الوسائل ، نبيلة المسالك ، وفي صيحة تحذير من الغش والخداع والجشع يقول الرسول ﷺ :

(إن التجار يبعثون فجراً يوم القيامة إلا من اتقى الله وبر وصدق) ..

ومعروف أن التاجر يشتري السلعة بثمن ما ولكنه عندما يضع لها سعراً للبيع ، يضيف إلى ثمنها الأصلي نفقات النقل والتخزين ، ثم الربح الذي يقيم عليه حياته ، وقد يضيف إلى ذلك زيادة ما لضمان غده ..

إن التاجر ليس موظفاً حكومياً له أجره الرتيب ، وله مدخرات تكفل معاشه بعد ترك الوظيفة ، كلا إن الميدان الذي يعمل فيه يقوم على المخاطرة ، ويدهي أن يحتال التاجر ليحفظ حاضره ومستقبله جميعاً ..

والناس تعلم ذلك ، وترضى به في نطاق الاعتدال ، وإن كان هناك من يغالي في تقدير أجره على تعبه أو يغالي في مستوى العيش الذي ينشدها ..

وفي ربح التجارة يقول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ بينكم ﴾ (٢) .

وللشيخ محمد عبده تفسير غريب لهذه الآية ، فهو يقول : إما استثنى الله التجارة من عموم الأموال التي يجري فيها الأكل بالباطل - أي بدون مقابل - لأن معظم أنواعها يدخل فيه الأكل بالباطل ! . فإن تحديد قيمة الشيء وجعل ثمنه على قدره بقسطاس مستقيم عزيز صعب ، إن لم يكن محالاً ! فالمراد من الاستثناء التسامح بما يكون فيه أحد العوضين أكبر من الآخر وما يكون سبب التعارض فيه براعة التاجر في تزوين سلعته ، وترويضها بيزخرف القول - من غير غش ولا خداع

(١) لقن : ١٦

(٢) الب : ٢٩



[illegible]

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

“...၁၉၄၈ ခုနှစ် ဇူလိုင်လ ၁ ရက်နေ့က နေပြည်တော် မြို့နယ် အတွင်း၌ နေထိုင်သော အမျိုးသမီးတစ်ဦးသည် အသက် ၁၀ နှစ်ခန့်ရှိသော သားတစ်ယောက်ကို မိမိ၏ အိမ်တွင် နေထိုင်စေခဲ့သည်။ သို့သော် မိမိ၏ အိမ်တွင် နေထိုင်စေခဲ့သော သားတစ်ယောက်သည် မိမိ၏ အိမ်တွင် နေထိုင်စေခဲ့သော သားတစ်ယောက်ကို မိမိ၏ အိမ်တွင် နေထိုင်စေခဲ့သည်။”

: من اجله في هذا الاثر والتميز والتميز والتميز

۱۸

وبقي امره وزه الخير وان يتيه الضيق اعني واج الدين وقانون

والسيرة .

والذي يراه الأقباط: الحرية الدينية، والعدل، والرفاه، والسيادة الوطنية.

[illegible][illegible]

နည်းကား ဤကဲ့သို့ အမိန့်ချမှတ်ခြင်း ဖြစ်သည်။

وقد رأى المستوصفون إقبال التجار والزارع من جميع أقاليم البحار ومينائها من يوزع

১৯৫৭ খ্রিঃ...

[illegible]

אשר לא ידעו כי ה' עשיתם להם ויהיו חסידים

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

॥ श्री गणेशाय नमः ॥ श्री गुरुभ्यो नमः ॥ श्री गुरुदेवे नमः ॥ श्री गुरुदेवे नमः ॥

“... 2000 年 12 月 31 日 12 时 59 分 59 秒”

[illegible][illegible]

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

[illegible]

— 49 —

[illegible]

۱- در صورتی که در یک سال دو بار از هر یک از این روش ها استفاده شود، به ازای هر بار ۵ درصد از کل مبلغ وام کسر خواهد شد و اگر در طول مدت بازپرداخت وام، کمتر از یک بار از هر یک از این روش ها استفاده شود، به ازای هر بار ۳ درصد از کل مبلغ وام کسر خواهد شد.

എന്താണ് നല്ല ജീവൻ? ഭരതം.

[illegible]

לכבוד: מר. משה יעקב ז"ל רב: ישיבת תלמוד תורה ירושלים

ရဲဘဲနဲ့ နေထိုင်နေတာ... နဲ့... နဲ့...

ኢትዮጵያን ለሰላምና ለብሔራዊ አባልነት ለማስጠበቅ ለሚያስፈልገው ሁሉም ጥረትና ጥረት ይደግፋል።

1. 2. 3. 4. 5. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100. 101. 102. 103. 104. 105. 106. 107. 108. 109. 110. 111. 112. 113. 114. 115. 116. 117. 118. 119. 120. 121. 122. 123. 124. 125. 126. 127. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 134. 135. 136. 137. 138. 139. 140. 141. 142. 143. 144. 145. 146. 147. 148. 149. 150. 151. 152. 153. 154. 155. 156. 157. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 165. 166. 167. 168. 169. 170. 171. 172. 173. 174. 175. 176. 177. 178. 179. 180. 181. 182. 183. 184. 185. 186. 187. 188. 189. 190. 191. 192. 193. 194. 195. 196. 197. 198. 199. 200. 201. 202. 203. 204. 205. 206. 207. 208. 209. 210. 211. 212. 213. 214. 215. 216. 217. 218. 219. 220. 221. 222. 223. 224. 225. 226. 227. 228. 229. 230. 231. 232. 233. 234. 235. 236. 237. 238. 239. 240. 241. 242. 243. 244. 245. 246. 247. 248. 249. 250. 251. 252. 253. 254. 255. 256. 257. 258. 259. 260. 261. 262. 263. 264. 265. 266. 267. 268. 269. 270. 271. 272. 273. 274. 275. 276. 277. 278. 279. 280. 281. 282. 283. 284. 285. 286. 287. 288. 289. 290. 291. 292. 293. 294. 295. 296. 297. 298. 299. 300. 301. 302. 303. 304. 305. 306. 307. 308. 309. 310. 311. 312. 313. 314. 315. 316. 317. 318. 319. 320. 321. 322. 323. 324. 325. 326. 327. 328. 329. 330. 331. 332. 333. 334. 335. 336. 337. 338. 339. 340. 341. 342. 343. 344. 345. 346. 347. 348. 349. 350. 351. 352. 353. 354. 355. 356. 357. 358. 359. 360. 361. 362. 363. 364. 365. 366. 367. 368. 369. 370. 371. 372. 373. 374. 375. 376. 377. 378. 379. 380. 381. 382. 383. 384. 385. 386. 387. 388. 389. 390. 391. 392. 393. 394. 395. 396. 397. 398. 399. 400. 401. 402. 403. 404. 405. 406. 407. 408. 409. 410. 411. 412. 413. 414. 415. 416. 417. 418. 419. 420. 421. 422. 423. 424. 425. 426. 427. 428. 429. 430. 431. 432. 433. 434. 435. 436. 437. 438. 439. 440. 441. 442. 443. 444. 445. 446. 447. 448. 449. 450. 451. 452. 453. 454. 455. 456. 457. 458. 459. 460. 461. 462. 463. 464. 465. 466. 467. 468. 469. 470. 471. 472. 473. 474. 475. 476. 477. 478. 479. 480. 481. 482. 483. 484. 485. 486. 487. 488. 489. 490. 491. 492. 493. 494. 495. 496. 497. 498. 499. 500. 501. 502. 503. 504. 505. 506. 507. 508. 509. 510. 511. 512. 513. 514. 515. 516. 517. 518. 519. 520. 521. 522. 523. 524. 525. 526. 527. 528. 529. 530. 531. 532. 533. 534. 535. 536. 537. 538. 539. 540. 541. 542. 543. 544. 545. 546. 547. 548. 549. 550. 551. 552. 553. 554. 555. 556. 557. 558. 559. 560. 561. 562. 563. 564. 565. 566. 567. 568. 569. 570. 571. 572. 573. 574. 575. 576. 577. 578. 579. 580. 581. 582. 583. 584. 585. 586. 587. 588. 589. 590. 591. 592. 593. 594. 595. 596. 597. 598. 599. 600. 601. 602. 603. 604. 605. 606. 607. 608. 609. 610. 611. 612. 613. 614. 615. 616. 617. 618. 619. 620. 621. 622. 623. 624. 625. 626. 627. 628. 629. 630. 631. 632. 633. 634. 635. 636. 637. 638. 639. 640. 641. 642. 643. 644. 645. 646. 647. 648. 649. 650. 651. 652. 653. 654. 655. 656. 657. 658. 659. 660. 661. 662. 663. 664. 665. 666. 667. 668. 669. 670. 671. 672. 673. 674. 675. 676. 677. 678. 679. 680. 681. 682. 683. 684. 685. 686. 687. 688. 689. 690. 691. 692. 693. 694. 695. 696. 697. 698. 699. 700. 701. 702. 703. 704. 705. 706. 707. 708. 709. 710. 711. 712. 713. 714. 715. 716. 717. 718. 719. 720. 721. 722. 723. 724. 725. 726. 727. 728. 729. 730. 731. 732. 733. 734. 735. 736. 737. 738. 739. 740. 741. 742. 743. 744. 745. 746. 747. 748. 749. 750. 751. 752. 753. 754. 755. 756. 757. 758. 759. 760. 761. 762. 763. 764. 765. 766. 767. 768. 769. 770. 771. 772. 773. 774. 775. 776. 777. 778. 779. 780. 781. 782. 783. 784. 785. 786. 787. 788. 789. 790. 791. 792. 793. 794. 795. 796. 797. 798. 799. 800. 801. 802. 803. 804. 805. 806. 807. 808. 809. 810. 811. 812. 813. 814. 815. 816. 817. 818. 819. 820. 821. 822. 823. 824. 825. 826. 827. 828. 829. 830. 831. 832. 833. 834. 835. 836. 837. 838. 839. 840.

1. *Handwritten text in a cursive script, likely a signature or name.*

• • • • •

[illegible]

5. 1941. 1942. 1943. 1944. 1945. 1946. 1947. 1948. 1949. 1950. 1951. 1952. 1953. 1954. 1955. 1956. 1957. 1958. 1959. 1960. 1961. 1962. 1963. 1964. 1965. 1966. 1967. 1968. 1969. 1970. 1971. 1972. 1973. 1974. 1975. 1976. 1977. 1978. 1979. 1980. 1981. 1982. 1983. 1984. 1985. 1986. 1987. 1988. 1989. 1990. 1991. 1992. 1993. 1994. 1995. 1996. 1997. 1998. 1999. 2000. 2001. 2002. 2003. 2004. 2005. 2006. 2007. 2008. 2009. 2010. 2011. 2012. 2013. 2014. 2015. 2016. 2017. 2018. 2019. 2020. 2021. 2022. 2023. 2024. 2025. 2026. 2027. 2028. 2029. 2030. 2031. 2032. 2033. 2034. 2035. 2036. 2037. 2038. 2039. 2040. 2041. 2042. 2043. 2044. 2045. 2046. 2047. 2048. 2049. 2050. 2051. 2052. 2053. 2054. 2055. 2056. 2057. 2058. 2059. 2060. 2061. 2062. 2063. 2064. 2065. 2066. 2067. 2068. 2069. 2070. 2071. 2072. 2073. 2074. 2075. 2076. 2077. 2078. 2079. 2080. 2081. 2082. 2083. 2084. 2085. 2086. 2087. 2088. 2089. 2090. 2091. 2092. 2093. 2094. 2095. 2096. 2097. 2098. 2099. 2100. 2101. 2102. 2103. 2104. 2105. 2106. 2107. 2108. 2109. 2110. 2111. 2112. 2113. 2114. 2115. 2116. 2117. 2118. 2119. 2120. 2121. 2122. 2123. 2124. 2125. 2126. 2127. 2128. 2129. 2130. 2131. 2132. 2133. 2134. 2135. 2136. 2137. 2138. 2139. 2140. 2141. 2142. 2143. 2144. 2145. 2146. 2147. 2148. 2149. 2150. 2151. 2152. 2153. 2154. 2155. 2156. 2157. 2158. 2159. 2160. 2161. 2162. 2163. 2164. 2165. 2166. 2167. 2168. 2169. 2170. 2171. 2172. 2173. 2174. 2175. 2176. 2177. 2178. 2179. 2180. 2181. 2182. 2183. 2184. 2185. 2186. 2187. 2188. 2189. 2190. 2191. 2192. 2193. 2194. 2195. 2196. 2197. 2198. 2199. 2200. 2201. 2202. 2203. 2204. 2205. 2206. 2207. 2208. 2209. 2210. 2211. 2212. 2213. 2214. 2215. 2216. 2217. 2218. 2219. 2220. 2221. 2222. 2223. 2224. 2225. 2226. 2227. 2228. 2229. 2230. 2231. 2232. 2233. 2234. 2235. 2236. 2237. 2238. 2239. 2240. 2241. 2242. 2243. 2244. 2245. 2246. 2247. 2248. 2249. 2250. 2251. 2252. 2253. 2254. 2255. 2256. 2257. 2258. 2259. 2260. 2261. 2262. 2263. 2264. 2265. 2266. 2267. 2268. 2269. 2270. 2271. 2272. 2273. 2274. 2275. 2276. 2277. 2278. 2279. 2280. 2281. 2282. 2283. 2284. 2285. 2286. 2287. 2288. 2289. 2290. 2291. 2292. 2293. 2294. 2295. 2296. 2297. 2298. 2299. 2300. 2301. 2302. 2303. 2304. 2305. 2306. 2307. 2308. 2309. 2310. 2311. 2312. 2313. 2314. 2315. 2316. 2317. 2318. 2319. 2320. 2321. 2322. 2323. 2324. 2325. 2326. 2327. 2328. 2329. 2330. 2331. 2332. 2333. 2334. 2335. 2336. 2337. 2338. 2339. 2340. 2341. 2342. 2343. 2344. 2345. 2346. 2347. 2348. 2349. 2350. 2351. 2352. 2353. 2354. 2355. 2356. 2357. 2358. 2359. 2360. 2361. 2362. 2363. 2364. 2365. 2366. 2367. 2368. 2369. 2370. 2371. 2372. 2373. 2374. 2375. 2376. 2377. 2378. 2379. 2380. 2381. 2382. 2383. 2384. 2385. 2386. 2387. 2388. 2389. 2390. 2391. 2392. 2393. 2394. 2395. 2396. 2397. 2398. 2399. 2400. 2401. 2402. 2403. 2404. 2405. 2406. 2407. 2408. 2409. 2410. 2411. 2412. 2413. 2414. 2415. 2416. 2417. 2418. 2419. 2420. 2421. 2422. 2423. 2424. 2425. 2426. 2427. 2428. 2429. 2430. 2431. 2432. 2433. 2434. 2435. 2436. 2437. 2438. 2439. 2440. 2441. 2442. 2443. 2444. 2445. 2446. 2447. 2448. 2449. 2450. 2451. 2452. 2453. 2454. 2455. 2456. 2457. 2458. 2459. 2460. 2461. 2462. 2463. 2464. 2465. 2466. 2467. 2468. 2469. 2470. 2471. 2472. 2473. 2474. 2475. 2476. 2477. 2478. 2479. 2480. 2481. 2482. 2483. 2484. 2485. 2486. 2487. 2488. 2489. 2490. 2491. 2492. 2493. 2494. 2495. 2496. 2497. 2498. 2499. 2500. 2501. 2502. 2503. 2504. 2505. 2506. 2507. 2508. 2509. 2510. 2511. 2512. 2513. 2514. 2515. 2516. 2517. 2518. 2519. 2520. 2521. 2522. 2523. 2524. 2525. 2526. 2527. 2528. 2529. 2530. 2531. 2532. 2533. 2534. 2535. 2536. 2537. 2538. 2539. 2540. 2541. 2542. 2543. 2544. 2545. 2546. 2547. 2548. 2549. 2550. 2551. 2552. 2553. 2554. 2555. 2556. 2557. 2558. 2559. 2560. 2561. 2562. 2563. 2564. 2565. 2566. 2567. 2568. 2569. 2570. 2571. 2572. 2573. 2574. 2575. 2576. 2577. 2578. 2579. 2580. 2581. 2582. 2583. 2584. 2585. 2586. 2587. 2588. 2589. 2590. 2591. 2592. 2593. 2594. 2595. 2596. 2597. 2598. 2599. 2600. 2601. 2602. 2603. 2604. 2605. 2606. 2607. 2608. 2609. 2610. 2611. 2612. 2613. 2614. 2615. 2616. 2617. 2618. 2619. 2620. 2621. 2622.

مجلس الشورى، ١٩٨٠، ص ١٢٠

حقیقۃً کہ وہ ایک عظیم الشان

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥  
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

[illegible][illegible][illegible][illegible][illegible]

...الحمد لله الذي هدانا لهذا...

הנהגתו כהנהגתו, וכל מה שיהיה, יהיה כפי צרכיו.

[illegible]



ولأشرف هنا موقفًا اضطرر فيه المتكلمون باسم الإسلام ..

إن الإسلام يرفض الانحراف عن الحاكم إذا كان لغرض خيس! نعم هناك قوم ينظرون إلى مقام الحكم باشتهاه ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يستخطون ! ..

ومعارضة هؤلاء للحاكم محفورة منكرة ، لا تكثر بها ، بل قد نشجيبها ..

وهناك معارضون أغبياء ، يهدمون من أجل شيء تانه بنيانا قائمًا ، ولا يلدرون شيئًا عن عواقب الأمور ، تأملت في ثورة الخوارج على بن أبي طالب ، إن قرار التحكيم الذي قبله لم يعجبهم ، فقاتلوه ؛ حتى قتلوه ، وانتهى قردهم بقيام نظام ملكي أجهز عليهم دون رحمة !! ..

ماذا عليهم لو قبلوا القرار ، ويقوا مع أمير المؤمنين حتى استقر له الأمر؟ ليس ذلك خيرًا مما حدث ..

وهناك معارضة تضعف الدولة أمام خصومها ، وقد تهدد وجودها ورسالتها ، إن هذه معارضة سيئة بلا ريب ..

وقد رفض الإسلام كل معارضة من هذا القبيل ، فهل معنى هذا إعطاء الحكم الفردي الأعمى ضمانات أبدية لبقائه والدفاع عنه؟ هل معنى ذلك أن الإسلام يسكت عن حكم يقتل الحقوق ، ويذل النفوس ، ويعطل الحدود ، ويستحل الحرمان؟ كلا ..

وأما الآن فتوى جسيمة مضللة تلبس الحق بالباطل ، وتحرف الكلم عن مواضعه ، فتحت عنوان : هل يجوز منازعة الإمام الجائر؟ جاءت هذه الكلمات : « .. ذهبت طائفة من المعتزلة ، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر ، وأما أهل الحق - وهم أهل السنة والأثر - فقالوا : الصبر على طاعة الجائر أولى ، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك ، فقال عياض : وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك كقولهم ﷺ : «اطعمهم ، وإن أخذوا مالك ، وضربوا ظهورك» !! .. وقال الطوطوسي في سراجہ : حديث أبي داود عظيم المرقع في هذا الباب : قال رسول الله ﷺ : «يطلبون منكم مالا يجب عليكم ، فإذا سألوا ذلك ، فأعطوهم ولا تسبوه» .. أي

ندفع لهم ما طلبوا من الظلم ، ولا تنازعهم ، وتكف ألسنتنا عنهم ، وقال ابن العربي : السلطان نائب رسول الله ﷺ (١) يجب له ما يجب لرسول الله من التعظيم والحرمة والطاعة . ويزيد على النبي ﷺ (١) لا بحرمة زائلة ، لكن لعل حادثة بأوجه ، منها الصبر على آذاه ويصبر له عند فساد صلاحه ..

وقيل لملك : الرجل عنده علم بالسنة أيجاهل عنها ؟ قال : يخبر بالسنة ، فإن سمع منه ولا سكنت ! قيل : فينصح السلطان ؟ قال : إن رجا أن يسمعه ! وإلا فهو في سعة .

والواقع أن الجبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تنظر من كلمات هذه الفتوى ، وما تربي إلا أذئابا للحاكمين ، وحوالي للمستبدين ..

وما سقتها إلا لأنها تصور الفكر السائد عند جمهور من المتدينين وهو الفكر الذي حاربه زعماء الإصلاح وأئمة العلم وبينوا بعده السحق عن دين الله .

وما أدرى كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة ، ومقاومة المنكر ! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ! وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم يا ظالم فقد ماتت موتا ماديًا وأدبيًا ..

هل قرأ مصدر هذه الفتوى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَاغْتَسِمُوا الْبَارِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ (٢) .

إننا لم ننصر من عدة قرون ، لشيوع الظلم بين المسلمين ، وكثرة من يداهون الجائرين ويأكلون على موائدهم ! ..

في بنى إسرائيل - وهم من هم - دعا القاضي «كاهان» رئيس الحكومة فمثل بين يديه ، ثم دعاه مرة أخرى وأقنعه إن تأخر ، فجاء رئيس الحكومة طائعًا ، ثم صدر الحكم ضده وضد من معه ..

وقال الناس : يستحيل أن يقع هذا في بلد عربي !! .. وأردفوا ساخرين : للماء

لا يجرى إلى أعلى!.. قلت: وبركات السماء لا تنزل على الأدنى، إن الاستبداد السياسي أعمى للمسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيم من الضياء ماغشيم..

والإصلاح فى الميدان السياسى كالإصلاح فى الميدان العقائدى له رجالة المرموقون..

وهناك الإصلاح فى الميدان الثقافى، وغايته - كما أرى - إعادة الرشد إلى العقل الإسلامى الذى كاد يفقد وهجه بعد غيوبة طالت وتراكمت آثارها، وأمسى المسلمون معها لا يعرفون رأساً من ذنب فى أفق المعرفة الدينية، وأمسوا عالة على غيرهم فى علوم الكون والحياة..

إن الله يبعث رسله من أنفاس السلالات البشرية معدنا، وأحدها ذكاء وفطنة، والغريب فى الأمة الإسلامية أنها كادت تحصر علوم الدين بين الغوغاء والهمل، وتكاد تلاوة القرآن الكريم تكون حرفة لأشباه المتسولين!!.. فهل نجنى من ذلك إلا المرء؟..

ولما كنت جندياً فى جيش الدعاة الإسلاميين فإبنى مضاعف الحس بما يعانى الإسلام من بلبله وغوض فى قضايا شديدة الوضوح، وفى ميدان التربية فوضى آثارها متصوفون، وفى ميدان التشريع فوضى آثارها متفقهون، وفى ميدان التعليم فوضى آثارها قاصرون حتى لا أكاد أقول: ما يبدا الإصلاح إلا من هنا!..

وسواء بدأ الإصلاح ثقافياً أو سياسياً، فإن المسار واحد لا بد أن يلتقى على صعيده المخلصون وإن تباينت نقط الابتداء، وستجنى الأمة منه أطيب الثمر!!..

## ٦٢. ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معينة؟

قبل أن ينتهى أجل الدنيا، وتتلشى الحياة فوق هذا الكوكب ستقع أشياء كثيرة مشرقاً.. بعضها يتصل بالأمة الإسلامية لئى كلفت بهداية العالمين وفرطت فى هذا التكليف! وبعضها يس الناس كلهم، الذين خلقهم الله لعبادته فأنثروا عبادة أنفسهم، وجعلوا إلههم هواهم..

يظهر أن التقدم للمادى سيبلغ الذروة، وأن لغنى سيملا كل يد، وأن الأرض - قبل أن تسلم النزاع الأخير - ستخلى عما فى بطنها!، لمن تدخره؟ يوشك أن تصغر جنباتها! فلزم بنجبتها وفقتها لمن على ظهرها الآن، ومن هنا سيتناول الرعاع فى البنيان، وسيكون ناطحات السحاب، وينعم العبيد بمسوى للعيشة التى عرفت للملوك!..

فذلك ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا نَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ۚ ﴾ (١)

وقوله:

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۚ ﴾ (٢)

أى استمعت لأمره، وحق عليها أن تسمع!..

وتلك ما أشار إليه الحديث الشريف فى علامات الساعة «... ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» وقوله عليه الصلاة والسلام فى هذه الامارات: «... أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العرلة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» وفى رواية «... إذا كان الحفاة العرلة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان».

وقد وهل البعض فى فهم هذه الكلمات، وظنوا الإسلام يكره رياسة الفقراء! وهذا خطأ فاحش، وهل كان العرب حملة الحضارة الإسلامية إلا فقراء يرفعون الغنم؟..

إن المقصود تقدم السفلة بالوسائل الهابطة ، ووصول من لا كفاية له إلى مناصب لا يستحقها ، وهذا مانفهمه من الأحاديث الأخرى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدينيا لكع ابن لكع » أى اللثام الأقنار .

وفى رواية : « لا تقوم الساعة حتى يرث الدنيا شرلوكم » وفى أخرى « لا تقوم الساعة على أحد يقول الله » .

والواقع أن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها ، فإنه يتيح للأوغاد أن يدمروا الأخلاق والأموال وأن يرخصوا الدماء والأعراض .

ويبدو أن الأمة الإسلامية سيشرح فيها هذا البلاء أكثر من غيرها ، فقد صح ، عن الرسول الكريم أنه يَبْتَئَا كان يحدث القوم جاءه رجل فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ فى حديثه حتى إذا قضاه قال : « أين السائل ؟ قال : هانذا يارسول الله ! قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ! قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة !! » .

ومع أن الخيانات الاجتماعية والسياسية ضاربة الجذور فى تاريخنا إلا أنها سترداد فشوا وعرتا فى الأعصار الأخيرة .

هناك حاكم مات أبوه وهو يشتهى ركوب الخمار ! مكن له القدر فأصبح ينتقل بالطائرة ، ولم يكشف بذلك حتى جعل الطائرة تنقل الحلوى لأولاده وأحفاده ، من مال الشعب ! ما اتمس الإسلام بأولئك الحكام !! .

وقد وردت أحداث بين يدى الساعة تحب أن نشرح بعضها من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر كريم ، ونحن للمسلمين نرفض أن يكون إلهاً أو ابن إله ، وكتابنا يقول فيه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (١) .

ثم يقول :

﴿ وَرَأَيْنَاهُ لِعِمِّ السَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَ بَهَا وَأَتِمُّونَ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

وهذا لتلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة ، بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح قال رسول الله ﷺ : « الذى نفس بيده يوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية .. » .

ولماذا ينزل؟ ينزل ليكذب بنفسه من زعموه إلهاً ، وهم جماهير غفيرة .

(١) زفرغرف : ٥٩ .

(٢) زفرغرف : ٦١ .

وفى حديث آخر أنه سينزل بين المسلمين - وهم أتباعه الحقيقيون - فيقاتل معهم الصليبيين ، حتى يهزمهم ، ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله ، قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق طاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول له أميرهم : تعال صل بنا - يعرض عليه إمامة للمسلمين - فيقول عيسى : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمه الله تعالى لهذه الأمة » .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات ، وأن عيسى لن يجرى ويجديدا .. وظاهر القرآن أن عيسى ملت ، والقول بأنه حى فى مكان ما أو فى السماء لا دليل له ، ولا يمنع ذلك من أن يحييه الله مرة أخرى كما أحيا عيسىأ آخرين ، ليقوموا بعمل له خطرها وهذا رأى أهل الظاهر عندنا ، وهو عندى أرجح من القول بأنه حى الآن ..

ومن الأحداث المروية بين يدى الساعة ظهور الدجال الأكبر الذى يختم طائفة من الدجالين الكذبة أدعياء النبوة والمهذية الذين يزعمون أن لهم بالله علاقة ، وأنهم يتحدثون بوحى منه ! . وفى الحديث : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله » ..

والدجال الأخير رجل من اليهود أوتى علماً وقدره ، وربما ادعى الألوهية ، وليس ذلك غريباً فإن المدعو بالبهية ، زعم أن الله حل فيه ، وأنه مجلى الألوهية الهادية ، وأن إنكار ذلك نوع من الكفر الذى حذر منه القرآن فى الآية الكريمة :

﴿ ... وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (١) .

فالتفريق علم الإيمان بالحلول (٢) .

وفى السنة تحذير من الدجال ومخرقه ، وتخوف من أتباعه ، ولفت إلى أنه سيكون شخصاً أعور مقبوح الهيئة ..

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فتنة هذا الدجال تحتاج إلى بحث خاص ، والذى يهمنى هنا حديث : « إنما أخاف على أمتى الأئمة الفضيلين » .. وفيه ... أنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذاباً كلهم يدعى أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدى .

العهد للكتشير ، والذين ادعوا أنهم أصحاب وحى كى يقودوا الناس باسم الدين - جم غفير وليس بعد خاتم المرسلين وحى ! ، إن المختالين باسم الدين أكثر من المختالين طلباً للدنيا ، ويغلب أن يلتفت بهم أتباع واهمون مسحورون ينسبون لهم خوارق عادات ، ويطلبون لهم طاعة عمياء وديننا قوامه العقل ومعجزته إنسانية خالدة .

(١) الشاء : ١٥٠ .

والأئمة المفلون هم الخلفاء الظلمة والملوك المستبدون ، وهؤلاء منذ ظهوروا بدأ خط الانحراف فى تاريخنا فانفصل العلم عن الحكم أو انفصلت السياسة عن الثقافة .

ثم انتشعبت للمعرفة الدينية شعبتين بعد ما توحدت زمانا ، فإذا متصرفون لا فقه لهم ، وفقهها لا قلوب لها ، ثم مضى الانحراف إلى مدها فإذا المتصرفون يفقدون الإخلاص والتجرد ويسون أصحاب مراسم وشيوخ طرق ، وإذا الفقهاء يخلفون بعلمهم مقلدين لا يذوقون حكمة نص ، ولا يحسنون الاجتهاد لنائلة ! .

وصحب هؤلاء وأولئك قصور شائن فى علوم الحياة وشئون الدنيا فكان لابد أن تركع الأمة أمام أعلامها بعد ما انهارت ماديا وأديبا ! وأذكر أن صديقا قال لى : إن الأوروبيين والأمريكيين يكرهون اليهود ، ولكنهم يحقرون العرب !! وماذا لدينا يستدعى الاحترام ..

فى تلك الحال يذكر حديث عن رسول الله ﷺ ، يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن ؟ قيل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت ! .

ومن علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت وأهأ الناس أمموا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن أو هنت من قبل أو كتبت فى إيمانها خيرا ..

إن الرتبة التى يتسم بها النظام الكونى خدعت البله فلم يصرروا الرب للمدير ، والسيد للشرف ، فأخذوا يقولون : هذه طبيعة الأمور وكان ينبغي أن تكون لهم قلوب يفقهون بها . فلما زالت الرتبة الملوقة صاحوا دهشين : عرفنا صاحب هذا النظام المحكم !! .. وهيهات هيهات ! . إنه لا قيمة للاحتجاج بعد ما انكشفت الأسئلة ..

بعد هذا الانقلاب الفلكى لا يقبل من كافر إيمان ، ولا من فاسد صلاح ! .. وطلوع الشمس من مغربها أو من مشرقها سواء لدى القدرة العليا ، فإن الكواكب المتهايدة فى قضائها ، تتحرك وفق مشيئة خالقها ومسخرها ، بإذنه تنطلق ، ويمشيتها تنطفئ يوم يسلبها نورها وحرارتها .

متى تلك؟ عند قيام الساعة ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) وإذا النجوم انكدرت (١) .

(١) التكوين : ٢٠ .

## ٦٤. هل ينبغي فى عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟..

يظن كثير من الناس أن هذا العصر ليس عصر الأديان ، بما توحى به كلمة دين من تعصب خاص ، وأفق محدود ، ورباط بالماضى ، وبحجم لا لم تألف !! .. ويقولون : هذا عصر الإنسانية العامة ، ذات العالم المطلقة والانفتاح على الآخرين . إنه عصر هيئة الأمم ، والميثاق العالمى لحقوق الإنسان ، والدعوات التى تتسامى على الاجتناس والألوان والقوميات والأديان! ..

والواقع أن التفكير السائد هو أن القرن الخامس عشر للهجرة أو العشرين للميلاد هو القرن الذى انسحبت فيه الأديان ، وتركزت الزمام لمبادئ أخرى تقود العالم ، وعلى للتدنيين الاكتفاء باللقاء العاطفى فى معابدهم وعدم شغل الناس بقضاياهم القديمة . هذا الكلام خدعة كبرى لا أصل لها ، بل هو زيف من ألغى إلى يائه ، وأستطيع أن أكرر ماقلته فى مناسبات شتى إن هذا العصر هو العصر الذهبى للأديان كلها ماعدا الإسلام ..

وأخشى أن يكون ترديده من مكر الطوائف الأخرى بنا ، حتى تبنى وجودها على رفاقنا ، وتستطيع أن تملأ الفراغ الحادث بعد زعنا بنا ..

إن هذه الأيام العجيبة تشهد انطلاق أديان كانت مقيدة وعقائد كانت جامدة ، بل لقد تحرك مزوها من كان أمه أن يدفع العار عن نفسه ، وحسبه أن يظفر بعق الحياة المجردة .

لننظر إلى اليهودية التى سلحت من عمر الزمان فوق ثلاثين قرنا ، هل وجدت أزهى من هذا العصر؟ إن العالم أجمع يستمع إليها ، وينتص لأسلوبها فى عرض الأمور ..

هل استطاعت اليهودية خلال عشرة قرون أو عشرين قرنا أن تجمع قلوبها من أقطار الأرض ، وأن تقيم لها دولة على أنقاضنا؟ وأن ترفض بصلف رجاء الراجحين أن تسمح للعرب بإقامة دولة إلى جوارها؟ ..

لقد انتهت قصة اليهودى الثالثة ، وبذلك قصة العربى الثالثة ..

بدأت مأساة لاجئين ، جهمتهم الكبرى من المسلمين ، بطاردون من قطر إلى قطر ؛ لأن «هويتهم» سرفت منهم تحت الشمس ، ومنحتها هيئة الأم لأبناء التوراة ، ورأت ذلك هو الإنسانية الصحيحة ..

أفذلك ما تكلف بقبوله وإلا حصرنا مسلمين متحصنين ؟ نعمل ضد الإنسانية ! ألا فيجأ لهذا المنطق ..

وكانت النصرانية حتى مطلع هذا العصر نجر وراءها تركمة مثقلة من الخصام الدامى بين العلم والدين ، لقد قتلت العلماء وعوقت التقدم العلمى ، ومشت على أشلاء الضحايا من طلائع الفكر الإنسانى .. ورأت دول الغرب نفسها أن تقلم أظفارها ، وتسمع لها بالعيش بعيداً عن كل نشاط ذى بال !! .

وبغية تغير الوضع كله ، وأصبحت النصرانية سيدة الموقف وانعقد صلح وارف الظلال بينها وبين شتى الحكومات فى أوروبا وأمريكا ..

ورأينا «بابا روما» ينطلق من قلعته فى «الفاتيكان» إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ليجد الألف انحدود تنتظره ، ورؤساء الدول فى شرف استقباله ، ومن مرت بهم طائرته أرسلوا إليه فى الجوع تحيات عطرة !! ..

فإذا خطب فى «نيجيريا» وأكثر من تسعة أضعافها مسلم تناول بالضيقة قضية تعدد الزوجات ، وأوما إلى منافاتها الأخلاق (1) وهو يعرف أن العالم الغربى غارق فى الحنا إلى أذنيه .

إن مهاجمة الإسلام هدف إنسانى .. وفى سبيل ذلك رأينا تعاوناً وثيقاً منظماً بين «الكاثوليك» الإنجلييين و«الأرثوذكس» عظام يتعاونون؟ على إخماد الصخرة الإسلامية التى لاحت فى أقطار كثيرة !! ..

وفى سبيل تلك الغاية الإنسانية اتسع نطاق التعاون ليشمل اليهود !! ..

وتذكرت قول «تشرشل» لما حالف الروس الشيوعيين ضد الألمان المسيحيين : إننى مستعد للتخلف مع الشيطان ضد عدوى !! ..

وروجعت إلى تاريخ البعثات التنصيرية فقرأت هذه المقطعات للمطران «نيل» وهو يتحدث عن جهود الصليبيين فى العصور الوسطى للتعاون مع المغول على ضرب الإسلام قال : «... عندما سمع العالم الغربى للمرة الأولى عن غزو التتار للعالم

الإسلامى ، استقبل هذه الأنباء بانشرح ؛ لأنه إذا استطاع النصارى التحالف مع القوى المغولية على ضرب الإسلام من الخلف أمكن الخلاص بصورة نهائية من خطر المسلمين ، وقد يكون من الأفضل أن يدمر هذان العدوان بعضهما الآخر ، فستصبح الكنيسة بعدئذ الخيار الأفضل ، وذلك ما جعل المطران «وينشستر» يقول للملك هنرى الثالث ملك إنجلترا ما نصه «يدير هؤلاء الكلاب بعضهم بعضاً ، وليصف كلاهما الآخر» وعندما سترى الكنيسة الكاثوليكية العالمية تتأسس على أطلالهم ..

يقول محرر مجلة الأمة تعليقا على هذه النصوص : «إن بعض السذج من المسلمين يعجبون للتواطؤ القائم بين الشيوعية والصليبية على ضرب الإسلام ، والذى ظهرت آثاره فى زنجبار وتنجانيقا والسودان والحبيشة وأوغندا وفلسطين .. إلخ . لا يمكن للعجب ، فالتاريخ يعيد نفسه وأحداث العصر تآفل كل المائلة ما نقلناه آنفاً على نسان المطران نيل .. لم يتغير إلا الوقت ، أما الحق الكامن ، والجهل المنعصب ، والنفوس المتنوعة والميول العدوانية فهى هى مازالت فى القرن العشرين كما كانت فى القرن العاشر ، وما قبله وما بعده ..

ولنترك جيراننا أهل الكتاب ولننظر بعيداً إلى ديار البوذية والهندوكية ، إن الديانتين الوثنيتين فى عصرهما الذهبى الآن ما يلفتنا هذه الذروة يوما ما .. !! .

يعرف دارسو الملل والنحل أن بوذا لم يرفع بصره يوماً إلى السماء لا داعياً ولا خائشاً ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالأرض وما عليها وقد وضع لأتباعه تعاليم حسنة ليعيشوا بها ! .

فلما مات جعله هؤلاء الأتباع إلهاً ، وجعلوا تعاليمه تورا وأنجيلاً وقرآناً ، وأصبحت البوذية ديناً ما أغرب نقائص البشر !

ورأيت القباب الذميمة فى الفضاء تحتها تماثيل لبوذا جالسا بفكر ! والألوف من العابدین يزلفون حوله ، إن الدول الغربية أعانت هؤلاء على مطاردة الإسلام وطى رايانه عن أقطار كثيرة ، فالوثنية - من الناحية الإنسانية - أفضل من الإسلام !! ..

أما الهناك فهوايتهم المنفضلة مطاردة المسلمين حيث كانوا ! إنهم يقدسون الأبقار والفردة ، بل الجرائيم الشئ الذى يستحق الموت هم المسلمون ، وأقرأ الآن وأنا أكتب هذه السطور - كيف قتل أكثر من خمسة آلاف طفل وامرأة رعياء بالسهم

أو ضرباً بالفتوس أو حرقاً بالنيران ، مما جعل مئات الألوف تفر حذر الموت إلى جبال «الهيمالايا» ، ذلك كله في ولاية واحدة ، ولاية «آسام» .  
تلك هي الإنسانية في عصرنا الحديث! إن رتين الكلمة المزيفة يقرع الأذان ، ويشير الغثيان! ..

إنتي باسم الإسلام وأسمه على استعداد كامل للحقولة بهذه الكلمة يوم تكون عنواناً له موضوع ، وعندما أفعل ذلك فأنا أوفى لديني ولا أخرج عليه ، بل أعد من الولاء لديني أن أحسن الحسن ، وأفصح القبيح ، وأدفع عن المظلوم ، وأنشر الرحمة ، وأقيم العدل ، وأرق للحيوان بله الإنسان أيا كان لونه ودينه!! .

إنتي أعرف من ديني أن الله يقبل دعوة المظلوم ولو كانت من كافرا ..  
وأعرف من ديني أن حلفاً شريعياً في الجاهلية الأولى ، قال النبي الكريم عنه : «دعيت به في إسلام لأجبت»!! .. إنه حلف الفضول ، للحفاظ على الحقوق وللمجدة المستضعفين ..

وعلى ضوء ذلك أعلن احترامي الشديد للجنة العفو الدولية التي تقف بجهدنا ضد العدوان ، وتكشف أصحابه ، وتؤلب عليهم ذوى الضمائر الحية في هذه الدنيا ..  
وأؤيد من أعمامي حسن معاملة الأسرى وأعلن الحرب على الرق الفردي والجماعي وعلى التفرقة العنصرية بجميع صورها .

معنى أنني مسلم أنني أعتنق ديناً طبيعياً ، يحترم الفطرة البشرية ونوازعها الطيبة ويحترم العقل الإنساني وأحكامه للمنطقية ، ويتوقع الخطأ ولا يحكم على مقترفيه بالموث ، بل يمهده له طريق التوبة ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، ويلاحظ حكم القدر في اختلاف الأديان فيدعو إلى رآيه بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفض الفتنة والقسوة ..  
تلك هي الإنسانية التي تحبها ونراها امتداداً لرسالة الله ، ومردافاً للإسلام ..

## ٦٥. أصبح أن الفتوح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟

لاريب أن الفتوح الإسلامية كانت شيئاً خارقاً للعادات ، ولو أنك سلكت أعرابياً قبل بعثة محمد أو إثنائها : هل تفكرون في غزو فارس أو الروم؟ تظن بك مسا !!  
إن هذا لايريد أحلام النيام! إنه كالمهبط إلى القمر بشير وسائل علمية!! ..

لكن الواقع الذي لايمكن إنكاره أن العرب - بعد ما أسلموا - هزموا الفرس والروم معاً في جبهتين متعاصرتين ، واحتلوا بلادهم في وقت واحد! ..

إن القبائل الهائمة على وجهها في صحراء الجزيرة قامت لها فجأة دولة تحت علم التوحيد ، لم تسلك من عمرها بضع سنين بعد وفاة صاحب الرسالة حتى شرعت تصارع الدولتين العملاقتين ، وتلحق بهما هزائم أبدية! ..

ماذا حدث في دنيا الناس؟ إنها معجزة ما عرف خيرها إلا محمد وحده ، الذي أقسم بربه أن تنفق كنوزها في سبيل الله قال عليه الصلاة والسلام : «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فوالذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله تعالى»!! ..

إن الإنسان الملمم العابد المجاهد هو صاحب هذا التغيير الحاسم في تاريخ البشر ، لقد جعل القمم سفوحاً والسفوح قمماً ، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول إلى أعلى السلم بالعلم والتربية ، وأن الملوك يتحولون إلى عبيد بالتزلف وللعصية .

ولقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمدًا وحده هو الإنسان الأول أو القمة الأولى في تاريخ الحياة من أزلها إلى أبدها ..

غير أن أغلب المستشرقين أبى الاعتراف بهذه الحقيقة ورأى أن يلتمس تفسيراً لما حدث فقال : إن جغرافياً سيئاً حل بجبرية العرب على عهد البعثة المخمدية وعقبها جعل العرب يتحولون إلى جيواناتهم زرافات ووحيدان يطبقون القوت ، ويفرون من الجماعة إلى أرض الهلال الخصيب في سوريا والعراق! .



ويبدو أن خبر هذه المجاعة العربية نفي إلى المستشرقين وحدهم فلم يذكره أحد من الناس .

ولنفرض جدلاً أن مجاعة وقعت هل إذا حل حطط بسويسرا أغارت عسكرياً على روسيا ولولايات للتحلة إشفاه القوت؟ للمأقلت : سويسرا؟ هل إذا حل حطط بالكونغو نواش للدولتين العظميين في العالم ، واحتل أرضهما سعياء وراء الرزق؟ هنا تفكير سكارى .

ثم تذكرت أن في كتبنا القديمة كلاماً قد يكون من وراء هذا الهذيان ، قرأت في وصف إحدى المعارك بفارس أن المسلمين بعد انتصارهم استولوا على غنائم كثيرة من بينها فطائر ورفاق ، فقال أحد الجنود : لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذا الرقاق!! ..

قلت ساعتها : هذه نكتة مثل ما يصدر عنا نحن المصريين من دهابات! ولم أكن أدري أن الأب لا مانس ، سيخخذ من هذا الكلام دليلاً على أن الفتح العربي آسبياً اقتصادياً!! ..

ومثل ذلك ما قاله فرستم للمغيرة بن شعبة في أثناء المفاوضات بين الفرس والعرب : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيككم ماتشبعون به ، ونصرفكم ببعض ما تبغون ، وهذا كلام هزل! فإن رستم يعلم أن كتاباً جاء سيده كسرى من يضع سنين يدعو إلى الإسلام ، مرسله هو محمد عليه الصلاة والسلام وأن أتباع هذا النبي جاءوا اليوم بالدعوة ذاتها ، وهم مستعدون للعودة إلى بلادهم إذا ما اتفقت الفرس بها .

فما مكان هذا الطعام للمروض؟ ومن الذى طلبه؟ ومن الذى يقبله؟ إنه كلام هزل! .

وكتب التاريخ لدينا تروى الفث والسمين ، وقد نيه الطبرى قراءة إلى ذلك ، حتى لا يخذعوا بكل ما يربوه ، ولو صدقنا جدلاً ما حكاها الطبرى - بسند تافه - أن خالد بن الوليد قال لرجاله : ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب؟ بالله لو لم يلزمننا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقتارع على هذا الريف حتى تكون أولى به! ونولى الجوع والإفلال من تولاه من أناتل عما أنتم فيه!! ..

إن هذا الكلام - لو صح - لكان ضرباً من المزاح أولفت النظر كى مافى أبهى الكافرين من نعماء ليسوا أهلها ؛ لأنهم لم يشكروا الله عليها ، ولم يؤدوا حقه فيها . .

ويستحيل أخذ العبارة على ظاهرها القريب ؛ لأن الأكلة قائمة أمام حيون المؤمنين على أن القتال طلباً للقيمة جربة ، وأن الجرمين لا يفتح لهم ولا يفتح عليهم ، فمن أبى هزيمة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يتعفى عرضاً من الدنيا فقال : « لا أجر له ؛ فأعاد عليه ثلاثاً ، كل ذلك يقول : لا أجر له . .

وروى مسلم في صحيحه خبر أول ثلاثة يدخلون النار يوم القيامة ، وبعد أن ذكر القارئ الرأى والمتصدق قال : « لم يهتفى بالذى قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : لبعماذا قتلت؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقتلت حتى قتلت : فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت! يقول الله له : بل أردت أن تقتل : فلان جرىء! وقد قيل ذلك! ثم ضرب رسول الله على ركة أبى هزيمة فقال : يا باها هزيمة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة! ..

قال شفى الأصبحى : فأخبرت بهذا الحديث معلومة ، فبكى بكاء شديداً حتى ظن أنه هالكا! وقال : قد فعل هؤلاء ذلك فكيف بمن بقى من الناس؟ وتلا قوله تعالى :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿ (١٦) .

إن الصحابة جميعاً ، والتابعين معهم ، يعلمون أن القتال طلباً لغنم دنيوى مهلكة للدين ، ومن ثم خرجوا للجهاد ، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا ، مقبلة على طلب الآخرة ، وذلك سر فلاهم ونصرهم على عدوهم ! .

هناك عقد فادح الشمن بين المؤمنين وريهم ولكنه جليل العوض ، يقدمون حياتهم له وينتحم الجنة في مقابله ، ومن طلب عظيماً عاطر بعظيمته ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ (١٧) .

إن الإيمان حول أصحابه إلى لازل وبراكين أتت على الشرك من القواعد! فإذا قيل : يا خيل الله اركبى ، وإلى الله ارجعى . . وأبى الرجال يتسابقون إلى الموت موثقين بأن بعده الجنة . .

وقد يكون أحدهم شيئاً كبيراً أثقلت جسمه السنون ، فإذا سمع النداء تحامل على نفسه ليؤدى واجبه ، فيقول له بنوه إن الله عذرنا ونحن نجاهد عنك! فيقول : كيف علمتني وهو القتال :

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ (١).

إن الشاب والشيوخ ، للثقل والخف ، سواء في ضرورة الجهاد الحق أن الوثنيات الدينية والسياسة والاقتصادية لم تجد ثواباً أشجع ولا ذراعاً أشد ، من فؤاد محمد وزعامة .

لقد حشد ضلها الجميع ، ورمى طواغيتها بالأبطال ، وأخذ يقول لهم : « من قاتل في سبيل الله فإنا نأثقه وجبت له الجنة... رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل... ما من مكلم ، جريح ، يكلم في سبيل الله إلا جاءه يوم القيامة وكلمه ، جرحه يدهمى ، اللون لون الدم والريح ريح المسك... لا يجتمع كافر وقاته في النار أبداً! لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم ولا يجتمع في قلب عبد الإيمان والمسك... سيأخذ أمتي الجهاد في سبيل الله... ألا أخبركم بخير الناس؟ وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله ، على ظهر فرسه أو ظهر بعيره ، حتى ياتي به الموت ، وأن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله لا يرفع يديه عن شيء منه! » .

يقول المغيرة بن شعبه للفرس : أخبرتنا نبينا ﷺ عن رسالة رتنا : « أنه من قتل منا صار إلى الجنة! فتعز أحب في الموت متم في الحياة! » .

بهذه التوجيهات وتلك المشاعر بدأ الهجوم على قوى الكفر والعدوان ، فإذا الدول الكبرى التي غلبت الزمن وطاولت التاريخ ترتع وترجع ثم تهوى! .

وجماعة المستشرقين دون مستوى الوعي بهذه الحقائق ، فهم ما عرفوا - في ظل الاستعمار إلا حروب النهب والسطو ، والأحقاد والأطماع ، ولذلك يتحدثون عن محمد وصحبه حديث السكاري عن الملأ الأعلى ..

ثم ظهر بدع مضحك يقول للناس : إن العروبة من وراء الفتح العظيمة في فارس والروم! أي عروبة؟ كان العرب غربي فارس أذنانا لكسرى واسمهم المنافرة ، وكانوا جنوبي الروم أذنانا لقيصر واسمهم الفساسنة ، وكانوا في قلب الجزيرة يسمعون عن الروم والفرس كما يسمعون الحمائل عن ركاب الدرجة الممتازة في السكك الحديدية!! إن العرب قبل الإسلام ومن غير الإسلام ما كانوا شيئاً ، ولن يكونوا شيئاً وسنزيد ذلك بيانا في الإجابة التالية .

## ٦٦. يدرس الآن في بعض الجامعات أن القومية العربية

هي العامل الأول في نجاح الفتح الإسلامي

وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة في هذا القول؟

هذا الكلام أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، بل يمكن وصفه بأنه جريمة علمية ومحاولة لتزوير التاريخ وقلب حقائقه .

وقد استمعنا إلى أوصاف محدودة توجه النفوس إلى هذا الغرض ، وتجاوزناها لتفاهتها ، ثم تبين لنا أن هناك خطة مرسومة متعمدة للبلل من الإسلام وتاريخه! .

من ذلك وصف السلطان المظفر قاهر التتار قظر بأنه بطل القومية العربية (١) .

والرجل ما عرف قط هذه الكلمة ، ولا خطرت له ببال ، فهو - باسم الإسلام وحده - قاد المسلمين من عرب وترك والمواجهة التتار ووقف تقدمهم إلى مصر ، وكان حماسه لدينه وحب له بارزين في سيرته ، فلما رأى الجيش المصري يضطرب عند الاصطدام بالعدو صرخ صرخته المشهورة ، وإسلاماه فكانت مفتاح النصر ، وسر انكسار التتار للمرة الأولى في تاريخهم العسكري .

ومعروف أنه من تركستان لا من جزيرة العرب ومع ذلك فقد كتب على مسجده أنه بطل القومية العربية!! .

ومثل تلك الكتب وصف صلاح الدين الأيوبي بأنه بطل العروبة! والرجل مسلم كرس الأصل دعاه دينه وإخلاصه لله ورسوله إلى محاربة الصليبيين حتى أجلاهم عن بيت المقدس وأعاده للحرب المطروحين منه وذلك باسم الإسلام الذي لا يعرف غيرا . . . والواقع أن فكرة القومية عرفت أوروباً في القرنين الأخيرين فقط ، ثم نقلها الاستعمار الثقافي إلى بلادنا لطبع بوحدتها الكبرى ، فالقول بأن العرب عرفوها وقاتلوا باسمها الروم والفرس ضرب من الهراء الموهل في السخف . .

ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية أن العرب المنتصرين سواء من كان منهم تابعاً للروم ، أو الفرس ، أو قاطنا شمالي جزيرة العرب ، هؤلاء كانوا من أسوأ الناس معاملة للمسلمين ، وغاملاً عليهم . .

فرسل النبي ﷺ إلى اللوك والأمراء ، عادوا جميعا إلى المدينة سالين ، فلم يقتل إلا الرجل الذي بعث إلى الأمير الفسائي المنتظر شرحبيل بن عمرو ، وهناك أمير عربى نصرانى آخر شرع يعد العدة لهاجمة للمسلمين فى المدينة ما عجل بمركة مؤتة . .

ويذكر التاريخ أنه عندما أمر النبي ﷺ بقطاعة كعب بن مالك ، أحد الثلاثة الذين خلفوا فى معركة تبوك ، أرسل إليه الأمير النصرانى يستضيفه ويغريه بترك المدينة ونبد الإسلام . .

وقد ارتد إلى النصرانية جيلة بن الأيهم وأبى قبول الاقتصاص منه فى مخالفة ارتكبتها وأثر ترك العرب والمسلمين والدقاق بالروم ، فأين منطق القومية فى هذه الأحداث كلها؟ .

إن العرب النصراني لم يذخروا جهداً فى النيل من الإسلام ووقف تقدمه مؤيدين فى تلك الروم والفرس جميعاً . . .

ونسأل : أكان الروم أو الفرس يكونون للعرب احتراماً؟ كلا ، لما جاء كتاب النبي ﷺ إلى كسرى يدعو إلى الإسلام غضب غضباً شديداً وقال : يكتب إلى هذا وهو عبيد؟ الكلمة نفسها التى قالها فرعون لما عرض عليه موسى وهارون عبادة الله الواحد ﴿أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا غَائِبُونَ﴾ (١).

كان الفرس يحتقرون العرب كما كان المصريون يحتقرون اليهود ، إن الإسلام وحده هو الذى رفع العرب إلى مستوى آخر ، جعلهم أساتذة لملعون الفرس والروم ، ويجادلون نفلهم من الظلمة إلى النور ، فأين هذه القومية التى يفخر بها العرب ، ويردون إليها انتصارهم على الدولتين العظيمين؟ . .

كان عرب العراق يقاومون الفتح الإسلامى مع الفرس ، فلما هزمهم خالد بن الوليد كان يسألهم : أهرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ فأين هذه القومية المزعومة؟ . .

لقد غلبتني الدهشة وأنا أقرأ لأستاذنا<sup>(٢)</sup> جامعى يكتب لطلابه : . . إن العامل الرئيسى للفتوحات الإسلامية هو عامل قومى أساسه نضج قومية العرب وأرتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التى هدتها حركة الردة!!

(١) للمؤمنون : ٤٧ . (٢) كتاب تاريخ الدولة العربية للدكتور السيد عبد العزيز .

هل حركة الردة كانت تهديداً للقومية العربية ، والوحدة العربية؟؟ أم كانت انتفاضا على الإسلام وتكديماً للوحى وهوذا إلى الجاهلية ؟ .

أجدنى مضطراً لصراحة العرب - وهم قومى التائهون - بجملته حقائق ثقيلة .

إننى ألتح مظاهراً ردة أنكى من الردة الأولى تبغى الولاء للجنس وتبغى الولاء للإسلام .

ليكن . فحاجة العرب للإسلام أشد من حاجة الإسلام للعرب ، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

وعندما يقع هذا فسينصب لمساندة الدين قوم أولى بالله منهم ، وأحق بالكرامة ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَقِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٢). ﴿من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزجة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ (٣).

إننى مصرى عربى الإسلام ، ولولا لغة الوحى ما كانت لى صلة بالعرب ، اللغة وحدها لا الدم أو العرق أو الجلد تنمىنى إلى هذا الجنس! وما يسرنى أن أكون حاشيا ، إذ الشرف عندى هو الإسلام وحسب! وكما قيل :

ليس الأعراب عند الله من أحدا . .

والجيل الذى ربه محمد ﷺ هو خير القرون ، وشرف الإنسانية كلها ، لأنه الجيل الذى اعترز بالإسلام وحمل لواءه ، وبلغ رسالته ، والذى رفض أن يقدم على العقيدة أى شئ آخر ولو كان الآباء والأبناء .

لقد كان الوحى الإلهى برنامجه الملتزم ، ونقته الوحيدة ثم خلفت خلفون تقبل الوحى على إغصاض وتكلف وتكره الانتماء إلى الدين وتحب الانتماء إلى العروبة (!) وحدد وزن البشر بإنتاجهم المادى والمعنوى تطيش كفة هؤلاء ، وتود الأرض لو صغرت منهم ، فما يصلحون إلا خلفاء المدافع الغزاة!! . .

لما كان الإسلام ديناً عالمياً فقد دخلت فيه أجناس كثيرة ، استفادت منه وأفادت! ووسعت رفعة على ظهر الأرض ، وعمقت ثقافته وحفظتها وورثتها الأجيال المقبلة ، وبنلت المال والدم فى سبيل عقائدها ، ولا تزال تجاهد دونها إلى يوم الناس هذا .

(١) البقرة : ٢٥٤ . (٢) محمد : ٢٨ . (٣) المائدة : ٥٤ .

وصحابة محمد عليه الصلاة والسلام هم أركى أتباعه وأظهرهم ، وأجلهم والتكرم والتأسي ..

يبد أننا نلاحظ أن العرب حاشا الصحابة وتابعيهم بإحسان - كانوا كالوارث للمعتمد على جهد أبيه ومدخراته ، أخذوا أكثر مما أعطوا ، وتنبعوا من الدنيا باسم الدين ، وطلبوا من الناس أن يحملوهم ويقبلوهم مع الإسلام نفسه (!) ففرصوا خصائصهم العرقية على هدايات الله ، وتقاليدهم الجاهلية والقبلية على حقائق الفطرة ..

فكان للملك العضوض أيام الأمويين! وكانت الخلافة الكاهنة أيام العباسيين والفاطميين! وكان احتقار الحرف والصناعات ، وكان الافتخار بالأصل والعزوة! وكان احتقار النساء - بعد وأدهم في الجاهلية - ومضى الانحراف إلى المصير السابق فخان العرب الترك حتى جعلوهم يرمون الخلافة في البحر ، ثم كانت الطامة الكبرى إذ ظهرت العروبة متخففة من الإسلام أو مستتكرة له ، يقودها من لا علاقة له بالله أبداً .

ويوم نقول : إن القومية العربية هي السبب الأعظم في نجاح الفتح الإسلامي الأول ، فمعنى ذلك أن عقائد الإسلام وفضائله وحاجة العالم إليه أمور ثانوية وأهمية ! .

ومن ثم يفقد الإسلام أمجاده التاريخية كما فقد وجوده التشريعي والتربوي في الحاضر المهزوم ! .

لا يجوز للجنس العربي أن يعدو قدره ، ويفتات على غيره ، وينسى أن الإسلام ولي نعمته ومقيم دولته ، وحافظ كيانه وداعم أركانه .. ! .

إن شعوب العالم فتحت أحضانها لحلمة التوحيد النقي والأخوة الجامعة ، ومبدأ المسلمين تتكافأ دماءهم ويسمي بذمتهم أدبتهم وهم يد على من سواهم ، ولم تفتح أحضانها لعرعة جنسية أو عزوة أموية أو عباسية ، أو أعراف بدوية وأوهام صحراوية . كانت «قادسية» سعد بن أبي وقاص معبراً لأركان الإيمان وحقوق الإنسان ، ونظام الشورى ، وإقامة العدل ، بعد إطفاء الجوسية الخرية ، ومحو الاستعباد السياسي وإخراج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام ! .

#### لاكرامة للعرب بدون إسلام:

وتعود - بتفصيل قليل - إلى تاريخ العرب إبان الفتوح ، ونسأل : هل انقض العرب الخاضعون للروم ، أو الخاضعون للفرس على الفرس حين وجدوا عرب الجزيرة يشككون مع أعدائهم؟ ..

إن هذا أول ما يرتقب منهم طيبة لشدة العروبة! لكن شيئاً من هذا لم يحدث قط ! .

ونسأل ثانية : هل استقبل أولئك الخاضعون إخوانهم القادمين بشيء من الترحاب ، وذلك أسير ما يبطلون لو كان للعروبة قومية ملحوظة؟ لم يقع شيء من ذلك ! .

الذي وقع أن العرب المستنلين قاوموا العرب الفاتحين بكل ما لديهم من وسع ! . ولنلق نظرة على الجبهة الرومانية ، في موقعة اليرموك التي أجهزت على الوجود الأجنبي بالشام فترى جبلة بن الأيهم يقود الألوف من النصارى العرب ، مقاتلا مع الرومان أنفسهم ورباطا مصيره بمصيرهم ! .

إن كرهه لعمر بن الخطاب رسب في أحماقه لأن عمر رفض الاعتراف له بامتيازات الإمارة ، ورأى أن يسوى بينه وبين أعرابي من عامة الناس فارتد إلى النصرانية ، وتكلم مع القبائل التي على دينه ضد عقيدة التوحيد للخالق والمساواة بين الناس .. فأين هي القومية العربية؟ التي حاربت الروم؟ .

وقبل ذلك بسنين كانت معركة مؤتة التي حاول فيها مائة ألف من النصارى العرب ومعهم مثلهم من الرومان أن يفتكوا بالجيش الإسلامي القليل العدد ، الجيش الذي حركه الغضب لأن هؤلاء العرب أذئاب الرومان قتلوا بطريقة سافلة رسولا للنبي ﷺ أرسله إلى أحد أمراءهم .

كاد هذا الجيش يذوب لولا انسحاب خالد بن الوليد! وسبب المعركة ، مذكرونا أنفاً ، قال الأمير الغساني للمعاريث بن عمرو - رسول النبي لتبليغ الدعوة - لعلك من رسل محمد؟ قال : نعم ! فشد وثاقه ، ثم ضرب عنقه بالسيف! ..

فأين هي أصرة القومية التي تجمع بين المسلمين والعرب الخاضعين للروم؟ إن الأمر بلغ حدا من الهزل يستحق الدهشة أي قومية يعنون؟ ونذهب إلى جبهة فارس فماذا نرى؟ نرى عرب العراق ينضمون إلى مجوس فارس في مقاومة



إن أولى الألباب أخفوا على عوام المسلمين قديماً وحديثاً مغالاتهم الغربية في فقه الفروع وإهمالهم لسلامة الأخلاق والقلوب، وتكاسلهم عن التفوق في شئون الدنيا وأسباب الحضارة، وهذا مسلك يودي بالدين كله .

وأمر آخر يثير البلبل والفتنة زيارة القبور والاستشفاع بأصحابها عند الله ..  
والحق أن الخاصة الأولى في الإسلام تطبيق القلوب بالله وحده، وإسلام الوجوه إليه، والنظر إلى الأحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب ...

ولم يطلب لله مني وأنا أدعوه أن أستظهر معي بإحد، أو أستشفع إليه بمخلوق ..  
ولست أحب أن أعكر صفو التوحيد بمسلك سخيف .. وقد رأيت من زوار الأضرحة ما يثير التفرق، ويوجب الإنكار ..

والذي أراه أن تعليم هؤلاء قد يقتصر إلى جهد شديد، ولكنه واجب، بل هو متعين، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرباً!! ..

إنهم يكرهون التجسيد اليهودي، والتعميد النصراني، وأنواع الوثنيات البوذية والهندوكية والعربية القديمة، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامي، بل يناقشونه بكل ما أوتوا! ..

فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم، ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك؟ أكاد أقول إن الحرص على تكفيرهم مرض نفسى لا يقل عن المرض الذى يمانى منه هؤلاء!! ..

نظرت إلى اختلاف الفقهاء في حكم الصلاة بالمقبرة، وتجزأت بدائى ذئ بداء أن جمهرة الأئمة الأربعة بين كاره، أو مبيح! ثم جاء ابن تيمية - وللرجل وزنه العلمى - فحرم وشدد وذكر المسلمين يحدث بينهم .. لا تتخذوا القبور مساجد، وإن أنتم عن هذا!! ..

وخيل إلى أن تغير الناس هو السبب في اختلاف الحكم، فما كان المسلمون الأوائل يذهبون إلى مقبور يلتصقون منه شيئاً، ومن ثم لم يشعر الفقهاء المفتون قديماً بأن الأمر يستحق الخطر والوعيد ..

أما في القرن السابع - عصر ابن تيمية - فإن أعداداً من العامة كانت تستجير من التتار الغازين بقبر أحد الصالحين!

كيف يقع هذا؟ وما يقنى المسكين من هؤلاء الثلاثين به؟ إنه لو كان حياً ما أقادهم!! ..

وهل يفيد في الحرب إلا من استكمل عدتها؟ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُونَ عَنْ أَسْلِحِكُمْ وَأَمْتِكُمْ لَيَفِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (١) إن ذلك ماجمل الرجل بتشد في إنفاذ كلام رسول الله ﷺ ألا يبنى على القبر مسجد، وألا يصلى في مقبرة سدا للزريعة!! ..

الواقع أن حركة ابن عبد الوهاب - من الناحية العلمية - سليمة، وقد تكون الوسائل الرديئة هي التي هزمتها، يذكر الأستاذ أحمد أمين: «أنه قام في الهند زعيم وهابى اسمه السيد أحمد، حج سنة ١٨٢٢ م وهناك آمن بالمذهب الوهابى، وعاد إلى بلاده فنشر الدعوة في «البنجاب» وأقام دولة شبه وهابية وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند! وأعلن حرباً عواناً على البدع والخرافات! وهاجم الوعاظ ورجال الدين الرسميين! ثم دعا إلى الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه، وقبيل دعوته، وقرر أن الهند دار حرب! وقد لقيت الحكومة الإنكليزية متاعب كثيرة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم» .

ألا نستفيد من ذلك كله أن الوسائل ينبغي أن يعاد النظر فيها على ضوء التجارب الفاشلة؟ ..

إن الإقناع أهم من التخويف، والدليل أجدى من السيف، وأنا أريد هداية الناس لا أسرهم!! ..

ومن نظر إلى الدنيا على أنها مغنم له إذا انتصر، فهو قاطع طريق! وليس داعياً إلى الله، وهو أجهل الناس بسيرة محمد وشريعته!! ..

وإذا كان القتال الغبى لاسماع له من أجل العقيدة فكيف إذا كان في سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة، إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة!! ..

وعلى أية حال فمن الخير أن ينأى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الأمجة  
السوداوية والطباع الغضوب والتلعمسون للبراء العيبا ..

وشىء أخير نشبته هنا .. لقد درسنا فى الأزهر ونحن طلاب مذهبى السلف  
والخلف فى آيات الصفات ، أعنى التفويض والتأويل ، ولم ذلك دون تشجيع أو توتر  
اعصاب ، وترك لمن شاء أن يختار مشاء من أقوالا ..

وقد اخترت رأى السلف لأنه فى نظرى أعرف بوظيفة العقل الإنسانى وقدراته ،  
ولأنه يسد الأبواب أمام مجالس الشبهة الدينية التى تضيح الوقت سدى! ولأنه  
احترم مصافحه الأصلية ، وإزهدى فكر اليونان! ..

ومع ذلك فقد تعمقت فى فهم أفكار الخلف ، وأستطيع القول بأن جمهورهم  
حراس على توحيد الله وتوحيده . وأن دراستهم لا يد منها فى فهم الملل والنحل  
ومقارنة المذاهب ، وأن الأفضل الآن تخنيط هذه الدراسات ووضعها فى الخزان  
للذكرى والتاريخ .

فالتزعة العقلية المعاصرة لا تحب أن تسمع بحثاً عن : هل الله عالم بذاته؟  
أو بصفة زائدة على الذات ؟! إن هذا اللون من الفكر أسمى لقوا ! ..

وعلى معتنقى فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم فالمدى فسيح! . أما أن  
يعتبروا اعتناق الفكر السلفى هو نصره الدين ، وأن إلحاق هزائم بالأشاعة قرى إلى  
الله ، فذاك الآن نوع من البطالة! ..

قال لى صديق من نجد : نطاق العقائد أوسع مما ذكرت ، والذين يقفون به عند  
هذه الحدود هم الذين لا يؤمنون بالوحيين معا ! ..

قلت دهشا : ما تعنى بالوحيين؟ قال : الكتاب والسنة! قلت : هذه تثنية مثيرة!  
فإن القرآن معجز تحدى الله به الإنس والجن! وهو مقطوع بشوته كلمة كلمة! ولا  
كذلك السنة! أكثر السنة أحاديث أحاد ، يعمل بها فى الفروع أما العقيدة فتحتاج  
إلى نص مستيقن ثابت بالتواتر! ..

والقرآن أصل الإسلام ، والسنة فرع يجرى بعده ، بياناً وتفسيراً ..

قال : السنة مثل الكتاب فى أنها مصدر للعقائد مادام السند صحيحا! ..

قلت : ماهى العقيدة التى ترى أنها ثبتت بعديث أحاد؟ وكلفت الأمة جمعاء  
باعتناقها؟ ..

فتروى قليلا ثم قال : ثبت فى الصحيح أن الرسول ﷺ قال : «لا تملتن النار  
حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله فتقول: قطقط، فهناك تملتن ويروى بعضها إلى  
بعض ولا يظلم الله تعالى من خلفه أحدا» ، فأحدث أثبت صفة القدم! ..

قلت : هذا كلام باطل ، إنك مع بعض السطحين فهمتم أن «الرجل» كلمة  
تعنى العضو المعروف ، وقد قال المفسرون : إن أقدم ما يقدم للنار من الأشخاص  
الأرائك الذين يستحقونها ، وأرجع مثلاً إلى تفسير القرطبى لثرى أن القدم وكذلك  
الرجل مفرد أرجال الجراد ، وأرجال يعنى الأرتال ، والمعنى معروف لدى العلماء ..

فلا دلالة الحديث قطعية ، ولا ثبوته قطعى ، فكيف تشع عقيدة من ظن  
حائزا? ..

وما طولب عربى ولا رومى ولا عجمى باعتماد أن لله قدما ، فهل نأخذ الدين  
من سلفنا الأول أم نأخذنه من عقولهم? ..

راجعوا أنفسكم ليلتى المؤفنون على كلمة سواء ..

## ٦٨. ما حقيقة الملائكة والجن؟

### وما علاقتهما بالإنسان؟

هذا ميدان شائك! لأنه يتصل بعالم الغيب، ودرابتنا به قليلة، وسأقتل خطواتي بعذر، مستهديا بما أملك من طاقة عقلية، وبما تيسر من تعليم سماوية..

لؤكد أولاً أن الوجود أكبر من الإنسان وأن تصور الإنسان نفسه على أنه الكائن المحترق للحية ينطوي على غرور وجهالة، فلنكون أكبر منا، وسأكتبه أكثر عدداً، وأشد قوة!

وقد فهمت من القرآن الكريم أن الجن عالم برز إلى الحياة قبل الإنسان، وربما كلف قبله قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ (٣٧)﴾.

ويبدو أن إبليس أبا الجن عاينه هذا الكائن الجديد، وظنه منافسا على مكانة استقرت له، فكوره آدم وبنيه، وسأهل الخلق معترضا: لم خلقت هذا الإنسان ذا الطبيعة الهشة؟ ولم أمرت بالسجود له؟ إنني أقدر منه وأصلب! ولو ألقينا في سباق للحق به وبأولاده شر هزيمة ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ يَأْتِيَنِّي إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِاحْتِكِنِ (٣٧) ذُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٣٨)﴾.

وإبليس بهذا التصرف أحقر! فليس له - وهو أحد العبيد المخلوقين لرب الأرض والسماء - أن يقف هذا الموقف، فله أن يخلق ما يشاء، ولله أن يفضل ضعيفا متواضعا على متكبر! وما أدري إبليس أن من أبناء منافسه من يبهز بحسن الطاعة وصدق العبودية، ويحطم ما يتعرض من عقبات، حتى يرضى ربه بجدارقة..

على أن عالم الجن لم يضر كله في طريق إبليس، فقد بقى منه نقر كثير يعلن ولاه له، ويثابر على طاعته، ويؤدي التكاليف المطلوبة منه..

(١) الحجر: ٦٦ - ٦٧.

(٢) لسانه.

(٣) الإسراء: ٦٢.

نعم في الجن ناس طيبون، يستحبون بحمد ربهم ويتكبرون أن يكون له ولد، ويهتدون إلى الرشاد وينفذون وصايا المرسلين، وهناك أيضا من واصلوا الحملات ضد آدم وبنيه، واحتلوا طويلا إشقائهم وإقنائهم ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحِينَ وَمَا ذُنُوبُنَا كَمَا ظَنَّ قَدُورًا (٣٩) وَأَنَا ظَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا (٤٠) وَأَنَا لَمْ نَسْمَعْ الْهَدْيَ أَنَا بِهِ فَمَنْ يَزِينُ بِهِ فَلَا يَخَافُ بَعْضًا وَلَا رَهَقًا (٤١) وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمِينَ وَمِمَّا الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (٤٢) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (٤٣)﴾.

والاحتكاك دائم بين ذرية إبليس وذرية آدم، فما طبيعة هذا الاحتكاك؟..

الظاهر أن الشياطين - أعني الجن العصاة - ليس لهم أكثر من الوسوسة والاستغفال! ومع ضخامة قواهم المادية فهم مكفوفون عن استخدامها ضد بني آدم! إنهم يجيشون لتزدد فيفرونه بالجن، ولتوقع فيفرونه بالكبير، ولتتهافت على الشهوات فيفرونه بالفسق، وهكذا..

وعندما يوقف الكل للحساب، يقول الشيطان لمن أغرامه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ (٤٤)﴾.

والقانون - كما قيل - لا يحمي المقتل، فإذا زاع بشر فهو المستول عن نفسه، وما يملك أحد إرغامه على عوج، ولو استخدم مواهبه ما قدر أحد على الضحك منه.

قد تكون قصتنا على ظهر الأرض هي قصة أبنينا آدم أيام الجنة! إنه لو ظل ذاكرا فلم ينس، قادرا فلم يضعف لارتد سهم إبليس إلى نحره! ولكنه لم يكن عند حسن الظن ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيٍّ وَلَمْ تَعْذَلْهُ عَزْمًا (٤٥)﴾.

والذين ينزلون في دنيانا وقع لهم ما وقع لخلل داخلي فيهم جعلهم يتجاربون مع كيد الشيطان، وينخدعون بكذبه ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٦) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَرْجُو بِآخِرَةٍ مَنْ هُوَ مِثْلُ شِرْكِكُمْ وَكَانَ لَكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٤٧)﴾.

(١) الجن: ١١ - ١٥. (٢) لزامهم: ٦٢. (٣) طه: ١١٥. (٤) سبأ: ٢٠ - ٢١.



وعندما تقع ذبلة فلانة الشيطان منها الأز عليها وتزينها ، تلك كل ما يشتهى !  
أما الإنسان الجرم فلذته أكل حرام أو سرقة عرض أو ظلم ضعيف ، وما يحس مؤقتا  
بحلواته لا يحس الشيطان شيئا منه ولا يرى لذته فيه ! ..

فرحة الشيطان أن يرى الإنسان ساقطا ذليلاً مغاضبا لربه ، ولذلك يقول الله  
لبنى آدم موبخا :

﴿ اقْتَحَدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (١)

ويظهر أن للشياطين تخصصات شتى ! كما يظهر أن بعضهم يلزم أنواعا من  
البشر ، ويقف نفسه على إغوائهم ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِبْضْ لَهُ شَيْطَانًا  
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٢)

وإذا كان للمصاة قرناؤهم ومضللهم ، فإن الأقوياء يماس الشيطان منهم ﴿ إِنَّ  
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٣)

وترك عالم الجن وعلاقته بالإنسان إلى عالم آخر أنقى وأطيب ..  
إن الإنسان والجن جنسان مكلفان متحانان قادران على الخير والشر ، والذكر  
والنسيان ، من أجل ذلك يحصى الله عليهما نعمه ثم يقول :

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٤) ؟ ..

لكن هناك علما آخر لإرادته من إرادة الله ، وحياته وقف على إنفاذ مشيئته ، هو عالم  
الملائكة الذين يرون دائما إلى أنوار الألوهية ويستغفرون في أمجادها قال تعالى :

﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ (٥) يسبحون الليل  
والنهار لا يفترون (٦)

وظائف الملائكة كثيرة ، وهم مع أبناء آدم من يده تخلقه حتى يوارى في التراب .  
ففى الحديث عن ابن مسعود قال : قال رسول ﷺ : « : إن خلق أحدكم يجمع فى  
بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغته مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا  
بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » : ..

(١) التكليف : ٥٠ . (٢) الفرق : ٢٦ . (٣) النحر : ٤٢ .

(٤) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ . (٥) الرحمن : ١٦ .

وإذا صح أن نسمى هؤلاء الموكلين بالأرحام ملائكة الحياة ، فهناك آخرون للوفاة  
﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

والحيى الميت هو الله جل شأنه ، وهو الذى يلمهم ملائكته ويقدرهم على فعل  
ما يريد .

وقدرات الملائكة اعظم كثيرا من قدرات الجن ، وإذا كان العفريت يستطيع أن  
يلبس السماء ، أو ينقل شيئا من اليمن إلى فلسطين فى ساعه ، فإن الملائكة أوسع  
طاقة ، وفيهم من يستطيع تطويق أعنى اللزدة ، والهوى به إلى أسفل سافلين ..

والملائكة يتابعون حياة البشر ، ويسجلونها سواء كانت نية فى القلوب ، أو كسبا  
للجوارح ، ويعنى هذا بلا رب رؤية عجيبة وصحوا تاما ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ  
الْجِبِّ وَعَنِ الشَّمَالِ قَيْدًا ﴾ (٢) ما ينطق من قول إلا لديه رقيب عتيد (٣)

وما يحتاج ربنا جل جلاله إلى من يعلمه أو يذكره ! ولكن النظام الذى  
وضعه لكونه ، أحصى فيه كل شئ من المخلوقات والأعمال ﴿ وما يعزب عن  
ربك من شئאל ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى  
كتاب مبين ﴾ (٤)

والملائكة الكرام الكاتبون لا ينهى لهم تسجيل ، ولا يقف لهم إحصاء ﴿ كُلُّ  
يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٥) فبأي آلاء ربكم تكذبان (٦)

والملائكة صديقة للصره المؤمن تفرح بعبادته وتوش له ، وإذا دخل المسجد  
للمصلاة حفت به ، وإذا جلس فى طاعة الله شرعت تدعوه له : اللهم ارحمه ، اللهم  
اغفر له ، وثبت أن لها نوبات فى صلاتي الفجر والعصر ، ثم تصعد إلى ربهما تذكر  
له ماترى ، وهو أعلم به ، ولكنه النظام الذى وضعه سبحانه .

فى المحافل الجادة ، وفى مجالس الخير تكون الملائكة بلطفها ودعائها مع المؤمنين  
فرحا قال أحدهم الكلمة يعينه عليها ملك كريم ، وربا صاغ القصيدة فى الدفاع عن  
الله ورسوله ، يؤيده فيها الروح القدس - كبير الملائكة - ..

(١) السجدة : ٦١ . (٢) ق : ١٧ ، ١٨ .

(٣) يونس : ٦٦ . (٤) الرحمن : ٢٩ ، ٣٠ .

## ٦٩. ما معنى أن لله تسعة وتسعين اسما وما مفرها؟

فى القرآن الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (١). وفيه كذلك ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

التأمل فى هذه الأسماء يجدها صفات علا ، ونعوت كمال وجلال وجمال .. والصفة تسمى اسما إذا دامت لصاحبها ولازمته فلم تنفك عنه كأنها أشبهت العلم الذى أطلق عليه وعرف به! ..

والأسماء الحسنى - بهذا المعنى - كثيرة ، لأن معالم العظمة الإلهية ليست لها نهاية ، وهى ماثورة فى القرآن كما تثبت النجوم فى آفاق السماء - ولله المثل الأعلى - ويقبل أن تختتم بها آيات ، ويختار الاسم ، أو الأسماء الخافقة من السياق الذى جاءت به الآيات .. وستشرح ذلك بعد حين ..

وجاء فى الحديث الصحيح : «إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة» ، إن الله وترى يحب الوتر .. وفى رواية : «من أحصاها دخل الجنة» ، والمراد بالإحصاء ألا يقتصر فى معرفة الله ودعائه على بعض دون بعض ، بل يعيها كلها ، ويتعرف على الكمال الأعلى والمعبودية الصحيحة من خلال مدارستها وإشراق القلب بحقيقتها ..

وليس المقصود أن الأسماء الحسنى محصورة فى هذه التسعة والتسعين ، فهى أكثر من ذلك ..

والإسلام جاء لتصحيح أخطاء البشر فى فهم الذات الأقدس ، وتنزيهه عن أوهام القاصرين والجاهلين ، فإن الأديان الأرضية أثبتت للألوهية صورة مشوهة منكورة يرفضها أولو الألباب ، ويدركون أن مبدع هذا الملكوت أعلى منها وأجل ..

ثم جاء أهل الكتاب يتحدثون عن إله يتخذ واضعا يده تحت فكه ، وواضعا قدما على أخرى!! إله ينسى ويندم ، ولا يدري خطورة تصرفاته! ..

وفى الوقعات التى يصطرع فيها الحق والباطل ، ويبيع جند الله أنفسهم لنصرة دينه ، تنزل الملائكة لتشجع وتلهم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١) فى هذا الحين تكون ملائكة أخرى لنزع أرواح الكفرة ، تتناولها بالطمات ظهر البطن ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى النَّبِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذَانَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٢).

وهذا الكلام يحتاج إلى تفسير شامل ، فإن الملائكة لم تعد إلى سكير فى حان لدعوه له وتلتصق له المغفرة ، بل دعت لامرئ يريد أن يتزكى ، سعى إلى المسجد ليؤدى حق الله ، وغالب أشغال العيش وأوقات اللهو ، ورجع عليها ذكر ربه فهو أهل لأن يصلى عليه الكرام الكاتبون ..

كذلك لم تعد للملائكة إلى جبان فار من الميدان لتسأل له الشئب والرضا ، وإنما دعت لرجل مؤمن هزم حب الحياة وأثر نصرة الله ، فهو جدير بالإتيان والبشرى! .. والأصل فى هذا التفسير قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣) ..

إن تنزل للملائكة كما يفيد ظاهر الآية فى أحوال الحياة كلها ، لا فى الرمح الأخير وحده كما يرى البعض ..

ويتضح ذلك عندما تعلم أن هذه الآية فى مقابلة ما نزل فى الغافلين المومنين قبل ذلك مباشرة وهو قوله تعالى :

﴿وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْءَانًا فَزَيَّنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٤) ..

فالأشراؤ تؤزهم الشياطين .. والأخبار تؤيدهم الملائكة ، والفريقان مسئولان بيهوسهم عن نفوسهم ، فهم ذوو عقول ، ولهم إرادة حرة بحاسنون بها قبل أى شئ! ..

وقد أمر المسلمون أن يتركوا أولئك الملحين في أسماء الله ، وأن يعبدوا الله بأسمائه الحسنى وحدها ..

وقارئ هذه الأسماء لافهمها إلا إذا عرف الكون والحياة ، عرف هذه السماء المبنية ، والأرض المفروشة ، عرف قوافل الأحياء وهى تعبر عصرا بعد عصر فى طريقها إلى الدار الآخرة .

لا يمكن أن تتم معرفة الله بمزحل عن ملكوته الكبير ، ومتابعة لقدره الحكيم وهو يهزم وينصر ويضحك ويبكى ويخضع ويرفع ﴿ يدبر الأمر بفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقون ﴾ (١) .

والعارف بالله من خلال إحصائه للأسماء الحسنى ، يعرف أن العالم كبير ، ولكن خالقه أكبر منه ! وأن عقل الإنسان جهاز رافع ، ولكن مبدع الألوف المؤلفة من العقول المنتشرة فى القارات الموجودة من أزل الدنيا إلى أبدها - أروع وأوسع !

وماذا نقول؟ إن الحشرة المتحركة على الشرى لا تدرى : ما الإنسان ، وما ذكائه؟ وما الكون ، وما أبعاده؟ إن الكلمة لا تدرى : ما كاتبها؟ فكيف تعرف نحن التافهين كنه الذات العليا ، وأمام عظمتها؟ ...

إننا فى نطاق العبودية العاجزة نسبح بحمد الله ونتحدث عن مجده ، ونعلن بصدد ولاءنا له ونقرنا إليه ..

ولعلمائنا بعض التعليقات على الحديث الذى ذكر الأسماء التسعة والتسعين ، قالوا : الأسماء المتقابله لا ينبغي أن تذكرها مفردة ، وافقن عند المعنى الذى لانهب ، كالتضار النافع ، والمزع المذل ، والفاضل الباسط ..

فإن هذه الأسماء ذكرت بمعانيها المتضادة حتى يعلم البشر أن مايتوبهم من خير وشر ليس بمزحل عن علم الله وتقديره وله جل شأنه أن يختبر عباده بما يسوه ويسر ..

وعلى العبد أن يطلب كشف الضر عن أرسله ، ويطلب أن يكون نصاب المرء من عند نفسه وأنه حرم اللطف بسبب ما اقترفه ، ومن ثم يطلب العفو والتجاوز .

ومن الأدب لذلك أن ينسب الخير لله ، وينسب الشر لنفسه ، وتأمل فى دعاء

الخليل : ﴿ الذى خلقتى فهو يهدين ﴾ (٧٨) والذى هو يطعمني ويسقيني (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ (٨١) ولم يقل : أمرضنى .

وتوقف بعض العلماء عند اسم «المنتقم» ، ورده قائلا : لم يرد فى الكتاب أو السنن الصحاح .

والذى ورد فى آية ﴿ إن الذين كفروا بإيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ (٨٢) .

والفارق كبير بين العبارتين ، إن الله لم يصف مكة بأنها قرية ظلة عندما آذنت المؤمنين قديما وإنما جاء فى الآية ﴿ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ (٨٣) ، وبين الوصفين تفاوت ! ..

والأسماء الحسنى تقويب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل ، ومن مشاعر البشر المأنوسة ، وإلا فلا يعرف الله إلا الله ، أو كما وصف رسوله محمد ﷺ : «سبحانك لا تحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ..

ومن الحقائق التاريخية أنه لا يوجد إنسان أحسن تمجيد الله ، وإجلاله مثل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأنما عقد مسابقة بين أصحابه ليتنافسوا فى الثناء على الله ومدحه والتزلف إليه والهج بحامده ! ..

عن بريدة رضى الله عنه : سمع النبي ﷺ رجلا يقول : اللهم إني أسألك بأننى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. فقال : «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» ..

وعن أنس رضي الله عنه قال : دعا رجل فقال اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حي يا قيوم .. فقال النبي : «أتدرون بما دعا؟» .. قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : «والذى نفسى بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» !! ..

واسم الله الأعظم يبلغه العبد الذى ينبعث عن إخلاص عميق ، ودعاء حار ،



## ٧٠. هل من شرع وجيز لأسماء الله الحسنى؟

الله اسم الذات ، المختص به جل شأنه ، لا يتسمى به غيره ، فهو علم على المعبود بحق ، الذى تمنوله السموات والأرض وما بينهما ، ونحن نرفض إطلاق اسم «وجوده» أو «دييه» على الذات الأقدس فلفظ «الله» وحده هو العلم الحقيقى .

«الرحمن» و«الرحيم» من أسماء الله الحسنى ، ومعنى الرحمة معروف ، والاسم الأول مختص كذلك بالله سبحانه فلا يوصف به غيره ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (١) . وهذه الصيغة فى اللغة تعنى بلوغ الصفة تمامها أما الرحيم فالصيغة تعنى فيضاً الوصف ليشمل الآخرين ، فالذات العليا عتلة بالرحمة ، وهذه الرحمة تعم الغير ، وتشمل كل شئ .

«الملك» : ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ (٢) . ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (٣) .

«القدوس» : المظهر من كل عيب ، المنزه عن كل نقص ، ومحور التسيب بدور على هذا المعنى ، سبحانه وتعالى :

«السلام» : الذى لا يجىء من قبله عدوان ، بل يرتقب الخير والرضا .

«المؤمن» : الذى يذهب القلق والخوف وتمتع الضمانية والأمان ﴿الَّذِي أَحْقَمْنَاهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتِهِمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤) .

«المهيمن» : الذى لا يفتيق عن سلطته شئ ، فهو يرتقب ملكوته كله رقابة استيعاب وشهود .

«العزيز» : الغالب فلا يفتيق . والذى يجير ولا يجار عليه ، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (٥) .

(١) الإسراء : ١١٠ . (٢) مريم : ٩٣ . (٣) نوح : ١٥ . (٤) غافر : ١٠ . (٥) غافر : ١٠ .

«الجبار» : العالى فوق الخلاق كلها ، وفارض قضائه وقدره على كل شئ . ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (٦) .

«التكبر» : للتعالى على صفات الخلق لا يتنزل إليها ، والتاء فى هذه الصيغة للانفراد والتخصيص ، لا للتكلف ، من الكبرياء بمعنى العظمة التى هى حق الله ، ومن نازعه هذا الحق من جابرة الأرض نفسه .

«البارئ» : الخالق ويغلب أن تستعمل الكلمة فى إيجاد الأحياء ، فيقال : بارئ النفس أى الأرواح .

«المصور» : منشئ الخلق على صور شتى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٧) . وقلمنا تتفق ملامح الوجوه ، مع كثرة التباين ، ويكاد يستحيل اتفاق بصمات الأصابع ، وهو سبحانه مصور خطوطها .

«الخالق» : موجد الكون من عدم ، ولا يقدر أحد على الإيجاد من عدم ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (٨) .

«الغفار» : الذى يتجدد غفرانه لعباده مع مجتهد عصيانهم له ، وأصل الغفر الشتر والتغطية ثم المعفو .

«القهار» : الذى تنفذ إرادته دون اعتراضا فيستحيل أن يردّها بشر أو ملك ، وهو معطى الكواكب أحجامها ومعطى الرسل أقدارها ومكانتها ، وإذا منح أو منع لم يجزى على رد مشيئته أحد ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩) وهو القاهر فوق عباده ﴿١٠﴾ .

«الوهاب» : صاحب العطايا الجزيلة ، تفضل الله على من شاء ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١) .

«الرزاق» : الذى يعطى ولا يعضم ، ويسوق لكل حى ما يفتقر إليه . ويفعل ذلك عن سعة واقتدار ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (١٢) .

(١) الأعراف : ٥٤ . (٢) آل عمران : ٦ . (٣) النحل : ١٧ . (٤) الأنعام : ١٧ ، ١٨ . (٥) آل عمران : ٧٢ . (٦) الذاريات : ٥٨ .



«الكبير»: النصف بجلال الشأن، وعظمة الذات والكلمة مأخوذة من الكبير، ومنها الهتاف التكرور في الأذان بالغدو والأصال: الله أكبر، فما عدا الله موصوف بالصغر وملوك الأرض وجبايرتها موصوفون أمامه بالصغار..

«الحفيظ»: الذي لا تسبغ عنده الودائع «المقيت»: القيم على الأحياء يوفر لهم أوقاتهم فيغذيهم صغاراً وكباراً.

«الحسيب»: الذي يكفي من أوى إليه وتوكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (١) ومن ذلك التعبير المحفوظ: حسينا الله.

«الجليل»: من الجلال أو الجلالة وهو العلو المقرون بالمهابة «الكريم»: يده تسخو بالمعطاء ليلاً ونهاراً من يده الخلق وما دام الخلق «الرفيق» من الرقابة وهي النظر إلى الأشياء بدقة وإحاطة.

«المجيب»: قابل الدعاء والرجاء من قصده ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٢).

«الواسع»: الذي وسعت رحمته كل شيء، ووسع غناه كل فقير «الحكيم» الذي لا يقع في قلة عيب ولا في حجة عوج، ولا في خلقه تفاوت «الودود» الذي يتقرب إلى عباده بالنعمة والتجاوز مع غناه عنهم، وحاجتهم إليه «المعبد»: المجد تام للشرف، والله أهل الثناء والمجد وأمجاد الألوية تنزل لها الخلائق كافة «البايع» محيي الموتى يوم النشور.

«الشهيد»: الذي لا يغيب عنه شيء ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعَمَلٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٣) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤).

«الحق»: الوجود الإلهي واقع لا يزول ولا يحول، وكل كائن يأخذ وجوده من الله عارية تسترد يوماً (لاكل شيء ما خالاه باطل)!!!..

«الوكيل»: الذي تفوض إليه أمورنا فيقوم بها عنا، وله القدرة على كفاية أرزاقنا وإخراج سمينا، ومن ثم يجب التوكل عليه.

«القوى»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٥).

(٢) الأعراف: ٧.

(٢) الشورى: ٢٦.

(١) الزمر: ٣٦.

(٥) طه: ٤٤.

(٤) الفرقان: ٩.

«المقتن»: الذي لا يلحق قدرته إعياء.

«الولى»: الذي يتولى أمور الكون، ويقوم بها كما يقوم ولى البيت القاصر بشئونه كلها، ولله لئلا الأعلى.

«الحميد»: كل أفعاله جليلة بالحمد، والحمد معنى يتخرج فيه للمدح والشكر وللمجيد.

«المحصي»: في سجلاته إحصاء لكل شيء ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ (١).

«المبدئ»: خالق الأشياء لأول مرة و «المعيد» الذى يرد إليها وجودها بعد إفنائها ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٢).

«الحق» المصيبة: الذى خلق الموت والحياة، وأخضع لهما الكائنات، أما هو فإنه الحى، بذاته وهو «القيوم» لا تقوم الأشياء إلا به، ولو سلبها وجودها لتلاشت، فبقاى الوجود يجيئها ملداً بعد مدد من الحى القيوم، فمنه الإيجاد والإمداد جميعاً..

«الواحد»: من الجدة وهي الشرة، وأصلاك الله لا تعد، لأن كل شيء ملكه «الماجد» كالجديد «الواحد» المتقطع القرين لاشريك له ولأنه ولائذ ولاحد، «الأحد» مثله، وأساسه الانفراد والوحدة عن الأصحاب «الصدق» هو السيد المقصود عنه كل سؤال «القادر» و «المقتدر» والمعنى واضح والتكرار زيادة فى نفى العجز، فإن جهلة البشر تتعاطم عندهم أمور هي عند الله بين الكاف والتون..

«المقدم» و «المؤخر»: الله - تبارك اسمه - يرتب الأشخاص والأشياء وفق مشيئته وحكمته، وهو يتفضل دون مسألة! ولكنه منزّه عن الظلم وفى الحديث: «انت المؤخر، لا إله إلا أنت»..

«الأول»: السابق فليس قبله شيء «الآخر» الباقى فليس بعده شيء «الظاهر» المستعلى فليس فوقه شيء «الباطن» المحتجب عن الأبصار، فليس دونه شيء!..

«الولى»: المتصرف فى ملكوته لا يتنازع أحد «المتعالى» المنزه عن أوصاف الخلق وعمما لا يلىق بكماله، ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٣).

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤).

(١) القمر: ٥٣.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) الجن: ٣.

(٤) الإسراء: ٤٣.

«البر»: مصدر البر والخنان وكل ما يتعاطف له الناس . «التواب»: ملهم عباده ترك الإثم ، والندم عليه والاعتذار إلى ربهم عنه . «المتق»: المقصود أنه بالمرصاد للمجرمين يقمع غرورهم ، ويؤدبهم على طنواهم . «العفو»: يصفح عن أساء ، والعفو أحب إليه من القصاص ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

«البرء»: البراءة رقة تحمل المرء يخفف في التكليف ، ويؤثر التجاوز عند الخطأ ، ولله المثل الأعلى ، وهو يكلف في حدود الطاقة ويقدم الصفع على الموازنة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٢) . ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَعَوِّفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

«ذو الجلال والإكرام»: صفات الجلال تورث الخشية والرهبة ، وصفات الجمال - وأساسها الإكرام - تورث الحب والرغبة ، وجاء في الحديث : «انطقوا بآثار الجلال والإكرام» أي ألقوا على الله بهذا الاسم .

«مالك الملقه»: كل شيء خلقه وعبد ، لاشريك له! «المقسط»: العادل ، «الجامع» الذي يحشر الخلائق للحساب ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (١) . «المتع»: يحصى أوليائه ويدفع عنهم وينصرهم . «الغنى»: المعنى واضح . «المغنى» وأهب الغنى النفسى والمادى» .

«النصار النافع»: ما تراه من سرور وحزن ، ونعمة ونقمة ، ونصر وهزيمة فمن الله وحده . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَابْكِي ﴾ (٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٥﴾ يختبر الله عباده بالأصدقاء . «النور»: الذى يبصر بنوره ذوو العماية ، ويرشد بهداة ذوو الغواية ، وهو هادي الإصباح ومضى الأفاق! .

«الهادى»: المتخذ من الحيرة ، ومثبت المؤمنين على الحق . (البيديع) الإبداع اختراع ما ليس له مثال ، والكون صنع الله الذى لم يصنع من قبل مثله .

(٢) لقبح : ٢٨

(٢) لقبح : ٢٨

(٥) لقبح : ٤٣ ، ٤٤

(١) لقبح : ٢٥

(٤) لقبح : ٩

«الباقى»: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ مَّا لَكَ إِلَّا وَجْهٌ ﴾ (١) .

«الوارث»: الذى يؤول الوجود إليه .

«الرشيد»: مرشد الناس إلى مصالحهم فى معاشهم ومعادهم .

«الصبور»: الذى يرى من عباده القبيح فلا يسارع بالقضيحة ، ويسمع منهم السوء فلا يعاجل بالعقوبة ، فهذا الاسم كاسمه .

«الحليم»: غير أن قد يطول لطفه ، ويرجى صفحه . أما الصبور فينبغى القلق من إمهاله! .

ويمكن أن يطالع القارئ فى شرح الأسماء الحسنى يتوسع وبصورة كتاب أبى حامد الغزالى «المقصد الأسنى» فيه إن شاء الله ما ينفع .



## ٧١. طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها، وقد يتمايلون أو يهتزون، فما حكم هذه العبادة؟

هذه بدعة قديمة استحدثها بعض أصحاب المشاعر المضطربة، وقد سماها بعض الصحافيين الأجانب «الرقص الدينى» وهى تسمية يحس المسلم بالجنزى إذا سمعها، لأنها تجعل الإسلام أشبه بالعبادات التى يمارسها الزوج فى إفريقية وهذه فتنة مزعجة، وإهانة شديدة للإسلام..

والغريب هو ظهورها من قديم! فقد سئل الحسن البصرى عن هذه المجالس فنهى عنها أشد النهى! وقال: لم يكن ذلك من عمل الصحابة ولا التابعين، وكل ما لم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين فليس من الدين - يقصد فى شئون العبادات - وقد كان السلف حرصا على الخير وقافين عند حدود الله، وكانوا أحرص على الخير من هؤلاء، فنعلم أن ما نركوه ليس من الدين وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (١).

قال مالك بن أنس تعقيبا على كلام الحسن: «فصالح يمكن يؤمنه دينان يكون اليوم ديناً، وإنا نعيد الله بما شرع، وهذا التجمع بالذكر والتمايل فيه لم يشرع قط فلا يصح أن يعبد الله به».

وحكى عياض بن التنيسى قال: كنا عند مالك وأصحابيه حوله، فجاء رجل من أهل «تصبيين» يقول: يا أبا عبد الله عندنا قوم من الصوفية يأكلون كثيرا، ثم يأخذون فى إنشاد القصائد، ثم يغمون فيرقصون! فقال مالك: أصيبان هم؟ قال: لا! قال: أمجانين هم؟ قال: لا، قوم مشايخ يذكرون الله! قال مالك: مرسمعت أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا؟..

وقال أبو إسحاق الشافعى: إن الاجتماع على ذكر الله بصوت واحد من البدع المحدثه التى لم تكن فى زمان رسول الله ﷺ، ولا فى عصر السلف، ولا عرفت قط فى شريعة محمد وفى الحديث الصحيح «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»..

الواقع أن هذا السلك انحرف دينى مرفوض، ونحن هنا نتساءل: ما الذى حمل عليه، ودفع جماعة من العابدين إليه؟ لابد من تحديد السبب لإمكان الدواء..

إن الفقير قد يلزم طعاما واحدا لأنه لا يجد غيره، ولو كان موسعا لنوع وكثرا وخطيب الأرياف الذى لا يحفظ إلا خطبة واحدة لا يجد بدا من تكرارها! ماذا يصنع؟ ذلك مبلغه من العلم.. وهكذا..

والأمة الإسلامية حيث نفسها، أو حبستها ظروف سيئة فى حملة من العبادات لا تتجاوزها، فإذا اتسع وقتها، وشاقها الطاعة كررت ماتعرف، فضمت إلى صلاة الفريضة مثلا صلاة نافلة، فإذا اتسع الوقت أكثر تغفلت أكثر!

وربما عن للبعض أن يخترع من عند نفسه عبادات لا أصل لها، ليزداد بها قربى إلى الله..

ونسأل مرة أخرى: لماذا انفتح باب الاختراع فى الدين، وهو شر؟ ولم تنفتح باب الاختراع فى الدنيا وهو الخير؟..

ولماذا كرر الانقياء الصلوات، والصيام، والذكر والاستغفار، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا، على حين قلت أو صغرت الأرصدة فى ميادين الأمر والنهى والجهاد الدنى والعسكرى، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر، ومسايرة الأمم فى تسمية النشاط العمرانى وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير؟

الحق المر أن الفساد السياسى من وراء هذه البلبلة الفكرية، فإن الرجل التقى قد يحاول مرضاة الله بكلمة صادقة صريحة، فإذا هو يدفع رأسه ثمناها!! وقد يؤثّل نفسه وبنيه مالا! فإذا مصادرة جائزة محتاح كل ما جمعه وقد يبرز فى ميدان تقافى أو أدبى أو صناعى فإذا هو يسم: أعطى ولاءه للحاكم الغد، أم يخفى؟ أما الأحياء فلا!..

الغمران من هذا البلاء أولى ولو إلى مجالس ذكر تبتدع! أو خلوات قصية تقصد، ويعتزل بها المجتمع!





منافق قد علم نفاقه أو مريض وقال: إن رسول الله علمنا صن الهدي وإن من صن الهدي الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه .

ويظهر أن أعداء الإسلام على عهد الوحي غاظهم هذا المنظر المهيب للتكرار بالغدو والأصا، منظر المسلمين وهم يجيئون من أطراف المدينة ليلصوا وراء نبيهم ، ما تنفض لهم جماعة حتى تقوم أخرى ، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١).

فماذا يصنعون؟ أخذوا يتفلسفون عن صفائهم بالغمز واللمز ، وربما تضاحكوا ، وعقدوا المجالس عند سماع الأذان ، وقيام الجماعات ليرسلوا التعليقات الساخرة وهذا مسلك شنيع يمكن تركه . .

وزل الوحي يطلب للمؤمنين أن يقاطعوا هؤلاء العايشين ، وأن يتجهوا لهم ، وهذا أقل ما يمكن عمله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمُ وَالْكَفَّارُ أَولِيَاءُ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوا وَلَعِبًا فَلَهُ أَن يَسْتَعْزِلُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥٨)﴾ .

ما الذي جمع اليهود ، وعبدة الأصنام ، والمنافقين على التندر بالدين الجديد والتيل من شعائره؟ إنما الإقبال في الكفر والتحدى!

وكره النبي ﷺ أن يقابل الإسلام بهذا الجهن ، وأن تتال شعائره بهذا العبث ، وأن يجد المنافقون ظهيرا لهم من بين الكفار يساعدهم على النيل من المسلمين بهذا الأسلوب الدنيء ، فأرسل هذا التحذير الذي بلغ صداه القوم فأقضى مضاجعهم ، قال : «لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ، ثم أمر رجلا يهمل بالناس ، ثم أنطلق معي رجلا معهم حزب من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم» .

وكانت أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . . ولا ريب أنهم العنوين بالتهديد السابق! فإن اليهود والنصارى لا يكفلون بصلاة . .

وليس معنى الحديث أن جميع الناس للصلاة يتم بالتهديد ، فذاك مستحيل لأن جمهرة المؤمنين كانوا ابتغاء وجه الله يهرعون إلى المسجد كلما سمعوا النداء ، وكان ألمهم ادخار الأجر العظيم عند الله . قال ابن مسعود : «إن كان المريض ليمشى بين الرجلين - يحمالته لمرضه - حتى يأتى الصلاة ، وكان أبعد الناس عشي يحتسب خطاه عند الله ، ويحرص على الانتظام في الصلوة» . .

لكن من حق للمؤمنين عند إقام الصلاة في الجماعات العامة ، ألا تنتظم جماعات أخرى للعبث ، وألا تتعقد مجالس لجذ أو هزل ، وألا تقام أسواق للشغب . .

وقد لاحظ الناس عند عقد اجتماعات الهدنة بين المصريين واليهود أن اليهود كانوا يتحرون أيام الجمعة للمفاوضات وكانهم يريدون عمدا انتهاك وقت الجمعة ، وإضاعة شعائرها!!

وتهديد الساخرين والماجنين بالتحريق عليهم ترك أثره ، ولم يؤثر قط عن النبي الكريم ، أو أيام الخلافة الراشدة ، أن وقع شيء من ذلك ، وقد شرحنا ملابس هذا التهديد كما جاءت في الكتاب العزيز ، فلا مجال للاستحفاق ، والقول بأن الإسلام يأمر بإحراق المتخلفين عن الصلاة! . .

عن أم الدرداء قالت : دخل علي أبو الدرداء وهو مغضب فقلت : ما أغضبك؟ قال : والله ما عرف من أمر أمة محمد ﷺ شيئا إلا أنهم يصلون جميعا . .

وعن أنس ، قال رسول الله ﷺ : «بني لا تدخل في الصلاة ، وأنا أريد أن أطينها ، فاسمع بكاء الصبي فاتجوز في صلاتي ، فأخفها ، فأعلم من وجداه من بكائه» .

وعن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم - من صلاته يمكث في مكانه يسيرا ، فنرى والله أعلم أن مكشه لكي ينصرف النساء قبل أن يدركنهن الرجال .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» وظاهر أن الوصف بالشر لمن يحاوت من الجنسين أن يقترب من الآخر أما من لا يجول بخاطره شيء يريب فلا يلحقه إثم ، والمواد توفير جو الطهر والتقوى في المسجد .

وهذه الآثار للتبابعة قليل من كثير من السنن الدالة على أن المسجد كان يستقبل الأمة كلها ، وإن إقصاء النساء عنه لم يعرف في سلف الأمة ، بل كانت روحانية المسجد وثقافته تسريان على امتداد الشوارع وداخل البيوت ..

وإذا كانت الجماعة للصلوات الخمس سنة مؤكدة ، فإن حضور الجمعة فرض عين على كل مسلم قادر . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : «يجتمع الجمعة ثلاثة نفر: فرجل حضرها يلفو، وهو حظه منها؛ ورجل حضرها يدعو، فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بهتصت وسكوت ولم يتخط رغبة مسلم ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، إن الله تعالى يقول :

﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْقَالِهَا ﴾ (٢) .

وقال علي بن أبي طالب وهو يخطب على منبر الكوفة - إذا كان يوم الجمعة : غدت الشياطين برأياتها إلى الأسواق ، فيرمون الناس بالرباث - الريشة ما يعوق المرء عن عمله ويصرفه عن واجبه - ويشطرونهم عن الجمعة ! وتغزو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد يكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين ! حتى يخرج الإمام .. فإذا جلس الرجل مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فأنصت ولم يلف كان له كفلان من الأجر ! فإن نأى وجلس حيث لا يسمع فأنصت ولم يلف كان له كفل من أجره ! وإن جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان عليه كفلان من وزر . فإن جلس مجلساً لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فلغا ولم ينصت ، كان عليه كفل من وزر ، ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : صه ! فقد لفا ، ومن لفا فليس له في جمعة تلك شيء ما .

ثم قال في آخره : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .

والجمعة شعيرة ترجع أعظم أجهزة الدعاية التي وصل إليها العالم ، وإذا كان المسلمون الآن ألف مليون نسمة ، فمفروض أن تلقى بينهم خطب بين المليون

والمليونين كل أسبوعاً يقوم رجل موجه فيتحدث باسم الله إلى عباده ، يقول مالدیه ، والصلون صامتون يصغون لما يقال ، لا يتشاغل عنه أحد ، ولا ينصرف من مكانه حتى يسمع الخطبة كلها ويؤدى الصلاة لا .

إن أمة هذه نظمها ينبغي أن تتوحد صفيحتها ووجهتها ، وأن يرى مستواها الفكري والعاطفي ، وأن تغلب أسباب التفكك والفرقة ..

وأكره أن تكون الخطبة تحرشاً شخصياً ، أو نهجاً سياسياً ، أو تعليقاً مقصوراً على الأحداث العابرة ، فإن المساجد لم تبن لشيء من هذا ، وتشريع الخطبة كما جاء في القرآن الكريم :

﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر في آفاق الكون وشئون الناس على نحو ماوضح القرآن الكريم :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَلِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

وتطويل الخطبة غير سائغ ولا مشروع ، فعن أبي وائل قال : خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليظان لقد أبلمت وأوجزت ، فلو كنت تنفست - أطلت! فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته منته من فقهه» . علامة ، فأقصروا الخطبة واطيلوا الصلاة .

وكانت أكثر خطب رسول الله من القرآن الكريم ، ولذلك لم تحفظ عنه خطب من كلامه عليه الصلاة والسلام ، إلا على نادرة .. وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت لما أخذت ق والقرآن المجيد - حفظتها - إلا من لسان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر في كل جمعة» كانت قد شهدتها .. والمفروض أن خطبة الجمعة نحو خمسمائة مرة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام ..

## ٧٣. ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد؟

المسجد قلب المجتمع الإسلامي، وملتقى المؤمنين بالهدى والأصال لأداء حقوق الله، واستلزام الرشد، واستمداد العون منه جل شأنه. وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصاً أيام الجمع عندما تمتص جماهير المصلين في سكونية وتشويق للإمام، وهو يشرح لهم تعاليم الإسلام ويبين لهم حدود الله، ويقفهم على ما في الكتاب والسنة من عظات وأداب. إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى، ومعانيها تساب إلى النفوس من لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه. ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر..

والإمام الذي يدرس موضوعه ويجهده عرضه، يقوم بنصيب ضخم في تثقيف الأمة، وترشيد نهضتها، ودعم كيانها المادي والأدبي، ووصل غداً للأول بماضيها المجيد..

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطبة في المسجد إلى مكانته اللائقة به، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الإسلام من معرفة صالحة وتربية واعية، فقد أثبت هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغي أن يتوافر في خطبة الجمعة من زاد روحي وثقافي منظم.

١- يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، فإن الخطيب الذي يخوض في أحداث كثيرة يشتت الأذهان وينتقل السامعين في أودية تنخلها فجوات نفسية وفكرية بعيدة، ومهما كانت عبارته بليغة، ومهما كان مسترسلاً متدفقاً فإنه لن ينتج في تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام.

والوضوح أساس لا يد منه في التربية، والتعميم والعموم لا ينتهيان بشيء طائل، وخطبة الجمعة ليست درساً نظرياً بقدر ما هي حقيقة تشرح وتقرص.

٢- عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر في تسلسل منطقي مقبول كما تسلم درجة السلم إلى ما بعدها دون عتاء بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء

كلمته كان السامعون قد وصلوا معه إلى النتيجة التي يريد بلوغها. وعليه أن يتقن من النصوص والآثار ما يهد إلى هذه الغاية.

٣- ولما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعاني الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة، وأثار السلف الصالح فإن لحمتها وسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة. وفي آيات القرآن الكريم، ومعالم السنة المطهرة متسع يغني في الوعظ والإرشاد. ولذلك لا يليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية به الموضوع.

وإذا كان العلماء قد تجوزوا في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال فقد اشترطوا لذلك: ألا تخالف قواعد الإسلام الكلية ولا أصوله العامة. وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفاه. وفي سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمة المتبوعين ما يغني عن الأساطير والأوهام.

٤- لا يجوز أن تتعرض الخطبة للأموال الخلافية، ولا أن تكون تعصبا لوجهة نظر إسلامية محدودة.. فإن المسجد يجمع ولا يفرق، ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التي يلتقي عندها الكل دون خوص بمسائل التي يتفاوت تقديرها. وما أكثر العزائم والفضائل التي تصلح موضوعاً لنصائح جديدة وخطب موفقة.

وقد شقى المسلمون بالفرقة أياماً طويلة وجدير بهم أن يجدوا في المساجد ما يوحد الصفوف، ويطنق الحصومات.

٥- بين الخطبة والأحداث العابرة، والملايسات المحيطة، والجماهير السامعة، علاقة لا يمكن تجاهلها وما يبرز بالخطيب ويضع موعظته أن يكون في واد، والناس والزمان والمكان في واد آخر..

ولما كان القرآن متجماً على ثلاث وعشرين سنة، فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة.

ولما كان القرآن شفاء للعالم الاجتماعية الشائعة، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذي يواجهه، وأن يعرف على حقيقته بلغة. فإذا عرفه واستبان أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض. وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق، فإن الواعظ الفاسر قد يجيء بدواء غير مناسب فلا يوفق في علاج، وربما أخطأ ابتداء في تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة.



## ٧٤. ما الحكمة في قيام الليل؟ وكيف يكون؟

لا بد من تمهيد لهذا الموضوع ، وللموضوع الذي يجيء بعده ، نتحدث فيه عن الأوج الذي رفع محمد صبحه إليه ، وثبتهم - صلوات الله وسلامه عليه - في ربابا لقد اتفق الدارسون لشخصية محمد على أن قدراته الروحية خارقة للعادة ، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره ، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدورنا ويوسع آفاقنا ، ويتجلى جيلًا من البشرية الضيقة إلى الرمانية الرحبة المشرقة ! ..

إن الليل الذي رياه محمد كان جيلًا محسنا يعبد الله كأنه يراه ، شجاعًا بكل الدنيا بقدمه ويمضي ثابت الخطا إلى ربه ، كرمًا لا يحرص على مال ، بل ما يعطيه لله أحب لديه مما يتبقيه لنفسه ، مقيمًا للصلاة ينتظم في صفوفها برغبة وخشوع ، ويحافظ على أوقاتها في الصحة والمرض والسلم والحرب ..

هذا الجليل تلقى الحق وصالته وسلمه إلى من بعده في وفاء وفداء لم تعرف الدنيا لهما نظيرًا في تاريخها الطويل !

إن الملائكة لتنتظر بإعجاب إلى هؤلاء الأصحاب ! بل إنها لتحفهم وهم يجاهدون ، تنتزل عليهم وهم يتجهجون ! ما أحسبها - وهي ترقب الأرض من قديم - رأته خيرًا منهم ، حاشا أنبياء الله السابقين ! ..

من أجل ذلك لم أحس باستغراب عندما قرأت في الصحاح هذين الخبرين .. عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : «بيتنا هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفورسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت ، فسكت ! فاستأنف القراءة فجالت ، فسكت فسكت الفرس ! ثم قرأ فجالت ، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فانصرف فأخره - أبعدته عن قوائنها - ثم رفع رأسه إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح ! فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى - فقال له : أتودري ما ذاك؟ قال لا .. قال : تلك الملائكة فتت لصوتك ولو قرأت - تابعت التلاوة - لأصبحت ينظر إليها الناس ما تتوارى منهم ! ..

قلت : ما الغرابة؟ ملائكة السماء اقتربت من ملائكة الأرض الذين يقومون الليل بالقرآن .

وقد تكررت هذه القصة لغير أسيد ، وسواء استبعدها الماديون أو قبلوها ، فإن من يتأجى الله بكتابه والناس نيام له مكانة خاصة ، وقد جاء في الحديث «ماذن الله بشيء - أي ما أنصت - أذنه - أي أنصته - لعبد يقرأ القرآن في جوف الليل ، وإن البر لم يدر على رأس العبد ما دام في مصلاه .. ومتقرب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه .

قال أبو النضر : يعنى القرآن ، منه بدأ الأمر به ، وإليه يرجع الحكم فيه ..

والناس عادة ينظرون في فرشهم يحسبون النوم غيبوبة تتخللها أضغاث الأحلام ، وغرائز الأجهزة الدنيا أو وساوسها ! لكن هناك ناسا آخرين رسب في أفعالهم إجلال الله ، والتوجه إليه ، يشبه نومهم نوم المشوق إلى غائب أو الباحث عن حقيقة ! ..

فلذا تابتهم نقطة خلال الرقاد ، انجهموا إلى الغائب المشوق ، أو الصواب المنشود ! ..

صور الحديث الشريف حال هؤلاء في قوله صلى الله عليه وسلم : «من تعار من الليل - أي استيقظ - فقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لي ، أو دعا استعجب له ، فإن توبوا وصلى قبلت صلاته ! ..

شأن بين نائم مغمى عليه ، ما يحركه إلى ربه شيء ، وبين آخر يستجم بنومه ، ويسبح بحمد ربه كلما عاد إليه وبعه ! الصنفان موجودان في الدنيا ، والفارق بينهما شاسع ﴿أمن هو فانت أناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ (١) .

وقيام الليل فريضة على النبي وحده ، إن الإحساس بالله نهر جار في شعوره لا يتوقف أبداً في وضع النهار أو في جنح الليل لا يرى محمد إلا موصول القلب باله ! .. وهو بهذا الذكر الدافق في حبه ، المستولي على نفسه ينضح على من حوله ، ويصل الأرض بالسماء طهرًا وضوءًا ، مستجيبًا لقول الله :



﴿ أقم الصلاة لذئلك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ (٧٨) ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يخطبك ربك مقاماً محموداً ﴿١﴾ .

وقد حاول نفر من أصحابه أن يتابعوه في هذا النهج ، لشدة جهم له ورغبته في تقليده ، غير أن الله سبحانه رحم ضعفهم ، وحط عنهم ما جشعوا به أنفسهم ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلاثة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فافرقوا ما تيسر من القرآن ﴾ (١) .

ذلك بالنسبة إلى الأصحاب ، أما الرسول نفسه فبقى قيام الليل كله من خصائصه ، وقد كان ينبعث إلى هذا القيام عن حب ورغبة لا عن تكلف وعت ، كان عميق الشعور بنعمة الله عنده ، واصطفائه له ، وإلى ذلك يشير عبدالله بن رواحة بقوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا اشق مكثون من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موفقتان أن مافال والفع

بيت يحاكي جنبه عن فرائسه إذا استقت بالمشركين المضاجع

في الأيام الأولى للبعثة قبل له : ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ (١) نصفه أو انقص منه قليلاً ﴾ (٢) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴿ (٢) وقد سترجأ لامر الله حتى لحق بالرفيق الأعلى . .

أما جمهور الأمة فلم يكلف بذلك ، فليس القيام في حقه فريضة لازمة ، ولا سنة مؤكدة ، وهو نافلة مقبولة عن يؤثر فيها السهر - ولا يعجزهم عن أداء واجباتهم طوال النهار .

حسبهم ما يستطيعون قراءته بالليل ، وأماهم سج طويل بالنهار ﴿ ... علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فافرقوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يفتنون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فافرقوا ما تيسر منه ﴾ (١) .

(١) الزمل : ٧٠

(٢) الزمل : ٧٠

(١) لآسراء : ٧٨ ، ٧٩

(٢) الزمل : ٧٠ ، ٨٠

والواقع أن الجهاد العسكري والاقتصادى يحتاج إلى يقظة ونشاط ، والتفريط في هذا أو ذلك مضیعة للأمة .

ورأيت ناساً يقومون الليل أحياناً ، ثم يجيئون إلى مكاتيبهم فقالوا يترنحون ، فزجرتهم عن هذا المسلك ، وشرحت لهم الحكماء ومع ذلك فما كانوا يسمعون . . . وقد رويت في الأمر بالقيام أحاديث ضعیفة مثل ما جاء عن بلال أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بقيام الليل ، فإِنَّه ذاب الصالحين فيكم وفريه إلى ربك ، ومنهابة عن الآثام ، وتكفير للسنات ، ومطرده للداء عن الجسد » .

ومع ما في سند الحديث من ضعف ، فإننا نحمله على ماورد في الصحاح مثل حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله » ذلك أن النهوض للفجر فيه مقاومة للنوم ، ومنى من الظلمة ، واستفتاح للنهار بالخير قبل أن تطلع الشمس بوقت ، وكذلك الانتظام في جماعة العشاء ، وكانت قد تأخر ، حتى تقمض عيون البعض في انتظارها .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : أى حين كان يقوم الرسول ﷺ من الليل ؟ فقالت : إذا سمع الصارخ - تعنى الديك - ! .

وما فهمناه وافق ولله الحمد ما رواه أبو داود عن أنس في تفسير قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ (١) .

قال : نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة - يعنى العشاء - كانوا ينتقلون بين المغرب والعشاء . .

وزيادة في إيضاح الموضوع نذكر أن الجسد البشرى يحتاج إلى ساعات معينة بنام فيها ، ويستعيد قواه ، ويستحيل أن يستغنى عن هذه الساعات التي قدرها الأطباء بشماني ساعات أو أكثر أو أقل حسب الأعمار المختلفة . .

والقرآن الكريم يقر هذه الحاجة الطبيعية ، وبلغت الأنظار إلى أنها من آثار اختلاف الليل والنهار ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ (١) . ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ (٢) وجعلنا الليل لباساً ﴾ (٣) وجعلنا النهار معاشاً ﴾ (٤) .

(٢) لآ : ٩ ، ١١

(٣) يوس : ٦٧

(٤) لآ : ١١

وقد تنشأ أحوال يجب فيها العمل بالليل ، في ظروف السلم والحرب جميعاً ، فعلى المرء أن يقوم بواجبه ، وسيطويعه جسمه مع تعريض يرد إليه ما يذل . . . وهناك ناس لهم طاقة على العمل الكثير ، مع الاكتفاء بنوم قليل ! كما أن هناك من في أعصابه مدخّر من النشاط يستطيع به أن يضم إلى عمل النهار جزءاً من الليل . . .

وهنا نؤكد أموراً ، أن اليوم الإسلامي يبدأ مع الفجر ، فكل سهر يضيّع صلاة الفجر مرفوض ! وهناك قلة من الرجال تستطيع الجمع بين طول التهجد بالليل ، وطول الكدح بالنهار ، وهذه قلة لا يقلص عليها . . .

وقد يستطيع البعض أن يقرأ نصف القرآن في ليلة ثم يستقبل نهاره باسترخاء لا يساعده على أداء واجب ، هذه معصية ! لقد تلا ألفاظاً لم يتدبرها وأعمل واجبات ترتبط بها حياته وحياته أمتة ! . . .

وأوغل في المخالفة من يبيت يردد بعض أسماء الله الحسنى ، ثم يصبح قليل التفكير لا يحسن شأنه في دنياه أو دينه ! . . .

إن عمر بن عبد العزيز سرح فكره في آية واحدة ظل يرددّها طوال الليل ﴿ وَفَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مُخْتَلُونَ ﴾ (١) ! لأن دقة إحساسه جعلته يتصور . . . وهو أمير المؤمنين - أنه الموقوف المستول ، فطار النوم من عينه ! . . .

ولو أن قاضياً سهر في قضية يتحرى الحكم العادل ، أو مجتهد سهر في موضوع يبحث فيه عن الصواب ، لكان أولى بالله من قارئ لا يمي ، أو قائم نائم الضمير والتفكير . . .



## ٧٥. كيف ولماذا اختير الأذان للصلاة؟ ولماذا لم يأت عن طريق الوحي مباشرة؟

لا أرى كلمات أحق بالسماع وأولى بالتأمل من كلمات الأذان ، ولا أرى داعياً أقرب إلى الرشد من المؤذن . . . إن الكلمات الجهرية المدونة في الأفق ، تذكير بالله وحقوقه ، تذكير بالعمل الذي خلقنا من أجله ، إنها مناشدة لأبناء آدم أن يعرفوا الصراط المستقيم ويثبتوا عليه ، وأن يحذروا السبل الموحجة ويتأوا عنها .

عندما يقول المؤذن : «الله أكبر الله أكبر» . . . ويؤكد كونه يقول للإنسان : لا تدبر حول نفسك وأذكر من ربك وسواك ، واجعله غايته من مسعاك ، يبارك لك في وقتك وجهك ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ (١) .

وعندما يقول : «أشهد أن لا إله إلا الله ويكرها مرة أخرى ، فكانه يقول للإنسان : لا تخش الهة أخرى في الأرض ، الأمور كلها صائرة إليه وحده ، بيت فيها ولا راد لحكمه ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، فانتصب عزيز النفس رفيع الرأس ، واهبط لتسجد لله ، فإنك لن تدل بعده لأحد !

وعندما يقول : «أشهد أن محمداً رسول الله» ويكرها مرة أخرى ، فهو يرسم أمام بصيرتك صورة الكمال الإنساني لتقتدى به وتقتفى آثاره ، محمد وحده الأسوة الحسنة في الإيمان والتقوى والخلق والاستقامة . . .

وعندما يقول : «حي على الصلاة» ويكرها مرة أخرى فهو يدعوك لتتشرّف بالمشول بين يدي ربك كي تسبح بحمده وتستزيد من رفده وتشارك مع إخوان العقيدة في التجمع عليه والتحاب فيه . . .

وعندما يقول : «حي على الفلاح» ويؤكد كونه مرة أخرى فهو يذكرك على الجهد والمثمر والسعي الناجح ، فما أكثر الذين يزعجون ولا يحصلون ، أو يمشون ولا يصلون ! أما أهل الصلاة فلا يضيعون ، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

(٢) الحج : ٥٤ .

(١) الشورى : ٢٠ .

وعندما يقول مرة ثالثة : «الله أكبر الله أكبر» فهو يؤكد الغاية الصحيحة من الحياة والكبح طول العمر ، إن المرء يخرج من بيته لعمله ، وليحصل ما يقدر عليه من نفع لنفسه وأهله ، وصيحة التكبير التي يسميها تهيب بأن يقصد ربه ، ويجعل له عمله ، وعندما يقدم نفسه لربه فسيجدها مرفوعة مقدورة ، أما من أثر نفسه ، فيفقدها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

ويختتم الأذان بصيحة التوحيد ، لإسقاط الوثنيات كلها ، إن العالم الآن لا ينتحى لصنم من حجر ، ولكنه ينتحى في أصنام حية قامت شواخص مهيبة في دنيا الحكم والمال ، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الأرباب .

إن كلمات الأذان منهج كامل ، ودعوة تامة ، ما يمكن أن يقضى عنها بريق نار ، ولا رنين جرس ، ولا صغير بوق .. إنها خفاف من اللؤلؤ الأعلى ، يهيب بالبشر أن يرجعوا إلى أصلهم السماوي العريق .

هذه الكلمات نزلت من السماء ولم تخرج من الأرض ، استمع إليها نفر من الصحابة في رؤى متقاربة ، وأحد الملائكة الكرام يهتف بها ، في أعقاب مؤتمر نباحث فيه الصحابة مع الرسول ﷺ حول أمثل الطرق للدعوة إلى الصلاة والحديث هنا يعود بنا إلى الإجابة السابقة ، وكيف كانت الملائكة تدنو من الأرض تستمع الذكر من تاليه وهو يناجي ربه ، وتعود بنا إلى الأثر الروحي لحمد في أصحابه ..

إن صحابيا أنكر نفسه لما أحس الفرق الشاسع بين حالته مع رسول الله وحالته بعد أن يخاطب الأهل ويكاد هموم الرزق ، وظن أنه نافق بهذا التفاوت حيث إنه مع رسول الله ﷺ يكون منير القلب ، يتقلب في مقام الإحسان ، وكأنه يشهد ربه ويحس جلالة حتى إذا رجع إلى البيت والشارع والأهل والناس هبط ، واعتكر! .. قال له الرسول : «لو بقيتم على حالكم معي لما صنعتكم الملائكة ولكن ساعة وساعة» .

وكثير من الصحابة كان يستديم ساعات الإشراف التي تجمعهم بصاحب الرسالة العظمى ، ويتقلب إلى أمد طويل كثافة الطبع ، ومشاغل العيش ، وظلال الخلق! ..

جاء في السنة عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم رسول الله ﷺ بالصلاة : كيف يجمع الناس لها ؟ فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة فإذا راوها أذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك! ..

فذكر له شبور اليهود - البرق الذي يتفخعون فيه للإعلام بصلاتهم - فلم يعجبه ذلك وقال : هذا من أمر اليهود فذكر له الناقوس ، فقال : هذا من أمر النصارى! .. فانصرف عبدالله بن زيد الأنصارى ، وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ ، فأرى الأذان في منامه .

وفي تفصيل آخر يذكر الراوي أن رجلاً من الأنصار جاء فقال : يا رسول الله ، إنى لا رجعت - إلى بيتي - لا رأيت من اهتمامك رأيت رجلاً كان عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ، ثم قعد فعدت ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة .. ولولا أن يقول الناس لقلت : إنى كنت يقظان غير نائم! .. فقال رسول الله : لقد أراك الله خيراً ، فمر بلالا فليؤذنا .

فقال عمر بن الخطاب : أما أنى قد رأيت مثل الذي رأى ، ولكنى لما سميت استحييت ، وقال فيه فاستقبل - الملك الذي رآه عمر - القبلة وقال : الله أكبر الله أكبر مرتين أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين ، حتى على الصلاة مرتين ، حتى على الفلاح مرتين الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ثم أمهل هنيهة ، ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه زاد بعد ما قال حتى على الفلاح فد قامت الصلاة فد قامت الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : لقنها بلالاً فأذن بها بلال .

وكان بلال ندى الصوت ، عذب الأداء ، وتفاوتت الروايات تفاوتاً قليلاً في عدد الألفاظ مع اتفاقها جميعاً في أصل القصة ومصدر التلقي ..

وعندما التجرد من التأثير بكل ما يروى ، أرانى أميل إلى سماع الأذان ومتابعة كلماته الهادية ، فإني أحب أن أقاد من عقلى لا من أدنى! إن الأذان يوقظ فؤادى ، ويعرفنى بربى على نحو ينسجم مع الفطرة السليمة .

ومن ثم استحب الشارع لسامعي الأذان أن يرددوا كلماته ، ويفرغوها في مشاعرهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ ، فقام بلال ينادى - للصلاة - فلما سكت قال رسول الله : «من قال مثل هذا بقينما دخل الجنة» وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله رضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً غفر له ذنبه» .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إجلت له شفاعتى» .

والمرء عندما يتأمل في كلمات الأذان يجدها خلاصات للرسالة الإسلامية ،  
ووصفاً لله قائماً على الحق المطلق ، الحق الذي لا يتغير بين مشرق ومغرب ..

ماذا وراء توكير الله وتوحيده والنداء الدائب لعبادته ؟

إن هذا النداء ينتقل على سطح الأرض ، عابراً خطوط الطول فوق البر والبحر .  
مصاحباً الأرض في دوراتها حول أنها الشمس «وظيفة محمد العظمى تلبية الأمر  
الصادر إليه» ﴿ وَنَسِجَ بِحِمْلِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ  
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (١) .

إن الكون كله لا الأرض وحدها يتجاوب مع أصوات المؤذنين وهي تهيب بالبشر  
أن يهرعوا لمِرْصاة الله ! ..

وليس بغريب أن يطلب من سامعي الأذان - وصداه لا يزال يرن في آذانهم - أن  
يدعوا للإنسان العظيم الذي يقودهم إلى الله ، ويؤمهم على الصراط المستقيم ! إنه  
والله جدير بالدعاء المستديم أن يرفع الله درجته ، ويجزيه عن المسلمين خيراً ..

على أن رؤى البشر مهما صلت حالهم لا تكون مصدر وحى ، ولا دليل ، ولولا  
أن رؤيا الأذان أقرها النبي ﷺ ووافق على العمل بها ، ما انترم العمل بها أحداً .

ولعل الله سبحانه وتعالى أراد طمأنة نبيه على أن رسالته قد نجحت في تكوين  
جيل نقى الصفحة زكى السيرة يلتقى بالمالأ الأعلى ، فيسمع منهم وينقل عنهم ،  
وقد قلنا في إجابة سابقة : إن الملائكة تنزل على المؤمنين المستقيمين فتلهيهم  
الرشد ، وتساند على الحق ، وتقذف في قلوبهم بالبشريات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ  
ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَسْتُرُ لَهُمْ الْمَلَائِكَةَ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (٢) .

لكن باب الأوهام والمزاعم لا بد من سده فما يقبل كلام عن عالم الغيب إلا من  
المعصوم وحده! والمسلمون مجمعون على أن الشريعة ، لا منبع لها إلا الكتاب والسنة .

وقد ظهر في عصرنا هذا فلاحون اقتحموا ميدان التدوين وزعموا أن وحيا  
يجيئهم ، وغير علاج لهم أن يقادوا إلى تبليغه في مستشفيات الأمراض العقلية ..

(٢) فصلت : ٣٠ .

(١) طه : ١٣٠ .

## ٧٦. ما حقيقة الصوم وما حكمته؟

الصيام عبادة مستغربة أو منكوبة في جو الحضارة المادية التي تسود العالم . إنها  
حضارة تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح ، وتؤمن بالحيلة العاجلة ولا تكثر باليوم  
الأخرى ومن ثم فهي تكره عبادة تقيد الشهوات ولو إلى حين ، وتؤدب هذا البدن  
للدليل وتلزمه مثلاً أعلى ..

إن الأفراد والجماعات في العالم المعاصر تسعى لا غير لتكثير الدخل .. ورفع  
مستوى المعيشة ولا يعنيها أن تجعل من ذلك وسيلة لحياة أزرى ! ..

ونسارع إلى تيرتة الدين من حب الفقر ، وخصومة الجسم ، فالغنى سر العافية  
والجسم القوى نعم المون على أداء الواجب والتهوض بالأعباء ، وإنما تتساءل : هل  
يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحدها؟

يقول علماء التغذية : إن للطعام وظيفتين : الأولى إمداد الجسم بالحرارة التي  
تعيته على الحركة والتقلب على ظهر الأرض ، والأخرى تجديد ما يستهلك من  
خلاياه وإقارته على النمو في مراحل الطفولة والشباب .

حسناً ، هل ناكل لسد هاتين الحاجتين وحسب؟ إن أولئك العلماء يقولون :  
يحتاج الجسم إلى مقدار كذا من «السعر الحراري» كي يعيش ..

الطعام وقود لا بد منه لآلة البشرية ، والفرق بين الآلات المصنوعة والإنسان  
الحى واضح .. فخزان السيارة مصنوع من الصلب ليسع مقداراً معيناً من النفط  
يستحيل أن يزيد عليه ، أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ  
يعب أضعاف ما يحتاج المرء إليه ! ..

وخزان السيارة يمدح بالوقود إلى آخر نقطة فيه ، إلى أن يجيء مدد آخر ..

أما المعدة فهي تسد الحاجة ثم يتحول الزائد إلى شحوم تبطن الجوف ، وتضاعف  
الوزن ، وذلك ما تعجز السيارة عنه ، إنها لا تقدر على أخذ «فائض» ولو افترضنا فإنها  
لا تقدر على تحويله إلى لدائن تضاف إلى الهيكل النحيف فيكبر أو إلى الإطارات  
الأربعة فتسم !! ..

الإنسان كائن عجيب ، يتطلع أبداً إلى أكثر مما يكفي ، وقد يقاوم من أجل هذه الزيادة الضارة ، ولا يرى حرجاً أن تكون بدانة في جسمه ، فذلك عنده أفضل من أن تكون نحافة في جسد طفل فقير ، أو وقوداً في جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق!!

كان لي صديق يكنى من التدخين ، نظرت له يوماً في أسف ، ثم سمعني وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء ، فقال رحمه الله فقد أدركته الوفاة (اللهم لاتستجب ولا تحرمني من لذة «السيجارة» ) ..

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة ، فسكت وقد عقدت لساني دمهنة .

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف ما يضره ، ويقبل عليه برغبة .. إنها الرغبة القاتلة!! ..

على أن النفس التي تشتهي ما يؤذي يمكن أن تتأذى وتقف عند حدود معقولة ، كما قال الشاعر قديماً :

والنفس رغبة إذا رغبتها وإذا تسرد إلى قليل تقنع

وهنا يجيء أدب الصيام إنه يرد النفس إلى القليل الكافي ، ويصدما عن الكثير المؤذي!! ..

ذاك يوم نصوم حقاً ، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس!! ..

لعل أهم ثمرات الصوم إتياء القدرة على الحياة مع الحرمان في صورة ما ..

كنت أرقم النبي ﷺ وهو يسأل أهل بيته في الصباح : «أم كيف طهره؟» فيقال : لا فينوي الصيام ، ويستقبل يومه كأن شيئاً لم يحدث ..

ويذهب فيلقى الولد ببشاشة وبيت في القضايا ، وليس في صفاء نفسه غيمة واحداً! وينظر بشقة تامة رزق ربه دوناً ربية ، ولسان حاله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) ..

قلت : لو جاءني فطوري دون شاي لسخطت!! ولرفضت إمضاء ورقة على مكتبي ، بل كتابة مقال!! ..

(١) شرح ٢٠٥٠

إنها لعظمة نفسية جديرة بالإكبار أن يواجه المرء البأساء والضرء مكتمل الرشد ، باسم الفقر ، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو شأمت .

وأعتقد أن أسباب غلب العرب في الفتح الأولى قلة الشهوات التي يخضعون لها ، أو قلة العادات التي تمنع من العمل إن لم تتوافر .

يضع الواحد منهم قنات في جيبه ويتطرق إلى الميدان ، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم ، وإلا توقفوا ..

وقد اعتمد غاندي على هذا السلاح عندما حارب «بريطانيا» العظمى .. كان الإنتاج البريطاني يعتمد على الاستهلاك الهندي .. وقرر غاندي أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء ، تلبس الجيش ولا تلبس منسوجات «مانشستر» نأكل الطعام بدون الملح مادامت الدولة تحتكره ، تركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم ..

وقاد حركة المقاطعة رجل نصف عار جائع ، ينتقل بين المدن والقرى مكتفياً بكوب من اللبن ..

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد ، وشرعت تسير وراءه فلذا الإنتاج الإنكليزي يتوقف ، والمصانع تتعطل ، وألوف مؤلفة من العمال الإنجليز يشكون البطالة .. واضطرت الحكومة إلى أن تطلب من «غاندي» الجيء إلى لندن كي يتفاوض معها ، أو على شروطه عليها!! ..

وحياه أحمد شوقي وهو ذاهب إلى لندن بقصيدته التي يقول فيها محلاً من الأعياب الساسة ..

وقل هاتوا أفاعيكم أتى الحساوي من الهند ..

إن الإنسان الذي يملك شهواته قوة خطيرة ، والشعب الذي يملك شهواته قوة أخطر ، فهل تعقل؟؟ ..

في صيام غاندي وأثر سياسته على إنجلترا ، وظفره باستقلال الهند يقول الشاعر القروي سليم خوري :

لقد صام هندي فجوع دولة ..

ومضار عجاصوم مليون مسلم

تجشم عن أوطانه صوم عامم

مجهتم أوطان العداصوم مرغم

وخلص بلاد الظالمين ببلاده  
 قضيق بجيش الماطلين العرمرمر  
 والقى على ~~مناشيتهم~~ ظل رهبة  
 تضح بأشباح الشقاء المقيم..  
 أهاب بآلات الحديد فمطلت  
 مسمات كسات جنة المتهم..  
 وشل دواليب الرخماء بصرخة  
 أدارت دواليب القضاة المعتم  
 كساهن سيج العنكبوت وكم كت  
 جـووم البرايا بالشيب المنتم  
 تهدمها أسرار نفس عجيبه  
 تجول بذلك الهيكل المتهدم  
 فليالك من عمار، لديه تصاعرت  
 جـبـابـر أبدان، وعمقل ودرهم!!  
 وراحت ملوك المال تشكو بـبـابه  
 من الظلم، بالظالم المتظلم!!

وفي عيد الفطر يقول رشيد سليم خوري أيضاً:  
 أكرم هذا العيد تكريم شاعر  
 يثبه بآيات النبي المعظم  
 ولكن أصبو إلى عيد أمة  
 معصرة الأعناق من ريق أعجم  
 أحفظ للشيخ الكبير «محمد الخضر حسين» شيخ الأزهر الأسبق كلمة عظيمة:  
 «لست أنا الذي يهدد، إن كوبا من اللبن يكفيني أربعاً وعشرين ساعة!..  
 ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم وقد حذروه من غضب جهات عالية:  
 «أينعتني ذاك من التردد بين بيتي والمسجد؟ قلوا: لا.. قال: لا خطر إذن! ليس  
 هناك ما يخاف»..

من أركان العظمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا في أضيق نطاق مستطاع.. إنه  
 يعني عدوه بذلك الاستعفاف أو الاستغناء.

وذلك نهج الشرف الذي خطه علي بن أبي طالب عندما قال: «استغن عمن  
 شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره».. وما يستقيم على هذا  
 النهج إلا امرؤ يحسن الصيام.

أعجبتني هذه الوصية لأبي عثمان النوري لابنه، وأثبتها الجاحظ، وليس لي في  
 كتابتها إلا فضل النقل... «يا بني كل ما يليك، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمة كريمة  
 أو شيء مستطرف فإتقا ذلك للشيخ للعظم أو لصبي اللئيل، ولست واحدا منهما.

يا بني عود نفسك مجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم  
 خضم البغال، ولا تلغم لغم الجمال، والله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة،  
 واعلم أن الشيع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت.

ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لثيمة، لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه آلام  
 من قاتل غيره»..

يا بني والله ما أدى حق الركوع والسجود مثلي قطاً ولا خشع لله ذو بطنة،  
 والصوم مصحة، والوجبات عيش الصالحين.

يا بني قد بلغت تعين عاذاً ما نقص لي سن ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت  
 ذنين أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد..  
 فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت فذلك سبيل  
 الموت، ولا أبعد الله غيرك»..

هذه وصية رجل لا يعرف عبادة الجسد التي نياوى فيها أبناء هذا العصر، والتي  
 جاء فيها قوله تعالى:

﴿ذُرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيَهُمْ أَمَلٌ فَوَفَّيْهُمْ﴾ (١).

وقوله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (٢).

ويحتاج الناس بين الحين والحين لومات حادة تقشعر منها البلاد ، ويجف الزرع والضرع ، ما عساهم يفعلون؟ إنهم يصيرون مرغمين أو يصومون كارهين وملء أنشدتهم السخط والضيق .. وشريعة الصوم شيء فوق هذا ، إنها حرمان الواجد ، ابتغاء ماعدن الله . إنها تحمل للمرء منه متدوحة .. لو شاء . ولكنه يخسر صياح بطنه ، ويرجع إجابة رغبته ، مدخرا صبره عند ربه ، كيما يلقاه راحة ورضا في يوم عاصيب .. ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ (١١) .

ويربط الشعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبي ﷺ في قوله : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ..

إن كلمتي «إيمانا واحتسابا» تعنيان جهلا لا يستعجل أجره ، ولا يطلب اليوم ثمنه ، لأن باذله قرر حين يبله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه .. نازلا عند قوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا ﴾ (١٢) .

وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة ، إذا اشتبهوا طعاما أكلوا ، وإذا شاقهم شراب أكرعوا .. ماذا يجلون يوم اللقاء ؟ ..

إنهم يجلدون أصحاب المدخرات في أفق آخر ، مفعم بالنعمة والمتاع ، ويحدثنا القرآن الكريم عن أضعافوا مستقيلهم فيقول : ﴿ وَتَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرِبَتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (١٣) .

إن الصيام عبادة مضادة لتليار الحياة الآن ، لأن الفلسفات المادية المسيطرة في الشرق والغرب ، تعرف الأرض ولا تعرف السماء ، تعرف الجسم ولا تعرف الروح ، تعرف الدنيا ولا تعرف الآخرة ..

ليكن اللقوم ما أرادوا ، ذلك ميلهم من العلم .. بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا ، وأن نأزم صراطه ، وأن نصوم له ، وأن ندخر عندها .

على أن هناك حقيقة مؤسسة هي أن الصوم قلة وإن امتنع عن الطعام كثيرا ..

(١١) هود : ١٠٣ .

(١٢) الأعراف : ٥١ ، ٥٠ .

## ٧٧. في المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للإسلاميين مقالات متباينة أو متناقضة ! فلم هذا؟

أعترف بأن الملاحظة صادقة ، وأشعر بأن بقاء هذا الوضع يعوق الدعوة ويحرج الدعاة ، سأذكر هنا ما أراه باعثا على هذا الاضطراب ، حتى يمكن تجاوزه ..

إن الإسلام صراط مستقيم وقد خرجت من هذا الصراط طرق شتى عميل بنة أو سيرة! وكان اعوجاجها بارزا كنفك في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وكان بارزا كذلك في النواحي المدنية والحضارية .. وقد خيل إلى أن الصراط المستقيم خلا من أهله في العصر الأخير ، وتزاحمت القوافل الشاردة في مسالكها التي انطلقت فيها ، ومن هنا استوحش الحق ، وأصابه ضر شديد ..

وسأختار نموذجين لهذا الشرود ، ولنتأججه في عالم المعرفة والتوجيه ..

يعرف الإسلام أمير المؤمنين على أنه وليد بيعة حرة ، أو اختيار صحيح يتجه فيه الناس إلى انتخاب أكفأ إنسان لقيادتهم ، ويعرف القائد المنتخب أن الحكم أمانة ومسئولية جسيمة ، وأنه تكليف لا مغنم ، وأن عليه الاستعانة بأهل الشورى في تعرف الصواب وتحميد الأرشد ، وأنه ليس بمعصوم ولا مستغن بنفسه بل يحتاج إلى مظاهرة الأقوياء والانتفاع بنسب الأراء ، وأنه إذا أخطأ وجب تقويمه ، وإذا عجز ترك للأمة أن تختار غيره فليست الرئاسة حقا شخصيا له أو لغيره ..

هذه مسلمات في أصول الحكم كما يعرفها الإسلام ، وهذا هو الصراط المستقيم .

لكن خط الانحراف الذي بدأ من عهد مبكر ، جعل الخلافة اختصارا وميراثا ، وجعل الحصول عليها مغنما لا مغرما ، وتوسيت أجهزة الشورى حتى لكانها وهم أو أسطورة ، واقترب من الحاكم أهل الملقى وابتعد رجال الحق ، أو أبعدوا ، واعتبروا النقد الصحيح فتنة أو خروجا ، واعتبرت للمباهة طاعة وولاءا .

من حق أن أصف الثقافة التي تنظر إلى الصراط المستقيم وهي تتحدث عن الإسلام - بأنها الثقافة الأصلية ، كما أن من حق أن أصف الثقافة التي قبلت الواقع وينت عليه وأنتنت به ثقافة خط الانحراف! ..

التوجيهات القرآنية والنبوية وتطبيقات سلفنا الصالح هي الثقافة الأصلية ، أما الواقع الذي رسمه الملوك . وتضمت به طبيعة جنس من الأجناس ، فهو علم متأثر بخط الانحراف .

وهذا العلم لا يفرضه على الإسلام عاقل ، مهما حاول أهله إعطاءه الصبغة الإسلامية ، فالقول بأن الشورى لا تلزم الحاكم ، والقول بأن الانتخاب بدعة ، والزعم بأن نقد الحاكم نقض للبيعة ، وأن على الجمهور أن يصبر على غصب المال ، وضرب السياط .. إلخ ، كل ذلك من وحى خط الانحراف وليس من معالم الصراط المستقيم .

والعرب جنس له محامده ومعائبه ، ومن معائب العرب العصبية للأسرة ، والتعالي بالنسب ، وحب السلطة والحرص على الإمارة وقد جعلوا منصب الخلافة يحمل معلم شيخ القبيلة ، الذي يقول فيسمع ويأمر قبطاً! ..

وأرى أن هذه الحفصا السيئة في طلب الحكم ، والتصدير بالدعوى أساعت قديماً للإسلام وتسىء يومنا هذا للعرب .

والفقهاء الناصرون ، لله ورسوله ، يفصلون بين طبيعة جاهلية فرضت نفسها ، ودين قوم يجب أن يهود .

وقد ألف عبد الرحمن الكواكبي كتابه وطبائع الاستبداد لينصف الإسلام عن حكموا باسمه وكذبوا عليه ، وفيه يقول : «لست يد تحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بيهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب العتدى فيضع كعب وجهه على أفواه الألفوف المولفة ، يسد بها عن النطق بالحق ومطالبتها به! والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلاهما تتنزل ولا تتملك! وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه! هل خلقت خادمة له؟ أو هي جاءت به لخدمتها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف في وجه الظالم المفسد تقول له : لا أريد الشرا ، ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قوياً لم يجرؤ على ظلمه» (١) .

ومن الحكام من يحاول استجلاب صورة للشورى بها شبه من «ديمقراطية» الغرب! شبه التمثال الميت بالجدس الحي ، قن الشيخ محمد عبده في وصفها :

(١) الإصلاح لأحمد أمين .

ولو حدث أن إنساناً عرض وجهة نظر غير ما يرى الحاكم لتعرض للتلف ، فإن أمام كل لفظ يقوله نقياً عن الوطن أو إزاء حقاً للروح أو تجديداً من المال!

والواقع أن المستبد في كثير من الأقطار الإسلامية برعوا في تزوير الشورى ، عندما ألجأهم الظروف إلى مجالسها ، حتى أسست الجماهير بين استبداد صريح أو استبداد متافق !!

إن حقوق الإنسان وحقوق الشعوب هي الوجه المقابل في ديننا لعقيدة التوحيد ، وأحسب أن سدة الوثنية السياسية لا يغفلون شراً ولا أذى عن سدة الأضنام .

وهؤلاء للأسف يجيدون تحريف الكلم عن مواضعه وتطويع النصوص لخدمة السلاطين ..

وهناك نموذج آخر لطغيان التقاليد الموروثة على تعاليم الإسلام! ..

كان العرب في جاهليتهم يكرهون الأثني ويتشاءمون لولدها ، وقد اشتطت بهم هذه الكراهية حتى حملتهم على ارتقاء جريمة لا تعرف في جنس آخر ، جريمة وأد البنات ، ولست أدري : أظن خشية المار كما يزعمون! أم هو إحياء ديني ضال؟ كما يفهم من الآية الكريمة :

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُردُّوهُمْ وَلِيُلبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ (١)

ليكن هذا أو ذاك ، لقد جاء الإسلام فبطل الأحوال ، وكرم الأثني وأوصى بالمشاشة عند مولدها ، وزعماء طفلة وفناة وأماً .. وأعطاهما في المجتمع حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي العبادة حق التردد على المسجد من الفجر إلى العشاء ، وفي التعليم ماتكامل به إنسانيتها فلم يفصرها على نصيب محدود! ..

وكان أن علا شأن المرأة ، فبايعت ، وجاهلت ، وحقت لنفسها ما يشرف نوعها ، وظفرت المسلمة بما تنظر به امرأة أخرى! ..

ثم غلبت تقاليد الجاهلية العربية شيئاً فشيئاً حتى أقبل العصر الحاضر ، والمرأة محظورة عليها أن تدخل مسجداً (!) في أغلب العواصم - خصوصاً المحافظة - أما حق التعليم فإنه لولا الحضارة الحديثة ما دخلت أثنى مدرسة ولا اتهمت طالبة إلى جامعة ، كأن تجهلها فرض محتوم! ..

(١) الأنعام : ١٣٧ .



## ٧٨. موقف الإسلام من اختلاط الجنسين؟

إذا ذكر الاختلاط ارتسمت في الذهن الصورة الدميعة للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء كما استقرت في الغرب ، ولحق أن هذه العلاقات سيئة ، وأن وضع المرأة هناك لا يرتضيه ديناً ..

إن التبرج ، وإبداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العادية ، وكأن سرور المرأة لا يتم إلا إذا أثارت الانتباه ولقت إليها الأنظاراً ..

ثم حشرت النساء في أعمال شتى تتيسر فيها الخلوة ، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون؛ بل إن الحضارة الغربية في إباحتها للرقص ، واستباحتها لإرواء اللذات بسبل كثيرة ، أرخصت قيمة الأسرة ، وجعلت الزواج محدود الأثر في حماية الأعراس ، وقصر كلا الزوجين على صاحبه ..

وقد تساءل عن مكانة الدين في هذه الجاهلية السائدة؟ إن اليهودية مشغولة بتهويد فلسطين وقتل العرب ، والتصراعية مشغولة بالحملة الصليبية على بلاد الإسلام ، وتيسير الارتداد عنه بكل طريقة ..

أما حقيقة التدين بالنسبة إلى الجماهير فلا تعدو أيام العظة والأعياد السنوية .. وإن كان هناك من يقى على تدينه ، ووام بين ما يعرف وما يرى ..

إن الحضارة البشرية السائدة في العالم اعتبرت اللذات الجسدية حقاً طبعية ، ولم تر في الاعتراف بها ما ينافي الأخلاق ، ووجهت نشاطها بعد ذلك إلى الميادين العملية ، من مدينة وعسكرية ، وسبقت سبقاً بعيداً ..

أما الأمة الإسلامية فإنها لم تسر مع فطرة الإسلام المقررة ، ووضعت أمام الزواج عقبات اقتصادية واجتماعية صعبة ، وأنشأت تقليد صارمة في إمكان رؤية كلا الجنسين للأخر ..

وعند التماثل نجد هذه التقاليد مبنية على الرياء ، والجهل ، والكبرياء الزعومة ببعض الأعراق . ثم دعوى التدين ! .

وانكمشت إنسانية المرأة حتى كاد ميراثها يحتاج كله ، وحتى أصبح إذن في عقد الزواج شكلاً لا حقيقة له ، وإذا اقترفت فاحشة قُتلت ونجا الطرف الآخر ..

والقاعدة العامة أنها لا ترى أحداً ولا يراها أحد ، وخط الانحراف في هذه المسألة أساء ولا يزال يسيء إلى الإسلام ، ويضع العواقب أمام دعوتها ..

هذا لون من العلم الذي أشاعه خط الانحراف في تاريخنا وثقافتنا ، وهو علم لا يعنى بعض للتدين غيرهما إذا وجدوا في الميدان السياسي أنه لا شورى ، ولا أجهزة لها ، ولا ضوابط للحكم الفردي ، نسا النصوص المهمة ، وأخذوا صورة الإسلام من الواقع السيئ ..

وإذا وجدوا أن المرأة كم مهمل ، وأنه لا مكان لها في مدرسة أو مسجد ، وأنه لا يجوز أن ترى أحداً أو يراها أحد ، تجاوزوا القرآن والسنة ، وحكموا على المرأة بالاعدام الأبدي ! .

وقد رأيت هؤلاء يختلفون الأحاديث ، أو يقرؤون الضعيف منها أو يهملون الصحيح لتغير الزمان ، ويحدث هذا كله في وقت تعمل فيه البشرات من كل ملة على تصير المسلمين ، بل إن المجندين في الجيش اليهودي يسبقن الرجال عندنا في صناعات الموت<sup>(١)</sup> .

إننا نحذر الأمة من العلم الديني للفشوش ومن قناتين يهدمون الحق ، على حين يبنى غيرهم الباطل ..

(١) رجع كتاب عن ضرورة ضرب النقاب على وجه المرأة للسلمة كي يتم إيمانها وبكل دينها ومن بين ما قال مؤلفه : «حرم الإسلام الربي ، وكشف الوجه ضيق إليه ، فما أتى إلى إخراج حرام» ، وتعجب نحن لهذا الاستدلال ، فإن الإسلام لأوجب كشف الوجه في الحج والعمرة ، وجعله الأسس عند أداء الصلوات كلها ، فهل كان الإسلام بهذا لكشف يهدد للفاحشة؟ ومن أغرب ما قرأت تطبيق المؤلف على حديث المرأة اختصية التي إذا أتت بـ «نقبة» مكتوفة لوجه . ثم بأنها بتغطيته ، قل: لعل التي أمرها بالنقاب .. فلم لم يغل الرواة لنا ذلك؟ ..

وعندى أن تقاليد الغرب إذا وصفت بأنها لا شرف لها ، فإن التقاليد الشرقية لا عقل لها ، الأولى فاضحة والأخرى فادحة وضحايا التقاليد المرعبة هنا وهناك ، كثيرة ومتشابهة ! ..

فلننظر إلى تقاليد الإسلام كما تعرف من مصادره ، ومن تطبيقات سلفه الأول ! ..

لا كما يزعمها أشخاص درسوا خط الانحراف ، ورأوا أن يشلوا المرأة معتويا إذا كان أبائهم قد وأدوها مادياً ! ..

المرأة في الإسلام تقدر على التردد خمس مرات كل يوم بين بيتها والمسجد ، ومتروكة لضميرها ألا يكون ذلك على حساب خدمتها لزوجها وولدها ، ومتروكة لرب البيت المؤمن ألا يمنعها من ذلك مدامت قد أدت واجبها نحو بيتها .

وفي المسجد لا يختلط الحاييل بالتابل ، فلرجال صفوفهم وللنساء صفوفهن ! والنساء سواقر أى مستورات الأجسام ماعدا الوجه والكفين ، هل يسمى هذا اختلاطاً ؟ .. إن الرؤية مكنته في المسجد ، وفي أثناء التردد عليه ! لكن أى رؤية؟ مع غرض البصر ! وأدب النفس ، فإذا رأى رجل محاسن امرأة لم يعاود النظر ليمتلئ ، فذلك مرفوض ، له النظرة الأولى وليس له الثانية ! .

إن هذه الرؤية العابرة من أحد الجنسين للأخر لا شيء فيها شرعاً ، وإن جادل المجادلون ! ..

والشارع الإسلامي تسير فيه المرأة محتشمة على ما وصفنا تذهب إلى السوق ، أو المدرسة أو إلى المسجد دون حرج !

ولنفرض أن رجلاً مر بجمع من النسوة فالتقى عليهن السلام ، إنه لم يرتكب إثماً فقد صح عن أسماء بنت يزيد قالت : مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة ، فلم علينا ، وفي رواية للترمذي فتأوى يده بالتسليم ! ..

وقد خرجت صحابيات مع الجيش - في نطاق الاحتشام الذي وصفنا - وكن يظهن الطعام ، ويعرضن الجرحى ، وينقلن الموتى ، وكافأهن الرسول ﷺ ببعض الهدايا ! ..

ووقفت ملياً عند حديث رواء البخاري ، أضمه بين أيدي المؤمنين ليروا فيه بعض معالم المجتمع الأول ، عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : أخى رسول الله بعض ( بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، فرأى سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، أي رأى ثيابها رديئة الهينة ، فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ! ..

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، وقال له : كل . فقال : إني صتم ! فقال سلمان : ما أنا بأكل حتى تأكل ، فأكل ! .. وترك صومه . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال له سلمان : تم : فنام ! ..

فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصلياً فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ولاهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه ! فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صدق سلمان . .

قلت في نفسي : إن البيئة التي يصنعها خط الانحراف ترى في سؤال سلمان لأم الدرداء جرعة ، وتزرى في إجابة أم الدرداء جرعة أشد ، وربما عاجلت هذا بضرب تزهر فيه الروح أو يترك عاهة مستديرة ! .

ولا أدري كيف يتم الزواج في هذه المجتمعات المغلقة ؟ يكاد يكون نوعاً من المقامرة ! ومن أجل ذلك عرف العرب في عواصم أوروبا وأمريكا بالسماح الجنسي ، وغلقت بيوت لا تحصى على آلاف العوانس ! والسبب في ذلك تقاليد فرضها العرب من عند أنفسهم على المسلمين ما أنزل الله بها من سلطان .

لا أصف المجتمع المسلم بأنه متفلق أو متفتح ، إنه مجتمع طبيعي تحكمه تعاليم الفطرة السليمة وحدها ! ..

المجتمع المتفلق يتراتب في حركات المرأة كلها ، ويفسرهما بابتغاء الشر ، أو يخشى عليها ذلك ، ومن ثم فهو يحرم المباح ويضع السدود ، ويتناول النصوص بالتأويل ، أو يتوى الضعيف منها ويقصف القوى ، وينتهي بحج شخصية المرأة .

والمجتمع المتفتح يضع عنان المرأة في يدها ، ويحرض الذئاب على نهشها ، ويستغل اعتراضه بشخصيتها كي يستغل ضعفها في مياله ! ..



$$(A) \text{ HET}^{\circ} : \phi A$$

... ان الله يحب المتكفلين ... ان الله يحب المتكفلين ... ان الله يحب المتكفلين ...

[illegible]

၆၈၄၉၆၈၇၅၃၁၂

[illegible]

الذي هو في الحقيقة من الناس الذين هم في الحقيقة من الناس

[illegible][illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

לְאֵלֶיךָ יְהוָה אֱלֹהֵינוּ וְעַתָּה

የገንዘብ ምንጭ ለማወቅ የሚያስፈልግ የሆኑትን ሰነዶች ለማግኘት ማስታወሻ

[illegible]

1. *የጥንታዊ የግብርና ጥናት ሪፖርት*  
 2. *የጥንታዊ የግብርና ጥናት ሪፖርት*

[illegible][illegible]

وہی مصلحتوں کی ذمہ داری ہے۔ اور یہی مصلحتوں کی ذمہ داری ہے۔

[illegible][illegible][illegible][illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

[illegible]

على وجهه من عدة الشرائع

... وحصروا في رقبته معروف مثلاً ، وتوجهه الأفراد بعد ذلك لتجنب مطالبته .

[illegible]

Annals of the Entomological Society of America

[illegible]

*Journal of Management Education* 30(6)

وتتساءل : ما الجدوى آخر الأمر؟ إنه يدل أن يكون التعداد ٥٠٠ مليون، كسلان سيكون ٤٥٠ مليوناً فقط! أبعثنا تنهض الأمم؟ أو نحل العضلات الاجتماعية؟ ..  
ونلقى نظرة أوسع على العالم أجمع ، أصبح أن خبرات الأرض دون إعداد الجيش التي تنمو بالطراد؟ ..

الذي نراه أن جهوداً هائلة في الإنتاج الزراعي والصناعي تمجد عمداً في أسلحة الدمار الشامل! إن الله لم يقتل البشر بتقليل رزقه وإحاجة خلقه ، ولكن البشر يتظلمون وينتصرون بالأثرة والعدوان ..

والمسلمون يحملون وزراً مضاعفاً في تلك الفوضى ، لأنهم يجهلون ما لديهم من حقائق أو يجهدونهم ، وهوانهم الإنساني أزرى برسالتهم وزهد الآخرين فيها! ولو هبطوا إلى نصف عددهم ما أغنى عنهم ذلك! وأثبت هنا هذه الكلمة في العدد ١٥٦٠ من صحيفة «الشرق الأوسط» في عمود «أسود وأبيض» كتب الأستاذ فاروق لقمان كلمة عن اليابان وسر تطورها حضارياً وصناعياً ، وكيف أضحت ظليمة زاهية في العالم الأول ، وكيف أن أمريكا وأوروبا معا تخشيانها ، وترهبان منافستها لهما! ..

وعزاً الكاتب سر هذا الارتقاء إلى الأم اليابانية ، فهي التي تغرس في أولادها خصائص الشفوق ، والإصرار على النجاح ، وفضائل الصدق والإخلاص وحب الوطن ... إلخ .

والواقع أني أحسست بالأسى لأن الأم الإسلامية لا تعي شيئاً من هذا كله ، لقد كتب عليها باسم الإسلام المقتري عليه ألا ترى أحداً وألا يراها أحد ، ومنعت منعاً باتاً أن تدخل مسجداً أكثر من عشرة قرون! ومنعت منعاً باتاً أن تدخل مدرسة أو تلقى علماً في معهد خاص أو عام ، كأن تجهلها دين ، حتى قيل : لولا الحضارة ما فتحت جامعة أمام طالبة ، بل ما فتحت مدرسة ابتدائية!!  
وأحرزني أن يسأل الإسلام عن هذا الهوان!! .

ثم قرأت بعد ذلك تعليقاً للسيد الزبير محمد نور سليمان يؤيد فيه تعاون الجنسين في اليابان على النهوض بمسؤوليات الأمة كلها ، ويؤكد عظمة النصيب الذي تسهم به «الأم» ما يذكر بقول حافظ إبراهيم :

## الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق!

قال السيد الزبير : هذا الحديث ذكرني بأشياء شاهدتها وعشتها في اليابان . سافقتني الظروف إلى هناك على ظهر سفينة يونانية ، كنت ضمن بحارتها كانت السفينة محملة ببول صويا .. من ميناء نيو أورليانز بأمريكا إلى ميناء يوكوهاما والباقي في ميناء آخر في اليابان نفسها .. عملية التفريغ تتم دائماً لمثل هذا النوع من الحبوب ، بواسطة أنابيب كبيرة توضع داخل العنابر وتشغط الحبوب بواسطة الضغط إلى صومعة الغلال مباشرة .. أسرع طريقة لأشاهدها .. أي في غضون خمسة أيام تفرغ سفينة محملة فدرها ثمانون ألف طن .. هذا غير الذي شاهدته في ميناء الإسكندرية ، حيث مكثنا ثلاثة أشهر بالتمام لتفريغ محملة بنفس القدر من القمح بواسطة الجالات .. نصفها يضيع على سطح السفينة وداخل الماء طعاماً للسمك ، والنصف الآخر تحملها تrolleys إلى داخل البلد ، والقمح يصب من الجالات المهترئة على الأرض .. في شريط ليس له نهاية ..

إن هذه الظاهرة هي التي رأيتها في الإسكندرية وللأسف الشديد تعود إلى اليابان ، بعد أن تم تفريغ الشحنة في يوكوهاما بدناً نستعد لمغادرة الميناء ، ولكن قبل للمغادرة كان يجب تسوية أكوام فول الصويا داخل العنابر ، كي لا تيل السفينة وتعرض لخطر الغرق .. إذا كان لزاماً على المسؤولين في الميناء القيام بهذه المهمة .. بعد ساعات قليلة رأيت مجموعة من النساء عجائز يهرعن إلى السفينة وهن يحملن معدلات العمل من حبال ، ومجارف وجالات ، أقول نساء عجائز غمر أصغرهن يقارب الستين عاماً .. عمر جدتي بادع ذي بدء لم أصدق ، قلت : ربما جئن لمساعدة العمال في أشياء خفيفة .. ولكن رأيت النساء ينزلن العنابر كالشياطين ويبدأن العمل بهمة لا تعرف الكلل .. وأى عمل .. عمل شاق يصعب على الرجال الأشداء .. أنا كيجار ورجل عندما أنزل في هذه العنابر على السلام الحديدية ، العارية من أي مكان ، أشعر بالدوار والرهبة ؛ لأن عمق العنابر نحو خمسة عشر متراً ، وطوله أكثر من خمسين متراً كله مبنى من الحديد .. رأيت نساء ينزلن ويصعدن هذه السلام في دقائق معدودات .. تصحيت من هذه الأمة .. قلت إذا كانت نساؤهم يعملون هكذا ، فكيف يعمل الرجال إنهم يحققون

## ٨٠. لماذا حرم الإسلام الخمر؟ وما عقوبتها؟

بين يدي العدد ٣٨ الذي أصدرته منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨١م عن الكحول والمخدرات الخمر ، وقد أجلت النظر في صحائفه فوجدتها ملأى بالنثر من ضراوة الخمر وفكك المخدرات ، ووجدت دراسات طبية وإحصاءات اجتماعية تشير التشاؤم بسبب كثرة السكرى والمدمعنين! ..

تحت عنوان «ثمن الكأس» جاءت هذه العبارة : إن الخمر شراب يبعث على السرور والاسترخاء لدى الآلاف المؤلفة ولكن المشكلات التي تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بل تهدد بقيضاتها العرم كل الخدمات الصحية المتاحة ..

ثم يقول الكاتب «جون مادبي» إن الخمر تسببت في وفاة ما بين ٢٣٪ ، ٥٠٪ من ضحايا حوادث الطرق في البلاد المتقدمة ، وتزايدت نسبة الوفيات في العالم الثالث ، و«الكحول» مخدر يمكن أن يحطم الحياة العائلية ، ويكلف الكثيرين فقدان مكانتهم الاجتماعية ، أو وظائفهم ومواردهم التي تؤمن حياتهم! ..

كما يسبب الكحول ثلاثة من عشرة من حوادث العمل ، وهو أساس في ضعف الإنتاج ، كما أنه سبب رئيسي في ارتكاب الجرائم ، ذلك إلى جانب أن الكحول يؤدي إلى تلف الكبد ، وهو يشكل عبئاً ثقيلاً على الخدمات الصحية في جميع أنحاء العالم ، وفي أستراليا مثلاً نراه العلة الأولى وراء نصف المرضى في مؤسسات الصحة النفسية!! ..

والخمر من وراء فقدان الملايين من ساعات العمل على امتداد السنة وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها في الإنتاج - بسبب الكحول - بعشرين مليار دولار سنوياً ..

وفي مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة : إن النساء المدمعات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبد ، رغم المقادير التي يتناولنها ، كما أن

المعجزات التي لا تخطر على بال .. فلا عجب إذا رأيت اليابان في هذا العلو الشاق من العلم ، والتطور ، والتكنولوجيا والصناعات التي أفهلت أوروبا وأمريكا .. إنني أسجل هذه القصة لأنها تشير إلى عمل ما تقوم به بعض النساء وإن كنت أتردد - ولعل ذلك من آثار التربية ، وطبائع البيئة - في اختيار هذا العمل لمعجرتنا ..

بل إنني رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع «موسكو» ليلاً ، وعافت نفسي إسماع هذه المهنة لهن عندنا! ..

إن كل الذي أريده تنفيذ تعليمات الرسول ﷺ في أن النساء شقائق الرجال ، وتنفيذ الحقيقة القرآنية .. ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (١) ..

أما هذا الحق لشخصية المرأة ، وعدها للمهام الجسدية وحدها ، فذلك عوج اعتقد أن تقاليد الصحراء هي المسنولة عنه ، لا تعليم الإسلام ، ومن الظلم أن يؤخذ الإسلام بتقاليد أمة من الأمم التي دخلت فيه . على هذه الأمة أن تنقاد لتعاليم الإسلام ، لا أن تفرض تقاليداً على هدايات الله ..

استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال ، وينتهى أجلهن في سن أصغر من نظرائهن من الذكور! .

وفي مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة : عندما يشرب الأبناء الخمر ، فإن الأبناء هم الذين يدفعون الثمن .

والواقع أن الآباء والأبناء جميعًا يدفعون الثمن الفادح إن كانت العبارة الأولى هي التي رفعها الفريسيون شعارًا لهم في أعقاب الحرب العالمية الثانية! ..

وما بلغت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمر وإن دولا كثيرة في العالم الثالث تقبل على السكر وتوجه إلى الإدمان ، وليس هذا عجيبًا ، فإن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأعمى للفريسيين من وراء هذا الانحطاط للمين ..

إن الإسلام حرم الخمر ، وعلمًا من كباثر الإثم! ونظمها في سلك واحد مع الزنى والسوقة ، ففي الحديث : لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ..

وعن أنس بن مالك : لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة! عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وسافيتها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبيتها ، ومبتاعها ، وواهبها ، وأكل ثمنها!! وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها ، ومحو آثارها ، وإغلاق كل الأبواب التي تؤدي إليها .

والقرآن عددا مع الوثنية والقمار وأوامم الشرك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ (٥٦) إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُرْفِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ (٥٧) .

والخمر كل ما غطي العقل ، وأعجز الفكر أي كان مصلده يستوى فيه العنب والموز والقصب ، ويستوى فيه الجاهل والعاقل . فإن القصد واضح ، الله كرم الإنسان بالعقل ، فما أضاع العقل حرام ..

ومن السخف كذلك تصوير الشارع بحرم الخمر السائلة ، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضراوة وأعظم فكا ، وإذا كان أئمة الفقه الأفامون لم يذكروا الحشيش والأفيون فلأن بيتاتهم لم تعرفه ..

فلما ظهرت بعض المخدرات أيام ابن تيمية عددا لغوره من الخمر ، وفي أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكاين ، والملياريونا وغيرهما تغتال العقول ، وتهلك للممن وتتناصل إنسانيته فكيف تترك؟

وفي الحديث : كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، وفي حديث آخر : إن من العنب خمرًا ، وإن من التمر خمرًا ، وإن من العسل خمرًا ، وإن من البر خمرًا ، وإن من الشعير خمرًا ، وأنها كم عن كل مسكر!! ..

وظاهر من الحديث أنه يسوق تماذج ، ثم يذكر القاعدة العامة ، ونحن لانهمم بالأسماء ، ولا بالمصادر ، وإنما نهتم بالتشخيص العلمي للأشربة والعقاقير ، فما ثبت تنبيه للعقل ، أو ما أفقد المرء اتزانته الفكرى فهو محرم بيقين!! ..

ولم تكن الخمر مالوفة في البيئات الإسلامية ، وأذكر أنني في طفولتي سرت مع موكب كفيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل ، نستغرب تمايله ونستنكر سكره! وعرفت أنه سكر في حانة فتحها بعض اليونانيين في ظل الاحتلال الإنجليزي ..

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيمنة الاستعمار على شئوننا ، ثم أمنت معهودة في الأحفال «الديبلوماسية» وعلى موائل بعض المنحليين! ..

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى وأغلبهم يستحل قليلها ، وينأى عن كثيرها! وإن كان القليل عادة يجر إلى الكثير ، وتلك طبيعة عامة في الأشربة المسكرة والعقاقير المخدرة ..

ومع اضطراب الأعصاب ، وما وفدت به المدنية من موم ، رأينا من يؤثر الغيبوبة على مواجهة المكاره! ولا بأس أن يغمض بصره أو يصيرته حتى لا يرى ما يكره ..

أهو منطق العامة؟ أم هو لون من الانتحار؟ أم هو التماس السرور في الأوامم كما قال الأعرابي الأبله :

وإذا سكرت فبئسنى      رب الخمر نوق والسدير!  
وإذا صحت فبئسنى      رب الشويهة والبعير!

إن فترة الغيبوبة التي يحدثها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات سائبة دون قيد ، وتتيح الانطلاق الحيواني دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطة! ..  
وقد حكي الأدباء أن بلدية وفدت على بغداد ، وحضرت عرساً يشرب فيه المنكر ، فلما انتشت قالت : أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا : بلى ! قالت : زين ورب الكعبة!! ..

الحق أن تحريم الخمر يحفظ على الدين والشرف والخلق والكرامة .. إلا أن الأوربيين مشوا في طريقهم ، فلما رأوا المخدرات سرية التدمير للأمة حظروها بعنف ، ويوجد تعاون عالمي على مطاردة هذه المخدرات ، ومعاقبة تجارها ومتناولها ..  
أما الخمر فقد ازداد الإحساس بضرورتها في الأيام الأخيرة وتوجد حكومات غير إسلامية تحرمها - كالعهد مثلاً - لضرورات قومية ..

وفي العالمين الرأسمالي والشيوعي تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها ، وإبراز مقابيحها ، فهل ذلك يكفي؟ ..

إن الإسلام تأتى في إعلان حكمه على الخمر ، وإن كان من أول يوم ينظر إليها شزراً ، ولم يقرر مهاجمتها إلا بعد أن أقام دعائم من الإيمان ، وضوابط الأخلاق تعين على الخلاص منها ، فلما أصغر الحكم بعد هذا المهاد أريق دنان الخمر في الأزقة ، ورميت قربها في المزابل ..

أى إنه لا بد من مقدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساند الحظر ..

وجمهور الأطباء والمربين والساسة والقواد العسكريين يكافحون المسكرات في الجهود الأخيرة ، وأظن أنه لا يمنع من عقاب شاربيها إلا الخوف من التشبه بالإسلام! ..

والفقه الإسلامي يضع حدّاً لشارب الخمر قدره ثمانون جلدة ، وليس لهذا الحد سند من الكتاب الكريم أو السنة الطاهرة ، وإنما اتفق عليه جمهور الصحابة ، وأوصى به الدولة فنفذته! ومن الفقهاء من يكتفى بأربعين جلدة ..

وفقهاؤنا مجمعون على أن من سكر من أى شراب نفذ فيه الحد ، وإن أخذ أى جرعة من الخمر أسكرت أم لم تسكر حرام ، وفيها العقوبة المقررة ..

إن دولاً كثيرة عاقبت تجار الأفيون ومتناولييه بالقتل ، ولم يسلم لها كيانها إلا بهذا العقاب الصارم ، ومع أن قليلاً من الأفيون يحتاج إليه صحياً ، وفي مجلة الصحة العالمية التي أومأت إليها آنفاً : « .. إن المواد المشتقة من نبات الأفيون مثل «الكوديين» و «المورفين» مفردات مهمة في دستور العقاقير»! .. فهل شفع ذلك في تخفيف العقوبة على مروجيه ومعلميه؟ ..

فلماذا تنهون في مجال المسكرات ، ثم نشط في مجال المخدرات؟ قد تكون نسبة الكحول في البيرة وما يشبهها ٣٪ أو أزيد قليلاً ، بيد أن الملحوظ في هذه الأشرية أن قليلها يجز كثيرها ، أى إن الذى يشرب زجاجة من البيرة يتجرع من سموم الكحول مثل أو أكثر من الذى تناول كأس خمر!! ..





## ٨١. التدخين عادة شائعة، فهل للمدخن رأى فيها؟

لم يكن التبغ موجوداً على عهد النبوة حتى يصدر فيه حكم، وليست له خصائص الإسكار لدى أنواع الخمور حتى يمكن إلحاقه بها، ومن ثم فإن الحكم له أو عليه يرتبط بالأثار التي يتركها في جسم الإنسان ..

ولم أقرأ لأحد كلمة في أن للتدخين فائدة، بل إن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أطلوا القول في أضرار التدخين، ويكاد إجماعهم يتعقد على أنه سم يطيء! ..

وقد طالعت عدداً من المجلات التي تصدرها منظمة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف «التدخين نقصة والصحة نعمة والاختيار لله» ..

وفي المقال الأول من هذا العدد وردت هذه العبارات: «لقد اتضحت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الأمراض المزمنة! كما اتضح أن نسبة الوفيات بين المدخنين أزيد كثيراً من نسبتها بين رافضي التدخين! ولعل أكثر الأمراض ارتباطاً بتدخين السجائر سرطان الرئة، والتهاب الشعب، وانتفاخ الرئة، وأمراض القلب الإسكيمية، وأمراض الأوعية الدموية! وترجع ٨٠٪ من الوفيات المتزايدة إلى هذه العلل! وهناك أمراض أخرى أكثر شيوعاً بين المدخنين، هي سرطان الشفة واللسان والقم والحنجرة والبلعوم والرئة والمثانة! ويتكرر حدوث قرحة الإثني عشر بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم ... إلخ.

وقد تأملت في هذا الكلام طويلاً، ولم أستطع رده، ولكنني تساءلت: لماذا تلبو هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يرتاب فيها؟ وعلمت أن الخالق أبلغ تكوين الجسم البشري، وأودع فيه مقاومة شديدة للبلية الهاجم! كان الجسم ثوب متين النسيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخترق! بيد أن كثرة الاستعمال، ستورن قدرته يوماً فلا يتماسك أمام شيء يوضع فيه! ..

وربما ظن البعض أنه محصن ضد السرطانات وضروب الأذى المقرونة بالتدخين - وليس لهذا الظن أساس علمي - لكن يبقى ما لا شك فيه، وهو أن التدخين

مضعف عام للصحة، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره، وأن الرائحة الرديئة للنيئة من التبغ المحترق تلوث القم والأصابع والملابس والجو المحيط بالمدخنين، بل إن رائحة التدخين قريبة من التتر، ومن حق الشخص السوي أن ينفر منها ..

وجمهور كبير من المدخنين ليس واسع الثراء حتى يحرق أمواله بلا مبالاة، لقد ظهر أن الألوف المؤلفة من صرعى هذه العادة يحتاجون وتحتاج أسرهم إلى هذه النفقات الضائعة لتوفير الألبان والفواكه والأطعمة التي لا غنى عنها.

وقد رأيت الحكومات على المستوى الدولي أن تدق أجراس الخطر ضد التدخين، ولكنها اكتفت لأسباب - نضرب عن ذكرها - بإصااق لافتة على كل علبه سجائر تشير إلى ضرر التدخين!

والعدد الذي بين يدي من مجلة الصحة العالمية يقول: «... بالرغم من تحول صناعة السجائر في البلدان الغنية إلى إنتاج سجائر تنخفض فيها نسبة القطران! وسجائر مزودة بالمرشحات «الفتر» فإن السجائر المصدرة إلى العالم الثالث عموماً تحوى نسبة من القطران تزيد ثلاثة أو أربعة أمثال على ما يشابهها في البلدان المتقدمة! ..

إن حياة السكان في العالم الثالث تافهة، ولا معنى للمحافظة على صحتهم! .. والحقيقة أن التدخين بدأ يقل في أغلب الأنظار الواعية، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته، وقد قرأت في مجلة الصحة العالمية المذكورة أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠.٠٠٠ طبيب بريطاني أن نصفهم كف عن التدخين بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٥، ونتيجة لذلك انخفض معدل الوفيات بين الأطباء ..

إن شركات التدخين العملاقة تجهد ضحاياها في العالم الثالث، وقد ارتفعت نسبة التدخين بل نسبة السكر بين الألوف المؤلفة في هذه الأقطار النحبة، وافتن المعلنون في اجتذاب الفرائس الغنية، فهذه امرأة أفهموها أن التدخين يزيد جاذبيتها! وهذا عجل أفهموه أن التدخين رجولة! وهذا عامل أفهموه أن التدخين يجعله فارساً لا ينقصه من مظاهر الغرسة إلا أن يتغنى صهوة حصان، أو حماماً! وهذا امرؤ مستغرق في فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المتعقدة من سيجارة، ثم يحلم!؟ أو فيم يفكر؟ في هراء وخديعة كبرى! ..

إن التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حد الفجور في الاستخفاف والاستغلال ، فقد كتب محرم جريدة «الراية» تحت عنوان «عقاقير الموت» هذا الخبر : أجرى فريق من علماء جامعة «كاليفورنيا» دراسة خلال السنوات العشر الماضية في أكثر من عشرين بلداً من بلدان العالم النامي ، ثم خلالها تحليل نحو ٥٠٠ دواء وعقار من للمروضات الصيدلانية التي تنتجها ١٥٥ شركة عالمية وتصدرها إلى أطفالنا! ثم أصدرت الجامعة نتيجة هذه الدراسة في كتاب نشرته بعنوان «وصفات الموت في العقاقير الموردة لبلاد العالم الثالث» ..

وتؤكد النتائج أن بعضاً من كبريات الشركات العالمية ذات المكانة المرموقة في إنتاج الأدوية والعقاقير الطبية ، تسوق منتجاتها في أقطار العالم الثالث بوسائل من الإعلانات المكثوبة والدعايات القائمة على الغش والرشوة والخداع ، وتتغاضى هذه الشركات عن ذكر الأعراض الجانبية للأدوية التي تبيعها ، بالمضاعفات الخطيرة التي تنشأ عن منتجاتها ، وكثيراً ما تكون لها عواقب وخيمة وميتة ..

وأشارت الدراسات إلى أن أربع شركات وحسب من الشركات الـ ١٥٥ هي التي تلتزم بأمانة العمل وأخلاقياته ، وذكرت أن الأدوية المعروضة تنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهدئات وبين مضادات حيوية ، أو حبوب منع الحمل ..

قال المحرم : وما أننا من أبناء العالم الثالث فإن أسواقنا سوف تبقى مجالاً لهذه الأنشطة المسمومة ، وسوف تبقى مستهلكة لقادير ضحمة من أدوية الطالع فيها أضعاف المبالغ ..

الحقيقة أن الأمم الغربية لاتعدنا بشرًا مثلهم ، وأنهم ينظرون إلينا باستهانة أو بازدراء! .. إن كلمات الشرف والاستعفاف والأمانة ملغاة في معاملتنا ونحن المسئولون عن هذا السلوك الحقير ..

ومن دعاء الناس إلى ذمة ذمومهم بالحق وبالباطل!

إن قدرنا كثيراً من الأموال العربية يذهب في مطالب السرف ومظاهر الترف التي تسيطر على الخاصة والعامة! ..

والغربيون يعلمون أن تقاليد الرباء الاجتماعي هي التي تحكمنا ، وعن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا ..

الصعلوك يخرج من بيته واضعاً السجارة في فمه ، ويسته محتاج إلى بعض الضرورات ، وحسبه ذلك من مخايل الرجولة والغنى يعثر بيديه في ميادين اللهو الحلال والحرام ، وهو يعلم أن أعداءنا لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التشير فكفروا بعد إيمان! ..

وقد كنت أحياناً أنظر إلى العمال وإلى الفلاحين العائدين من الجزيرة والخليج ، فأعجب لما يحملون من هدايا! لقد أهلدوا عرقهم المبدول في أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسهروا عليها مع الأصحاب ، مضيعين بسهرهم العشاء والفجر! ومبتدئين بعدئذ نهاراً لا بركة فيه ولا إنتاج ..

لأن هذا الاستطراء - وما منه بد - ولأسأل : هل التدخين مباح؟ إنني لا أقدر على الحكم بإباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة ..

هل هو حرام؟ قد يكون حراماً على بعض الناس! وقد يكون مكروهاً عند البعض الآخر! ..

والغريب أنني قرأت لامرأة مدخنة : أن رائحة التدخين أخف من رائحة الفم الطبيعي! فأيقنت أنها هي أو يعلها مرضى! وأنهما يجب أن يذهبا إلى طبيب يشفيهما بدل أن يحكما بإباحة التدخين ، فقد قرر أطباء محترمون أن التدخين شديد الأضرار بالنساء ، وأنه قد يؤثر في صحة الجنين! ..

إن الرائحة الجميلة من شعائر الإسلام ، سواء كانت في الجسم أو في الملابس ، والرجل الكريه ينفى ألا يخالف الناس ، فإن صلاة الجمعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة !! ..

## ٨٢. ما حكمة الزكاة؟ وما نصابها؟

البخل عادة قديمة في الطبيعة البشرية، ترجع إلى حب المرء لنفسه وحرصه على مصلحته، وأزتياده في المستقبل أرتياجا بغيره بالأدخار، والجمع بعد الجمع.. والدين لا يفيض للمرء نفسه ولا يزهد في مصالحها، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوانا..

فالحيوان ما يتحرك إلا وفق قوانين اللذة والألم، إنه يستقتل من أجل قوته أو قوت صفاره الذين هم امتداد له، والعالم في عينه لا يتجاوز هذا النطاق.. والإنسان القريب من الحيوان يصبح وعسى محصورا في مآربه ومطالبه، لا يفكر أبعد من ذلك فليحى هو ولتمت الدنيا كلها بعدئذ.

وقد جاء الإسلام فخلع الفرد من هذه الأثرة، وجعله جزءا من كيان مشترك أو جسد واحد، وأفهمه أن الإيمان يقتضى محبة الآخرين والرحمة بهم، واحترام مصالحهم، وقد يقتضى الإتيار والعطاء المبرأ من المن.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وقال: ﴿وَسَبِّحْهَا الْاُتْمَى (٧٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (٧٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (٧٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢).

وعند التأمل نجد أن حب المرء لنفسه ونسيانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الآخرين، ونطلعه إلى مزيد مع فقدان غيره للضرورات الماسة؛ ولم أعرف شيئا يورث الضغائن كهذا التفاوت، إنه يحول الجماعة البشرية إلى قطع متوحش..

ومحنة الدين في المجتمعات التي تحولت إلى الماركسية أتت من ذلك التفاوت الظالم، والثوار ما كانوا حائدين على الوجود الإلهي قدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومسغبة البائسين..

وقد رأينا القرآن الكريم يعد أولئك الكهنة البطان هم السبب في كسر الناس! ويعتبر مسلكتهم صدا عن سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَكُونُوا أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَبْطَالِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبُذِّبَتْ لَهُمْ أَرْحَامُهُمْ﴾ (١).

والكلام في الزكاة فرع تنقية الطبايع من الشح، وغرس الأخوة المتحابية المتراحمة المتكاملة..

وقيل أن أعطى أحدا من مالى أنا باسم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه، وجزاء سعيه..

لقد رأيت قاعدين يشركون الآخرين في ريعهم تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان! رأيت الأعرابي يكفل عشرة من الناس ليستولى على نصف رواتبهم جميعا والإسلام يرى من هذا الجشع والغصب..

إن نور الزكاة يحى بعد إرساء قواعد الحلال والحرام، فإذا حدثت ثغرات في المجتمع بعد تسييره وفق سنن عائلة فإن الزكاة تمسح الآلام، وتشر الرحمة والوفاء، إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

لم أعرف نظاما دينيا في الأولين والآخرين اهتم بالزكاة واصلقة مثلما اهتم الإسلام، وفي كتاب الله وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الإسلام تعميم الخير وإشاعة النعمة ومطاردة البساء والفقر، وجعل يسمة الرضا يصطبغ بها كل فم!..

من قديم والناس يكرهون استئخراج المال من خزائنها، ويودون لو بقى لهم وحدهم، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة، ويكسر حداثها، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يقيثوا إلى أمر الله، وهكذا فعل الخليفة الأول، فهل يتكرر ما فعل؟..

عن الأحنف بن قيس قال: كنت في نفر من قريش لصم أبو ذر رضى الله عنه وهو يقول: بشر الكافرين برضف يحسم عليهم في نار جهنم، فيوضع على حمة لدى أحدكم

حتى يخرج من نفخ كنفه أعلاه، ويوضع على نفخ كنفه حتى يخرج من حلقة ثديه، يتزلزل، ويوضع القوم رءوسهم لما رأيت أهدأ منهم رجع إليه شيئاً؛ فأدبر، فاتبعت حتى جئت إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم؛ فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً؛ إن خليلي أبا القاسم دعنى فأجيبته، فقال: أتري أحداً؟ فقلت: أراه؛ فقال: ما يسرنى أن لى مثله خبياً أنفقه كله إلا ثلاثة دنائير؛ ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئاً؛ .

وقد جاءت عن أبي خرواية أخرى تقسم ما نقلناه هنا قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هم الآخرون ورب الكعبة؛ قلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: هم الآخرون أصولاً؛ إلا من قال هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله؛ ولليل ما هم؛ ما من صاحب؛ بل ولا بقرو ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمته، تنطعه بقرونها، وتطوه بأظفارها، كلما نلدت أخرها عادت إليه وألها حتى يقضى بين الناس؛ .

وهذا الحديث يفيد إخراج الحقوق المعلومة، والتشيط إلى كل خلل يقع في المجتمع والمسارة إلى سده، وهو ما قاله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَموالَهُم بِالْإِثْمِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجرُهُمْ عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (١).

وهذا الإنفاق المطلوب لا يعنى أبداً أن يظل المرء يتفق حتى يفلس، ويصبح مساوياً لمن كان يعطيهم فهذا فهم مستخيف، وإنما القصد قهر البخل وإحسان المواساة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فاتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فآخذها رضي الله عنه فخذها بها فلو أصابته لا وجهته، وقال: يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة؛ ثم يقعد يتكفف الناس؛ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى؛ .

وإنما شرحنا هذه القضية لأن البعض نسب إلى أبي خرو أنه يحرم الكنز، ويأمر بالشفقة حتى لا يبقى شيء؛ .

هناك حق معلوم قدر في السنة الشريفة بربع العشر في الأموال المدخورة وعروض التجارة، وينصف العشر في المحاصيل التي يتكلف فيها أصحابها، وبالعشر في

المحصولات السهلة . واختار في الأراضي الزراعية للمستأجرة أن تكون الزكاة بين الملك والمستأجر، كما اختار القول بأن الزكاة في جميع ما تخرجه الأرض من حيوب وفواكه وثمار رضي الله عنه.

وقد جلدت في ميادين المال أشياء تقتضى النظر في أحكام الزكاة المتواترة، فإن القواعد التي درستها تجعل الوزير مثلاً لا يخرج زكاة عن مرتبه الذي ينفقه في بيته، مادامت النفقة تستغرقه؛ على حين توجب الزكاة على فلاح يزرع فدان شعير، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد؛ كما أن أغلب الفقهاء القدماي لا يأخذون زكاة من فدان فاكهة يدر ألف جنيه، ويأخذونها من فدان يدر ربع هذه القيمة؛ .

وقد لفت النظر من أربعين سنة في أول كتاب كتبه إلى هذا التفاوت المشير، ومحدثت عما أسميته زكاة للمال وزكاة للدخل؛ وقد كان ذلك إشارة محدودة إلى ما يجب عمله، لاسيما أن الزكاة ليست عبادة محصنة يستحيل فيها التغيير، بل هي عبادة مبرورة بحكمة، وتترتب عليها مصالح متجددة؛ .

ثم جاء الشيخ يوسف القرضاوي فوضع كتابه فقه الزكاة الذي قلت: إنه أهم كتاب ألف في هذا الركن الإسلامي منذ بدأ تاريخنا الثقافي؛ .

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء والاقتصاديين تترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة، تبين كم تساوي عشرون مثقالاً من ذهب، ومثنتا درهم من الفضة وخمسة أوسق من الحبوب، وماذا يتركه التضخم من آثار في قيم الأنصبة؟ .

إن الزكاة عمل رافع في ديننا العظيم، وقد حصنت المجتمع الإسلامي من زلازل دكت غيره، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدرس والتطبيق الواعي، وضبط الحقوق المعلومة، وإيصالها إلى أصحابها بأشرف أسلوب.

## ٨٢. ما العلاقة بين الإسرائييين وإسرائيل ؟

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى أية قصة الإسرائييين ، ثم ينتقل السياق بفتحة إلى تاريخ بني إسرائيل . وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى صورة الإسرائييين في بعض المصاحف صورة «بني إسرائيل» ..

بل أقول : إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين «بيت المقدس» ويسترده من الصليبيين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ بعد أن لبث في أيديهم قرابة قرن : كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين في ذكرى احتفالهم بالإسرائييين إشارة إلى أن المسجد الذي ورثه الإسلام يجب أن يبقى له ، وأن العلاقة بين أولى القبيلتين وأخراها لا تنفصم ، وأنه لا الصليبية قديماً ولا الصهيونية حديثاً ستغيران سنن الله في مصائر الأم ، وإن نجحت كلتاها إلى حين في إلحاق هزيمة بالمسلمين! ..

وتعود إلى ما بدأنا به كلامنا ..

قال الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعِذِّهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١)

وعقب هذه الآية مباشرة نقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَاتِبَ وَجَعَلْنَاهُ ذِي قُوَّةٍ لِنُبَيِّنَ لِنَا إِسْرَائِيلَ أَنْ تَنْتَفِخُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ﴾ (٢)

ما العلاقة بين الإسرائييين ، وإنزال التوراة وتاريخ اليهود ، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها ، وتصوير المسلمين بعواقيبها؟

إن الإسرائييين كان من مكة إلى القدس . ولليهود في هذه البقاع تاريخاً ..

صحيح أنه لم يكن لهم وجود في فلسطين يوم وقع الإسرائييين ، بل كان وجودهم في فلسطين محظوراً ، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه ..

(١) الإسرائييين : ١٠

(٢) الإسرائييين : ٢٠

وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير ، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها في صدر سورة الإسرائييين ، وهو ما أريد الآن متابعتها من الناحية التاريخية ..

كان الكتانانيون يسكنون فلسطين قديماً وهم سلالات عربية كإخوانهم العدنانيين والقمطانيين ، ويظهر أنهم نجبروا ، وأنشأوا الرعب حيث يعيشون ، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم ، فسلط عليهم بني إسرائيل . وقد جعل الإسرائييليون أيام موسى من التضرع للكتانانيين ، وعليلهم الجبن ، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى : ﴿ إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ (١) .. فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى : ﴿ قَدْ نَدْخَلَهَا أَبَدًا مَا دَعَاؤُا فِيهَا ﴾ (٢) ..

وعوقب الإسرائييليون على جبنهم بالتبعية في سنيها أربعين سنة مات خلالها موسى ، ثم خلفه يوشع الذي قاد بني إسرائيل إلى فلسطين منتصراً على الكتانانيين ، وبأنيا حكماً دينياً باسم التوراة بعد هزيمة شعوب ! ..

بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلاً حتى نجحت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء ، زادت بها شراً على من كان قبلهم! وقد حكوا عن أنفسهم ، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل ، فقد اقترفوا ذنائب جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة ، وبدا أن السلطة في يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد ، فليسا له باهل! .. ينبغي تجريدهم منها! ..

وكانت فلسطين - حتى بعد قدوم اليهود - مليئة بأجناس أخرى ، وكان المسلك المستحب لبني إسرائيل تحجير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن «البنصميين» من أصل لا يمكن أبداً أن يرتفع ، كيف ، قالوا : إنهم سلالة «لوط» لما سكر وزنى - سنه! .. وكتبوا ذلك في سفر التكوين! ..

والقصة بقيت مكنونة ، فأتى الله لا يسكرون ولا يزنون!!

ثم جاءوا إلى لكتانانيين العرب ووصفهم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر في لمهد الجديد ، فقد لقيت امرأة كتانانية عيسى وهو يدعو في بيت المقدس ، وصاحت به : يا سيدي ابن داود ، بنتى مريضة جداً ..

وطلبت منه شفاءها! ..

(١) الإسرائييين : ٢٢

(٢) الإسرائييين : ٢٤

فقال لها : اذهبي يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب . يعنى بالبنين : بنى إسرائيل ، والكلاب : الكنعانيين ..

فقال الحزونة : والكلاب أيضاً تاكل أقدام السادة فشفى لها ابتها بعد هذه الضراعة الذليلة ..

ونحن نجزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم يستحيل أن يسلك هذا المسلك ، أو يرسل هذه الشتمات لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تجريح الأنبياء وإهانة الشعوب ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَطَبُوا أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (١)

أيكفى فى معاقبة بنى إسرائيل أن يطردوا من فلسطين؟ ..

لا .. إن الله عزلهم نهائياً عن القيادة الدينية التى كانت لهم ، وحرّمهم من الوحي وشرف إيلآخه ، وأصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة ، وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول . فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، وأصبحت الأمة العربية لا العربية هى الوارثة لإلهيآيات السماء ..

ونهض الإسلام بالعرب نهضة رائعة ، وجعل منهم حملة حضارة زاهرة ، وفوجئ العالم بالأمة التى لم تعرف إلا رعى الخنم ونقل السلع ، تتلو من كتابها أصح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد ..

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يفسار علينا واترين فيششتفى

بنان أصينا أو نغير على وتر

قمنابذالك الدهر شطرين بيننا

فمايتقضى إلا ونحن على شطر

وها هم العرب بالإسلام يعملون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال «غسان لويون» : إن العالم لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب ! ..

وكان دخول المسلمين بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع لله والبر بالناس ..

(١) آل عمران : ٢٢ .

ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والرحمة ..

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقاً آخر ، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعثتهم فى أرجاء الأرض ، فتوزعتهم المداين والقرى فى المشرق والمغرب . بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ومنهج ملحوظ ، يزعمون أنهم شعب الله المختار ، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله ، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم ، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل ..

وتفوقوا فى حاراتهم يعلمون بالعودة إلى الأرض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس ..

والغريب أنهم جعلوا أمآلهم هذه وحيا يتلى ، وأودعوها صحائف كتبهم وكان الله هو الذى أنزلها عليهم !! .. وقد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لاسيما أنهم هم الذين سعوا فى قتل عيسى ! ..

وإذا كنا على عكس النصارى نعتقد أن عيسى نجا من مؤامرتهم فلقوم على أية حال قتلة بضمائرهم . ومن ثم شرع النصارى حكماً وشعراً فى اضطهادهم وإرخاص مآلاتهم ..

وعرضت لهم مأس فى انحاء أوربا كادت تشبه بإبائتهم حتى قال نفر من المؤرخين : لولا ظهور الإسلام لغنى اليهود إنهم وجدوا فى أرضه المسيحية وسماحته الممتدة ما نفى حياتهم !!

ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام ، فألّتهم الشديدة ، وشرفهم فى حب نال ، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم . وقد كان «هتلر» الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من إكهام الذين أتلّوهم فى طول أوربا وعرضها ..

ومررت السنوات ثقيلة طويلة ، وظهرت الخلائق المستورة ، أو نبئت وتضجعت البذور الكامنة ! ..

كان المسلمون يعظون فى نوم عميق ، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بشارت قديمة .

كان يحلو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجبرية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وسدرة المنتهى ولا يأس أن يقولوا شعراً ونثراً ! .. أما الدرس الواعى للأمم



ولو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين  
لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين في هذه الأيام المجاف! ..

إن الصليبيين القدامى تقدموا في فراغ:  
كانت الفقرة بين العرب والمنافسة على السلطة هي الأسلحة التي هزمتنا بها  
أعدائنا ، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين في أية معركة جادة ما سقطت  
فلسطين ..

وكان التاريخ يعيد نفسه ، إن الصهيونيين تقدموا في الفراغ نفسه!  
أعانتهم الفقرة ، والشهوات المطاعة ، والعفائد المنحلة ، والأناية الطاغية ،  
فكسبوا معركتهم بأيدينا ..

أريد - كلما استقبلنا ذكرى الإسراء - أن نتجاوز الهامش إلى الصميم .. أن نترك  
الرد السطحي للقضية ..

أن نعمن النظر في الأسباب التي من أجلها كان الإسراء .. ولأجلها قامت  
للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية ، ونضع الموازين القسط بين الناس .

## ٨٤. لماذا كانت قبيلة العالم في أرضنا؟

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث دلالة العميقة في صلة المسلمين  
بأهل الكتاب . فقد كان بيت المقدس القبلة التي يتجه إليها أصحاب الأديان  
الساوية جميعاً .

ثم صدر الأمر إلى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس إلى مكة المكرمة! ..  
ما سر هذا التحول؟ ..

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد ولا فهموا من وحدة القبلة  
أن قرابة مشتركة تربطهم باتباعه!

الذي حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبى العيسى ، وعدوه منافسا محذورا كان  
الأمر صراع على مقعد عاجل ، أو مأرب قريب!

ولو كان أهل الكتاب متخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر ، فإن العرب كانوا  
عباد أصنام! حتى عرفهم محمد بالإله الواحد . وكانوا يعيشون ليومهم حتى أقتنعهم  
بالعمل لليوم الآخر . وكانوا لا يدرون شيئاً عن نبوة سيق حتى حدثهم عن موسى  
وعيسى وغيرهما من المرسلين! ..

فلم الضيق بهذه الرسالة؟ ومخاصمة صاحبها؟ ..

بيد أن الأمر تجاوز الخصومة المحتملة إلى ضرب من اللدد يثير الاشمئزاز . تدبر  
قوله تعالى:

﴿وَدُ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ  
أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَاصْطَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْبَاقِرُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

وإذا كانت المسلمين مسجدة تبعث من منابرهما صيحات التوحيد وتستقبل  
ساحاتها الركب السجود ، فإن أهل الكتاب تواصوا بصرف الناس عن هذه المساجد ،



وتأمروا على تهديها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ شُغِيَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمَهُ وَسَمِيَّ فِي خُرَابِهَا ﴾ (١).

فلم يبق بعدئذ مساجد لمشاركة هؤلاء الحاقدين قبلتهم ، وانبعثت في نفس الرسول الكريم الرغبة في الاتجاه إلى القبلة الأولى ، إلى الكعبة التي بناها جده الأكبر إبراهيم الخليل ، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بإذن من الله ، فليتظر ، وليؤمل ! . ثم جاء - على تلفه وشوق - الأمر الإلهي ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٢) . فاتجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة بعد قرابة سبعة عشر شهرا من الصلاة إلى بيت المقدس .

كانت هذه اللذة كافية لفصح ضغائن اليهود ، وأثرتهم للمفرطة ، وظنهم أن الدين مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون لصلحة جنس من الأجناس ، إنهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمعة رحية بين الناس ورب الناس . وقد بدا لى من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون شرا من المخدوعين بالباطل ، وأن العرب الأمين كانوا - ببقاء سرائرهم - أصلح للحياة والإحياء من أهل الكتاب المستكبرين الشرهين ..

كان أولئك العرب يعززون بكمجتهم ، ويرغبون طوال عمرهم في استبقائها ، وهم لم ينسوا أن الله حماها عندما أراد نصارى الحبشة دهمها ! وأن قوى السماء هي التي تصدت للمغربين لما عجز أهل الأرض عن الدفاع ، فإذا الجيش المعتدى يلقى ﴿ طِغْرًا أَبَابِيلَ ﴾ ترميهم بحجارة من سجيل (٣) فعلمهم كعصف مأكول (٤) .

مع ما كان للمسجد الحرام من هذه المكانة الوطنية ، فإن الصحابة قبلوا عن طيب خاطر ترك استبقاله لما هاجروا ، ولبوأ أمر الله باستقبال بيت المقدس .

كان امتحانا صعبا غير أنهم نجحوا فيه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ (٥) .

وعندما يحتدم النقاش حول القبلة التي يتجه الناس إليها ، يذكر الإسلام حقائق رفيعة ، يلقيها في مسامع كل من ينتسبون إلى دين ! حقائق لا يقرها إلا الإسلام وحده ! إنه يتساءل : ما هذا النقط حول الاتجاه إلى شمال أو جنوب ؟ ..

(١) لقرفة : ١٤٤ (٢) لقرفة : ١٤٥ (٣) لقرفة : ١٤٦ (٤) لقرفة : ١٤٧

إن الكمال البشري لا يصنعه استقبال مكان هنا أو مكان هناك ! الكمال المنشود عمل حقيقي داخل النفس الإنسانية تركوه به وتسموه ..

العظمة الإنسانية ، هي اليقين الراسخ والاستمسك بالله ، وإن هاجت المواقف وبذل المعروف وإجابة الملهوف ، ومساندة الضعفاء وإيتاء المحرومين ! .. وهي ثبات على البقاء وإن كثرت المغريات ، وللمضى على الجهاد وإن فذحت للمغارم ! ..

إن اتجاه المسلمين إلى المسجد الحرام في صلواتهم حق لا ريب فيه ، وهي قضية تنظيمية سنشرح بعد قليل أبعادها ، بيد أن ذلك لا يعنى نسيان الحقيقة في الوصول إلى الكمال الإنساني والوضوح الإلهي ، وتدبر قوله تبارك اسمه :

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) .

إن اليهود يلتزمون الشرف من الانتساب إلى نبي الله يعقوب ! والاب العظيم لا يرفع شأن بنيه إذا كانت أعمالهم باطلة ! وهم يرتبطون بالقدس والأرض المقدسة ، والأرض لا تنقسم أحدا ، إنما يتزكى المرء بالهدى والتقوى والعفاف والعدالة ! .

والخلافا بين الناس باق إلى قيام الساعة ، إنه جزء من طبيعة الحياة ، وهو بعض الحكمة في خلق الناس ! ..

لكن الخلاف مهما اتسعت شقته لا يجوز أن يكون مثار عدوان وظالم ، ولا يجوز أن يجعل الحيف حقا . ومن ثم قال الله لنبيه :

﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ آتَيْتَ أَهْرَآهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة تشير إلى خصائص أمتنا ، وإلى الرسالة التي كلفت بحملها إلى آخر الدهر ..

(١) لقرفة : ١٧٧ (٢) لقرفة : ١٤٥

إن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء ، تعرف الله ، وتلتزم هداه ، وترفض الفلسفات المادية ، والرغبات المجنونة في عبادة الحياة ونسيان ما بعدها ..

وقد شاء الله أن يذكر للعرب وظيفتهم الدولية ، عندما جعل قبلة العالمين في أرضهم وعندما طلب البشر في كل مكان أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام .. فما معنى ذلك؟ ..

إذا قيل : إن موسكو قبلة الشيوعيين في العالم ، فليس معنى ذلك اتجاه اليساريين إلى جدار في «الكورملين» بل للمعنى أنهم يستقون أفكارهم ويتلون توجيهاتهم من هناك ..

والواقع أن القرآن الكريم في سياق تحديده للقبلة قال للعرب في جلاء : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) . والآية توضح الوظيفة التي اختارها القدر لامتنا ، فإن الله اختار محمداً ليحمل أمانات الوحي ، وليكون بسيرته وسنته أسوة حسنة . وقد تلقى العرب ذلك منه ليعلموا الناس كما تعلموا ، وليهدوهم كما اهتدوا ، أو ليكونوا أساتذة للعالم كما كان محمد أساتذاً لهم . تلك وظيفتهم التي رفعهم الله إليها ، والتي لا بد من حسابهم عليها ..

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ العادي ! قد يكون المرء شاهداً في قضية لا علاقة له بقايتها ، كل دوره فيها أنه يقول الحق ، فهل هذا دور الأمة العربية في تاريخ البشرية ؟ كلا ، ربما تحول الشاهد إلى متهم إذا تبين من التحقيق أن له أصابع في وقوع الجريمة!! ..

والعرب منذ حملوا رسالة الإسلام وجب عليهم أن يستنبطوا بها وأن يرفعوا منارها ، وأن يستطيعوا بأدويتها ، ويعالجوا علل العالم بدوايتها ، فمسئوليتهم مضاعفة . الرسول أمام الله يشهد بأنه علمهم من جهالة ، وأقامهم من عوج ، وهم أمام الله كذلك مطالبون بالشهادة على سكان الأرض ، إنهم بنعيم الوحي الأعلى وقدموا من أنفسهم نماذج عملية للتقوى والإصلاح والإنصاف ! ترى هل قام العرب بهذه المسؤوليات ؟ ..

إن رباط العروبة بالإسلام وثيق ، وهذا الرباط وحده هو الذي يجعل العرب أمة قائدة رائدة فإذا هتكت حلتها به ، فهي تتحول أساس وجودها ، وهي مستحولة حتماً من رأس إلى ذنب ! أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير ، إلى أمة يدرجها الآخرون إلى الشر أو إلى الهاوية !

وقد تأكد هذا المعنى مرة أخرى في سياق تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ فَلَا يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ (١)

أي حتى تنقطع حجج العرب الحرامس على كعبتهم الضائقين بالاتجاه السابق إلى بيت المقدس ! أما أهل العناد والتشبثون بالجاهلية الأولى ، فلا تخافوهم ، فأمرهم إلى إيدبار ونارهم إلى رماد .. ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمِ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ وَقُلُوبُكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢)

أي إن الله باختياره للمسجد الحرام قبلة لكل مهمل في الدنيا ، يساعف على العرب منته ، ويتم عليهم نعمته .. وقد بدا الإنعام عليهم بانبعاث الرسول منهم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

والمعنى أن العرب بهذا الدين أصبح لهم تاريخ جديد ، وافتتحوا به صفحة مجد بائخ ما كان لهم به عهد من قبل ، ذلك أنهم يتلون آيات الحق ، ويمهدون طريق التربية الفاضلة ، ويخطون معلم الحكمة والرشد ، فليعرفوا الله حقه وليقدروه قدره ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (٤) وهكذا يخاطب الله العرب ويشرح لهم ما أسدى إليهم من جميل ! فهل نذكر ونشكر؟؟ ..

والأنبياء شهود على أهمهم البلاغ اللين ، وقد كان رسولنا ﷺ وهو يخاطب الناس في حجة الوداع يقول : اللهم قد بلغت .. اللهم فاشهدا ..

وهناك قبل شهادة الأنبياء موافق الغطرة التي أخذها الله على أبناء آدم . إن الله أودع في كل ضمير صوتاً يذكر بالله ويدفع إلى صراطه المستقيم ، ويقاوم التقاليد

(١) البقرة : ١٥٠ . (٢) البقرة : ١٥٠ . (٣) البقرة : ١٥١ . (٤) البقرة : ١٥٢ .

المتحرفة والأصوات الزائفة ، وما من إنسان إلا هو مسئول عن هذا الميثاق : ﴿ وَأَذِذْ لَكَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَائِلِينَ (١٧٧) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١) ۝

ويتضح من ذلك أن العمل الإلهي يستظهر على كل منطوق بشاهدين من العقل والنقل ، ومع ذلك ، فإن ناسا يوم الحساب سيحاولون بالكتب الإفلات من مصيرهم ..

مشركون يقولون : ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢) ۝ ودجالون مروا على الاحتيال والخداعة في الدنيا يحاولون في الآخرة أن يقوموا بالدور القديم ﴿ يَوْمَ يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُعَذِّبُهُمْ لَهُ كَمَا يَخْلُقُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (٣) ۝

وهيات أن يجدى هذا التملص مهما صاحبه حلقا ..

ولما كان محمد ﷺ شهيدا على العرب فسجاء به يوم القيامة والكتاب القيم الجامع الذي بلغه ، وبسرى عندئذ من وفي ومن غدر؟ بل من آمن ومن كفر؟ قال الله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١) ۝

إنني أحببت أن أشرح هذه القضية لأن العرب من أمد قريب أو بعيد شرعوا ينسون أو يتناسون رسالتهم بل يدا لهم أن يستقبلوا من الوظيفة الشريفة التي أترهم الله بها أو اصطفاهم لها .

وسمعا من يقول في جهل فاضح : إن العروبة شيء ، والإسلام شيء آخر! وإن العروبة يمكن أن تتفق طريقها بغير دين إلى مستقبل مكين ..

وقد استجاب نفر من الأغرار لهذه الفرية ، فإذا الأمة المسكيننة تتراجع في كل ميدان ، وتلاحقها الهزائم الشائنة في كل أفق ، ولولا بقايا إيمان ميثونة هنا وهناك لحل بها خزي الأبد ، ولكنها تقاوم اليوم ببأس شديد معتمدة على موارث الإسلام وحده .

(١) الأعراف : ١٧٧ ، ١٧٨ . (٢) الأنعام : ٢٣ . (٣) المجادلة : ١٨ . (٤) النحل : ٨٩ .

هل للعرب في قديم الزمان وحديثه رسالة أخرى غير الإسلام يمكن أن يؤدوها للعالم ؟ ..

إن محمد كنبأ وستة قامت عليهما دولة ، وأبغضت حضارها وتصلدت قافلة البشرية أمة تعزز بها وتبني عليها ، فماذا غيره في الأولين والآخرين؟ وما قدر العرب من غير محمد والإسلام ؟ ..

قال شخص غر : وهل ضروري أن تكون لأمة ما رسالة سماوية حتى تقتعد مكانة مرموقة في العالم ؟ .. ما أكثر الشعوب التي استراحت واستقرت برسالات أرضية !! ..

قلت : هذا الكلام قره عين الاستعمار والصهيونية! إنهما لا يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وثوابهم حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلا من كل سلاح فعال .

وعندما يفقد عرب فلسطين أساسهم الديني أمام أتباع التزرة فتصبح فلسطين! .. وعندما يزهد غيرهم في معتقداته الإسلامية فينتطلق التبشير العالمي دون عائق ، وتكسب الصليبية جولتها الجديدة .

لا بل إن الوثنية التي ذبحت المسلمين في «أسام» ستقطع شوطا أوسع في الإجهاز على مبدأ التوحيد ..

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لابد أن ينتهي بهذه النتائج! .. أما يحق لنا أن نحصن الأجيال الجديدة ضد هذه الحياينات الفكرية والاجتماعية؟؟ ..



## ٨٥. هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق، وجعلها نصف الرجل في الميراث والشهادة؟

في قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولاً : هل الإسلام ممتنع التعدد مخالفاً بذلك الأديان التي سبقته؟ إن الأديان كلها ، وثنية أو سماوية أباحت التعدد فلماذا يسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به؟ ..

ليس في العهد القديم حظر على تعدد الزوجات ، وقد جمع سليمان الحكيم صاحب نشيد الإنشاد العام بالفزل - ألف امرأة في بيته بين حرائر وإماء .. وليس في الأنجيل التي كتبها تلامذة عيسى عليه السلام حظر على التعدد! إن التحريم الذي وقع بعد ذلك كان تشريعاً مدنياً لا دينياً ، أو كان كتباً يعتمد على الاجتهاد لا على النص! .

قد يقال : فليح الإسلام ما وسع الأديان قبله ، وليحرم التعدد! ..

وهنا لا أجد مناصاً من توجيه سؤال آخر؟ هل اكتفى كل رجل ، أو أغلب الرجال ، بما لديهم فلم يتصل أحدهم بأخرى؟ بل أسأل الرجال الذين تظلمهم حضارة الغرب في عدة قارات : ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرة بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟ ..

لماذا يواد قبول المرأة الأخرى خليلية لا حليلية؟ لماذا يرمى ابنها لقيطاً ، أو ينشأ زنيماً ، ولا ينسب لأبيه الحقيقي؟ ..

إنني أتهم إخوتائي أهل الكتاب بأنهم استهانوا بمقاييس الخلق والحرمه ، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ، وأنهم - من الناحية الجنسية - استباحوا الأعراض واجتاحوا الفروج ، وفسدوا الشهود ، ومهدوا لما كرم ما عرفت بهذه الوفرة إلا في حضارتهم المادية الموهنة في الإنشاء ..

أيعنى ذلك أني أفتخ عن تصرفات سيئة ارتكبتها للسلمون باسم التعدد؟ كلا ، لقد عدل من لا يعدل ، وهنا مرفوض! بل عدل من لا يستطيع الإغراق على واحد! وهذا مرفوض! .

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد .. وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى يقظة القلوب وسلامة الأخلاق قبل أن يرجع إلى مطوعة القانون ، ومكاسب النساء من التعدد - والحالة هذه - ليست أقل من مكاسب الرجال! ..

أما إباحة التطلق للرجل فأحب أن أضع بين يديه هذه الروايات ، قال رجل لعمر ابن الخطاب: أريد أن أطلق امرأتى: فقال له عمر: لم؟ قال: لا أحبها! فقال له عمر: أو كل البيوت ينس على الحب؟ .. فأين التذم والوفاء؟ ..

ومشبه هذا مارواه ابن مردويه أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب: فاستأذن النبي ﷺ ، قال أنس: فقال له الرسول: إن طلاق أم أيوب محبوب: أي إثم كف عن مراده وأمسك امرأته .. وقد روى مثل ذلك من طريق آخر ، أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته، فقال النبي ﷺ : «إن طلاق أم سليم محبوب، فراجع الرجل عن مراده .. وقد يكون الأصل في هذا الإمساك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْتَمَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً بَكَبِيرًا ﴾ (١) ..

إن الحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة ، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخسه إلا لثيم ..

بيد أن سياج الأسرة لا يقيه إلا الحق الركي ، والأسر التي يمسكها القانون هي أسر على الورق وحسب . وقد سئم الأوروبيون هذا الخلد واضطروا إلى الاعتراف بلواقع المرير ، فأباحوا الطلاق في انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسة في الموضوع ..

إنني لا أدري كيف يبلع رجال الشرطة امرأة في زوجها أو رجلاً إلى امرأته! الحل الأمثل هو في قوله تعالى :

﴿ فَاِنْ سَكَرْتُمْ لَكُمْ ذِكْرُ اللَّهِ فَأَرْبُوعُ مَرَّاتٍ مَعْرُوفٌ ﴾ (٢) ..

وذلك بعد مراحل من الإنذار والإصلاح مبسوطة في كتب الفقه ..

قد يكون الطلاق حراصة لا مفر منها بعد ذهاب اليد وجفاف الخنان ونزول مشاعر أخرى على نحو ما قيل :

إن القلوب إذا تفسر ودعا

مثل الرجاجة كسر لها لا يجبر!

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) الطلاق : ٢٠



وقيل أن نحكم على ظاهر هذا الحديث ونشرح معناه نذكر حديثاً آخر يساويه في قوة السند ، وي زيد عليه في تكرار سياقاته ، وتعدد رواياته ..

هذا الحديث هو قول رسول الله ﷺ : «اطلعت في الجنة فرايت أكثر أهلها الفقراء! واطلعت في النار فرايت أكثر أهلها النساء» . وفي رواية أحمد ... فرايت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» ..

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم» ، وهو خصامة عام ..

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : «قامت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين! وأصاب الجسد البسار والعافية . محبوبون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار» ، وقامت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء!! ..

ماذا تعنى ظواهر هذه الأحاديث جميعاً ، وما أثرها المنظور في بناء الأمة الإسلامية؟؟ ..

إنها تعنى ترجيح الفقير على الغني ، والسكنة على السعة ، والصمكة على الثراء والتمكين! ..

يمكن أن تقوم دولة أو تزدهر حضارة أو يكسب للمسلمون معركة وهم واقفون عند هذه الظواهر لما روى عن نبيهم؟ ..

إن ذلك مستحيل ، والحق أن هذه الظواهر غير مرادة أصلاً ، وأن معناها فوق مستوى القاصرين ، ولذلك قلنا في كتاب آخر : إنه لا يستغنى بغير فقراء!! ..

الزعم بأن كل غنى ورفعة زعم سخيف ، فالغنى المحقور هو المكسب من سحت ، أو المكتوز لا يستفيد منه مجتمع ، والأغنياء من هذا القبيل أعداء الله وأعداء الشعوب وإذا ملأوا جهنم فهي مصير عدل ..

أما تكوين الثروات من وجه شريف ، وإيتاء حق الله فيها ، وتطويعها لإعلاء الإيمان ، وحماية الثغور فهذا محض الإيمان ..

وقد كان العشرة المبشرون بالجنة من هذا الصنف ، ولم يكن فيهم رجل مقل .. والفقر الذي أثر الغلة من حلال على الكثرة من باطل ، أو الذي ملك بجهد الميئول ولكنه ضحى بما يملك في سبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يسقى غنياً أو يسقه غنى ليس إلينا ، وإنما يبت فيه علام الغيوب ..

ثم عندما يكون عامة من دخل النار من النساء فأين يذهب قوله تعالى :

﴿جَنَّتْ عَنِّي دُخُلُوهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (١)

الواقع أن عرض الحديث النبوي دون فقه صالح ، لونه من تحريف الكلام عن مواضعه ، ومصائب الإسلام شديد من هذا التصرف! ونعود إلى حديث النساء ونقصان العقل والدين ..

صدر هذا الحديث بقي الأسرة الإسلامية شراً يشيع بين الناس ، جرؤته امرأة تحيا على خير رجالها ، وتترك فضله وتجحد حقه ، قد يخطئ الرجل ، وكل بني آدم خطاء ، وينبغي أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هي .. ولكنها بدل ذلك تغضب غضباً طائشاً ، وتسعى في ثورتها كل شيء ، وتزعم أنها ما رأت خيراً قط من زوجها ، وقد تلعن نفسها وحظها وما حدث أو يحدث لها! ..

أليس من حق النبي ﷺ أن يحذر من هذا المسلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهم إن أصررن عليه يكن من أهل النار؟؟ .. ثم يطرده الحديث ... هاريت من ناقصات عقل ودين أغضب لذي لب منك ، والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فإن الرجل قد يستكين لأمراته ، والحق معه ، حتى يوفر الهدوء في بيته! ويمنع اللجاجة والخصام! وقد يلغى فكره الصائب من أجل ذلك الهدف ما قد يدفع بالمرأة المغرورة إلى مزيد من العنت! ..

وهذه هزيمة ذئب اللب كما عبر الحديث أو أولى الألباب كما نرى في مجتمعات كثيرة تنصهر فيها رغبات النساء على عزائم الرجال ..

والمرأة - على ضعفها - تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها! قد تقول وما هذا الضعف؟ وإجابي في تكوينها الخلقي ، فإنها تضحي عليلة أو شبه عليلة خلال الدورة الشهرية لتنتعش ، وتؤثر في أعصابها وأفكارها ، وقد عذرها الله من أجل ذلك ، وأعفاها من بعض الفروض ..

إن نقرا من المتحدئين في الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أمورا لا علاقة لها به ، فصاح قاعدة كلية نشرها في طول الأمة وعرضها مفادها «النساء ناقصات

عقل ودين.، وسواء كانت «آل» للجنس أو الاستفراق فهذه الكلية الشاملة فاسدة، من ناحيتي العقل والنقل، فقد اكتملت قديماً وحديثاً نسوة أرضين الله ورسوله وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة .

وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التي قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض، وتناقض الأحاديث التي جعلت النساء شقائق الرجال ..

وزاد الطين بلة في تأليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحماقة ونقصان الدين بالمعصية، وهذا الأنوثة ترادف الخسة والهوان، وهذا التفكير امتداد للجاهلية الأولى، وهو بعض ما يشين النفسية العربية، والإسلام براء من هذا الفؤ ..

ونسأل بعد ذلك البيان: أكل امرأة تتصف بالبخل؟ أكل امرأة تتصف ببنكران الجميل؟ أكل امرأة تنهم بكفران العشير؟ ما أبعد ذلك عن واقع الحياة ..

لكن من المسلمين إلى الآن من يظن الغنى أخطر طريق إلى النار، ومن يظن الأنوثة أسرع شيء إلى جهنم ..

ونريد أن نقى ديننا لوثات هؤلاء المفتين الكذبة، وأن نصف النصوص والاختبار عن يتجهجون عليها دون وعي ..

## ٨٦. ما موقف الإسلام من المرأة في ضوء الأوضاع السائدة في مجتمعاتنا؟

إننى أسأل أولاً :

هل عوملت المرأة في العالم الإسلامي وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لما ..

إن الحاكم في مستلذه روى حديثاً موضوعاً حكم العالم الإسلامي أكثر من ألف عام، يقول هذا الحديث: لا تعلموا النساء الكتابة، ولا تسكنوهن الغرف .. أى إذا كان البيت مكوناً من طبقات لم يجز إسكان النساء في الطبقات العليا، حسين ظهر الأرض أو تحتها إن أمكن !! ..

وتطبيقاً لهذا الحديث المكذوب لم تفتح مدرسة لتعليم البنات في قرية أو مدينة خلال لقرون الماضية وأصبح تنقيف النساء من الفضول، بل من المناكر المحظورة !! ..

وروى عبدالله بن عمر قول رسول الله ﷺ: لا تصنعوا إماء الله مساجد الله، وفي رواية أخرى: ائذوا للنساء بالليل إلى المساجد فقال ابنه معترضاً التوجيه النبوي، إذ يتخذنه دخلاً - أى مهرباً لاقتراف الفاسد - والله لننممن .

فوكز عبدالله ابنه في صدره، واشتد عليه غضبه، وقال: أقول: قال رسول الله وتقول: لا .. وقاضه إلى آخر حياته ..

والغريب أن العالم الإسلامي لم يكتثر لرواية ابن عمر - على صحتها - وتبع رأى الولد السمين الأدب!! ..

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد ..

وبعد جهاد سنين طويلة للسماح بصلاة المرأة في المسجد أمكن فتح أقل من ١٠٪ من بيوت لله إماء الله، أما الكثرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيهات أن يدخلها النساء ..

كنت في دولة الإمارات المتحدة ، وشاركت في قضية جدية بالعرض ، نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو : قال الأستاذ مصطفى شردي : نحن في إحدى أمسيات الثلاثاء بمسجد سعد بن أبي وقاص . انتهى المحاضر من حديثه وبدأ التحاور .

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات . تقول صاحبة السؤال إنها متزوجة منذ سنوات ، من رجل له أكثر من زوجة . وأن زوجها لا يسمح لها بزيارة أبيها ورعايته بين الحين والآخر ، على الرغم من أن الأب وحيد يحتاج إلى الرعاية والعناية ، والشعور ببر الأبناء بأنهم يتفحصها فهل تطيع الزوج وتهمل واجب رعاية الأب ، أم تخالف زوجها وتطيع قلبها وتكون بارة بوالدها؟ أثار السؤال الهمس ، ثم سكبت الجميع انتظارك لما سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل ، وكان من الواضح أن السؤال مس أوتاراً في العديد من القلوب ، وأعتقد أن قلب المحاضر من بينها ..

حمد الرجل الله وأثنى على الرسول الكريم ، وتحدث عن التزام الزوجة بطاعة الزوج ، وكيف أن الإسلام شدد على لوفاء والتمسك بهذا الالتزام لصالح الأسرة وسلامة المجتمع ، وطلب الزوجة بأن تضاعف جهدها لإقناع زوجها حتى يسمح لها برعاية أبيها ، إلا أنه اختتم بإجابته برأى محدد اجتهد فيه فقال : إنه في حال تمسك الزوج بموقفه القاسي الغريب دون مبرر مقبول ، فإنه على الزوجة أن تبادر إلى زيارة أبيها ورعايته وتقديم حنانها إليه ، لأن النص القرآني بشأن بر الوالدين واضح وقاطع وصريح ، ولأن لهذا الزوج بالذات أكثر من زوجة تخدمه وترعاه إذا غابت عنه واحدة لأداء واجب البر والإحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها الله بأن ترعاه وتحسن إليه .

انتهى المحاضر من إجابته فاشند الهمس! وبين المحاضرين عدد كبير من المتزوجين بأكثر من واحدة وقد رأوا في إجابة المحاضر تحريصاً للزوجات على عدم الالتزام بأوامر الزوج ، حتى ولو كانت متعارضة مع المنطق ومتضاربة مع العقول! وبدأ فريق من المحاضرين يناقشون الرأي بأعصاب وتوشك على الانفلات! فقالوا : إن رأى المحاضر يتعارض مع تعليم الإسلام! ولابد من التراجع عنه! لأن طاعة الزوج واجبة قبل أي اعتبار آخر ، وتمسك المحاضر برأيه وكانت تهب عاصفة من الاحتجاجات بسبب هذا الرأي ، وتحوّل إلى مهاترة لا يسمح بها ..

الهمس أننا انصرفنا من المسجد ، وظل السؤال معلقاً بين الآراء التي اختلفت عليه! ..

كان مطلوباً من الشيخ المفتي أن يغير فتواه ، وأن يحكم بحبس المرأة في البيت ولو مات أبوها! وأيد ذلك الاتجاه أن متفيهاً ذكر حديثاً معناه أن الله رضى عن زوجة بقيت في بيتها حتى توفى والدها فلم تعد في مرضه الأخير ؛ لأن زوجها كان في سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت ! .

قلت : هذا حديث مكذوب! واستغربت أن يطلب من امرأة ما باسم الإسلام أن تعق أباه ، وتقطع به صلته ، وتدعه يموت مستوحشاً لأن هذا حق رجلها! ..

وعندما تفقد المسكينة عاطفة البنوة فماذا يبقى من كيانها الإنساني في بيت الزوجية؟ إنها ستكون أسيرة قهر فحل يملك أمرها وفهرها .. وحسب! ..

وفي الأرياف كان أغلب النساء يفقدن مبرراته الشرعي ، فتقسم الأرض على الذكور وحدهم ، ويقول الأخوة الذين اجتاحتهم الأرض : كيف تترك غريباً ينزل بأرض أبينا؟ ويعلنون بالغريب زوج أختهم! ..

فإذا حدث أن طلبت الأخت بنصيحتها الشرعي فاطمعتها إخوانها إلى الأبد! .. والأسر الشريفة لها تقليد عجيب - أعني الأسر التي تدعى الانتساب إلى البيت النبوي - فالمرأة تموت عائناً بائسة إذا لم بجشها الكفء من الأشراف ، أما الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكان! ..

ويظهر أن بنات العم سام أو العم جون لهن شرف يضارع شرفه ، أما النساء اللاتي تكبن بالدم الشريف ، فلا كفء لهن على المدى البعيد إلا الموت ! ..

وروى البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والمقتلى إلى المدينة ..

ويسند أن هذا التقليد كان قصير العمر جداً ، فاستخفى في أيام الحروب والسلام على سواء وتعتمد المستشفيات في العالم الإسلامي اليوم على للمرضات الأجانب ، وإذا كان النساء قد منعن المساجد أفكان يؤذن لهن بالذهاب إلى ميادين القتال؟



ولا أريد أن يفهم غرائى راغب فى نقل معالم الحضارة الغريبة إلى مجتمعاتنا .  
فهذه الحضارة تجمع خليطاً من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة ..

وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ ، وسلفه الأول ، وهذا مسلك يميز عنه أصحاب الخيال والشلوذ ..

لقد رأيت فى قضية المرأة أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية صححتها الغرض المدخول ، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها ..

واستغربت وأنا أقرأ لبعض الفقهاء أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد الحرام أو المسجد النبوى!

وقلت : لو كان الأمر كذلك فلم أشرف الرسول على تنظيم صفوفهن فى مسجده؟ ولم جعل لهن باباً خاصاً بهن؟ ولم ذهب إليهن فعلمهن وحشهن على الصدقة ، ولم حذر «البعض» أن يحرس على القرب من صفوفهن؟ ..

الواقع أن المرأة أولى بها أن تصلى فى البيت إذا كانت مسئولة التنفيذية أو التربية تفرض عليها ذلك ، أما إذا تخففت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا يمنعها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلاً أو نهاراً .

أى إن صلاة الجماعة ليست مؤكدة فى حقها كالرجال ، وليس يفيد ذلك فرض حصار قائل على حياتها العلمية والعبادية ، وتحويلها إلى مسخ لا مكان له فى دنيا ولا دين ، كما انتهت بذلك الأوضاع الاجتماعية فى العالم الإسلامى ..

عندما فتح النبى ﷺ مكة خرج النساء لمبايعته ، وتلقى تعاليم الإسلام منه ، ولم يحتسبن فى بيوتهن قعوداً عن هذا الغرض ، أى إن علاقة المرأة بالحياة العامة كانت قائمة ، وكانت من الناحية العملية - تسير فى خط يحاذى علاقة الرجل ، ولا ينطابق معه ..

وقبل فتح مكة اهتمت نساء كثيرات إلى الإسلام ، ورفضن البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة إلى المدينة ..

وحدث ذلك فى وقت كان للمسلمون فيه ملزمين يرد كل من يلحق بهم من مكة فأراً بدينه - تنفيذاً لمأاهدة الحديبية .

ولكن القرآن نزل يستثنى النساء من ذلك الحكم فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ ﴾ (١)

وردد أن عمر بن الخطاب كان فى ذلك الامتحان يحلف المرأة المهاجرة : الله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض! والله ما خرجت من بغض زوج! وبالله ما خرجت التماس دنياً! ونقله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ..

ماذا ترى فى هذا القسم؟ .. وفيمن أدته؟ .. ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محترمة المسلك ، تحارب وتسلم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها؟ ..

أين هذه الشخصية التى وافقت الرسول فى مكة ، ولتى هاجرت إليه فى المدينة ، من شخصية المرأة المسلمة فى القرون الأخيرة؟ ..

المرأة التى لا تعرف كتاباً ولا إيماناً ولا صلاة ولا ثقافة عامة ، بل التى يعتبر من المحبب القاضح تَن يعرف لها اسم ، أو يبدولها شبح! لأنه لا وظيفة لها إلا إعداد الطعام ، وإرضاء لبعول !! ..

## ٨٧. ما أبعاد النشاط الاجتماعي للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي؟

في النشاط الاجتماعي للمرأة يمكن أن نعرف أبعاد هذا النشاط إذا ذكرنا أن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشمل الرجال والنساء على سواء ، وذلك ظاهر قوله تعالى :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (١).

إن الأمر والنهي والصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ليست حكراً على أحد الجنسين ، ولزعم بأن المرأة تصلّي وتركي وتسكت في ميدان النصيحة زعم باطل .. والذي حدث في القرون الأخيرة ، في قرى كثيرة أن المرأة سقطت عنها هذه التكاليف كلها ، فلا تصلّي أو تركي ، إلا قبل الوفاة بفترة تطول أو تقصر بحسب الملابسات ..

على أن حراسة المجتمع تنقل من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق ، وهنا يتعد المسافة بين أقوال الفقهاء في الإمكانيات التي تعطها المرأة ، ويبلغ الاختلاف حد التضاد ..

فابن جرير الطبري يبيح للمرأة القضاء في كل شيء يجوز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء ..

ويقول الأحناف - كما جاء في البنايع - إن الذكورة ليست شرطاً لتقلد منصب القضاء في الجملة ، لأن المرأة من أهل الشهادة في الجملة ، إلا أنها لا تقضى في الحدود والقصاص لأنها لا شهادة لها في ذلك ، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة !

وهنا نسأل : ما قيمة شهادة المرأة في الحدود والقصاص ؟ والجواب أن جمهور الأئمة يرونها .. جاء عن الزهري رحمته ، مضت السنة من رسول الله والخلفيتين بعده أنه لا تجوز شهادة النساء في الحدود والنكاح والطلاق ، وفي رواية أخرى والدعاء ..

(١) توبة : ٧١ .

ويرفض ابن حزم هذا الكلام كله ! ويبيح شهادة النساء في كل ما ذكر ! ويقول في حديث الزهري : إنه بلية ، وإن إسناده منقطع ، وهو من طريق إسماعيل بن عياش - وهو راو ضعيف - عن الحجاج بن أرطاة - وهو هالك - تلك قيمة حديث الزهري عنده ..

ويرى ابن حزم قبول شهادة المرأة في كل قضية بعد مضاعفة النصاب ، فيقبل في حد الزنا ثمانين نساء بدل أربعة رجال !

والدليل الذي يعتمد عليه ابن حزم هو العموم الظاهر في حديث مسلم عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، وما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال في حديث : «ليس شهادة المرأة من نصف شهادة الرجل» قلنا: بلى ..

فقطع رسول الله بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل .. قال ابن حزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل - حيث يقبل رجل لو شهد - إلا امرأتان ، وهكذا مازاد ..

ويفسر ابن حزم قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١) .

فيقول : هنا متوجه بعمومه إلى الرجل والمرأة والحر والعبد ، والدين كله واحد ! لا حيث جاء نص بالفرق بين المرأة والرجل ، وبين الحر والعبد ، فيستثنى من عموم إجمال تسين ! ..

وقبل ذلك يقول ابن حزم : وجائز أن تلي المرأة الحكم ، وهو قول أبي حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولي القضاء امرأة من قومه - السوق ..

فإن قيل : قد قال رسول الله ﷺ : «من يفتح قوم أسندوا امره إلى امرأة قلنا : إنها قال رسول الله في الأمر العام الذي هو الخلافة ..

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «المرأة رعية على مال زوجها وهي مسنونة عن رعيتها» - وقد أجاز المالكون أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص بمنعها من أن تلي بعض الأمور ..

(١) النساء : ٥٨ .

والفقهاء متفقون على أن شهادة المرأة مقبولة في المعاملات المالية لقوله تعالى :  
﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ  
تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ١١٠ ﴾ ..

وقد نقلت في أحد كتبي كلاماً للأطباء عن اعتلال مزاج المرأة وبذنها عند  
الدورة الشهرية وقلت : لعل ذلك سر توكيد خبرها بأخرى معها ، والفضلال هنا  
يعني الذهول والشرود .

وأبادر إلى القول بأنني لست ظاهرياً ، لكنني أتبع الدليل حيث كان ، وكثيراً ما أرفض  
اجتهادات لاين حزم ولغيره من أئمة الفقه ، لأن وجهات نظر أخرى بدت لي أرجح .

وغايتي خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التي بلغتها الإنسانية كلها في هذا  
العصر الخطير ..

إن تعاليم الإسلام قسماً ، قسم مقطوع به ، لا مكان لخلاف فيه ..

وهذا القسم هو صلب الدين ومعقد أموره ، ولا أثر لاختلاف الأمكنة والأزمنة  
فيه ، والدعوة عامة إنما تكون إليه ، والمفاضلة بيننا وبين غيرنا إنما تكون عليه ..

أما القسم الآخر فهو القضايا الظنية والمسائل الخلافية .

إن الجمال رحب هنا للأخذ والرد والفعل والترك .

وقد رفض أولو الألباب أن يكون رأي مجتهد ما بمنزلة الوحي المعصوم في الأخذ  
به والتحويل عليه .

ومن ثم يجب ترك الناس أحراراً في التحول إلى غيره لسبب أو لآخر .

ولتوضيح ما أعني أريد - وأنا أعرض للإسلام في بلاد أخرى - ألا أغير سلوكا  
في هذه البلاد يرى بعض فقهاءنا ألا جرح فيه ..

فيذا كانوا يقتنون الكلاب فليفعلوا فمالك بن أنس يرى الكلاب طاهرة الريق  
والعرق ، وقد كان للفتية المؤمنين من أهل الكهف كلب يلزمهم في أحلك الأوقات .

وإذا كانوا يسمعون الموسيقى فليفعلوا ، فالغزالي واب حزم وغيرهم يرون سماعها  
ولا مسامح لزوجهم عن أمر ليس لدينا قاطع في منعه ..

(١) الآية : ٢٨٧ .

وإذا كانوا يولون النساء بعض المناصب المهمة فليفعلوا فما أستطيع باسم  
الإسلام أن أحظر عليهم ذلك ، إن الخطر عندنا رأى مجتهد ، وليس وحياً حاسماً .  
الشيء الذي أنشئت به فعلاً وتركاً ما انعقد إجماعنا عليه .

أما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة ، وعرض بعض التقاليد البدوية  
أو الحضرية على أنها الإسلام ، فهذا ظلم للإسلام ، وربما كان صدأ عن سبيل الله ..

وما أقوله هو ما كان عليه سلفنا الأول الذي نشر الدين عقائد وعبادات وأخلاقاً  
وقيماً جوهرية .. وقلما اكثرت بالتوائفه والأشكال ..

وأمر آخر أريد التنبيه إليه . أرى مع سير الزمن أن تغفل النظر في الاجتهادات  
الفقهية لتعرف بدقة نتائجها التطبيقية .

إن الأئمة الأربعة أمضوا الطلاق الثلاث ثلاثاً ولو بكلمة واحدة ، وغبرت على  
ذلك قرون ، ثم جاء ابن تيمية وغيره فجعلوا الثلاث واحدة ..

وكتت في مصر أقرب أثر الطلاق على كيان الأسرة فوجدت صدوعاً رهيبة في هذا  
الكيان جعلتني أؤثر فقه ابن تيمية وغيره ، ولؤيد تحول المحاكم لشرعية عن رأى الأئمة .

لقد تركوا اجتهداً إلى اجتهد ، ولا حرج ، فالعصمة للوحي وليست لبشر ما ..

وما يقال في قضايا الطلاق يقال في معاملات أخرى تجارية وزراعية ، كانت  
مسرحاً رحباً لأصغار الفقهاء الأقدمين ، أنه لا فائدة لاجتهد ، والحلود لكتاب الله  
وسنة رسوله .

وبديه أننا ندع اجتهداً فقيه لاجتهد مثله ، ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين  
ومن لا قدم لهم في علوم الشريعة ..

وبديه أيضاً أننا نضاعف الأسوول حول المقطوع به ، ونستमित دون أن يسه أحد ..

وقضايا المرأة فيها تنصرص قطعية ، وفيها اجتهادات فقهية اكتنفها الخطأ والصواب .  
ويؤسفني القول بأن الجرامة على النصوص المستيقنة كان سببها تشبث المقلدين  
البله بأفكار رديئة عن حقوق المرأة العادية والعبادية ..

إن الله أمر بتغض من البصر ، ووجه هذا الأمر للمؤمنين والمؤمنات ، فجاء من  
أمر بمنع النظر أصلاً ..

فلا يجوز للمرأة أن ترى أو تُرى ، ولتحقيق ذلك تم حبسها أبداً في البيت ..

ونشأ عن ذلك الغلو قتل إنسانية المرأة وإضاعة حقوقها الدينية والمدنية ..  
ثم جاء من يعالج هذا العوج ينقل تقليد أوروبا وأمريكا ، أى استبدال داء بداء ..  
ونحن نأبى غباوة هؤلاء وانحلال أولئك! .. ونريد الأوضاع التى عرفها العهد  
النوى والفقہ الذكى الذى يدرك هذه الأوضاع ..

إن محدثاً جليل القدر كائى عبدالله البخارى نظر إلى السنن الصالح ثم  
استنتج منها دون تكلف ولا تخوف أحكاماً يرفضها اليوم بعض الناس ، ففى كتاب  
المرضى يذكر إمام المحدثين هذا العنوان «باب عيادة النساء الرجال ، وصادت أم  
الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصار .. إلخ» ..  
وفى مكان آخر شيت عنواناً آخر «باب غزو النساء وقتلهن مع الرجال» و «باب  
غزو المرأة فى البحر» .. إلخ .

ولو أن امرأة طلبت شيئاً من ذلك فى بعض البيئات التى تحترف التدين لضربت  
حتى الموت ، إنهم يقرعون البخارى للبركة لا للفقہ ..

وقد يستطيعون استنهم فينا بالقدح ، لأننا أحيينا هذه الحقائق من ديتنا السمع ..  
ومع ما ذكرنا فنحن نؤكد أن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها ،  
وأن حق زوجها وولدها أسبق من شئ الحقوق الأخرى ، وقد قرأت لوزيرة فرنسية  
وأخرى إنكليزية أن عمل المرأة فى بيتها هو رسالتها الأولى .. وهذا تفكير جيد .  
فإن منصب «ربة البيت» منصب كبير وهو فى نظرى يحتاج إلى مؤهلات رفيعة ..  
 وإنشاء الحياة وفق المقررات الإسلامية يتطلب حظوظاً مضاعفة من العلم  
والخبرة ، فكيف توائم بين شتى الأوضاع والنايات ؟ ..  
ذاك ما يتطلب حسن التفكير والتتسيق ..

## ٨٨. ما نظرة الإسلام إلى الأسرة ، وما عمل المرأة فى بنائها ؟

الذين خبروا الحياة فى أوروبا وأمريكا يؤكدون أن الأسرة وهم لا حقيقة له ، وأنها  
فى أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه ما يجب أن تقوم به لإنشاء أجيال أركى وأقوم ..  
إن البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والإناث توزعتهم ميادين  
العمل والعلم ، حتى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضنة ، وانشغل كل امرئ  
.. بعد .. بما انشغل به ..

وهم يسمعون عن جو الأسرة فى بلادنا ، وربما حملت بعض المراهقات أن تحيا فيه ،  
ولكن ليهوان الفكرى ونفسى الذى يلف المرأة فيه بصرف الكثيرات عن التعرض لاسمه .  
وعندى أن المثقفة التى تحيا خارج بيتها ليست خيراً من الجاهلة التى تعيش  
داخل هذا البيت ..

ألا فلنعلم أنها نعمة حقيقة أن تمتد الحياة من الآباء إلى الأولاد إلى الأحفاد ،  
وأن تكون الأسرة المؤمنة المستقرة هى المهاد الوثير لهذا الامتداد .  
وليس الإنتاج الحيوانى سر هذه النعمة ، إن العظمة هنا فى توارث العقائد ،  
وانتقال التقاليد الصالحة من جيل إلى جيل ..

إن الأسرة هنا حصن الدين وسياج مبادئه وعباداته ودور المرأة وأجرها كدور  
الرجل وأجره سواء سواء .

وعن عظمة هذه لنعمة يقول الله سبحانه :  
﴿ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَكُنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَينَ وَحَفْدَةٍ  
وَرَوْقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ تَبَاطُلُونَ وَيُؤْتُونَ وَيَبْعَتُ اللَّهُ هُمْ يَكْتُرُونَ ۝ ١١ ﴾

إن الرجال هم حملو الأعباء الثقيل فى قافلة الحياة السائرة ، سواء كانوا أساتذة  
أو ساسة ، أو أجراء أو رعاة فهم يمدون إلى بيوتهم قراء إلى الشاعر اللطيفة والعمون البذول ..





## ٨٩. يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأي؟

في العصر الأول وجدنا عمر بن الخطاب - وهو المشهور بغيرته - يولي على سوق المدينة الشفاء بنت عبد الله المخزومية قضاء الحسبة ، وهي وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة ..

وذكر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير النساء فيمن يخلف عمر بعد مقتله - من الستة المرشحين - فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد براه إلا استشاره ..

كانت النساء تستشارا ولم لا وقد استشار النبي أم سلمة عندما تقاضى الناس عن التحلل من عمرة الحديبية .

أما المرأة للسلمة في العصر الأخيرة فقد ماتت أدنيا وراء تقليد جاهلية ليست من الدين حتى همتنا الحضارة الحديثة بتنزعها اللادعة ومساكها الإباحية ، فلم يدرك أهل الدين ما يفعلون .. لقد طلعت في السيرة النبوية أحداث تبرز المجتمع الأول في صورة أرحم وأرحب من الصورة التي يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم ، وهي صورة قاتمة موحشة .

روى مسلم في صحيحه أن جارا فارسيا للنبي ﷺ كان طيب المرق ، فصنع لرسول الله - طعما - ثم جاء يدعو فقال : وهله - لعائشة - فقال الفارسي : لا فقال رسول الله ﷺ : لا أي لا أذهب معك وحدي . فعاد يدعو . فقال رسول الله ﷺ : وهله .. قال : لا .. فقال رسول الله : لا .. ثم عاد يدعو - للمرة الثالثة - فقال رسول الله : هذما قال الفارسي : نعم . فقاما يتنافعان حتى أتيا منزله (١) .

وروى البخاري أن أبا سعد الساعدي دعا النبي ﷺ لعمره ، وأصحابه رضى الله عنهم ، فما صنع لهم طعما ولا قره إليهم إلا امرأته أم سبيد ، فقد بلت من

(١) وما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب ، لكن الحجاب خاص بأهات المؤمنين ، كما قرر ذلك المحققون ويبدو أن الفارسي الضيف كان قد أعد طعام لوحيد فقط ولذلك تخرج من قدم فصيلين مئاة .. ولم يدرك أن طعام الاثنين يكفي ثلاثة ، وأن الرسول الكريم يريد لإناس زوجته على مائدة فارسية .

الليل تجمرات في ثور - إناء من حجارة - فلما فرغ النبي ﷺ أمأشته له - أي هرمته بيدها - فسقته تحفه بذلك - وكانت امرأته خادمته يومئذ وهي عروس .  
وبديه أن ذلك الاختلاط المحلود تم في إطار تعاليم الشريعة التي توجب على المرأة التحشمة الكاملة ..  
والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقد زعم البعض أن النقاب كان مضروبا على الوجه ، فلم يبد من المرأة شيء قط .. وهذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثني عشر حديثا في أصح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبي ﷺ ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شيء من ذلك ، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون ..

ومع ذلك فإن ناسا لا فقه لهم ولا تقوى يسلفون السواقر بلسان حاد ، مع أنهم تامات الحشمة ، ويرون انسياقا مع أفكار غبية أن وجه المرأة وبديها وصوتها عورفا ..

مات سعد بن خولة في السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملا ، وشاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة - قبل أربعة أشهر وعشرة أيام - فتركت المرأة إحداها ، وتجلت للخطاب - اكتملت وتخضبت ونهيات - فلقبها رجل اسمه أبو السنايل ، وأنكر عليها ذلك وقال لها : لعلك تهدين الزواج؟ بعد أربعة أشهر وعشر! ..

قالت : فأتيت النبي ﷺ ، وذكرته ما قيل .. فقال لها : قد حلت حين وضعت .. والقصة موجودة في الصحيحين ومسند أحمد ، وهي كقصص وقعت في آخر حياة رسول الله ﷺ ، ولا مسامح للزعم بأنها قبل الحجاب ..

إن شيئا آخر غير دين الإسلام يراد فرضه على الأمة الإسلامية ..  
والذين يريدون ذلك يتخضعون لدوافع نفسية لا لشواهد علمية ..

والشيء الوحيد الذي يذكرونه هو الناس بأهات المؤمنين ، ويقول : لو كان الناس بهن مطلوبوا في هذه القضية فلم تركه الرسول وصحابته ، ولم تركوا الوجوه مكشوفة دون اعتراض؟ .

والواقع أن تنظيم البيت النبوي خضع لظروف خاصة ، وقد صرح القرآن بذلك عندما قال لزوجات الرسول : ﴿ لَسَنَ تَجِدُنَّ مِنْ النِّسَاءِ ﴾ (١) .





كشف وجهها ، أو اتهمها بـث الفتنه وقلة الحياء . ولكن الملكين أكثر من الملك يريدون الاستدراك على المشرع الأعظم ، وإطلاق المستنهم في الناس ويريدون طي هذه السنن الصالح ، وإسراء آثار منكرة تفيد أن المرأة تغطي عينا وتبدي أخرى . . أو تغطي جسدها كله من الوجه إلى القدم ، فلا يرى منها شيء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الآخر عورة! . .

إن هذا الغلو أعقب . على امتداد القرون . آثارا اجتماعية سيئة قتلت شخصية المرأة ، وإنسانيتها وأساعت ولا تزال تسعى إلى الإسلام . .

يقول البعض : لا بأس أن تضع المرأة نقابا على وجهها اقتداء بنساء الرسول ﷺ . . نقول : ولا بأس أيضا من تحريم الزواج على المرأة إذا مات زوجها امتدادا لهذه الأسوة . . إننا نريد التزام خط إسلامي صحيح لا علاقة له بشجر الغريبات ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن . .

إن الغضب لله على العين والرأس . . أما الغضب لتقاليد ملصقة بالوحى دخيلة عليه فشيء لا تكثر له ، ولا نخشى أصحابه . .

قال لي صديق : إن الطريقة التي تعرض بها قضايا المرأة تخالف تقاليد قوية ومناهب مستقرة ، وهذا يسىء إليك وقد يعوق آراء صالحة شرحتها للناس في ميادين أخرى . . قلت : نصيحة مقدورة . . وأحب أن أذكر لك ما عندي لتدرك ما هنالك .

إننى في هذه القضية وفي غيرها أرفض الأحاديث الموضوعة الواهية ، ولا أحترم التقاليد التي تبنى عليها . . إن العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه ، والأساس المرحى هو كتاب الله وسنة رسوله . .

وإننى أعوذ بالله أن أكون قد خرجت عليهما ، إن التواتر يحكمنى والصحيح يلزمى . . أما المرويات الأخرى فلا أكرث .

ومازلت أذكر أن رئيس جماعة إسلامية كتب مقالا ضدى تحت عنوان «مدير المساجد يكذب رسول الله» . .

وقد اشعر جلدى من التهمة ، فأنا أحد الأرقاء لجميل محمد ، الشاعرين بعظمته ، التابعين لسيرته ، فكيف أكنيه!! ومحمور المقال حديث منكرو يقول إن المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد . .

والذى يصدق هذا الكلام يجب أن يكتب للتواتر والصحيح في قضايا المرأة كلها! وهذا مافعله البعض وأقام بعدئذ تقليد فرضها على اللين فرضا ، كيف احترام هذه للتقليد؟ . .

وهناك آثار صحيحة السند ، شرحها البعض من زاوية خاصة ، ولهم ما مالوا إليه من فهم وإن كان متعلا ، وليس لهم إلزام غيرهم . . فقولهم تعالى :

﴿ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (١)

فسره أولئك بأن الزينة لا تظهر أبدا ، ولا يجوز إظهارها بتاتا ، وإن الاستثناء هو لما يقع أحيانا من مجاذبة الريح للنقاب المصروب على الوجه . .

إن كشف الوجه كان العادة السائدة ، وربما تنقبت بعض النساء ، ولم يحدث أن النبى ﷺ اعترض امرأة سافرة ، والسنن شاهد صدق على ذلك ، وكان مجتمع الصحابة قائما على هذا الوضع دون تكبر . .

وتأمل فيما رواه الإمام أحمد في مسنده - وأخديث صحيح - قال عن أبى أسماء أنه دخل على أنس ذر <sup>يُزَيِّجُ</sup> وهو بالريذة - أيام عثمان - وعنده امرأة سوداء مشمتة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلق - الطيب - فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرننى هذه السوءاء؟ . . تأمرننى أن أتى العراق ، فإذا أتيت العراق مالوا على بدنياهم . . وإن خليلي ﷺ عيب إلى أن دون جسر جهنم طريقا ذا حدض ومزلة ، وإننا إن تأتى عليه وفى أحماننا اقتدار أخرى أن ننجو من أن تأتى عليه ونحن مواقير . .

يعنى إذا كنا خفافا في الدنيا قبلتنا على النجاة من هذا الطريق الزلق ، أما إذا أوقرنا أحمالها ونقلنا مآربها فسنهوى .

وأبو ذر يشكر امرأته لبعض صحبه ، لأنها تشير عليه بالارتحال إلى العراق ، وقد رأى الصحب المرأة ووصفوها بما قرأت . .

أعرف أن هنك من يرى أن المرأة لا يجوز أن يلمع شيعها في مكانا فما الذى يجعل هذا الكلام هو دين محمد ، إنه أمر بالغ السخف أن يرى أحدا رايأ ثم يقول : هذا هو الدين ، لا دين غيره . .

نعم قد قال : هو وجهة نظر في فقه ما ورد من آثار .

ولا أحارب هذا ، وإنما أقصم إلى الموضوع حقيقة أخرى ليست خاصة بالميدان النسائي ، وإنما تعم كل ميدان اختلف فيه آراء المجتهدين . .

هناك خلافات لا يضر بقاؤها إلى قيام الساعة ، فليقت من شاء في صلاة العجر  
أو لا يفت ، إن مذاهب المجتهدين هنا تترك آثاراً مهمة في مسيرة المجتمع .

لكن هناك من يرى أن الخمر والحشيش والأفيون سواء في الحرمة ، وهناك من  
يفرقت بينها ، بل هناك من يبيع بعضها ؛ وقد شعر أولو الألباب أن الأمم التي تقبل  
على المخدرات أسوأ حالاً وأضعف إنتاجاً من الأمم التي تشرب المسكرات ..

فهل يقبل من اتباع بعض المذاهب الفقهية القول بأن الإسلام يبيع كذا من  
المخدرات فلا تحرموا ما أحل الله ؟ ..

لماذا لا يسكت من اعتنقوا وجهة نظر ما إذا كانت الأيام قد كشفت أن وجهة  
نظرهم سيئة ؟ ..

ولماذا يريدون جعل ما يعتقدون ديناً لا يمس ؟ ولحساب من هذا التعصب والحماص ؟  
الأمر كذلك في قضايا المرأة .. إن ترددها على المساجد وتزودها بالعلم سنة  
يساندها التواتر ..

ثم نيت وجهة نظر أخرى فحرم عليها الذهاب إلى المساجد ، وحظر عليهم التعلم ..  
وهذه الوجهة لاتعدو أن تكون فهماً رديئاً لأثر ما أو تبعاً أعشى لحديث موضوع ..  
ثم انهار العالم الإسلامي كله ، وأصبح رجاله ونساؤه أمثلة مزربة للتخلف ، فإذا  
جاء من يمدح الكرامة الأدبية والعقلية للمرأة ، ويعيد الأمة إلى معالم سلفها  
الأول . قيل له : لا ! ..

والدليل ؟ فقه مغشوش ! أو نقل مريض ، أو رأى امرئ يريد التقدم بين يدى الله ورسوله  
ليجعل من سلوكه وإدراكه فتهج الذى يفرض على كتاب وسنة لا نهج غيره ..

إننا نؤكد أن التصوص على العين والرأس ، وأن اخلاف الفقهى وجهات نظر  
تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لإحداها ، وأن من حق المسلمين فى أى بلد  
أن يدعوا رأياً تبين من تطبيقه أنه حطهم فى الداخل وأزرى بهم فى الخارج ..

ولا يوصف أبداً ترك هذا الرأى بأنه ترك للدين ، بل إن أغلب ما يشيع بين  
المسلمين فى المجال الإنسانى مخالف للدين ، وليس وراءه اتباع محترم ..

من أجل ذلك كله أرفض عرض الإسلام فى هذا العصر على أنه نقاب ، أو أنه رفض  
لشهادة المرأة وعملها فيما تصلح له ، أو رفض لقيادتها للسيارة مثلاً ، ورفض لاضطلاعها  
بهم تطبيقها مع تأكيدى أن عمل المرأة فى الأسرة يصد كل أعمالها الأخرى ويحكمها ..

## ٩٠. يرى البعض أن هناك مملكة فى عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد. إلخ تؤثر فى عالم الشهادة فما قيمة هذا الرأى ؟ وما مصادر المعرفة فى هذه القضايا وأمثالها ؟

العلم الذى ينلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نوعان : دينى ومدنى ، ولكل  
منهما مصادره المحترمة بين أهله ، وحدوده التى يقرها خبراؤه ، والراسخون فيه  
والعلم المدنى متروكة للاجتهاد المطلق وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء ، ولما  
كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا ، فإن دائرتها ليست وقفاً على جنس من  
الأجناس أو عصر من الأعصار ، والسياق العلمى فيها يجرى دون توقفاً ..

وقد أفهمنا المعصوم - صلوات الله عليه - أننا فى هذا الضرب من المعرفة  
الإنسانية أحرار حرية تامة فقال : « انتم اعلم بشئون دنياكم .. »

وليت العقل الإسلامى انطلق فى هذا الميدان يستدع ويكتشف ، ويأتى  
بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى ..

إنه لا يتقيد فى حركته هنا إلا بالحقائق التى يستقر الناس عليها . ويتهون إليها ، وليس  
للوحى الإلهى دخل فى بيوته الكيميائية أو كشوفه الفلكية أو إنتاجه لصناعى .. إلخ .

أما العلوم الدينية بأساسها العتيد ، النقل عن الله ورسوله ، وتستمد مكائنها من  
قيمة النقل ، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء : الإستاذ من الدين ، ولولاه لقال  
من شاء ما شاء .

ولا يمكن اعتداد شىء ما ديناً إذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها !  
وتفاوتت قيم الثبوت تفاوتاً شاسعاً بين التواتر المقطوع به وأخبار الأحاد المعتلة التى  
يرفضها البعض ، أو التى يترخص البعض فى قبولها عندما تتعلق بفضائل ،  
أو بمناقب الرجال ..

على أن ما استقر عليه الأمر فى دوائر التشريع أن الأحاديث الضعيفة ليست مصدراً  
لحكم شرعى عملى ، وأن القضية والمفتين فى حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأثم ..

فإذا لم يكن ثمت سند من نص ديني قوى أو ضعيف ، فلا مجال للزعم بأن لله في هذا الأمر توجيهاً خاصاً ..

لناس أن يقولوا ما يقولون من عند أنفسهم ، ولكن لا مكان لإعطاء كلامهم هالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين ..

إنني أثبت هذه المقدمة وبين يدي نفل طويل قرأته لإمام من أئمة التصوف المعاصر تحت عنوان : «مراتب أهل الغيب» مايلي :

للسوفية - بحسب مراتب الأذواق والكشوف والمقامات ، مؤيدة بفاهيم الآيات والأثار - أقوال شتى في مراتب السادة (أهل الباطن) المعروفين عندهم باسم (أهل الغيب) أو (أهل الديوان) وتتلخص هذه الصورة تقريباً في الآتي :

١ - لغوث الأعظم ، ولقد الجامع ، الذي هو قدم النبي ﷺ ومجاله الروحي حول العرش .  
٢ - ثم الإمامان ، وهما : زيرا القطب عن يمينه وشماله ، ومجالهما الروحي في طرفي العرش (الفرش بقاءه ، ما دون العرش بالعين) .

٣ - ثم الأوتاد ، وهم الأقطاب الأربعة الكبار ، ومجالهم الروحي : الجهات الكونية الأربع .

٤ - ثم الأبدال السبعة ، ومجالهم الروحي : السبع الطبايق ..

٥ - ثم النقباء الاثنا عشر ، ومجالهم الروحي : البروج السماوية الاثنا عشر ..

٦ - ثم النجباء السبعون ، وهم أهل الخلة والليقات ، ومجالهم الروحي : الأفلاك والجرات ..

٧ - ثم الأخيار وهم اخواريون وأهل المعارج وعندهم بين الثلاثين والثلاثمائة ، ومجالهم الروحي : أقطار الأفق الأعلى ، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الأقطاب .

٨ - ثم المفردون ، وهم الأولياء المختارون من صالحى الأمة ، ولا عدد بحصرهم ، ومجالهم الروحي الأفق الأدنى . وأقطار المدن والقرى ..

٩ - ثم الصالحون ، وهم أتقياء الأمة وهم درجات شتى ، ومجالاتهم الروحية متعددة ، ثم إن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء ، فإذا خلا المقام انتقل إليه الخليفة ، ثم ارتفع العريف إلى رتبة الخليفة ، واختير من المستوى الثاني من هو أهل للعرفة ، وهكذا ..

وقد تختلف هذه الصورة عند بعض السادة في التسميات والأعداد وترتيب المستويات وكلها صحيح في ذاته معلل بليليه (كما قدمنا) وهو راجع إلى اختلاف

نسب المقامات وإفاضات الكشف لكن ماذكرناه هنا هو الأوثق عندنا ، والله أعلم .  
وعندنا أيضاً أن كل مستوى من هذه المستويات محفوف بأرواح كل من سبق أن

شغله من أهل الله السابقين وعلى هذا فإن شاعلة من الأحياء يعتبر مثلاً للأرواح التى سبقته ، إلى هذا المقام ، فهي تحوطه ، ومنها يستمد الكثير من السر والإفاضة .

وكما لرجعنا أقدام الأقطاب الأربعة الكبار إلى نظام أهل الملا الأعلى باعتبارهم مرجع النظام الكونى كله ، ولتناسب الرابط بينه وبين العالم الأرضى حقيقة مسلمة كذلك . مقام الإمامين أحدهما مستغرق في (الجلال) على قدم (مالك النار) ومن هنا صح مقام (الكمال) للغوث الأعظم ، جامعاً فيه بين الجمال والجلال ..

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلاً ، هما مقاماً : آدم وإدريس ، ثم إلياس وأخضر ، ومن شاء الله من أهل النبوات ، ثم من على أقدامهم من الربانيين مشهورين أو مستورين ، وكان على مقام الإمامين السعيدان : سيد الأوس والخزرج ، والسعيدان : ابن السيب وابن جبير ، والصالحان الفقهاء : أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، ولشيخان المحدثان : البخارى ومسلم وهكذا ..

ويجتمع (أهل الديوان) وهم كبار أصحاب لوظائف الغيبية ، أرواحاً وهيولاً ، في المعاهد الثلاثة المقلسة : الحرم المكى ، والحرم النبوى ، وبيت المقدس ، ثم في أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لأهل القلوب ، على توقفت وترتيب دقيقين ، فليس في الغيب فوضى ، ولا تجمد وعدم ، ولا انفصال الغريب الفصل العاشر !! هـ .

قرأت هنا الوصف للكون وحركات على الغيب والشهادة ثم تسالطت عن هذا اللون من المعرفة : فهو ماذى لشمس أطلت من علم الكون والحياة والطبيعة والكيمياء؟ ..

وكان أجوب السريع : لا .. فإن علمه الكون والحياة لا يقررون من هذا الكلام حرفاً ..  
أهو ديني تلتئم أدلته من الكتاب الكريم والسنة المطهرة؟ .

وراجعت سور القرآن كلها ، فلم أجد لهذا الكلام شاهداً ، وأخذت أتذكر ما أعرف من لسنن التى رواها البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حنبل .. إلخ ، فلم أجد لهذا الكلام شاهداً ..

قلت : هل هذا الكلام رأى فقهى يستند إلى أثر ضعيف عند الناس قوى عند صاحبه! .. إن هذه الآراء وجدت في علومنا ، ألا ترى الأحناف يحكمون بنقض

(۱) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي مَالِكُمْ سَوَافٍ﴾

وحي من الكتاب ولما سمع من القرآن وجد الله يترقب

... ॥ श्री गणेशाय नमः ॥

لكن من أين تعرف هذه التفصيلات ومداها؟

ج... الرضا على الرضا والا رضى الا رضى ، ورضي على رضى الرضا

وَأَنَّهُ

وَأَمَّا الْفُلُ فَأَنزَلْنَاهَا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ

*[Faint handwritten notes at the bottom of the page]*

...  
...

...عنه عليه السلام

...مجلسه علمیه و ادبیّه و تربیتی و اجتماعی و اقتصادی و سیاسی و فرهنگی و هنری و ورزشی و تفریحی و ...

מאז הוצאתו לאור, נחשב הספר לאחד מהמכשירים החשובים ביותר ללימודי תנ"ך.

۱۴۱۵ هـ

وَمَا يَكْفُرُ لَكُمْ وَيَعْتَدِلُ عَلَيْكُمْ وَلَا يَرْحُمُكُمْ وَلَا يُثَبِّتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَلَا يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ بَرَأَ صَفَاتِهِ

۱۰۰  
 ۱۰۱

... ..

فِيهِ أَوْ فِيهِ

وَأَن قِيْلَ لَهُ أَوْصِيْكَ بِالْمَالِ وَالْبَنِيِّ وَالدَّيْلِ قَالَ أَتُخَذُّونِي مُجْرِمًا

הנהגתו של המלך היתה נכונה וראויה לתהלת ושבחים.

[illegible]

הנה נאמר כי כל המעשה אשר יעשה יצאנו מן המעשה אשר יעשה

[illegible]

הנהגתו יפה ונכונה ונראה כי הוא יוכל להיות  
מורה ומופת לכל בני ישראל.

عن أبي بصير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أتى الله بغير عذر، لم يترك له من الله ديناً.

رسول الله ﷺ، ومن حق المسلمين في الخارج والمغرب أن يتأخروا : هذا وحسب من

١٠٠٠  
 ١٠٠٠

... ..

၂၇၂

[illegible]

وقد صدق من يتكلم في شأنه

... چنانچه از این جهت

[illegible]

*[Faint handwritten notes at the bottom of the page]*

આ નિબંધનો ઉદ્દેશ્ય છે:

وَمَا يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ رَبَّهِ الْأَعْلَى

...לכבוד הרה"ק רבי יצחק אייזיק ווייס זצ"ל

قیم: ۱۰۰۰ ریال

[illegible]

وَأَمَّا الْفُلُ فَأُرْسِلَتْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا لِيُبَيِّنَ مَا بَيْنَ أَيْمَانِهِ هَذِهِ وَأَيْمَانِ ذُو الْأُنْثَىٰ هَذِهِ ۚ فَيَقْبِضُوا عَلَىٰ الْأُتْرَاقِ فَكَانَ صَبَاحًا شَدِيدًا ۚ

وَأَمَّا الْفُلُ فَأُرْسِلَتْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا لِيُبَيِّنَ مَا بَيْنَ أَيْمَانِهِ هَذِهِ وَأَوَّلَ الْمُشْرِكِينَ

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّهْدِي اللَّهُ سَبِيلَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّضَلُّ اللَّهُ سَبِيلَهُ إِنَّ اللَّهَ ذُو الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ

הנה כי כן נראה כי המעשה הזה הוא

١٠٠٠

הנהגתו אליו כי יחזיק ארבעה חודשים ויחזירם לו.

[illegible]

القرآن، إنها من عند محمد (كذا) وإنها من عند جبريل! .. وإنها سدس من عند الله ..

وليراد هذا الكلام ضرب من الجهل رفضه المسلمون أجمعون ، فالقرآن الفاظ ومعاني من عند الله ، ولكن السيوطي حاطب ليل وجماع للحق والباطل دون تحجيص ، ونحن لا نأخذ ديننا بهذه الطريقة البهلاء ..

وأتى أعجب : لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المذكورة؟! إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة ، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما تفعل وتترك ..

ويمكن تسميته على الأخلاق الدينية ، لأن تراه النشقى لا يخرج على هذا الإطار وقد كان أبى رحمه الله صوفيا من أتباع الشيخ أبى خليل ، فما عرفته إلا كادحا يتقى الله فى رفته ، ويقرأ كتابه فى مكانه ، ويعايش الناس على الأخوة السمحة ، ولا يعرف شيئا بعد ذلك من هذه الحيات .

أخشى إذا حرص صوفية العصر على التشبث بغير الكتاب والسنة أن يجنوا على التصوف جملة وتفصيلا ، فيحتاج من أصله ..

ولهذه المناسبة نذكر ما لهجت به الألسنة أخيرا من تفسير الدكتور عبد الحليم محمود لأوائل سورة النجم .

يقول الله تعالى واصفا الوحي النازل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ علمه شديد القوى (٢) ذو مرة فاستوى (١) وهو بالأفقي الأعلى (٧) ثم دنا فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى (٩) فمن هو شديد القوى الذى استوى بالأفق ثم اقترب من الرسول فعلمه ماتعلم؟ ..

فى سورة التكوين يذكر هذا المعنى بأسلوب آخر ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١١) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١٢) .. إلى أن قال : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقى الْمُبِينِ (١٣) ..

وفى سورة الشعراء يصاغ هذا المعنى نفس فى قالب آخر : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزْلُ رَبِّ الْغَالِغِينَ (١١٧) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١١٦) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١١) ..

(١) الفكر: ٢٠-١٩ .

(٤) الشعراء: ١١٧-١١٤ .

(١) النجم: ٩-٥ .

(٢) الفكر: ٣٣ .

قلب الرسول الأمين هو ملك الوحي ، جبريل لا غير ..

لكن الدكتور عبد الحليم محمود عفا الله عنه لوى حق الآيات من أوائل النجم ، وجعل الذى دنا فتدلى ، هو الله - سبحانه وتعالى .

وهو خطأ مبين ، وينبغى عند تفسير آية ما نزلت فى موضوعها آيات أخرى وأحاديث متعددة الروايات ألا نحصر أنفسنا داخل آية واحدة ، ورواية واحدة ، ثم نتصف القول ، خصوصا عندما يتصل الأمر بذى الجلال والإكرام .  
وحب رسول الله ﷺ لا يشفع فى هذا الخطأ ..

لقد اعتمد الدكتور الفاضل فى رأيه على حديث للبخارى أخرجه من رواية شريك بن أبى نحر عن أنس بن مالك ، وهذه الرواية مجرحة ، قال النووى فى شرحه لمسلم : قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهاج أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : قدم وأخر وزاد ونقص!! يعنى فى الرواية التى أوردها البخارى عنه ..

وهذه الرواية المتكررة تصرح بأن الإسراء قبل البعث! وأن القصة كلها رؤية منام! ولن رب العزة هو الذى دنا فتدلى!

ونقل القاضى عياض إنكار أهل العلم لهذه الرواية ، قال النووى : وهذا الذى قاله القاضى عياض قاله غيره ..

وقال الحافظ عبد الحق فى كتابه «الجمع بين الصحيحين» بعد ذكر هذه الرواية عن أنس - التى أثبتها البخارى - قد زاد فيها شريك زيادة مجهولة وأتى فيها بالفاظ غير معروفة .

هذه هى الرواية التى اعتمد عليها الدكتور عبد الحليم فى تفسيره الذى نافع عنه بحرارة وأثبتته فى رسالته التى نشرها مجمع البحوث ، وهو تفسير لا يقبل بثباتا ..

ولا أدرى لم تلقى الأحكام الخطيرة بهذه الطريقة المستغربة؟ ولم لا تعود إلى كتبنا الأولى نستبين منها الرشد ؟ ..



## ٩١. ثم حرم الإسلام لحوماً معينة، وهل لذلك حكمة؟

بين العباد وربهم عقود تتصل بحقوقه جل شأنه ، أو تتناول علاقة بعضهم ببعض ، وقد تتناول علاقاتهم بالكون المسخر لهم ، والأحياء التي ظلتها لمنافعهم ..

وقد أمر المؤمنين برعاية هذه العقود والإحساس بحرمتها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ (١).

وما يتلى عليهم أربعة أنواع على الإجمال ، وعشرة على التفصيل ذكرت في

قرله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ مَيْتَةً وَالدَّمَ وَالْحُمْزَ وَالْخِنْزِيرَ وَمَا أَهْلُ الْغَيْبِ لِلْغَيْبِ بِهِ وَالْمَنْتَقَذَةُ وَالْمُتَوَفَّاةُ الْمَرْتَدَّةُ وَالْمَرْطَبَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النِّسْبِ ﴾ (٢).

والتحريم مشروح هنا لمصالح الناس ، والحفاظ على صحتهم ، ولا يقال : إن الناس تأكل الخبائث ولا يصيبها ضرر ظاهر ، أو أن الجمال غير تشرب الخمر والدخان والمخدرات ويتأخر اعتلالها ، أو تكون وعكاتها خفيفة ، إن هذا الكلام مردود ، إذ إن التحقيق العلمي أثبت أخطار هذه السموم ، وإذا كان البعض ينجو منها فلاسباب غير مطبوعة .. والأوجب أن تنتزه الجماهير عن أكل هذه المحرمات ، قرأوا من بلاد الدنيا وعذاب الآخرة ..

أول هذه المحرمات «الميتة» وهي الحيوانات أو الطيور التي توفت حتف أنفها ، وغلب أن يكون هلاكها لمرض باطن بها ، وليست الأسماك التي توفت بعد خروجها من الماء من صنف الميتة ، بل هي لحم حلال ..

ثم الدم ، أي للسفوح الذي يسيل من عروق الذبيحة ، لا يجوز تجميعه وطبخه . ولحم الخنزير لفسادته واحتوائه على جراثيم وديدان خبيثة ولحم الخنزير محظور في الآداب الأولى كما هو واضح في تعاليم العهد القديم ، وقد أحياه «بولس» ولا ندرى لماذا؟ مع أن شرائع العهد القديم ملزمة للنصارى ..

وما أهل لغير الله به ، وهذا يحرم تعبدى محض ، والمقصود قطع دابر الوثنية وما يتبع إليها بصلة؛ فما ذبح مقترنا باسم صنم أو بأى اسم آخر غير اسم الله حرم أكله ..

والأصل في الذبح أن يكون باسم الله الذى سخر وأباح ، قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَالَهُ لِمَ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ (٢) ..

ويرى فريق من الفقهاء أن ذكر الاسم الكرم مستحب وليس فرضاً ، فذكر الله مستكن في قلب كل مسلم وإن لم يجر على لسانه ، وإنما يوصف المذبح بأنه فسق إذا ذكر عليه غير اسم الله ، وقد اعتمد هؤلاء في فهمهم على سنن واردة!

وهنا قضية أخرى : هل ذبائح أهل الكتاب باسم لصليب أو باسم الكنيسة تندرج في هذا التحريم ، وتعد ما أهل لغير الله به ؟ يرى ذلك جمهور الفقهاء .

ومن رجال المذاهب من يخص المموم هنا بإباحة طعام أهل الكتاب التي قررت في آية أخرى ، وهو استدلال قد يقبل ، وإن كنت أعاف الأكل من ذبيحة على هذا النحو ولكن لا أعيب الأكلين ..

ومن أنواع الميتة المحرمة «المنتخقة» وهي التي شنت نفسها أو شقتها غيرها بأن لف جلدها حول عنقها حتى طاحت .

و «اللوقة» وهي التي ظلت تضرب حتى هلكت سواء كان بصلاً أو بما أشبهه بالعضا ..

و «المرتدية» وهي التي هوت من مكان عال ، أو داخل حفرة ، فقفلت حياتها ..

و «المرتبة» وهي التي ماتت في صراع مع حيوان آخر ظال ينطحها حتى أهلكها .

وما أكل السبع» التي عدا عليها وحش مفتسر فأعطبها ، فإذا أدرك المرء بهيمة من هذه الخمسة الأخيرة ، ولا تزال بها حياة ، فذبحها حتى سال منها الدم ، جاز أكلها ، مادام قد رأى أن ذبحه هو الذى أجهز عليها ..

أما «ما ذبح على النصب» فهو من قبيل ما أهل لغير الله به ، والنصب شاخص يقيم الناس لمنى يتواضعون عليه ، كالنصب التذكاري للشهداء ، أو للجندي المجهول مثلاً ..

والنصب عند نصب قائم أو ضريح يزار نوع من الوثنية بإياه الإسلام ، ويحرم به الذبيحة ..

إن الله الذي خلق كل شيء هو الذي مسح لبنى آدم بعض مخلوقاته منها ﴿وَأَن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكِّرُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١)، ﴿وَاللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢) .

وللنباتيين رأى في ترك اللحوم كلها لا تقرهم الأديان عليه، ولا أعرف شريعة مساوية حظرت ذبح الحيوان .

ومادام الله هو الذي أحل فينبغي التزام الأسلوب الذي قرره في الارتفاع بهذه الذبائح ورفض ما عده .

والحرمات التي أحصيناها هنا تكرر ذكرها في أربعة مواضع من القرآن الكريم على طريق القصر والحصر، مما يجعلنا نعد ما ورد من نهى عن أكل غيرها من قبيل الكراهية، وفي ذلك خلاف فقهى معروف .

وقد أطال صاحب المنار في التعليق على تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخالب من الطير، واقترى من مذهب مالك رضى الله عنه، ولا تقحم أنفسنا في هذا الميدان، وإذا يُلفت النظر إلى أن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام قد بعث بتجليل الطيبات وتحريم الخبائث! ونحن نميز بأن ما نص الشارح على تحريمه فهو من الخبائث . فما رأى فيما لم يتناوله الكتاب بنص ؟ .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : «قال نص في الكتاب على حله أو حرمة تسمان : طيب حلال، وخبث حرام . وهل العبرة في التمييز بينهما ذوق أصحاب الطباع السليمة، أو يعمل كل إنسان بحسب ذوقهم؟ كل من الوجهين محتمل . والموافق لحكمة التحريم الثاني، وهو أنه يحرم على كل أحد أن يأكل ما تستخيه نفسه وتعاظه، لأنه يضره ولا يصلح لتغذيته . ولذلك قال بعض الحكماء : ما أكلته وأنت تشتهي فقد أكلته، وما أكلته وأنت لا تشتهي فقد أكلته .»

ونحن نرى أن الاستعانة بعلم التغذية وما وصل إليه الأخصائيون في علوم الأحياء مطلوبة، ولعل ذلك يميز الخبيث من الطيب . على أننا نرفض كل احتيال على إعمال النص، فإن الإسلام حرم الخنزير مثلاً لوساخته وحمل لحمه لصدور البلاء! فإذا جاء اليوم من يقول : إنه رأى خنازير معينة على مراعى حسنة واتخذ ضمانات لإتقاء لحمها من مصادر العلل، لم تقبل قوله، ولم نستحب إغراما . . . إن ذلك يشبه ما

تزعمه شركات التبغ من أن «الفلتر» الذي تضعه في سجايرها يمنع القطران من تلوث الرئة . . ما أغتنا عن هذا كله، وفي الحلال الكثير اليسير يابض عن هذه الخيل . .

ولا يجوز تمليب الحيوان عند ذبحه، وأفضل طرق التذكية ما يخفف على الحيوان خروج روحه، وقد رأى فقهاؤنا القدامى أن يكون الذبح بقطع الحلقوم والمريء والودجين - عرفان على صفحتي العنق - أو أكثر ذلك، لتتم تنقية البدن من الدم الكائن فيها يقول صاحب المنار : «إن هذا لتحكم في الطب والشرع بغير بينة، ولو كان الأمر كذلك لما أحل الصيد الذي يأتي به الجراح ميتاً» .

ثم يقول : «وإنى اعتقد أن النبي ﷺ أطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان، ولا ضرر فيها كاللذكية بالكهربائية» (١) إن صح هذا الوصف لفضلها على الذبح، لأن قاعدة شريعته أنه لا يحرم على الناس إلا ما فيه ضرر لأنفسهم أو لغيرهم من الأحياء .

ولا أعرف الطريقة التي يؤمن إليها الشيخ رشيد! وقد عرفت أن مصانع اللحوم البقرية تضرب البهيمة قبل ذبحها ضربة تخدر أعصابها، ثم تقطع الرأس، وتغشى في تهيئة اللحم لأكله، قد تكون الصلصة التي تذهب بإحساس البهيمة ولا تذهب بحياتها مشبهة للمخدر الذي يتناوله المريض قبل جراحة يجريها الأطباء ولا شيء في ذلك بلغة .

بيد أن أعداءنا من الغربيين والشرقيين يخفون الطيور، أو يجهزون على حياتها بوسائل معجية أقسى من الذبح، وإن كانوا يعيرون النسيج! وذلك ماثله الشريعة الإسلامية .

ذلك، وقد عطف القرآن الكريم على الطيبات المباحة مثل لحوم الصيد ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَرِيعٌ حَسَابٌ﴾ (١) .

والصيد كما يكون بالكلاب المدربة والبراة والصقور يكون بالأسلحة الفاتكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ لَكُمُ اللَّهُ بَنِيٌّ مِنْ الصِّيدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ (٢) .

وفي عصونا هذا اختفت الرماح والسهام لتحل محلها الأسلحة النارية التي تقتل الصيد أو تصيبه بجراح مجهدة . وعند إدراكه حيا ينبغى أن يذبح الذبح الشرعى المعهود، وإلا فإن موته بأى أداة من أدوات الصيد السابقة يعتبر ذكاة له . .

وليس الصيد مسالة لطلاب اللغو وهواة قتل الحيوان ، بل هو مصدر من مصادر التغذية التي كان الناس ، ولا يزالون في بعض البيئات يحتاجون إليها . .

والصائد يذكر اسم الله عندما يرسل كلبه ، أو يطلق رصاصة ، وروى ابن جرير : «إذا أرسلت جوارحك فقل باسم الله ، وإن نسيت فلا حرج ، أي إن علم الذكر لا يحرم الصيد» . .

وروى البخاري أن قوما قالوا : يا رسول الله ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى! ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : **سموا عليهم واتموا** . . قال : وكانوا حديثي عهد بكفر . .

تابعت عن كتب النقاش الحاد الذي دار حول ذبائح أهل الكتاب وغيرهم من الأمم ، وكان الناس يطلبون رأيي فأقول في قلة اكتراث : من شاء أكلها مهما كانت طريقة ذبحها ، ومن شاء تركها ، واستعاض عنها بما يحب . . وألح عليّ بعض الإخوة أن أدلي برأيي في القضية . . فلم أر بأساً من نقل وجهات النظر فيها مع تعليق لا بد من إثباته . .

يقول الشيخ عبدالله بن زيد رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر : «كل ذبيحة من حيوان ، أو دجاج تجلب إلى الناس وهي مجهولة ، لا يعلم من ذبحها ولا كيف ذبحها ، فإنها تندرج في عموم الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضى الله عنها أنهم قالوا : يا رسول الله إن قوما حديثي عهد بجاهلية يأتوننا باللحم ، لا ندرى! ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : **سموا الله واتموا**» . .

وقد أباح القرآن ذبائح أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط ، وما سكت القرآن عن تحريمه فهو حلال لقول رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى فرض فرضاً فلا تضيقوه ووجد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لغيرتكم ، فلا تتبعوا سنتها» . . قد يقال : إننا نعلم بيقين أن من أهل الكتاب من يذبح باسم الصلب ، أو من يخنق الطيور ، أو من يهوى يخنق على رأس الحيوان فيقتله ، فكيف نظم شيئاً من ذلك؟ . .

قلت للسائل : هذا بحث قديم ، وقد اختلف الفقهاء فيه ، فمنهم من أخرج هذه الصور المحكية تحت عنوان «ما أهل لغير الله به» أو تحت عنوان (المنخقة) أو تحت عنوان «الموقوفة» . . واستثناهما من ذبائح أهل الكتاب المباحة . . ومن الفقهاء من جعلها من ذبائح أهل الكتاب المباحة بالنص ، واستثناهما من المحرمات السابقة ، وقال : الله أعلم . إذ أباح ألعنهم . ما يقولون وما يفعلون . من هؤلاء الفقهاء مالك رحمه الله فقد جاء في «المدة» أنه سئل عما ذبحوه للكنيسة أو غيرها ، فقال أكره ذلك ولا أحرمه!

إن الله أبلغ لنا ذبائحهم وقد علم ما يفعلونه . وقال القاضي ابن العربي للملك في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَجَلُكُمْ النِّبَاتُ وَأَطْعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كُلُّ لَحْمٍ ﴾ (١) . . قال : وسلت عن النصراني يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها هل يجوز أن نأكل معه منها ؟ فقلت : نعم كلاً منها ، فإنها طعام أحرابهم وربيانهم ، وإن لم تكن هذه الطريقة ذكاة حنثاً . . ولكن الله أبلغ لنا طعامهم مطلقاً . .

الخلاص الفقهي قديم كما نرى ، والأساس الشرعي لكل مذهب قائم ، من شاء تبع هذا فأكمل ولا حرج ومن شاء تبع هذا فامتنع ولا حرج . . ولا أشتغل بمزيد من عرض الأدلة المتقابلة لا تأييداً ولا تنقيداً ، فورا هذه القضية أمر آخر يتصل بالسلوك الإسلامي العام ، أو يتصل بحاضر المسلمين ومستقبلهم لماذا يستورد المسلمون هذه الذبائح من أنعام وطير ؟ . . لماذا عجزوا عن تنميتها وتكثيرها في بلادهم؟ هل تربية الأبقار والدجاج تحتاج إلى أخصائيين في علوم الفزرة؟ وعندما تصاب قدرات المسلمين بالشلل في مجال الثروة الزراعية والحيوانية فهل ينتظر لهم تفوق أو نجاح في الميادين الأخرى ، بـاً وبعراً وجواً؟ إن الحماس في عالم الجدل مرض عفن إذا صاحبه برود في عالم الإنتاج . . وقد رأيت التدين التقليدي يتسم بهذه الخاصية الزعجة ، قصور في فهم أو في عرض وجهات النظر المختلفة ، ثم تراشق بالتهم ، وتبادل لسوء الظن . . فإذا تطلب الإيمان ضرورة اكتفاء الأمانة بوارها ، واستغنائها عن سواها بتجر الحماس ، وخلا المبدئ . . لست من هواة التفاضل في الفروع الفقهية ، فإن أصول العقيدة والأخلاق ولتشرع تهمني وتستغرق وقتي . وما أنظر في الأمور الفرعية إلا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأقضى للترتين والمعلولين عن أماكن الصدارة . .

إن حاجة المسلمين إلى القمع لصنع الرغيف ، أو إلى الدواء لمعالجة العلل ، أو إلى اللحوم ميتة أو حية شيء . . في نظري يهدد عقائدهم ذاتها ، ويجعلهم يعيشون علة على أهل الأرض . .

فهل نوجه قدرتنا على الكلام والاعتراض إلى عمل إيجابي؟ أم تبقى مهمة بعض المستدين لعفن في الدواء ، لأنه ذائب في «الكحول» ورفض اللحم للمستورد لأن ذكاهم موضع ريبة؟ . . ثم ينتهي دورهم! . . إنني أفتقر النية الحسنة لكل من شارك في هذا البحث . . ولكن الطريق لما يهدد بعد لعمل جاد تحرك به أمة كسولة .



## ٩٢. هل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟

لست بعيداً عن هذا الميدان ، بل أحسبني واحداً من الكادحين في جنباته . لقد تلقيت العلم على مجاهدين ذوي صلاحية ، ثم قمت بتعليم شباب سبقوني سبقاً بعيداً في إحراز الرضوان الأعلى ، لأنهم ماتوا شهداء في سبيل الله ..

إنني لمست بيدي صحوة الإسلام في هذه الأيام ، وصافحت بحرارة وحسب رجالاً يقاتلون عن بقايا الإسلام في «القلبين» على شواطئ الهادي ، ورجالاً آخرين يحرسون موارث الإسلام على شواطئ الأطلسي .. وبين الشاطئين المتباعدين قامت مدارس يُباهد بالقلم وكتائب يُجاهد بالسلاح ، تلذذ الغزوين الثغافي والعسكري عن أراض فيحاء نام ساستها حيناً من الدهر ، فدفعوا ثمن نومهم فلا فلاحاً واستعماراً فاضحاً ..

إن الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة! ولكن الإعداء لسحقها وتبديدها حقيقة أبرز للعين ولرهب للنفس ..

والمستشرقون الأوروبيون يعرفون طبيعة الإسلام ، ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعيني ذئب جائع وتدبر قول المستشرق الألماني «بالو شمتز» في كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية» الذي صدر من نصف قرن تقريباً : «إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا وهتاف يحجب أفاقها ، يدفعها إلى التجمع والتساند لمواجهة العملاق الذي بدأ يصحو» ..

ويقول : «إن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الزهر! ولم تغلح الأحداث الكثيرة في زعزعة ثقتهم به .. وإن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم . وستظل كذلك مادامت الشعوب الإسلامية قد ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام ، واعتقدت أنه الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة» .. إن هذا القول القديم الجديد يكشف ما وراءه من إعداد لضرب الإسلام غيلة أو جهره ، ويفرض علينا المزيد من الحذر واليقظة ..

والحق أن الصحوة الإسلامية المعاصرة تكتنفها أخطار هائلة ، يشارك في صنعها مبشرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون ، وملاحدة وكتابيون ، ومصارحون ومدهانون وأناس غرياء وأناس من جلدتنا ..

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحوة الإسلامية من معدن إسلامي صاف يجلدون سيرة سلفنا الأول فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم تروى إلى الله وحده .. لقد كانت الدعوة الإسلامية تملن إفلاسها منذ قورين تقريباً ، بل لقد تركت الميدان خالياً لشنى الملل والنحل تنشر الخرافة وتعلو راية الباطل .. ثم بدت تباشير صبح جديد وتيقظت الثقافة الإسلامية من سباتها بدافع بقوة وتجدد لأفضل .. وأريد أن أقدم للصالحين الجدد بعض ما أفدت من تجارب حتى يتجنبوا التكرسات ، وحتى لا يقدموا أرض الإسلام غنيمة باردة للمتربصين من كل لون ..

إنني أشعر بانزعاج حين أرى المجاهدين في قطر ما يبدؤون العمل من الصفر ، غير منتفعين بما حدث لإخوانهم في قطر مجاور ، بل حين تبدأ جماعة ما العمل غير منتفعة بما وقع لزميلاتها في القطر نفسه من بضع سنين .. إنهم يلدغون من جحر واحد مرتين ، أو أكثر دون وعي ..

ما تقول في مدير يبدأ العمل في شركة مضطربة دون أن يدرس أسباب الاضطراب ومسالك التدبير من قبله ، وأسرار فشلهم أو تفوقهم؟ ألا يستحق التأديب؟ .. إن خسائر جسيمة أصابت الدعوة الإسلامية من هذه القيادات الذاهلة .. ولا يقبل في هذا المجال اعتذار بحسن النية ، ولا تنجوا الأم المسترسلة وراء هذه القيادات .. وإذا كان الجهل بقوانين البشر لا ينجي من اللاتمة ، فإن الجهل بسنن القدر أسوأ عقى ، ومن هنا رأينا الحجاب شديداً للمذهبيين في أحداً قيل لهم دون مواربة لما سألوا عن سر عزيمتهم «قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ» (١) ..

ويوجد عاملون في الحقل الإسلامي يظنون أنفسهم فوق المسائلة ، لعل ذلك ببركة الوضوء والصلاة! ..

والذي أريد أن أقيم يعانون عللاً نفسية ، وأنه لا بركة هناك بل فوضى! .. ولأترك هذا التعليق العابر إلى أخطاء لها جذور في ماضينا الطويل .. كان الأديب قديماً يلتزمون السجع في مقالاتهم ، وممرت بالأدب العربي عصور احتبس فيه داخل هذه القيود اللفظية ..

والتزام السجع يتم على حساب المعنى غالباً ، فلن نجد فكراً عميقاً ولا أداء مناسباً سهلاً ولا معالجة خصبة ثرة تختلف القضايا والموضوعات ، بل إن السجعة قد تخلق



وقبل ذلك كله وبعده هل هذه الأحكام تسبق في الترتيب إحياء العقيدة ، ومقررات الأخلاق ، وضوابط التربية ؟ لا .

إن الذي يكره مسلماً لأنه لا يضع يديه تحت رقبته في الصلاة ، أو لأنه يقتل في الجمر مثلاً ، رجل منحرف ضعيف الخلق ..

وانقائه للصلاة على النحو الذي يألف لا يحوه هذه الوصمة فالخطأ الفقهي مأجور ، أما الخطأ الخلقى فهو إثم ، وهذه الأخطاء الخلقية من وراء الفتوق الرهيبة التي تسلب منها الغزو الاستعماري وقتك بنا ..

أحسست غضباً شديداً وأنا أسمع مفتياً في إحدى الإذاعات بجيب من سؤال وجه إليه : هل يجوز إخراج زكاة الفطر نقوداً؟ قال المفتي : لا يجوز ، ومن أخرجها نقداً وجب عليه أن يعيد إخراجها شعيراً أو قمحاً ، واستطلى : إن هذا التصرف بدعة ، ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه ..

ونخيل إلى من غضب المفتي أنه لو وجد أبا حنيفة لأمسك بعناقيه وأخمد أنفاسه لأن هذا الإمام يرى إخراج الزكاة ما هو أنفع للفقراء نقداً كان أم حيواناً ..

وأغلب للمسلمين يتبع هذا الرأي ، فلماذا نخرجهم؟ .. ولماذا نرى فهمنا هو وحده الدين؟ .. لم يبق الأفق .. وقطع ما أمر الله به أن يوصل؟ .. إن المتوقعين في نطاق الأحكام الفقهية المحلولة يسيئون أكثر مما يحسنون ..

وحدث في إحدى الكليات أن أقبل العميد على جمع من الطلاب كانوا جلوساً على بعض مقاعد الحديقة وخف الكل إلى استقبال أستاذهم وقوفاً ، إلا واحداً ظل على كرسيه لم يتحرك ، زاعماً أن ما فعل هو السنة ! ..

قلت : إن الرسول ﷺ قال للأوس لما جاء زعيمهم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم والطلاب الذين قاموا مرجحين بعميدهم أقرب إلى الفطرة والسنة والأدب من هذا الطالب ، وهو يسىء إلى الإسلام بهذا السلوك .

قال لي أحدهم : إنه طالب محافظ يرى ليحيته ! قلت : تربية اللحية من سنن الفطرة ، وتربية النفس من أركان الإيمان ، وماذا عليه لو أحسن الشكل والموضوع؟ .. إن الاهتمام بالشكل أول مراحل التقليد ، فالطفل عندما يرى أباه وهو يصلي يحفظ حركات جسمه ركوعاً وسجوداً ، ويبدأ محاكاته فيها .. أما مشاعر الخشوع

ومعاني الكلمات فهو لا يراها ، ولا يحسن تقليدها ، لعله يبلغ ذلك مستقبلاً بالدراسة والتجربة والممارسة ..

والأم الطفلة هي التي تبرع في تقليد الشكل وتفصله فصلاً تاماً عما لربط به من معان ، فهي في ميدان الأدب تحسن السجع والجناس أكثر ما تعمق الفكرة وتسد النظرة ، وهي في ميدان الدين تضحى بوحدة الأمة في سبيل إخفاء البسمة أو الجهر بها ..

وسلفنا الأول كان أرفع كثيراً جداً من هذا المستوى ، ولذلك خدم رسالته وبلغ دعوته .. هل من الصعوبة الإسلامية أن يهمل البعض التفوق الصناعي مدنياً كان أو عسكرياً لا تشغاله بحكم الصلاة في النعال ، وجواز دخول المساجد بها؟ هذا السلوك إغماء عقلي وهوس ديني ، ولا يوصف أبداً بالخير ..

ثم - أيصنع العقل الغربي السبارة ونشرها نحن لنكتب عليها «عين الحسود فيها عوداً .. أو كايده الأعداء» ..

إن أية بقعة إنسانية إنما تنهض بدما وختاماً على حدة العقل ، وسناء القلب ، والإسلام إنما أنفض العرب وحلق بهم في الأوج لأنه أنعم هذه الملكات الإنسانية وأطلقها تسعى ، والصحة الإسلامية الحاضرة ينبغي أن ترسم الخطأ الأولى لا أن تتبع خلوفاً ظلموا دينهم وأنفسهم على سواء ..

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والملاهي؟ .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا الهدوء والنظام والسير في الشوارع بترابته وكياسة؟ .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا أن التزوير في أداء الشهادات وإجراء الانتخابات ضرب من الوثنية؟ .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا كيف تدفع الكفادات إلى الإمام وترد التافهين إلى الوراء؟ ..

إن هناك أجيالاً في الفطرة الإسلامية لا ندري لماذا نساهم؟ ولن تتم صحوة إلا عندما نفتح بها أوالاً ..

قال لي صديق عالم في «الجيولوجيا» : إنني قلق الآن أمانتنا عشرات السنين حتى نظوى مسافة التخلّف الحضاري بيننا وبين من سبقونا في ميادين الذرة والغضاء والطاقة وغيرها .. ودعم الحق ميتوس منه بالوسائل البدائية ..

قلت : إنني أؤمن بعمق الله .. ثم استجبت أقول لنفسى ولكل مهتم يأمر دينه : إن العون الأعلى يتظفر به الصالحون بين السكارى فلنجتهد في ترشيدهم صحوتنا المعاصرة حتى تؤتي جنتها ..

## ٩٣. ما مكانة العمل والعلم في الإسلام؟ وهل هما قاصران على العمل العبادي والعلم الديني؟

الإسلام هو الوحي النازل على محمد ﷺ ليوجه به الحياة إلى ربها ، ويهدي الناس كافة إلى الصراط المستقيم .. أي إنه حقائق مقررّة أولاً ثم أساليب متجددة في البلاغ والعرض ، والحماية والدفاع ..

لتفرض أن صاحب فلسفة ما اقتنع بأن مبادئه ينفع العالم .. إنه ابتداء يشرح ما عنده ويطبقه في ذات نفسه ، ثم ينتقل إلى تفهيم الآخرين بكل وسائل الفهم ، ويحتاط ضد المعتدين والمعوّقين بكل أسباب المقاومة ..

وقد مضى الإسلام على هذا النهج منذ بدأ مسيرته ، أو منذ استمع نبيه إلى صوت الوحي : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ .

إن العلم هنا من شقين ، علم بحقائق الوحي ، وعلم بطرق غرسه ، وفود الأذى عنه ..

في الفلسفات للمادية المعتادة يسير العلمان معاً سيراً لا يتسم بأي تناقض .. فالشيوعية تسوى بين رجل الإعلام الذي يمرض مبادئها في الصحف المحلية والهيئات الدولية ، وبين رجل الفضاء الذي يستكشف الكون ، ويستخدم الأقمار الصناعية في الكر والفرو والظفر في حرب الكواكب ..

كلا الرجلين يؤدي واجبه نحو مبادئه ، وكلا العلمين يعمل للأخضر ويعانقه .. إننا نضرب هذا المثال ليعلم السذج من المسلمين أن تالي القرآن الكريم في الإذاعة يعرض نوعاً من المعرفة الدينية ، وأن الذي يشرف على توجيه صاروخ في الفضاء كي يدافع عن هذه المعرفة لا يقل مكانته عن القارئ المرتل ، وقد يكون - بصدق نيته - أولى بالله منه ! ..

(١) الملق: ٥٠١ .

إنه هو الآخر يمثل علماً لا بد منه ، ما يحيا العلم الأول إلا به ، فالإيمان آس والجهاد حرس .

والواقع أن الثقافة الإسلامية منذ نشأتها تشعبت أصولها وفروعها ، وتشعب العمل الذي يقوم به المسلمون فرادى وجماعات ، وليس في تاريخ هذه الثقافة علم ديني بعيد عن الحياة ، وعلم مدني بعيد عن الدين ، ولم يقع انقسام العلم إلى ديني ومدني إلا في عصور السقوط والاضمحلال ..

وبديه أن تكون علوم الشريعة أول مظاهر الحركة العلمية في الإسلام ، فنشأت علوم القرآن والسنة والفقه والأخلاق والتربية ، ولا يجرؤ أحد على إنكار ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة من خصوصية فكرية ، ونتاج غزيرة للفكر والوجدان والسلوك ، إنهما مهاد جليل لحضارة إنسانية ذكية رحية ..

ثم صاحب ذلك ميلاد العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وديع ، وازدهر الأدب والبحث في فلسفة اللغة وأسرار البلاغة وألفت القواسيس ، وأصبحت الدراسات الأدبية واللغوية جزءاً أصيلاً من عمل المعاهد الدينية ..

ونشطت الدراسة الفلسفية - التي تحولت في عصرنا إلى علوم إنسانية - فلم تبق في أرض الله أثاراً من معرفة إلا استقدمها العرب ، وتوفروا على فهمها وتقوم مسلوها ..

ومع نضج الفكر الإسلامي ظهرت علوم الكون والحياة مستهدية بمنطق الملاحظة والتجربة - وهو منطق قرآني الملبت - فكانت علوم الرياض من حساب وجبر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، والفلك ..

ويكاد المنصفون من مؤرخي الحضارة يجمعون على أن المسلمين هم أولو الفضل على النهضة الأوربية ، وأنهم السبب المباشر في عصر الإحياء ..

وقد كثر من وراء الانتصارات العسكرية الإسلامية - إلى ما قبل بضعة قرون - تفوق علمي وصناعي ، هو الذي أعان على فتح «القسطنطينية» وحصار «قينا» ووقف الزحف الصليبي .

ويرى محققون أن الحرب التي نشبت بين العلم والدين في أوروبا ، قد أشعلتها الكنيسة عن عمد لأنها رأت أن الاتجاه العلمي للبتكر الناشط هو أثر للزحف الإسلامي الناجح ، وأن العلماء لباحثين هم - طابور - خامس للجهاد الإسلامي القديم .

يبد أن هذا كله تلاشى مع غموم المسلمين الأخير ، وانطفاء جذوتهم ، وانتشار الجهل العام في ربوعهم ، وفهم كثير منهم أن العلم لا يتجاوز دراسة الوضوء والصلاة والمواظبة وأن ما وراء ذلك من أدب وفن وكشف وذكاء نوع من الغفول .

وقد دفعوا فمن ذلك الخطأ سواداً صبيح الوجوه وانحزى النفوس ، وجعل بلادهم بين الأطلسى والهأدى مسرحاً لاستعمار أتانى ظلم ، أكل دينهم ودنياهم على سواء ..

ومن الغرائب أن بعض الفتيحة المشتغلين بالدين لا يزالون صرعى هذا الغلط الفاحش ، وأن للمتتبعين منهم إلى كليات عملية أو مدنية يصدفون عن الدراسات المكتوبة عليهم ويقولون : ندرس علوم الدين ..

ويحكموا وهل يقوم الدين إلا بالعلوم التي فيها تزهدون ؟ .

وكما لا يقوم إلا بها ، فهو ما يحسن فهمه إلا في ضوئها .

من هؤلاء الفتية من أمضى عدة سنوات في كليات الهندسة أو التجارة أو غيرها ، ورأى أن يضحى بالسنوات التي قضاه ويلتحق بإحدى الجامعات الإسلامية ..

وأقتطف هذه الفقرات من رسالة كتبها لي أحدهم يقول فيها : « .. يؤلنى ألاماً شديدك ، ويعتصر قلبي حزناً تعدد الأهواء ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، وقد دعوت الله أن يلهمني الحق ويهديني الطريق القويم ووفقني إلى الالتحاق بالجامعة الإسلامية فقد علمت من قراءتي للإمام الشافعي « أن العلم ما كان قال حدثنا ، وأخبرنا ، وغير ذلك وسواس شياطين ! ولذلك فلأنى لأرغب في التعلم الديني المنهجي والله يوفقك لمساعدتي » .

وقد رق قلبي لصاحب الرسالة ، وحاولت إلحاقه بكلية الشريعة في دولة قطر ، ولكن التعليمات القانونية لم تسمح ..

ولابد من وعي الكلمة المنسوبة للإمام الشافعي - إن صحت - فالمراد منها أن شؤون العبادات لا مجال فيها للأراء الشخصية ، وإنما تأخذ العبادات من النقل الثابتة عن المصنوع ..

وقضايا العبادات قطرة من بحر في سلوك المسلمين وشئونهم العلمية ، ولا دخل للروايات في موضوعات العلوم الأخرى ..

وقد تأملت في مسيرة ناز من خريجي الجامعات الإسلامية فكملت أليس من جلواها ، هنا رجل يحمل حملة شعواء على الأضرحة ، قال لي أحد مستمعيه : لكن لا توجد في هذا البلد أضرحة .. قلت : كلام سمعه لا يعرف غيره فأقره بيننا ..

وفي افتتاح مسجد بباريس ، وفي أثناء التقاط صور تذكارية للحفل قام واحد من هؤلاء في حالة تشنج ، يذكر أن التصوير الشمسي حرام ! ..

فقال له أحد الحضور : ذلك رأيك ! وما أكثر الفقهاء الذين يخالفونك ، إنك توقف سير الدعوة الإسلامية في باريس بهذا التعصب الضيق لرأى ما ، فهل تريد التضحية بالدين كله من أجل وجهة نظر لك أو لآناس قاصرين خلقك ؟ ..

قلت في نفسي : ما أتمس حظ الإسلام ، إذا كان المتحدثون باسمه لا يعرفون العلم الحاد ثم أول المؤمنين عنه .. إلا بعض المرويات ، وبعض الأنعام ..

عندما عرس عقريت من الجن على سليمان أن يأتيه يعرش بقلبي من اليمن إلى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه .. « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي » (١) .

ما أخرج تسليمن إلى رجال أوتوا علم هذا الكتاب .. أم أن هؤلاء الرجال خشوا سوء الاستقبال عندنا ، فخطوا رحالهم في أوروبا وأمريكا ؟ ..

ليس للعد ولا للعمل صورة واحدة صالحة ، أو ميدان واحد مقبول .. فإن الله أمر المسلمين « بفعلوا الخير » « وأفعلوا الخير لعلكم تفلحون » (٢) وكلفهم مع فعله أن يدعوا الآخرين إليه « ولتكن نكم أمة يدعون إلى الخير » (٣) فهل للخير المظلوم شك واحد ؟ لا يرى إلا في الصلاة والصيام ؟ ..

إن صنوف لشر لا تحصى ، وصنوف الخير لا تحصى ! وما يحشد البشر لتحصيل الخير أو الشر لا يحصى ، ولوسائل حكم الغايات ..

والحق أن لعمل الصالح - الذي هو صنو الإيمان - هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وعناية شريفة ، وقد يكون فلاحاً أو صناعة أو إدارة ، وقد يكون سفرًا أو إقامة ، وقد يكون قتالاً أو سلاماً .. إنه مملك غير محدود لباعث واحد هو حب الخير - طلب الإصلاح ..

﴿... فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٥٨) وَالَّذِينَ كَذَبُوا  
بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ كَانُوا يَقُولُونَ ﴿٥٩﴾

وقد سمي القرآن الكريم تجويد الصناعات الحربية - لدعم الحق بداهة - سماها  
عملاً صالحاً، فقال عن نبي الله داود: ﴿... وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (٦٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ  
وَقَدَرٍ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

وجعل كل تعب يعانيه المجاهدون، وكل بذل يتكلفونه عملاً صالحاً ﴿... ذَلِكَ  
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مِنْ مَوْطَأٍ يَبْتَغِ  
الْكُفَّارُ وَلَا يَتَلَوْنَ مِنْ عَذَابٍ لَيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٢)

وما يذكره القرآن الكريم ليس إلا غايج وأمثلة .. ولقد اعتبر الرسول الصلة  
الجنسية بين الرجل وامراته عملاً صالحاً يثاب عليه لأنها حصانة من الإثم، ووقاية  
من الشرور ..

إن كل علم تسعوه إلى الإنسانية، وكل عمل تزكوه هو من صميم الدين، ترجح  
به الموازين، وترتفع به الدرجات، في الدنيا والآخرة.



## ٩٤. لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا؟ وما موقفه الحقيقي من هذه القضية؟ وهل يجوز للمسلمين في حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقاً؟

في مضالعة البعثة المحمدية كان الرقيق واقعاً غير مؤلم ولا مستغرب ولا منكور ..  
وكانت جماهير الأرقاء تزحم المشرق والغارب لا يأبه لهم أحد ولا يفكر في  
إنقاذهم مصلح ..

في أرجاء الدولة الرومانية النصرانية كان العبيد يخدمون في صمت، وربما قدم  
بعضهم طامعاً للوحوش في بعض المناسبات، وكان اليهود - وفق تعاليم التوراة -  
ينظمون سلايب الاسترقاق للعبرانيين وغير العبرانيين ..

ولم لأسى على الرقيق وحدهم؟ إن المنبوذين في القارة الهندية كانوا أغنياء لا  
تعرف لهم حرمة، ولقد وقع ابن امرأة برهمية في بئر، وكان أحد المنبوذين يستطيع  
إنقاذه لو ذنت أمه! لكن الأم فضلت أن يموت ولدها ولا يعيش بعد ما لمسه منبوذ ..

وجاء في الكتاب المقدس أن طعام التبين لا يعطى للكلاب .. والنيبون هم بنو  
إسرائيل .. والكلاب هم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون فلسطين قديماً ..

في هـا الجو القابض الظلوم كانت الإنسانية تعيش، ما أنصفها فلسفة اليونان  
التي تقر - لاسترقاق بعقلها المفكراً ولا أنصفها موارث التدين التي احتضنها  
الكهنة - وأظلمت بها الأرض ..

حتى تكلم محمد، وأصاخ الناس إلى ما جاء به فإذا هم يسمعون أن البشر كلهم  
إخوة بينهم نسب واحد، وتسرى في أوصالهم نفخة من روح الله، وأنهم سواسية  
في الحق والواجبات .. وأنهم خلقوا ليعترفوا ويتحابوا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ  
مِنْ ذَكَرٍ إِنْفَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾

وسمع الناس للمرة الأولى في تاريخهم أن المسترقين يجب أن تفك قيودهم وتعترف رقابهم ، وأن العائنين ينبغي أن يحرروا من الذل والجوع والهوان ، وأن العقبات دون ذلك كله لا بد من إزالتها لمن يريد رضوان الله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وما أدراك ما الْعَقَبَةُ ﴿ فَكَرَّرَ ﴾ (١٢) أو إقطاع في يوم ذي مُسْغَبَةٍ ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ (١٣) أو مسكينًا ذا مَقْرَبَةٍ ﴿ (١٤)

وعلى المؤمنين أن يتجردوا لأداء هذا الواجب ، فلا يحرروا الأسرى ليجعلهم أتباعًا ، أو عبيد إحسان بعد ما كانوا عبيد سطوة كلاً منهم ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (١٥) إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شُكْرًا ﴿ (١٦)

ولما جاء دور التشريع لنقل هذه المبادئ إلى قوانين ملزمة نظر الإسلام إلى مصادر الرق فألغاهما كلها على النحو الآتي :

كان الرومانيون ومن قبلهم العبرانيون يحكمون بالعبودية على مقترفي بعض الجرائم .. ومن هذه الجرائم عند الرومان حيز المسر عن الوفاء بالدين .. وقد رفض الإسلام هذه النظرة رفضاً حاسماً ، ولم يسترق في أية مخالفة ، بل رصد من الزكاة المفروضة سهماً لازماً لسداد ديون المسرين ، وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٧)

وكان الخطف إلى القرن الماضي مصداقاً هائلاً للاستعباد ، وقد ظل الأوربيون يصطادون البشر بضعة قرون من غرب إفريقية ، في ظروف تكتنفها الوحشية المطلقة ، ومع خطف عشرات الملايين وهلاك مثلهم في أثناء الغارات التي كان يقوم بها قراصنتهم ..

وأي الإسلام إباء شديدًا خطف الأحرار ، وهدم كل ما انبنى على هذا الخطف من آثار ، وجاء في الحديث القدسي عن رب العزة قال الله تعالى :

(١) البقرة : ١٧٦ - (٢) الإنسان : ٩٠ - (٣) البقرة : ٢٨٠

«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته عليه رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكلا ثمنه، ورجل استأجر أجيرياً فاستوفى منه ولم يعطه الأجر» .

والمصدر الثالث للاسترقاق - وهو مصدر خطير - أسرى الحروب ، إن أولئك المتكويين أخزايًا كانوا يواجهون مستقبلًا غامضًا ، وقد يكون الاسترقاق أمون ما يتوقعون .

وفي الحرب العالمية الثانية لم تعرف مصائر الألوف المولقة من أسرى الروس لدى الألمان ، أو أسرى الألمان لدى الفرنسيين ..

فإن كان ذلك ما وقع أيام التحضر والارتقاء فما ظنك بما كان يقع قديمًا ؟ .. على أية حال فإن الإسلام في أول حرب خاضها خرج على الدنيا بمبادئ أزكى وأرق في معاملة الأسرى ، فنزل على رسول الله ﷺ في الأسرى بعد معركة بدر .. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) وإن يريدوا خيانتك فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ (١٩)

والخيانة التي تشير إليها الآية موقف المشركين من قضية الحريات الدينية والإنسانية كلها ، فقد كان موقفًا غيبياً متعنناً مليئاً بالكبرياء والقسوة .. أكان هذا موقف عبث الأوثان وحدهم ؟ ..

كلا ، قد أهل الكتاب كانوا أخس وأظلم ..

يقول لله تعالى : ﴿ وَلَتَنْتَ أُنْتِ الدِّينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتْ ﴾ (٢٠)

ليكن! ليس لأحد أن يرغمهم على اتباع! لكنهم لم يكتفوا بهذا بل لجأوا إلى صد الات - وفتنة الضعفاء وقيل لهم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْرِ تَخْرُجُهَا عِزًّا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢١)

(١) الأغال : ٧١ ، (٢) البقرة : ١٤٥ - (٣) آل عمران : ٩٩

1.  $\frac{1}{x^2} = x^{-2}$   $\frac{d}{dx} x^{-2} = -2x^{-3} = -\frac{2}{x^3}$



أين تجد الموارث الدينية في تحرير النساء عندما تقرأ رسالة بولس الأول إلى أهل كورنتوس ، الأصحاح الرابع عشر فقرة ٢٤ وما بعدها : فلتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مآذونا لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن ! .. كما يقول التاموس أيضا ، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فيسألن رجالهن في البيت ، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنيسة ..

وأين تجد الموارث الدينية في تحرير الأرقاء عندما تقرأ رسالة بولس إلى أهل أفسس : أيها العبيد ، أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف وورعة : في ساطعة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بغدعة العين كما يرضى الناس ، بل كمسيح المسيح .. إلخ (١) .

إن رجالا من أصحاب القلوب الكبيرة هم الذين جاهلوا بشرف لتكيسير القيود التي أنشأها النظام البشري على مر العصور .. والحقيقة أنه لا دين إذا طمست الفطرة وطمت الأثر ..

وللإسلام علامة مميزة يعرف بها ، ويلفت كل امرئ إليها ، تبدو في قوله تعالى : ﴿ قَاتِمٌ وَجْهًا لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ومن هنا حكمنا بأن التقاليد التي يتعارف الناس عليها يجب تبنيها إذا خالفت الفطرة ..

ويستحيل أن تكون هذه التقاليد دينا وإن استمسك بها بعض الكهان ..



(١) على هذا النص وضحه استفتر الرق في الغرب ، ونقل أحد اللغويين للتصديق له فنقول : محرم العبيد ..

(٢) الروم : ٣٠ .

## ٩٥. ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟

### وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها؟

هناك جوانب في الحضارة الحديثة جديدة بالاحترام كله ، بل اعتقد أنها امتداد أو انطلاق من الفكر المتحرر الراشد الباحث عن الحق ، الحفى بالمعرفة ، المستقل لأمن مواعيد الإنسان ..

إن الوصول إلى اليقين في قضية حسية أو عقلية ليس شيئا رخيصا ، إنه ثمرة غالية لأعلى مواعيد البشر بل هو الاستجابة الوحيدة لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْ مَآ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) .

وهو كذلك البعد المطلوب عن نهج المنحرفين والواهب والقاصرين الذين قيل فيهم : ﴿ إِنْ يَشْعُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٢) .

والحضارة الحديثة نجحت في ميدان البحث للمادى ، وتمعقت في الدراسات الكونية كلها ، وهذا النجاح .. في رأيي .. يجعلها أقرب إلى منطق القرآن الكريم ، وأدنى إلى منهجه ، فإن التفكير في الكون أرضه وسماؤه وما بينهما ، مطلب إلهي لا ريب فيه ..

والمسلمون يحملون أوزار التخلف في هذا المجال ، وقد دفعوا ثمنه فادحا ، وأرى أنه من عصيان الله ، والفسوق عن أمره الانشغال بالجدل العقيم ، وقلسقة ما وراء المادة ، وتشقيق الخلاف وتكثيره في شئون يستوى فيها العلم والجهل ..

إن الحضارة الحديثة اكتشفت كثيرا من قوى الكون وأسواره ولها الآن حصيلة كبيرة في علوم الذرة والفضاء و «الإلكترونيات» و «الكيمياء» وقد نقلت آثار ذلك إلى تفوق مدنى وعسكرى فى البر والبحر والجو ..

ومع هذا سبق البعيد ، فإن الحضارة الحديثة لا تزال واقفة عند العصر الحجري في ضبط الغرائز ، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشري ، وكبح الأثرة المسعورة ، وجعل المرء يجب غيره ويغار على حقوقه ، أو على الأقل يعدل مع غيره ، ويعترف له بحقوقه طوعا لا كرها !! ..

(٢) النجم : ٢٨ .

(١) الإسراء : ٣١ .

وقبل ذلك فشلت هذا الحضارة في التعرف على رب العالمين ، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده والتعويل عليه في الأزمان والأطمنان إليه في المخاوف .

إن الإنسان مهما قوى بالعلم لن يكون إلهاً ، وسبقى ما عاش فقيراً إلى سيده ، لا يحس طمأنينة إلا في السجود بين يديه ، واستلهاه الرشد . .

لكن من أين تطرق الخلل إلى هذه الحضارة حتى إنه ليهده مستقبلها؟ . .  
قد يكون الجواب : من غرور الماديين بما وصلوا إليه ، واستهانتهم بما قصروا فيه . .  
والغرور بالعلم داء قديم ، وقد حدثنا القرآن الكريم أن أمة عمرت هذه الأرض قبلنا ، وأقامت بها مدنيت فخمة ، وأنها انتشبت بما تبسر لها من لذة وسخرت بما قدم من نصح ، فماذا كانت عقباها؟ ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم غفاً عما هم عليه فليلاهم ﴾ (١) .

والاعتزاز بالعلم لم يمرض مخوف ، بيد أني لا أرد إليه وحده عرج هذه الحضارة . .  
السبب الأول ناشئ - فيما أرى - من خيانة أهل الأديان لرسالات الله ، فالاسترخاء العقلي ليس عند المسلمين ، ولغش للملحج عند إخوانهم أهل الكتب ، من وراء هذا اللبلاء .

أهل الكتاب قدموا من عند أنفسهم تعاليم نسبوها إلى الله ، ضاق بها العقل ، وتبرمت بها الفطرة نشب العراك بين العلم والدين ، كانت النتائج المعروفة ، الخد العلم وساء ظنه بالوحي كله . .

وأما المسلمون فقد أوفروا في الجهد عن دينهم حتى أسوا في واد ودينهم في واد آخر . .  
التفكير الذي هو فريضة عليهم حسب وصية الكتاب تحول إلى تقليد وجمود ، وإذا عرض له نشاط ففى ما وراء المادة لا فى المادة نفسها كما شككتنا مراراً .

ومفاسخ الحياة الإسلامية الأولى تلاشت ، فإذا قال شوقي :

فالمدين يسر ، والخلافة بيضة الأمر شورى ، والمحقوق قضاء !

وجدت التاريخ فى أعصر شتى يؤكد أن الأمر استبداد ، والخلافة اغتصاب ، ويسر الشريعة رياء وتعقيد ، والمحقوق دعاوى من الباب والظفر برهانها! . .

على حين ظهرت الحضارة الحديثة بأساليب ثقافية وإدارية أدنى إلى الفطرة والشورى والاختيار الحر وإن شابهها ما لابسها من هوى جامع وإسراف كثير . .  
وصلاح الحياة لا يتم بهدم الباطل ، لأن الباطل جدير بالزوال ! كلا ، لا بد أن يكون الحق تام الاستعداد ليحل محله ، ويؤدى عمله بقدرة أعظم وأشرف . .

(١) غافر : ٨٢ .

وأعترف بأن المسلمين لم يستكملوا هذه الخصائص ، ولا هم اليوم أهل تلك القيادة . .  
الحضارة الحديثة نسيت لله كل النسيان ، ولم تأخذ أى أجرة للقاءه ، إنها تعبد اليوم الحاضر ، وتجدد ماوراءه ، وتعبد الجسد وتغالى بمطالبه وحدها . .

ونحن باسم الإسلام نقاوم هذا الاتجاه الزائف ، ونرفضه جملة وتفصيلاً . .  
أما الاقتنل العلمى ، وتسخيره لتنعيم الإنسان وتكرهه فنحن معجبون به ، كذلك نحن معجبون بالقدرة التنظيمية التى جعلت الإدارة فناً رفيع المستوى ، وأبدعت أساليب لمنع الطغيان الفردى والهووان السياسى ، وإن كان الغربيون جعلوا هذه الشمار حكراً على الرجل الأبيض . .

ولا أستحى من أن أسأل نفسى وقومى : أين كنا حين استخرج الأوروبيون النفط من أرضنا؟ ماذا كنا نصنع؟ وأية ثقافة كانت عملاً أممفتنا؟ . .

أؤكد ، وأنا من علماء الدين ، أن الصحابة نجعل تسعة أعشار الفكر الدينى الذى شغلنا وقتنا فيه وصحونا عليه! . .

وأؤكد أن نظم الحكم فى بلادنا كانت أشبه بنظم الحكم فى فارس والروم على عهد سلفنا الفاتح العادل الذكى . .

وأؤكد أن اللغة العربية فى الجاهلية الأولى كانت أضوا وأنصح منها فى الأعصار النكدلة الأخيرة . .

إن مجددى الإسلام جعلوا جياراً ليعود إلينا الوعى الغائباً ومن عجب أن البعض الآن يفتح فمه لسبهم ، ويتنفس أنفدهم ، إننا لم نتشف - بعد - من علنا . .

وقد مضت حضارة الغرب فى طريقها لا يثنىها شئ ، غير أن الاستفراق فى الدنيا لا يحقق الخير لا للفرد ولا للمجتمع ، وقد كرع «أبو نواس» من اللذة حتى أفر قفطرة ، ثم استيقظ من سكرته يقول :

إذا عرف الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق !

وكذلك بفعل الخراب الروحى ، وخواء الإيمان بأوروبا وأمريكا ، إن الجماهير تشعر بالقلق والضييق ، ولأيت هنا كلمة للأديب الكبير الأستاذ أحمد بهجت كتبها وهو يزور «لندن» يصور أثر هذه الحضارة : قال : «عيون الناس هنا ملونة ، ويشربتهم كشعم مسفى بالدم ، وانساناتهم حاضرة وجاهزة لكل نظرة وأى سؤال . . رغم ذلك ، ثمة ضيف عامض من الكابة يلوح وراء ألوان الميوان والبشرة ، ويتبدى فى هذا الصمت الذى يفرقون فيه حين يركبون القرو أو الأتوبيس . .

هنا لاجد لجمال الناس ، ولكنه جمال يشبه جمال الجزر المنعزلة فى المحيط ، إن صفحة لبء الزرقاء تمتد بصمتها الفاجع وتحيط بالجزر من جميع الجهات . .

رغم العزلة المرشحة بـ **عجز** الجمال ، ويكتسب الجمال شحوبه من العزلة النفسية ، حتى لتعكس **أفكار** الذين قلنا يبدو وسط بمر الحياة وسهولتها مثل حزن غير مفهوم في عرس من **الوقت** الحياة .

بالنسبة لكثير من الشرقيين تبدو لندن عاصمة مبهجة في الصيف ، هي سوق عظيمة للمرح والمتعة والجسد والثياب واللهر والحربة . كيف تفسر إذن هذا البحث الذي قامت به إحدى شركات البحوث . وقالت نتائجه : إن مليون بريطاني يعانون من اكتئاب نفسي ، وإن من المحتمل أن يقدم ثلث هذا العدد على الانتحار بسبب الكآبة . . كيف تفسر أن حصص الصابين بالاكئاب من النساء . .

استبعد البحث مشكلة لبطالة كسب رئيسي للكآبة . . وأشار إلى المشاكل الزوجية والمنزلية والإنسانية . .

عاودت النظر في وجع قلبي . .

أهؤلاء مكتئبون . .

إن النظرة السريعة تقول إن الناس تعيش وسط نعيم مقيم في لندن . . كل شيء ميسر . . لا صوت للشويع ولا صوت للناس ، وكل ما تريده موجود وحاضر ، هناك مكان في الأتوبيس والمترو ولناكسي والقطار ، ليست في الحياة اليومية معاناة كالحياة اليومية في مدن العالم الثالث أو الشرق . .

إن المدنية الحديثة توفر للناس جهدهم الإنساني وتقوم عنهم بأداء كثير مما كان يقتضى جهداً بدنياً أو ذهنياً . .

والخدمات أكثر من الحاجة إليها . والعرض أكثر من الطلب ، والتليفون لا يستعصى عليك ، ولا يتكلم معك في الخط أحد . . لماذا يكتئب الناس إذن وحياتهم تضيء بهذه النعمة والكفاية .

إن الحضارة الغربية تكشف هنا عن أحد أسرار الحياة . . إن للتخلف مشاكله وللتقدم مشاكله . .

ولست مشاكل التقدم بأحف في الميزان من مشاكل التخلف ، هنا توفر الحياة للناس وقتاً يفكرون فيه في حياتهم وهدف هذه الحياة ومسيرهم بعدها . .

وهنا يحس الناس بالوحلة القاسية رغم كل مبهجات العيش . .

إن الوضع الصحيح الوحيد للإنسان أن يكون تابعاً لله لا مستقلاً بنفسه ، وأن يسترشد بوجهه لا أن يغتر بفلسفته الخاصة . .

ما أضعف الإنسان إذا لم تسنله قوة ربه . . وما أضعف حين يحرم بركته . .

## ٩٦. هل في استطاعة الإسلام أن يقدم حلولاً للمشكلات

### الكبرى التي تعاني منها الإنسانية اليوم؟

تقع المصائب والمشاكل عندما يفرط الإنسان فيما يجب عليه ، أو يستهين بما يمنحه منه . . فحوادث الطرقات تنشأ غالباً من السرعة الزائدة عن الحد ، أو من التوقف المباغت ، أو من خروج المرء عن المسار المحدد له . .

ولو تبع الناس التعاليم الصادرة إليهم لوقاهم الله سيئات كثيرة ، ولكن ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ (١) .

ولسنا نذكر أن هناك أقداراً قاهرة تعرض لنا بما نكره ، وتفاجئنا بما لا دخل لإرادتنا فيه وهذه المصائب والمشاكل لا تؤاخذ بوقوعها ، وإنما علينا أن نتصرف تجاهها بيات وتسلم ، لا بجزع وتغرد فهي بعض بلاء الدنيا الذي نخبر به !! . .

ولكني أستعرض مشكلات كبيرة في عالمنا المعاصر ، فأجد أغلبها من صنع الناس . . إنها تنشأ في غياب الإيمان الصحيح ، والاستهداء بنور الله ، والاستهداء بالعلامات خضراء والخمراء التي تعصم من الزلل .

القلق الشديد محنة كاشنة وراء الرضخ الوحشي طلباً للرزق ، إن هؤلاء الفراكسين قد يدوسون قواعد الحلال والحرام ، بل قد يدوسون المعزة والضعاف كي يصلوا قبل غيرهم . .

ثم نفسر هنا السعار الذي ملأ الدنيا لا تفسير له إلا الجهل بالله ، وبقيامه على خلق وتدبير للرزق . .

وأذكره جملة من الحقائق الدينية غير غاشية من تأويل الجهمية لها وانحرافهم بها . .

لو كان إنسان صديق نبيل أخلق حلو العشرة ، مأمون الوفاء لجعله واحته الظليلة في سمرها هذه الحياة؛ أفنكون صلة المؤمنين بربه أنزل من هذه الصلة؟ ربه نودود المجيد ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ (٢) .

إننا نحيا في رحمته الواسعة ، ونعمته المبثورة ، وبركاته الهامية ، ولكن تلك كله يشبه العافية التي قيل في تلبد الشهور بها : الصصة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى ..

إنه شيء مؤسف أن يقل إحساننا بفضل الله الذي يعمرنا بالليل والنهار .. ثم يتضاعف جوارنا بالشكوى إذا فقدنا بعض مانهوى! والغريب أننا نعتبر ما نفقده هو مصلحتنا المؤكدة ، أو الخير الذي حرمانه .. إن مواقفنا مع القدر تكرر لموقف موسى مع الخضر حين اعترض ما يجعل عقابه ..

مع أن القصة ذكرت لتقول لنا : رب ضارة نافعة .. رب أمر أنكروا بذيته وحمدنا نهايته ﴿ فَمَنْ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١).

هناك أبجديات للإيمان لو عرفناها لزالمت مشكلة الفلق والاكشاش والتوتر التي تسود العالم .. ولرى أن الغرور البشري أو إحساس الإنسان بأنه يقوم وحده من وراء تلك المشكلة ..

لقد خيل إلينا مع التقدم العلمي الجاف أننا مديرو هذا الكون ومالكو زمامه .. وإن الإنسان يستطيع المضي وحده إلى هدفه دون صحة من رعاية عليا ، أو مساندة من رب قدير .. وهذا هو الغباء المغض ..

إن المساحة التي تعمل فيها إرادتنا الحرة ضيقة جدًا ، حتى أن موجود بيد أنها محكومة بطورف لا تدخل لنا فيها منذ ولدنا إلى أن نموت ، ما أغشى السمكة التي تظن أنها صنعت مياه البحر والمحيطات ، وأنها صنعت الخياشيم التي تستخلص بها أنفاسها وسط الماء ..

الواقع أن الخطط التي تحكم حياة البشر خفصًا ورفقًا وضيقًا وسعة جزء من الخطط التي تحكم الفضاء وتقل كواكب بين شروق وغروب ..

مبتدؤنا ومتهنا وما بين ذلك يشرف عليه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيَ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ، ﴿ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤).

فما معنى تجاهل هذا الواقع ، الانطلاق في الدنيا دون وعي وفنون غاية ؟ .. الإيمان بالله وصفاته هو لا غير حل تلك المشكلة والإسلام يعرف الناس برهم على نحو رائع مقنع مشجع ، يغمز للرب والقلب بهده ويجعل المرء إذا كرب فزع إلى الصلاة ..

ثم هو ينظر إلى ما أصابه وما أخطأه عارفًا : من يدبر الأمر؟ فيقول : اللهم لا تمنع عنا عطيت ولا معطى لنا نعمت ولا ينفع ذا الجند منك الجند ..

وعند هذه الجملة الأخيرة تنقف قليلاً .. فأصحاب المخطوط الحسنة قد يكثرون أو يقلون في هذه الدنيا ، غير أن مجرد وجودهم يثير الغيرة والتساؤل : لماذا أوتوا هذا الثراء أو هذا التقدم أو هذا الرجحان ؟ ..

ويؤكد الإسلام أن هذا الجند لا يجدي أصحابه شيئًا ، ولا ينفعهم عند الله أبدًا! إنه بعض ما يسألون عنه يوم الحساب ، أو هو جزء من الاختيار الذي يكون للبعض بجمع وللبعض بالطرح ، ولا امتياز هنالك ، ورب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة ، وذلك من ثمرات الإيمان بيوم آخر ..

ومن المشكلات التي يشكو العالم منها الفقر المتوطن في بيئات كثيرة ، وأحب أولاً أن أحشد المفاهيم حتى تنضبط الأحكام! أعرف موظفًا في وزارة العدل يقوت أسرة كبيرة ، عرضت عليه يومًا مائة جنيه كي يدع أحد الخصوم يستولى على وثيقة تفضله في ملف تحت يده! وأبى الموظف الشريف مع أنه كان بيت طائرًا ليعيش أولاده ، وكان بحاجة إلى جنيه واحد لا إلى مائة ..

هذا وغيره وأمثاله هم الدين قال الدين عنهم : إنهم سواد أهل الجنة .. وأعرف الزعيم محمد فريد فقد ما كان يملك من أرض في سبيل أسفاره كي يعرض شكوى وضه من الاحتلال الإنجليزي! هذا فقد يذكرنا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين ضحوا بما لديهم في سبيل عقائدهم ..

وأعرف رؤساء كانوا يملكون القليل أو ما كانوا يملكون شيئًا! فلما ولوا الحكم فحقت عليهم ستمنا وعسلا ، فأضحوا هم وأقرباؤهم وأصدقائهم ومن يلوذ بهم أصحاب جاه عريض ومال مدود ..

هؤلاء أغنياء من سحت هم الذين قال الدين عنهم : إنهم جمهور النار ، ويش



فماذا يحدث إن أعرضوا عن هذا النداء؟ ستمتلي الأرض بالأحزان والحروب ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٦) أولئك الذين أنعم الله فأنعمهم وأعني أبصارهم ﴿٢٦﴾.

لقد قرأت قصصاً اليمّة عما يصيب الرجال والنساء والأطفال في أثناء الحروب من أسي وضياح يهتك الأستار، ويسترخسان العاراً ورايت صورا قايضة مبيكة للجنث على عرض الطريق أو تحت الأنقاض، أمست زماناً هامداً وولت عنها بشاشة الحياة وأمالها العراض ..

إن الحرب شيء كربه حقاً، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها ..

وفي الأديان السماوية كلها لم يأذن الله بحرب عدوان، وإنما أذن في حرب تحمي بها الحقوق وتصان الحقائق، وتبقى فيها بيوت الله قائمة لعبادته وحده ..

وفي قراءة صحيحة يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّ سَوَاحِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا كَانُوا يَمْسُكُونَ عَنْهُمُ الْمَتَاعَ﴾ (٢٧) .

ورب البيت لا يطلب بالاستسلام لأمن المغير إيثارك للسلام، وصاحب العقيلة لا يكلف بتركها تحت بريق السيوف ..

وإذا خلصت الثبات يمكن إقامة مؤسسات عالمية للحفاظ على السلام، بعد غسل النفوس من الأثرة والبغى، وإشعارها بأنها أولاً وآخراً من الله بذات ولبه تصير .

## ٩٧. بم تفسر النكسات التي أصابت الأمة الإسلامية، بدءاً من الخلاف الداخلي بين علي ومعاوية حتى يومنا هذا؟

أجمع أولو الألباب من عدو وصديق على أن الإسلام عقائد وشرائع، وعبادات ومعاملات، وخلاق ونظم وتراتب إدارية وتقاليد اجتماعية .. وإنه يكلف أتباعه تطويع الشئون لعادية لخدمة ذلك كله ..

وكنا في أثناء دراستنا الإسلامية نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي، وبين الإسلام والحكم الإسلامي .. الإسلام وحى معصوم لا ريب فيه، أما الفكر الإسلامي فهو عمل الفكر البشري في فهمه، والحكم الإسلامي هو عمل السلطة البشرية في تنفيذه، وكلاهما لا عصمة له ..

وعندما يتخضع مفكر فإن خطاه لا يبقى طويلاً حتى يستدرك عليه مفكر آخر .

وعندما يتخضع حاكم فإن زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد ..

والأمة الإسلامية - بفضل الله - لا تجمع على خطأ، وجهاز الدعوة بها حساس، وهو عن طريق التعليم والأمر والنهي ينصف الحق ..

ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحي الخاتم فإن القدر يؤديها إذا استرخت أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم، ويتعهد بها بالمجدين الذين يغارون على حقائق الوحي وسبل فقهه وتسايب حكمه .. قال تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَقَّنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (٢٨)

ومن هذا لتقدم يظهر أنه لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي والسياسي، وإثارة الغرابة في التشر على هذه الأخطاء أو الاستمحاء في معالجتها والتعفية على آثارها ..

وجمهور لسمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمارين الرومي والنجوسي، ولعله أشرف قتال عرفته الدنيا، ولكنه يشعر بغضاضة وألم لما أعقب تلك من قتال داخلي بين لسمين أنفسهم كانت له آثار بعيدة المدى على حاضرهم ومستقبلهم ..

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن علي بن أبي طالب - الخليفة الرابع - كان إمام حق ، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسه وحصيلته في خروجه على علي .. وشاء الله أن يكسب معاوية هذه المعارك ، ومن ثم تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض في بني أمية ..

ومع أن هذا التحول كان هزيمة للحق ، وضربة موجعة للمثل العليا إلا أنه من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه لما يأتي :

( أ ) إن الخلاف أو الملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاهم للإسلام .. وأن التغيير في أشخاص الحاكمين لا يعنى التغيير في القوانين أو الأهداف الإسلامية ، ومن أجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجى ، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة ، ما لم يمسوا سلطانهم في الزعامة ..

( ب ) إن العلم الدينى مضى في طريقه بوسع الأفاق وبربى الجماهير ، وبقر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية ، أى إن الإسلام الشعبى مع ازواره من السلطةبقى قديراً على الاستداد والتأثير ..

( ج ) مع أن الدولة كانت عربية ، تنصب لجنسها فإن الجماهير والتعاليم الإسلامية وحدها ، وألفت قيادها في أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربين من الأعاجم! ..

وأجدنى هنا مسوفاً لتوكيد حقيقة مهمة : إن الجنس العربى له خصائص رفيعة رشحته لظهور الإسلام فيه ، واختيار النبوة منه ، وهو إلى جانب ذلك جنس له نقائص منكرة مثل الاعتزاز بالنفس إلى حد السخف وازدراء الحرف من فلاحه وصناعة ، والحرص على الإمارة ولو بطريق ألف والخلف ..

وقد أفاد الإسلام من خصائصه ، وخبر من نقائصه ، ومن أجل ذلك نريد أن نضع فواصل بارزة بين التعاليم الإسلامية والتقاليد العربية ، فإن الأخيرة غلبت الأولى في مجالات كثيرة .

إن أسرتين عربيتين احتكرتا في ذرايعهما مهام الخلافة العظمى بضعة قرون إلى أن سقط الإسلام بحكامه هؤلاء تحت وطأة التتار في بغداد ، وتحت وطأة الصليبيين في الأندلس .. بآى منطق وقع ذلك؟ ..

إن دينا عالمى الشرائع والشعائر لا يحتمل هذا السفه !

وجاء العثمانيون ففعلوا العرب ! ولماذا يكون عثمان التركى أقل من حرب أو هاشم المولودين فى بطحاء مكة ؟ لقد بقيت هذه الغلظة حتى أنزلت لواء الخلافة عن الأستانة وحلت بالإسلام نكبة هائلة مهينة ..

وأرى أن الروح القبلية عند العرب كانت من وراء هذا الانحدار كله ، قديمه وحديثه .. وعلى العرب أن يحترموا الإسلام ، وليس على تعليم الإسلام أن تلبس للتقليد العربية . والعرب - مع بعض الأم القديمة - كانوا يؤخرون المرأة ، ويضيّقون بالأنثى ! كان الهنود يحكمون على الزوجة أن تنتحر بعد وفاة زوجها! وكان عرب كثيرون يبدون البنت بعد ولادتها ..

وجاء الإسلام فأعلن حرباً شمواء على هذه التقاليد الهمجية ، إلى أن رد للمرأة كرامتها ، وصنّ حقوقها المادية والمعنوية ..

لكن الاستهانة بالأنوثة بقيت كامنة فى النفوس ، تتشن تقاليد ومحو أخرى حتى كادت تعاليم الإسلام تطوى وتحل محلها التقاليد العربية الأولى ..

وظهر ذلك أول ما ظهر فى حرمان المرأة من التعليم ، ومن حرمانها من غشيان المساجد ، ولصلاة فى الجماعة ، وقد وازنت بين النصوص الواردة والشرح المصاحبة لها فأريت النقائص المضحكة ..

جاء فى الصحاح عن أم عطية رضى الله عنها قالت : أمرنا رسول الله ﷺ فى الفطر والأضحى أن تخرج العواتق - الشواب البالغات - والحائض ، وذوات الخدور - المكنونات فى الأستار - ولكن الحائض يعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ! قلت : يارسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ! قال : لتلبسها أختها من جلبابها .. أى تستعير من إحدى المسلمات جلباباً وتخرج لتشهد الجماعة ..

قال صاحب التاج ، الجامع للأصول فى أحاديث الرسول : هذا كان فى مسالف الزمان! .. أما الآن فلا يجوز خروجهن لما هن عليه من زيادة التبرج ، إلا العجائز إن كان لهن مكن خاص ..

وصاحب لئاج غفر الله له يتابع فى هذا الحكم علماء السنة من قبله ، فإن شروحهم غالباً لا تخرج عن هذا المعنى ..

والواقع أن "للك الشراح يذهبون بعيداً عن مراد الرسول ﷺ ، وتحرفهم التقاليد العربية ، فينسجون بها أحكام الشريعة ، ومقررات الدين ..

وفى حديث جابر - وهو فى منتهى الصحة - أن امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين ، استنهمت من الرسول عن بعض ما قال فى خطبة العيد .. والسفعاء الحمراء وزنًا ومعنى ، أو التى فى حمرة خلودها سمرة ! ..

وظاهر أن للردّة كانت سافرة الوجه دون حرج ، وهذا أمر يارى فيه المتعصبون لبعض التقاليد الموروثة .. أما تعاليم الإسلام فموضع نظر ؛ لأنها تتخالف ما ألفوا من تقليد ..

ومن النكسات التي أصابت جماعة المسلمين ، وأوقعت قواهم من قدم ، انفصال الحكم عن العلم ، وسير كل منهما في مجرى اختصاص به ، لقد كان الخلفاء الراشدون حكماً وفقهاءً متاً .

ولست أهنى بلفظه الاستعجال في تفاصيل العبادات وفروع الأحكام كما يتصور الناس ، كلا .. كلا .. إنما أهنى بالعلم إدراك الأصول والغايات العظمى لدين الله ، وإدراك ما يدعمها من حجج وما يشين غيرها من شبه ، والقدرة النفسية على الفرس والحصاد ، والكبر والفر ..

إن المرء ليفوض في بحار الخيرة عندما يرى كرافة العالم النصراني يختارون أديانهم وأذكارهم وأجلهم على خدمة الدين ، وعندما يرى معتنقى الشيوعية يختارون أقدمهم وأهمهم وأشجعهم على خدمة المذهب على حين يقود المسلمين على مر التاريخ رجل أعظم مؤهلاته أنه ينتمى إلى المأسوف على شابه أمية بن حرب! أو الصحابي المعروف عباس بن عبد المطلب <sup>(١)</sup> أو ابن الأناضول عثمان بن بيان! ..

إن أولئك الخلفاء لا ترضيهم مواهبهم الخاصة لمنصب ذي بال ، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله إلا ما يشجب هذا المنك ، بيد أن تقاليد العرب اعوجت بتعاليم الإسلام كرها ودفعنا في هذا الجرى .

ونشأ عن ذلك أن العلم بدأ يستوحش ، وقد كابر وقاوم واستمسك بحقه في الحياة مستمداً كفافه من تعاليم الإسلام ، وما بقى له من كرامة بين الجماهير ..

لكن العلم ، وأعنى الدين منه خاصة ، أخذ يتعثر ، وتقل وجاهته ، وانصرفت عنه كل الانصراف الطبقات الشريفة ، أو المرشحة للوظائف العليا ، ولم يبق على الوفاء له إلا بعض المخامرين بأولادهم في سبيل الله .. أو بعض الذين عز عليهم السير في ميدان آخر من ميادين المعرفة فرضوا بما لا يحجب عنه ، أو لا مفر منه ..

ومن انفصال العلم عن الحكم ورث المسلمون المعاصرون مشكلتين جديتين بالنظر العميق الأولى : هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب ، والأخرى : رداء الأوعية الحاملة للغة ، وطليها للدنيا تحت أقدام السبيلين .

(١) نحن نحب نبينا من أعماق قلوبنا ، وهو عليه الصلاة والسلام الذي شرح لنا سنن الخلافة الراشدة ليس لأحد من أسرته أن يحبسها في دونه بضعة قرون

## ٩٨. هل نجح الإسلام في تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل ؟

عندما قوت هذا السؤال أسرع بالقول : لماذا لا يوجه هذا السؤال إلى الدينين السابقين عليه من الناحية التاريخية؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه ، وفرض على العالم سمعته؟ ..

سكان العلم الآن أربعة مليارات ونصف تقريباً ، فيهم مليار مسلم ، ومليار نصراني ، ومليار وثى . ولباقى شيعيوناً ظلم هو الائتلاء الظاهر الذي يمكن إحصاءه ..

غير أنى أنظر في الإجابة من ناحية أخرى ، أن الإسلام لا يمثل نفسه عندما يفشل في سوق الأحياء جميعاً تحت لوائه! إنه يمثل الأديان كلها في الحقيقة ، فمعنى أنى مسلم أنى أؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأهدوه ، وأؤمن كذلك بعميسى كواحد من حواربيه الذين يحيونه ويتصورونه! كل ما هنالك أنى لأضم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين! إيماناً بوجع آخر هو آخ لها ومحبي لتعاليمهما ، رجل تلقى عن به هذه العبارة ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ <sup>(١)</sup>

فإذا لم ينجح أتباع محمد في بسط دعوته على الناس ، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسول جميعاً ! ..

هذا عند يكون النقص حقائق الرسالة الموعظة! أما إذا كان الرفض لسوء خلق العارض ، يفقدان نوعي الصحيح . من اللوم أو السؤال لا يوجه إلى الإسلام ، بل إلى الأمة لتنى أسامات البلاغ ، وضانت المبادئ التي تحملها! ويبدو أن ذلك هو المقصود من السؤال ..

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال يجب أن يصاغ على هذا النحو : هل نجح المسلمون في حزمة رسالتهم خلال سبوت أربعين عتير ، أم كان فشلهم أغلب؟ ..

ومع أنى شديد اللوه لأستى ، دائم لتفريق لها فإننى لا أستطيع أبداً الزعم بأن





إليك ما كتبه «ستيفن ونسيمان» في الجزء الثالث من «تاريخ الحروب الصليبية» بعد ما شرح مفاوضات «ريتشارد» وتعتت مفاوضاته قال : أضحى «ريتشارد» حربيا على أن يقادر عكا وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له ثم أشرح صدره للخلاص منهم بعد ما دبر اعتذارا رآه مقبولا ، قال : إن صلاح الدين نقض عهده معه ، ومن أجل ذلك فقد أمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ ألفين وسبعمئة أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا! .. قال المؤلف : .. ولما شد حماس حاكمه للقيام بهذه الجزيرة ، وحمدا لله في جزل وسرور .. حسبما يروى المدافعون عن ريتشارد - فقد هيا لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة أثناء الهجوم عليها ، ولقى زوجات الأسرى وأطفالهم مصارعهم إلى جوار رجالهم! ..

ولم يبق الصليبيون إلا على بعض رجال يستفيدون منهم في أعمال السخرة ، وبعض الأعيان ، أما الباقون فقد فنوا جميعا ، وشهد المسلمون المراهطين في أقرب المعالق إلى عكا ما قد حدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم وأهلبيهم ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام فقد عجزوا عن الوصول إليهم ..

ولما انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تثار عليها من الجثث المشوهة ، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا ..

لندع هذا المشهد الكتيب ، ولنترك دلالاته البينة ، ولننتقل مع «ستيفن ونسيمان» إلى مشهد آخر ذكره في الجزء الثاني من كتابه بعد ما انتصر صلاح الدين في حطين .. قال : «وقبل صلاح الدين أن يضع شروط الصلح ، فعرض بأن يوسع كل مسيحي أن يفتدى نفسه ، على أساس عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودنانير للطفل ، وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة حوالي عشرين ألفا من الفقراء ، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغا إجماليا ، لاقتدائهم ورضى صلاح الدين بأن يقلل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألفا ، غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم ، فقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار وبناء على أوامر باليان ، ألقى العسكر السلاح . وفي يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ويوافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب ، الذي

يجرى فيه الاحتفال بعيد الإسراء ، حين أسرى النبي إلى بيت المقدس ، ثم ارتقى إلى السماء ..

والواقع أن للمسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الأن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه . إن صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين ، يطوفون بالشوارع والأبواب يمتنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي على أن يلمس المال اللازم لاقتدائه . وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الاقتداء . وقد ما ثلاثون ألف دينار . ولم يخرج الاستبارة والدواوية عن شئ . من أموالهم إلا بصعوبة ، ولم يحفل البيطريك هيئة الكنيسة إلا بأنفسهم ، ودش المسلمون حين رأوا البيطريك هرقل يؤدي عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة . وقد احتت فامته لنقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التي تحمل من حوزته من الخنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة . وبفضل ما تبقى من منحة الملك هنري الثاني ، تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء . وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الاستبارة والدواوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء . ولم يلبث أن تلقى من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين . ألف لأولئك الذين اقتدوا أنفسهم ، أو تم اقتدائهم بفضل جهود باليان . أما الطابور الثاني فشمع أولئك الذين لم يستطيعوا اقتداء أنفسهم ، ولذا توجهوا إلى الأسر . ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن ، ما حدثت في تلك العدة إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له ، فهوهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفور سراحهم . وقد ابتهج البيطريك هرقل لأن يلمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يعبه بعض الأرقاء ليعتقهم ، فينقل له صلاح الدين سبعمئة أسير ، كما جعل صلاح الدين لبيالان خمسمئة أسير . ثم أعز صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز . وما أقبل تدع عرج الثلاثين اتدبن أنفسهم ، وقد امتلأت عيونهم بالدموع ، فسألن صلاح الدين أن يكون مصيرهن ، بعد أن لقي أزواجهن أو أبائهن مصارعهم أو وقعوا في الأسر . أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن .

وبذل الأراميل واليتامى من خزائنه العطايا كلٌ بحسب حالته . والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أعمال الغزاة في الحملة الصليبية الأولى ..

إن الأمة الإسلامية - برغم تعاسة الظروف التي لبت بها - أرست قواعد خير كثير في هذه الحياة ، وما يبقى لها بعد معادلات الخلف والإضافة يزينها ولا يشينها ..

وأعرف أن خصوصها أصفق وجوها وأقدر على فعل التاكر ودفنها فلا تعرف ، وأجرا على تلمس العيوب للبراء ، والإصرار عليها حتى تثبت ..

وفي عصرنا هذا أمر رجل دين أحقق في غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعي ، فماتوا كلهم في صمت! ولو فعل شيخ مسلم واحد في المائة من هذه المسألة لدمغت الأمة الإسلامية بعار لاتقدر على الإفلات منه! ونسب للإسلام كل شر! ..

وما ننكر أن هناك منصفين صارحوا بفضل الأمة الإسلامية على العالم وآخر ماقروا لهؤلاء كتاب «شمس العرب تنطف على الغرب» لاستنافة للمانية طاهرة الذمة ..

صحيح أن المسلمين اليوم في أوضاع بالغة السوء! وصحيح أن فساد الحكم حقا طويلة من وواء هذا الانحدار ، بيد أن الأمة الجريحة لاتزال أنبل من قاتليها ، ولاتزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير ، وأحق بالتقدير ..

إن الذكاء الأناني في أوروبا وأمريكا سيجر الويل على أصحابها وقد يجره على العالم كله ، ما لم يرحمنا الله ..

## ٩٩. كيف تتصور مستقبل الإسلام في عالم الغد؟

حاضر المسلم ينقبض الصدر ، وقد يبعث على التشاؤم ولكنى واقع من أن هذه المحنة متنجلى كما ألمحت محن أخرى في أيام مضت ..

على أن الجيل المحن لا يشبه انقشاع السحب ، نرقبه ونحن مكتوفو الأيدي .. كلا ، لابد من عمل جاد ومعنى لاغب .. أو كما قلت في موضع آخر : لابد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقينا وخلقا ونشاطا وفكرا ..

أما مع لتناقض الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيرا ..

إن أعداء نفسية وعقلية أصابت كيانهم بشلل لا تعرفه أم أخرى ، وألحقت برسالتهم مهانة كبيرة .. أقول ذلك وأنا أقرا كلمات للمهندس ماهر أباطة وزير الكهرباء جاء فيها : إن قطاع الطاقة ظل يبعث منذ خمس عشرة سنة عن سر صناعة مئة معينة في المازلات الكهربائية دون جدوى فقد رفضت الشركات الأجنبية - نحو سبع شركات - أن تعطى أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصدر الوحيد له وحتى تبقيها وفق شروطها ..

قال خير : ثم تطوع العلماء الصينيون بإخبارنا أن المواد التي تصنع منها هذه المازلات موجودة في تربتنا ، وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشدونا إليها في بلادنا! ..

علماء لصين درسوا طبيعة أرضنا في البحر المتوسط إنني لم أدهش للمعبر .. لأنى لما نعت إلى «نواكشوط» عاصمة موريتانيا عرفت أن المياه التي تغذى العاصمة تأتي من آبار جوفية اكتشفها الصينيون ، وقاموا بمد أنابيبها إلينا ، لقد عرفوا وهم على المحيط الهادئ خيرات أرضنا على المحيط الأطلسي ..

قلت تسمى : إنني أعرض الدعوة الإسلامية كالأشياء ، وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملا .. وخامرنى حزن عميق ..

ومضيت أتابع ما قرأته في موضوع المازلات الكهربائية ففوجئت بأمر آخر ، لقد تكلم علم مصري هو الدكتور عصام حسن يقول : إن مادة الكولين التي تنتج العوازل خنوية موجودة في سيناء وفي كلابشة ، وإن إمكانات استخدامها قدمت

إلى الإدارة المصرية من سنين طويلة ، وهى إلى الآن حبيسة أدراج بعض الرؤساء ! قال : وإن العلماء الصينيين لم يعرفوا نبأ هذه المادة إلا من كتابات وبحوث العلماء المصريين التى نشروها فى الخارج !

لقد صدقت هذا التعليق ، وأدركت أن الحقنة ليست جهلنا ، وإنما هى تبلد بعض الرؤساء أو هى ما أشرت إليه فى إجابة سابقة ، انفصال العلم عن الحكم فى أغلب البلاد الإسلامية .

فالامر كما قيل :

إن كنت لا تدري فتك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم !

ويظهر أن هناك نوعين من الشلل الجزئى يقطع دورة الإحساس فى الكيان الإسلامى العام ، ويقعد الأمة عن أداء رسالتها الكبرى . . . ذلك لو بقى لدينا شعور باننا نحمل للعالم رسالة كبرى . .

إن الوهن الذى حل بالمسلمين دؤبهم ، وجعل أبصارهم عند مواطن أقدامهم . ولكى نطمع فى استماع الناس إلينا يجب أن نقول ما يعقل ! أو نعقل ما قيل لنا فى كتابنا ونكون نموذجاً حياً له . .

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقول بعض العلماء : الحاكم يقضى فى طريقه دون اكتراث بالشورى ؛ لأنها غير ملزمة له ؟ هل تخدم الفرعونية بأفضل من هذا اللغو . .

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقال فى حكومته : إنها حكومة الحزب الواحد ؟ . .

إن أرقام التجسس الأمريكية صورت الطائرة الكورية التى أسقطت قريباً من قاعدة عسكرية روسية ، ولا يزال بعض عمالنا يجارب التصوير بضراوة ، وبراء وثنية ! . . وبعضهم حكم بأن وصول الأمريكين إلى القمر خير أجداد ، لا يفيد العلم ، وأن الأمر إشاعة . .

ولترك هذا الهزل إلى أفة نخدش الفكر الدينى ! إن مناقشة السند أو التمهيص النظرى للحكم المروى أساس الحكم فى القضايا المعروضة ، أما ملاحظة الآثار الاجتماعية عند ترجيع اجتهاد على اجتهاد فلا يلتفت إليها . .

ومن هنا استبعد رأى ابن تيمية فى رفض الطلاق البدعى ، ورفض الآثار المترتبة عليه . .

واستبعد رأى أبى حنيفة فى أن المسلم يقتل فى الذمى أو أن المرأة تباشر عقدها ، وكان العمدة عند المستبعدين مجرد النظر فى قواعد الاستدلال ، أما استقصاء الأبعاد الاجتماعية لهذه الأحكام الفرعية العملية فلم يرد على البال . .

ونحن لا نهون من قيمة الاستدلال فى القضايا الاجتماعية ، وإنما ندعو إلى احترام التقاليد المستقرة فى بيئات كثيرة مادام لا يصادمها نص ، كما نرفض التشبث باجتهاد ما إذا كان يعوق سير الدعوة الإسلامية ، فلا وزن لاجتهاد فرعى يعترض انتشار الأصول والأركان . .

وإذا رأينا أن الأوروبيين يقبلون الإسلام لو سمحنا للمرأة بالقضاء فى الدعاء والأغراض . . وولاية الماصب العامة فليدخلوا فى الإسلام ! وليعلموا بمدى ابن حزم ! ليس ذلك خيراً لنا ولهم ؟ .

وقد أمسى الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة بعد ما اقتحمت دار الإسلام من أقطارها ، ومن أبجديات الجهاد العلم بكل ما أودع الله من قوى فى أرجاء البر والبحر والجو ، إن هذا العلم الضرورى يسبق علوماً كثيرة ظهرت أيام الشرف والتفوق ، بل لقد أمسّت علوم اللغة العربية من فروض المعين على المثقفين ، بعد ما تدرجت هذه اللغة ، وأسقطت مكانتها عن عمد . .

ومن التفق أو الجبن شغل المسلمين بنوافل علمية أو عملية قبل استكمال الفروض المهمة . .

بناء الأمة الإسلامية من جديد يفرض على الساسة والدعاة والفقهاء أن يعنوا النظر ، ويطلبوا التفكير ، وأن يحاربوا بجهد متساو الغزو الثقافى الواقع من الخارج والانحرافات الكثيرة المتوارثة من الداخل . .

وللأخلاق قصة لا يجوز إغفالها . . هناك أخلاق تنشأ من حسن معرفة الله . . أو من صلح عقيدة التوحيد ، أبحت عنها فى سلوك خاصة وعامة فلا أجدها . .

هل أستطيع وصف رجل يخاف الناس ولا يخاف الله ، ويستغنى عن الناس ولا يستغنى الله ، ويتوكل على الناس ولا يتوكل على الله ، هل أستطيع وصف هذا المخلوق بأنه مسلم ؟ !

وهناك جملة أخلاق تقوم على نحو النفاق وتركيز السرية وتضيق بها الأعمال والأحوال ، نبيه إليها النبي العظيم الذي قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، إنه أحصى أمارات النفاق في الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة ونكث العهد والفتور في الخصومة! ماذا يقول المسلم ؟ .. إذا كانت مجتمعات أخرى أحوص منا على الصدق والأمانة والوفاء والسماحة ؟ ..

ولقد رأيت نظافة القرى والمدن في أم شتى ، ورأيت النظام الصارم يشيع بين مشائنا وركابها وأقيمت نظرة خاطفة على بلادنا ثم شعرت بقصة ..

لا أخرى ماذا حدث لنا؟ إتنا غوت ونميت ديننا معنا !  
ورأيت عمالاً يكرهون الإقتان ، وموظفين يكرهون الخدمة العامة ، ورؤساء يشعرون مركبات النقص أو عقد الوضاعة وينظرون إلى الجماهير من أعلى .. وهم ألكهم وعشيرتهم ..

إن قضايا الأخلاق أخطر من قضايا أخرى لاسيما والخلق عندنا يتركز على الإيمان بالله ، ولا يتركز على فلسفات بشرية أو مادية ، وذلك يعني أن هدم الإسلام - وهو دين أكثر من تسعة أعشار العرب - لا ثمرة له إلا ضياع الأخلاق بقيتنا ..  
وعندما يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ۝۱ ﴾

فلا تنتظر عدالة ، ولا شهادة نفية من شخص خرب القلب! والواقع أن الذين ينتفضون الإسلام ويعيشون بشعائره يهزون الأخلاق هنا ، وينشئون أجيالاً لا تصلح في حرب ولا سلام ..

وليس بقائمة بيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً! ..

يجب أن تقوم للإسلام أمة تعمل به ، وتعطي صورة صادقة له .. ومن السفاهة تكليف العالم أن يدرس الإسلام مجرداً من سيرة معتقيه .. وتعميله مشولية فلسفية عن كفره وإيمانه بعد تلك الدراسة العجيبة ..

وأرى أن الصحوة الإسلامية للعاصرة مكلفة بتكوين هذه الأمة الجديدة ، وإنصاف رسالة الإسلام من هذا البلاء ..

ومع غم هذا التكوين نعرض أنفسنا على ساكني القارات المعمورة ، واعتقادي أن التجاح سيكون حليفنا ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، وللحقيقة سائها وإغرائها ، وقد سئم الناس ما صاحب الحاضرة الحديثة من جفاف وإباحية ، ومن شره ووحشية ، ومن بعد عن الله وكفر بلاقته ..

وفي حقائق الإسلام ، وشعب الإيمان الجامعة الجلية ما يغنى ويستحق كل حقافة ..

وفي لقاى بعض الكبار الذين أسلموا رأيت أن الجانب العاطفي من الإسلام هو الذي اجتذب الانتباه ، أو للمطلق العقلي للقرآن الكريم ، أى أن القوم ينشدون ما ينقصهم ..

وهنا ألفت النظر إلى أن بالإسلام أصولاً صلبة ، وقروعا مرنة ، وفيه أقوال وأراء نسبتها إلى الناس أقرب من نسبتها إلى رب الناس ، والدعاة الراشدون يعرفون واجبههم بإزاء هذا كله ..

وأخشى أن يذهب داعية ليطعن في قانون السببية ويزعم أن النار لا تحرق بحرهما ، وأن السكينة لا تنقطع بعدها ، كما هو مقرر في كتب الكلام عندنا ..

أو ليذهب آخر ليقول : لا تقيدوا الحاكم بالشورى ، فليس يجب عليه ذلك ..

أو يذهب آخر فيقول : لا بد من ضرب النقاب على وجوه النساء وحبسهن في البيوت أغلب العمر ، فلا تتعلم ولا تعبد ولا تمشى في الأسواق ..

إن أصول الإسلام ومعاهد العبادات والأخلاق هي التي يدعى إليها ، والناس يتخبرون بعد ما يعجبهم من تفسيرات ووجهات نظر ..

وفي رأيي أن النموذج العلمي الذي يقدمه المسلمون هو الأساس الأول لنجاح الدعوة ..

ثم إن الدول الإسلامية الكثيرة يجب أن تتقارب وتوحي الحدود بينها ، ولا بأس أن يبدأ ذلك بأسواق مشتركة أو بتكوين اتحادات إقليمية كما تم بين دول الخليج ، ودول وادي النيل ، وما يقترح بين دول المغرب الكبير .. على أن يكون الهدف الأهم تجميع المسلمين كافة في كيان واحد ، أو جد روحه الإسلام ..

## ١٠٠. إلى أى مدى يمكن أن نقبّس من هذه الحضارة المعاصرة؟

كان رجال التعليم والتربية فى اليابان أبقاظًا عندما اتصلت بلادهم بأوروبا فى القرن الماضى ، أو قل : كان حراس التقاليد الموروثة صاحبين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعى الغربى ، فقد أعدوا الكل جديد بقبّس مكانه فوق أرضهم ، ومساحته المادية والأدبية التى لا يعدوها ، وهمنوا بصير حاد على الآثار المتوقعة حتى لا تغفل من أيديهم ، أو تتحرك بعيدًا عن خطتهم المرسومة ..

ومع التزام هذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح ، فانقلبت الصناعات الغربية إلى اليابان ، ولم يتحول اليابانيون إلى أوروبيين فى عقائدهم أو لغتهم أو أديابهم وأخلاقيهم ..

إنهم فعلوا ولم يفعلوا وقادوا ولم ينفادوا ..

وكانت هناك أديان بينها فجوات ، البرذية من ناحية ، والشنتوية من ناحية أخرى .. والأشياء المخلصون تنقسمهم وجهات نظر شتى ، ومذاهب فقهية كثيرة - إن صح التعبير - بيد أن لونا من المعاشة السلمية فرض نفسه على الجميع فإذا اليابانيون كلهم دون حسابات دينية يتعاونون على إنهاض بلدهم ورفع لوائه ، وهم ما أرادوا ..

إن للنجاح الحقيقى أساسًا لا يتغير .. هو النفس الإنسانية ، فإذا استقر هذا المهاد لم يبق شئ ، ذو بال ، وقد كان محمد ﷺ أعرف إنسان بهذه الحقيقة ، فاجتهد جهوده كلها قبل أى شئ إلى داخل الإنسان تصوغه وتضبطه وتعلمش إلى قراره ومساره ، وهو يعرف أن هذا الإنسان سوف يفرض نفسه على بيته يومًا عندما تنزاح القواقي من أمامه ..

ولم يحاول قط الاصطدام بالأسلحة الخارجية قبل استكمال هذا الداخل المهم .. ومن ثم ترك الأصنام منصوبة حول الكعبة عشرين سنة ، لم يهشم واحدًا منها فى معركة طائشة ، بل الثابت فى سيرته أنه طاف فى عمره فى السنة السابقة حول الكعبة والأصنام جامحة حولها ، وفى الأوضاع التى كانت عليها من بدء الدعوة ..

أكان تلك بقيا عليها ، أو توفيقًا لها؟ .. كلا .. لقد كان يعلم أن لها أجلا لا ويب فيه ، وأنها عن قريب أو بعيد ستحول جذافا ..

ومن الذى يقوم بهذا التحول الحاسم؟ الرجال الذين استناروا من الداخل ، وتربوا على التوحيد الحق ..

لقد عرفوا أن الذباب أقوى من هذه الأصنام ، وأنها لا تثبت فى معركة معه .. ألم يتلوا قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ احْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْزِدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١)

فليتربصوا بهذه الأصنام يومًا لا ويب فيه دون استعجال ، وليهشموا بداخلهم يتمهونه وهو الوجود الأتى مع الغد ..

ويتسئله أناس : ما هذا التعهد الشاغل المهم؟ ونقول : هو تعهد الوعى ليكون صحيحًا .. والباطن ليكون نظيفًا ، والخلق ليكون عظيمًا ، والإخاء ليكون وثيقًا ، والهدف ليكون واضحًا .. فالألم لا تبنى بالصور وإنما تبنى بالحقائق ..

إن المتفكرين أحسن الناس للمراسم ، وقلوبهم هواء .. أما المؤمنون فإن نضج نفوسهم : بركة سرائرهم ، هما سر عظمتهم ، وسر مال الأمور إليهم ..

ولا يعرف فى تاريخ الهداة رجل مثل محمد ﷺ أحسن صنع النفوس وإيقاظ ملكاتها .. إنها بأعظم ما فيها من ضافة ، وجعلها تدع ولا تدع ، وتؤثر ولا تتأثر ..

فهل حن الدعاة المتمتعين إليه نفهم هذا المنهج .. ونلتزم منطقهم ؟؟ .. إن الوجهين اليابانيين كانوا أذكى منا وأقدر فى مواجهة لمشاكل وهزجة الصعاب ..

نظرت بحسرة إلى «الخلق الفردى» فى الإفادة من لتقدم لصناعى لعالمى ، ما هذا؟ هذا شباب يغود سيارة فارهة ، تهيب الأرض نهبًا ، ينزل منها بأناقة وكبرياء ، ويرفق الشارع بنبرة استعلاء ، يشتري بعض السلع ثم يتخطى سيارته ويمود من حيث جاء ..

إنه من : من الناحية الإنسانية شيئًا عن الأيام التى كان سلفه يمشى فيها حافيًا أو متعلا .. وما تشرف به أمته ولا أسرته ..

وهذا عامل قائم من وادى النيل ماذا حمل إلى وطنه؟ فديود! إن المسكين جمع عرق جيئته وارهاق أعصابه في هذا الجهاز المسلى، وسبحم له منتصب القائمة والهامة لأنه أصبح به رفيع مستوى، وما درى للمسكين أنه بما يحمل نقص وما زاد ..

العرب في الحضارة الحديثة شعوب مهتلفة تنافس الدول الصناعية على إلهاها بالأدوات البراقة والمخترعات الريحية .

والدعاة لا يدرون كيف يستغلون أمتهم المخروبة من هذه الأوضاع القاتلة ؛ لأنهم لا يتجهون إلى داخل الإنسان المسلم ، يحركون ماتوق من أجهزته ، وينثرون ما أظلم من مصابيحهم .. إنهم يتحركون نحو الظاهر القريب أو تحته بقليل ..

إن قدرة أمة ما على الصدارة في الأرض ، أو توريث أمة ما قيادة العالم كما يعبر القرآن الكريم ، لا يجهى بين عشية وضحاها ، ولا يتم بخصائص سهلة ، لا أن له صلاحيات معينة أوما إليها الوحي في قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١)

لا تظن للمدى قريباً بين ماضيه القرن الكريم عن ذل بنى إسرائيل قديماً ، وبين تمكينهم في الأرض بعد ذلك . عندما توعد فرعون قوم موسى ، وجاء على لسانه .. ﴿ سَتَقْبَلُونَ أَتْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نَسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَرْقَهُمْ فَأَهْرُونَ ﴾ (٢) . قال موسى لقومه : ﴿ اسْتَبِقُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْعَاقِبَةُ لِمُتَّيْنِ ﴾ (٣) .

ومرت السنين ، وتغيرت الأوضاع ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (٤) إن ذلك كله لم يتم في أيام قلائل ، إنه استغرق عشرات السنين ، حتى أمكن وفق سنن الله الاجتماعية أن يزيق العبيد أخلاق السيادة الحقيقية ..

والواقع أن العرب أيام البعثة تعهدتهم بالصل والتعذيب يد صناع ، ومضت بهم في طريق المجد نبوة ملهمة ، نبوة حولت الماء والطين إلى أزهار ورواحين ..

نعم إن الإسلام حول العرب إلى ربايين بعد ما كانوا شياطين ، وجعلهم غاذج تحتذي في ميادين العبادات والمعاملات ، فكانت قيادتهم خيراً وبركة وكانت فتوحهم الفكرية والفروحية أندى وأجلى من فتوحهم العسكرية أخارقة ..

(١) الأنبياء : ١٠٥ . (٢) الأعراف : ١٢٧ . (٣) الأعراف : ١٢٨ . (٤) الأعراف : ١٣٧ .

وعندما سقطت القيادات القديمة من الفرس والروم لم يبكها أحد ، لم يتخلف عن سقوطها فراغ يحاول الآخرون ملأه بل الذى حدث أن الشعوب تنفست الصعداء ، ورأت أن ما جد في ربوعها أبلى بالتقدير والاحترام ، أو أولى بالرعاية والحماية .

لكن حرب اليوم على غرار آخر ، ودعك من التخلف الصناعي والحضارى ، ولننظر إلى نضاي اجتماعية وأخلاقية هي من صميم حياتنا الداخلية ..

ما تقاليد الزواج عندنا؟ هناك أعراف متبعة أن قبيلة دون قبيلة .. وأن أسرة أعرق من أسرة .. وأن مكانة امرئ ما تتبع من نسيه .. وقد ساند هذا السلوك الجائر تفكير فقهي يؤكد أن المرأة من بنى أمية أو بنى هاشم لا يرقى إلى مستواها الرجل من عرق آخر ..

أليست هذه هي التفرقة العنصرية التي جاء الإسلام لحوها؟ هل نستطيع تصدير هذا التفكير إلى العالم؟ وهل نكون صادقين مع الله عندما نزع أن ذلك دينه؟ .. وهل يقبله أهل الأرض منا؟ ..

وفي أقطار كثيرة رأيت الشباب يثن من غلاء المهور ، وأحسست أن العواقر هائلة دون الحلال وأن المغريات كثيرة نحو الحرام ، فهل هذا المعجز في علاج أهم الغرائز البشرية يعد نصراً إسلامياً ، وهل رسالة أمنا الاجتماعية تصعب الطيبات وتيسر الخبائث ، وهل يهش العالم لتقاليدنا تلك؟ ..

ولا أمضى في سرد أمثلة لتعثر قضايانا الاجتماعية ، وإنما أمد البصر لقضايانا الخلقية التي لن نستورد لبعثها خيراء أجنب ..

شكالى شاب ناشئ موهوب ، وعورة الطريق أمامه ، نقلت له ياتسا : امض بواهيك إلى الامام دون انتظار عون من أحد .. بل توقع الكيد والصد لأن البيئات التي نعش فيها لا ترحب بالموهوبين ، ولا تؤتي كل ذى فضل فضله .. لا كرامة ، أو مغلوبة ..

أغلب الناس يعيش داخل قوقعة من نفسه ومآربه ، وقلما يلتفت إلى الآخرين ليسدى عوناً ، أو يقدم يداً ..

والطريقة التي يدرسون بها الدين لا تعين على زكاة النفس وسنائها ، فالأجرب عندما يرتدى ثوبا غالياً جميلاً قد يستر علة حيناً ، بيد أن ذلك لا يشفى سقامه . هكذا ترى لذين يؤدون مراسم العبادات ، ولا يهذبون أنفسهم ..

الفارق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان يتحرك بدوافع حاجاته الخاصة ولا يحس إلا ذته ! أما الإنسان فالمفروض أنه يحيا في مجتمع له ضوابطه وأدابه ،





## المفهرس

- مقدمة ..... ٣
- ١ - ما الإسلام ؟ ولماذا سمي كذلك ؟ ..... ٥
- ٢ - لماذا كان الإسلام خاتم الأديان ؟ ..... ٩
- ٣ - هل يستطيع الإنسان السوي الرشيد أن يعيش بلا إسلام ؟ ..... ١٢
- ٤ - كيف بنى الإسلام على خمس ؟ وما هي ؟ ولماذا خمس بالذات ؟ ..... ١٦
- ٥ - ما مكان التصوف في الإسلام ؟ ..... ٢٠
- ٦ - ما موقف أهل الكتاب في الإسلام ؟ ..... ٢٤
- ٧ - هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب السابقة ضروري في الإسلام ؟ وما حكمة ذلك ؟ ..... ٣٠
- ٨ - ما مفهوم الإسلام عن الحياة والموت ؟ ..... ٣٥
- ٩ - ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء ؟ ..... ٣٩
- ١٠ - ما البرزخ ؟ وما دلالاته في الإسلام ؟ ..... ٤٣
- ١١ - ما طبيعة الجزاء الأخرى ؟ هل هو روعي أم مادي ؟ ..... ٤٧
- ١٢ - ماذا عن القضاء والقدر ؟ وكيف نوفق بين الآيات التي تدل على أن الإنسان مختار والآخرى التي تدل على أنه مجبر ؟ ..... ٥٢
- ١٣ - ما دور المسجد في الإسلام ؟ ..... ٥٧
- ١٤ - لماذا كانت الصلوات خمساً في اليوم ؟ وما هو شكل الصلاة المقبولة ؟ ..... ٦١
- ١٥ - ماذا يرمز إليه الرضوء ؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به ؟ ..... ٦٥
- ١٦ - ما حكمة الحج ؟ ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهي بناء من حجر ؟ ..... ٦٩
- ١٧ - ما هي دار الحرب ؟ وما هي دار الإسلام ؟ ..... ٧٣
- ١٨ - ما حقيقة الحرب والسلام في الإسلام ؟ ..... ٧٧
- ١٩ - لماذا حمل الرسول السيف ؟ ولم يكنف بالإقناع ؟ ..... ٨٢

- ٢٠ - هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة ؟ ..... ٨٦
- ٢١ - هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة ؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها ؟ ..... ٩٠
- ٢٢ - ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطاً ؟ ..... ٩٤
- ٢٣ - كيف بينى الإسلام الأمة المسلمة ؟ ..... ٩٨
- ٢٤ - كيف بينى الإسلام المسلم القوي في مواجهة متغيرات العصر ؟ ..... ١٠٢
- ٢٥ - لماذا كان الحل الإسلامي لمشاكلنا هو الأفضل والأمثل والأخف ؟ ..... ١٠٧
- ٢٦ - ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل والنفس والمال ؟ ..... ١١٢
- ٢٧ - ما دور الإسلام في ترشيد الضمير الإنساني ؟ ..... ١١٧
- ٢٨ - ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة في بعض الحضارات ؟ ..... ١٢١
- ٢٩ - ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة ، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها ، كالرسم والنحت والتصوير ؟ ..... ١٢٥
- ٣٠ - كيف أعزى الإسلام حقوق الإنسان ؟ ..... ١٣٠
- ٣١ - هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامي وحده أم تجاه المجتمع البشري كله .. وكيف ؟ ..... ١٣٤
- ٣٢ - ما تأثير لقرآن في الفكر الإنساني ؟ ..... ١٣٩
- ٣٣ - كيف ، وبماذا ، وقع النسخ في القرآن ؟ ..... ١٤٤
- ٣٤ - هل الاستدلال القرآني في قضية الألوهية على الوجود أم على التوحيد ؟ ..... ١٤٩
- ٣٥ - ما أهمية القصص في القرآن ، وهل لها أصل تاريخي ، وما الحكمة في تكررها ؟ ..... ١٥٤
- ٣٦ - ما تفسير الآيات التي قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفاً مادنياً ؟ ..... ١٥٩
- مثل ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً﴾ ..... ١٥٩
- ٣٧ - كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السموات سبع والأرضين سبع مع حقائق لعلم التي ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء ؟ ..... ١٦٣

- ٣٨- هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك؟ وكيف تم جمعه؟ — ١٦٧
- ٣٩- ما الفارق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي؟ — ١٧٢
- ٤٠- ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟ — ١٧٧
- ٤١- هل الصورة التي رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ — ١٨١
- وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»؟ — ١٨١
- ٤٢- هل يؤخذ القرآن بنصه، أم على أساس الظروف التي نزلت فيها آياته؟ — ١٨٦
- ٤٣- ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟ — ١٩٠
- ٤٤- ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير، على ضوء ما يحدث في الدول المتقدمة التي تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط؟ — ١٩٥
- ٤٥- لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها أربعة، وما ضرورتها؟ — ١٩٩
- ٤٦- ما مدى حرية الفكر في الإسلام وكيف نوفق بينها وبين قتل المرتد؟ — ٢٠٣
- ٤٧- ما الاجتهاد، وهل هناك ضرورة لفتح بابه، ولماذا؟ — ٢٠٨
- ٤٨- ماذا عن تجديد الفكر الديني في الإسلام؟ — ٢١٣
- ٤٩- ما مكانة الفقه الإسلامي في الإسلام كله؟ — ٢١٧
- ٥٠- لماذا يجب أن يكون الفقه الإسلامي المصدر الأساسي للتشريع؟ — ٢٢١
- ٥١- ما معنى الإجماع؟ وما مكانته في الإسلام؟ — ٢٢٧
- ٥٢- ما نظام الحكم في الإسلام؟ وهل الأمة مصدر السلطة فيه؟ — ٢٣١
- ٥٣- ما المعالم الأولى للدولة الإسلامية؟ — ٢٣٦
- ٥٤- ما مدى تقبل الإسلام لأسس الدولة الحديثة؟ — ٢٤٠
- ٥٥- كيف يقيم المسلمون دولة إسلامية واحدة؟ — ٢٤٤
- ٥٦- يوغل الناس من الحكم الديني، وعودة الخلافة! فهل هناك ما يدفع هذا الوجه؟ — ٢٤٨
- ٥٧- متى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ — ٢٥٢

- ٥٨- ما الضرائب في الإسلام، وما نظامها؟ — ٢٥٦
- ٥٩- كيف يحقق الإسلام التوازن الاقتصادي في المجتمع؟ — ٢٦٠
- ٦٠- ما موقف الإسلام من نظام المصارف الحالي، وما البديل الذي يقدمه؟ — ٢٦٤
- ٦١- ما هي حدود الكسب الحلال في التجارة؟ وكيف يضع الشارع حداً لأرباح التجار؟ — ٢٦٦
- ٦٢- ما دام الدين واحداً فلماذا تتعدد حركات التجديد وتكثر مناهج المصلحين؟ — ٢٧٠
- ٦٣- ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معينة؟ — ٢٧٥
- ٦٤- هل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن تقدم الولاء للإنسانية وتأخر الولاء للدين؟ — ٢٧٩
- ٦٥- أصحح أن الفتح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟ — ٢٨٣
- ٦٦- يدرس الآن في بعض الجامعات أن القومية العربية هي العامل الأول في نجاح الفتح الإسلامي وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة في هذا القول؟ — ٢٨٧
- ٦٧- ألا يمكن زخم الفجوة بين السلف والخلف حتى تستطيع الأمة رد الغارات المتابعة عليها؟ — ٢٩٣
- ٦٨- ما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان؟ — ٢٩٨
- ٦٩- ما معنى أن الله تسعة وتسعين اسماً وما مفزاها؟ — ٣٠٣
- ٧٠- هل من شر وجيز لأسماء الله الحسنى؟ — ٣٠٨
- ٧١- طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها، وقد يتمايلون أو يهتزون، فما حكم هذه العبادة؟ — ٣١٦
- ٧٢- لماذا أوصى الإسلام بصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة؟ — ٣٢١
- ٧٣- ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد؟ — ٣٢٦
- ٧٤- ما الحكمة في قيام الليل؟ وكيف يكون؟ — ٣٣٠

٧٥- كيف ، ولماذا اختيار الأذان للصلاة ، ولماذا لم يأت عن طريق الوحي

مباشرة ؟ ٣٣٥

٧٦- ما حقيقة الصوم وما حكمته ؟ ٣٣٩

٧٧- في المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للإسلاميين مقالات متباينة

أو متناقضة ! فلم هذا ؟ ٣٤٥

٧٨- ما موقف الإسلام من اختلاط الجنسين ؟ ٣٤٩

٧٩- ما موقف الإسلام من تحديد النسل ؟ ٣٥٤

٨٠- لماذا حرم الإسلام الخمر ؟ وما عقوبتها ؟ ٣٥٩

٨١- التدخين عادة شائعة ؟ فهل للدين رأى فيها ؟ ٣٦٤

٨٢- ما حكمه الزكاة ؟ وما نصابها ؟ ٣٦٨

٨٣- ما العلاقة بين الإسرائاء وبنى إسرائيل ؟ ٣٧٢

٨٤- لماذا كانت قبلة العالم فى أرضنا ؟ ٣٧٩

٨٥- هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق وجعلها نصف الرجل فى

الميراث والشهادة ؟ ٣٨٦

٨٦- ما موقف الإسلام من المرأة فى ضوء الأوضاع السائدة فى مجتمعنا ؟ ٣٩٣

٨٧- ما أبعاد النشاط الاجتماعى للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي ؟ ٣٩٨

٨٨- ما نظرة الإسلام إلى الأسرة ، وما عمل المرأة فى بنائها ؟ ٤٠٣

٨٩- يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة فما قيمة هذا الرأى ؟ ٤٠٨

٩٠- يرى البعض أن هناك ملكة فى عالم الغيب تتكون من الأظباب والأوتاد ... إلخ

تؤثر فى عالم الشهادة ، فما قيمة هذا الرأى ؟ وما مصادر المعرفة فى

هذه القضايا وأمنالها ؟ ٤١٥

٩١- لم حرم الإسلام لحوماً معينة ، وهل لذلك حكمه ؟ ٤٢٢

٩٢- هل توجد صحة إسلامية معاصرة ؟ وما أبعادها ؟ ٤٢٨

٩٣- ما مكانة العمل والعلم فى الإسلام ؟ وهل هما قاصران على العمل

العابدى والعلم الدينى ؟ ٤٣٤

٩٤- لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا ؟ وما موقفه الحقيقى

من هذه القضية ، وهل يجوز للمسلمين فى حروبهم مع أعدائهم أن

يعلموا أسرى الحرب رقيقاً ؟ ٤٣٩

٩٥- ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة ؟ وهل يمكن القول بأن

للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها ؟ ٤٤٥

٩٦- هل فى استطاعة الإسلام أن يقدم حلولاً للمشكلات الكبرى التى

تعانى منها الإنسانية اليوم ؟ ٤٤٩

٩٧- تم تفر النكسات التى أصابت الأمة الإسلامية بدءاً من الخلاف

الداخلى بين على ومعاوية حتى يومنا هذا ؟ ٤٥٥

٩٨- هل نجح الإسلام فى تحقيق أهدافه خلال تاريخه العلويل ؟ ٤٥٩

٩٩- كيف تصور مستقبل الإسلام فى عالم الغد ؟ ٤٦٥

١٠٠- إلى أى مدى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة ؟ ٤٧٠